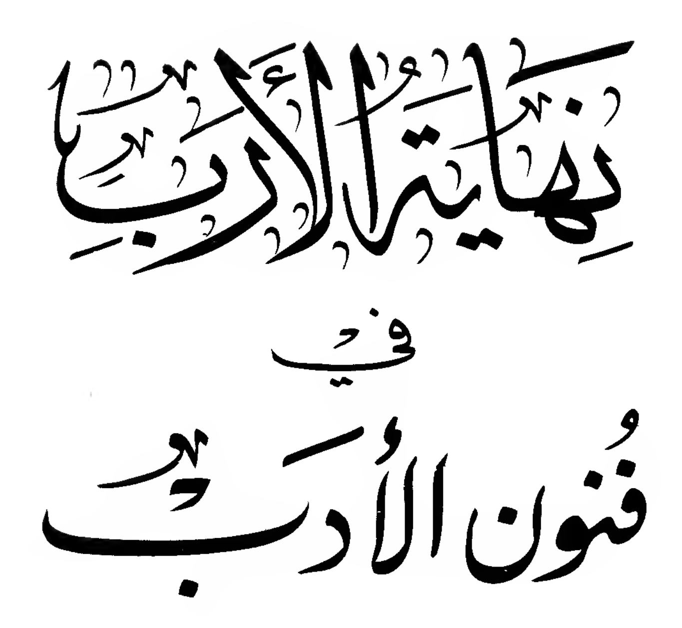


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثامن

تحقيق

الدكتور علي بو ملحم

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضلِ الأسعدِ محيي الدين[1] أبي عليٍّ عبد الرحيم ابنِ القاضي الأشرفِ أبي المجدِ عليّ بنِ الحسنِ بنِ الحسين بنِ أحمدَ اللَّخْمِيّ الكاتبِ المعروفِ بالبَيْسانيِّ - رحمه الله تعالى -

إليه انتهت صناعةُ الإنشاء ووَقفتْ، وبفضله أَقرّتْ أبناءُ البيان واعتَرفتْ، ومِن بحر عِلمِه رَويَتْ ذوو الفضائل واغترَفتْ؛ وأمامَ فضله ألقت البلاغةُ عصاها، وبين يديه استَقرّت بها نواها[2]؛ فهو كاتبُ الشرقِ والغربِ في زمانه وعصره، وناشرُ ألوية الفضل في مصره وغير مصرِه؛ ورافعُ عَلَم البيان لا مَحَاله، والفاصلُ بين الحق والباطل بغير إطاله؛ وقد أنصف بعضُ الكتّاب فيه، ونَطقَ مِن تفضيله بِملءِ فيه؛ حيث قال:

كلُّ فاضلٍ بَعدَ الفاضل فضْله، وكلٌّ قد عَرَفَ له فضلَه؛ وستقف إن شاء الله من كلامه على السحر الحلال، فتُرْوِي صداك[3] من ألفاظه بالعذب الزُّلال؛ فمن ذلك قوله: وافَينا قلعةَ نجم[4] وهي نجم في سحاب، وعُقابٌ في عِقاب[5]؛ وهامة[6] لها الغمامةُ عِمامه، وأَنْمَلةٌ إذا خَضَبها الأصيلُ كان الهلال لها قُلامه.

---

(١) القاضي الفاضل: هو عبد الرحمٰن بن عليّ بن السعيد اللخمي، وزير، من أئمة الكتاب، ولد بعسقلان في فلسطين وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ٥٩٦ هـ، له رسائل عديدة وديوان شعر. (الأعلام ٣/٣٤٦).

(٢) يشير بهاتين العبارتين إلى قول معقّر بن حمار البارقي، وقيل: الطّرماح بن حكيم:

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرّ عينًا بالإياب المسافرُ

(انظر تاج العروس: مادة «نوى»).

(٣) الصدى: الظّمأ.

(٤) في (وفيات الأعيان ١/٤٠٣): أنّ هذه القلعة يقال: إنها قلعة كولب.

(٥) العُقاب: بضمّ العين: طائر من الجوارح، قويّ المخالب أعقف المنقار حادّ البصر، ويُطلق على المذكر والمؤنّث، والعِقاب: بكسر العين: المراقي الصعبة من الجبال، مفرده «عقبة» بفتح العين والقاف.

(٦) الهامة: الرأس.

ومن رسائله ما كتب به إلى النظام أمير حلب: ورد كتاب المجلس السامي ـ حرس الله به نظامَ المجد وأطلق فيه لسان الحمد، ودامت مساعيه مصافحةً ليد السعد، وأحسن له التدبيرَ في اليومين: مِن قَبلُ ومِن بَعد ـ فمرحبًا بمَقْدَمهِ، وأهلاً بمنجمه[١]؛ والشوقُ تختلف وفود صُروفِه، وتتنوّع صنوفُ ضيوفِه؛ فلا بد أن تَتبعّض إذا تبعّضت المسافات، وتَبرُدَ وتَخمُدَ إذا عُبّدتْ[٢] ودنت الطّرقات؛ ولو بمقدار ما يدنو اللقاءُ على الرسول السائر، بالكتاب الصادر، والخيالِ الزائر، بالحبيب الغادر، والنسيم الخاطر، من رسائل الخواطر؛ وقد وجدتُ عندي أنسًا لا أعهدُه؛ وعَددتُ نقصَ البُعدِ أحدَ اللقاءين، كما كنتُ أعُدّ زيادةَ البعدِ أحدَ النأيَين؛ فزاده الله من القلوب حُظوة، ولا أخلاه من بسطِ يدٍ وقدم في حظٍّ وحُظوة[٣]؛ ووقفتُ على هذا الكتاب المشارِ إليه وما وقفتُ عنه لسانًا شاكرًا، ولا صرفتُ عنه طَرْفًا[٤] ناظرًا، وبلغتُ من ذلك جَهدي وإن كان قاصرًا، واستفرغتُ له خاطري وما أعُدّه اليوم خاطرًا؛ ومما أُسَرّ به أن يكون في الخدمة السلطانية ـ أعلاها الله ورَفَعَها، ووصَلَها ولا قطَعَها، وألّف عليها القلوب وجَمَعها، واستجاب فيها الأدعية وسمعها ـ من يكثّر قليلي، ويَشفِي في تقبيل الأرض غليلي، فإن تقبيلَ سيّدنا كتقبيلي؛ فلو شرب صديقٌ وأنا عطشانُ لأرواني، ولو آستضاء بلَمعة[٥] في الشرق وأنا في الغرب لأراني؛ كما أنّ الصّديق إذا مسّتهُ نعمةٌ وجب عنها شكري، وإذا وَصلتْ إليه يدُ منعم وصلْتني وتغلغلت إليّ ولو كنت في قبري.

ومنها: وأعود إلى جواب الكتاب، الأخبارُ لا تزال غامضةً إلى أن يشرحَها، ومقفَلةً إلى أن يفتحَها؛ بخلاف حالي مع الناس، فإن القلوبَ لا تزال سالمةً إلا أن يجرحَها، والهموم خفيفة إلا أن يرجّحَها؛ والحقُّ من جهته ما تحقّق، وما استَنطَق بشكرِ مَن أنطَق؛ وفي الخواطر في هذا الوقت موجودٌ يجعلها في العَدَم، ويُخرجُها من الألم إلى اللّمم[٦]، ويعادِي بين الألسنةِ والأسماعِ وبين العيونِ والقلم؛ وكلّما قلّت الحيلةُ المشكوكُ في نُجحِها، فَتَح اللّهُ باب الحيلة المطموعِ في فتحِها؛ وهي من فضل الله سبحانه والاستجارةِ بالاستخاره، فتلك تجارةٌ رابحةٌ وكلُّ تجارةٍ لا

---

(١) نجم النّجم: طلع وظهر.
(٢) عُبّدت: ذُلّلت ومُهّدت.
(٣) الحظوة: التفضيل أو الحظّ من الرّزق، والحظوة التي قبلها: المكانة والمنزلة وهنا جناسٌ تام بين الكلمتين.
(٤) الطرف: النظر.
(٥) اللمعة: البريق.
(٦) اللّمم: يريد هنا المقاربة من غير الشّعور به.

تخلو من خسارة؛ والله تعالى يَجمَع كلمةَ المسلمين على يد سلطاننا، ولا يُخلينا منه ومن بنيه حليِّ زمانِنا، وشُنوفِ[١] إيمانِنا، ويُسعدُنا مِن أكابرهم بتيجان رؤوسِنا، ومِن أصاغرِهم بخواتم أيمانِنا؛ ولو تفرّغت ٱلعزمةُ الفلانيّةُ لهذا الكلبِ العدوِّ فَترجُمَ كلبَه، وتكُفَّ غَرْبَه[٢]؛ وتذيقَه وبالَ أمرِه، وتطفىءَ شرار شرِّه، وتعجّلَ له عاقبةَ خُسرِه؛ فقد غاظ المسلمين وعضّهم، وفَلَّ جموعَهم وفَضّهم؛ وما وجد من يَكفي فيه ويكفُّه، ويَشفي الغليلَ منه بما يُشفُّه[٣]؛ ولو جَعل السلطانُ ـ عزّ نصرُه ـ غزوَ هذا الطاغية مَغْزاه[٤]، وبلادَه مستَقرَّ عسكرِه ومثواه، لأخذ الله الكافر بطَغواه؛ ولأَبقَى ذكرًا، وأجرى في الصحيفة أجرًا؛ ولأطفأ الحقدَ الواقد، بالحديد البارد، وغنِمَ المغنم البارد، وسدّد الله ذلك العزمَ الصادرَ والسهمَ الصارد[٥]؛ فلا بدّ أن يُجريَ سَيّدُنا هذا الذكر، ولو لما احتسبه أنا من الأجر؛ وما أورده المجلسُ عن فلانٍ من صَفوِ شُربِه، وأمنِ سِرْبِه؛ واستقرارِه تحت الظلّ الظليلِ السلطاني ـ جعله الله ساكنًا، وأحلّه منه حَرَمًا آمنًا ـ ومِن مُعافاتِه في نفسه وولدِه وجماعته، وأهلِ وَلائه ووِلايتِهِ، فقد شكرتُ له هذه البشرى، وفرحتُ بما يسّر الله ذلك المولى له من اليسرى؛ غير أني أريد أن أسمع أخبارَه منه لا عنه وبمباشَرتِه لا باستنابتِه، فلا عَرَفتُ مودّتَه مِن المودّات الكُسالى، ولا أقلامَه إلا بلُبسِ السواد ـ على أنها مسرورةٌ سارّةٌ لا ثكالى؛ وإذا قنِع صديقُه منه بفريضةٍ حَجيّة، لا تُؤدَّى إلا في ساعةٍ حَوليّة، فإن يبخَل بها ذلك الكريمُ فقد ٱنتحل الاسم الآخَر ـ أعاذه الله منه، وصَرَف عنه لفظَه كما صَرَف معناه عنه؛ وللمودّةِ عينٌ لا يَكحُلها إذا رَمِدتْ إلا إثْمِدُ[٦] مدادِ الصديق، وما في الصبر وُسْعٌ لصحبةِ أيامِ العُقوق بَعد صحبةِ أيامِ العقيق؛ وقد بلغني أنّ ولدَ المذكورِ نَزَع[٧] وتَرعرَع، ونفع وأينع؛ وخَدَم في المجلس السلطانيّ، فسررت بأن تَجمّعَ في خدمته الأعقابُ والذَّراري؛ والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمةَ جميعًا، ولا يُعدِمنا من يدِها سحابًا ولا من جنابِها ربيعًا؛ وقد فتح سيّدُنا بابًا من الأنس ونَهَجه، وأُوثرُ

(١) الشّنوف: الزينة.

(٢) الغرب: الأذى، يقال: سهم غرب: أي سهمٌ لا يعرف راميه، ويراد هنا بقوله: وتكفّ غربه: أي تكفّ سهامه التي يرمي بها وينزل الأذى.

(٣) يشفُّه: يحزنه.

(٤) المغزى: القصد.

(٥) السّهم الصارد: النافذ من السّهام.

(٦) الإثمد: الكحل، وهو عنصر معدني، قصديريّ اللون.

(٧) نزع: يقال: نزع فلان إلى أبيه: أي ذهب إليه وأشبهه في فعاله، أو هو من قولهم: نزع إلى عرقٍ كريم...

ألّا يُرْتجَه[١]؛ بمكاتباته التي يدُه فيها بيضاء، ويدُ الأيام عندي خضراء؛ بحيث لا يستوفي على الحساب، في كل جواب؛ وأنا في هذه الأحوال أوثِرُ العُزلةَ وأبدأ فيها بلساني وقلمي، وأتوخّى أن أشبّه حالةَ وجودي بعدَمي؛ فإني أرى مَن تحتَها أروَحَ[٢] ممن فوقَها، ومَن خرج منها أحظَى ممن أقام بها؛ وللمودّات مَقرٌّ ما هو إلا الألسنة، والقلوبُ قضاةٌ لا تَحتاج إلى بيِّنه.

وكتب جوابًا أيضًا إلى آخر وهو: وقفتُ على كتاب الحضرة ـ يَسّر الله مَطالبَها وجمّل عواقبَها، وصَفّى من الأكدارِ مَشاربَها، وحاط مِن غِيَرِ الأيّام جوانبَها، ووسّع في الخيرات سُبلَها ومذاهبَها؛ ووقاها ووقى ولَدَها، وأسعدها وأسعد يومَها وغَدَها؛ وجمع الشملَ بها قريبًا، وأحدث لها في كلّ حادثةٍ صُنعًا غريبًا ـ من يد الحضرة الفلانيّة ـ لاعَدمتُ يدَها ومدَّها[٣]، وأدام الله سعدها ـ وشكرتُ الله على ما دلّ عليه هذا الكتابُ من سلامة حَوزتها[٤]، ودوامِ نعمتِها؛ وسُبوغِ[٥] كفايتِها؛ وسألته سبحانه أن يُصحّ جسمَها، ويُمِيطَ[٦] همّي وهمَّها؛ فهُما همان لا يتعلّقان إلا بخدمة المخدوم ـ أجارنا الله فيه من كلّ هم، وأجرَى بتخصيصه السعدَ الأعمّ، واللّطفَ الأتمّ ـ وعرفت ما أَنعَمتْ بذكره من المتجدّدات بحضرتهِ، ومن الأمور الدالّة على سعادته وقوّتهِ؛ ولِلأمورِ أوائلُ وأواخر، ومواردُ ومصادر؛ فنسأل الله سبحانه أن يجعل العواقبَ لكم، والمصادرَ إليكم، والنعمةَ عندكم، والنُصرةَ خاصّةً بسلطانكم، والكفايةَ مكتنَفةً بجماعتكم[٧]؛ وقد قاربت الأمورُ بمشيئة الله أن تُسفِر[٨] وجوهُها، والخواطرُ أن يستروِحَ مشدوهُهَا[٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٣] وفي كلّ أقدارِ الله الخيرة، وفي حكمته أنه جعل الخِيرةَ محجوبةً تحت أستار الأقدار؛ وقد علم الله تقسُّمَ فكري لما هي عليه من المشقّات المحمولةِ بالقلب والجسد، والأمورِ الحاضرةِ في اليوم والمستقبَلةِ في غد؛ وهي في جانب الخير، والخيرُ يعمّ الوكيلَ لصاحبِه، ومَن أصلح جانبَه مع الله كان الله جديرًا بإصلاح جانبِه.

---

(١) رتج الباب: أغلقه.
(٢) أروح: أكثر راحة.
(٣) مدّها: مساعدتها.
(٤) حوزة الرّجل: ما في حيّزه.
(٥) السّبوغ: التمام والكفاية والاتساع.
(٦) أماط الهمّ: أزاله وأبعده.
(٧) مكتنفة بجماعتكم: كذا في الأصول، ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على أن «اكتنف» يتعدّى بالحرف، ولعلّه مضمّنٌ معنى الإحاطة، فعدّاه بالباء، أو لعلّه «مكتنفه لجماعتكم».
(٨) أسفر: وضح وانكشف.
(٩) المشدوه: المدهوش.

ومنه: وعليه السلامُ الطيّبُ الذي لو مرّ بالبهيم[١] لأشرق، أو بالهشيم[٢] لأورق؛ وكتبُها الكريمةُ إن تأخّرتْ فمأمولة، وإن وصلتْ فمقبولة؛ وإن أنبأتْ بسارٍّ فمشهورة وإن أنبأتْ بشرٍّ فمستورة؛ وخادمُها فلانٌ يخدُم مجلسها خدمةَ الخادم لمخدومِه، ويكررُ التسليم على وجهه الكريمِ المحفوفِ مِن كلّ قلب بحبّه، ومن كلّ سلامٍ بتسليمِه.

وكتب أيضًا: وصل كتابُ الحضرة ـ وصل الله أيّامَها بحميد العواقب، وبلوغِ المآرب، وصَحِبتِ الدهرَ على خير ما صَحَبه صاحب وأنهضَنا بواجب طاعته، فإنه بالحقيقة الواجب ـ وكلُّ واجبٍ غيرِه غيرُ واجب ـ مِن يدِ فلانٍ، فرجوتُ أن يكون طليعةً للاقترابِ، ومبشِّرًا بالإياب، ومخبرًا بعَوْدِها الذي هو كَعَوْدِ الشباب لو يعود الشباب؛ وأعلَمَني من سلامة جسمها، وقلبِها مِن همِّها؛ ما شكرتُ الله عليه، واستدمتُ العادةَ الجميلَة منه، وسألته أن يوزعها[٣] شكرَ النعمةِ فيه، وعرَفتُ الأحوالَ جملةً من كتابِها، وكلُّها تَشهد بتوفيق سلطانِنا، وبأيّامِه التي تعُود بمشيئة الله بإصلاحِ شأنهِ وشأنِنا؛ والذي مدّه ظلًا، يَمُدّه فضلًا؛ فالفضلُ الذي في يديه، في يد خلقِ الله الذي أحالهم في الرزق عليه؛ فكيفما دعونا له دعونا لأنفُسنا، وكيفما كانت أسنّةُ[٤] رماحِه فهي نجومُ حرسِنا، فلا عدمت أيامه التي هي أيام أعيادِنا، ولا لياليه التي هي ليالي أعراسِنا.

ومن أجوبته: ورد على الخادم ـ أدام الله أيامَ المجلس وصفّاها من الأكدار، وأَبقى بها مِن تأثيراتِه أحسنَ الآثار، وأَسمَع منه وعنه أَطيَبَ الأخبار وجعل التوفيقَ مقيمًا حيث أقام، وسائرًا أينما سار ـ كتابةُ الكريم، الصادرُ عن القلب السليم، والطبعِ الكريم، والباطنِ الذي هو كالظاهرِ كلاهما المستقيم؛ ولا تزال الأخبارُ عنّا محجمة، والأحاديثُ مستعجِمة؛ والظنونُ مترجّحة[٥]، والأقوالُ مُسقمةٌ ومصحّحة؛ إلى أن يردَ كتابُه فيُحقَّ الحقَّ ويُبطِلَ الباطل، ويَتّضِحَ الحالي[٦] ويَفتضِحَ العاطل[٧]؛ ويُعرَف الفرقُ ما بين تحريرِ قائل، وتحويرِ ناقل؛ فتدعو له الألسنةُ والقلوب وتستغفر بحسناته الأيامُ من الذنوب؛ والشجاعةُ شجاعتان: شجاعةٌ في القلب وشجاعةٌ في اللسان؛ وكلتاهما

---

(١) البهيم: المظلم.
(٢) الهشيم: البالي واليابس من كل شيء.
(٣) يوزعها: يلهمها.
(٤) الأسنة: مفردها: السنان: نصل الرمح.
(٥) المترجحة: المتذبذبة.
(٦) الحالي من الحروف: المنقوط؛ أو المحلّى.
(٧) العاطل من الحروف: غير المنقوط؛ أو الخالي.

لديه مجموع، ومنه وعنه مَرويٌّ ومسموع؛ وذخائرُ الملوك هم الرجال، وآراءُ الحُزَماء هي النصال[١]، ومودّاتُ القلوب هي الأموال، ومجالسُ آرائهم هي المَعركةُ الأولى التي هي ربما أغنتْ عن معارك القتال؛ والله تعالى يمُدّ المسلمين به حالَ تجمّعهِم على جهاد الكفّار، ويُلهمهم أن يَبذِلوا في سبيله النفْسَ والسيفَ والدّرهمَ والدينار؛ ويزيلُ ما في طريق المَصالح من الموانع، ويَفطِمُ السيوفَ عن الدِّماء الإسلاميّة ويحرِّمُ عليها المَراضع؛ ويجعل للمجلس في ذلك اليدَ العُليا، والطريقةَ المُثلىٰ، ويجمع له بين خَيري الآخرةِ والأولى؛ والأحوالُ هٰهنا بمصر مع بعد سلطانِها وتَمادِي غيبتِه عن مباشرة شأنِها؛ على ما لم يُشهَد مِثلُه في أوقات السكوت فكيف في أوقات القلق، على من يَحفَظ الله به من في البلاد من الجموعِ ومن في الطُّرقاتِ مِن الرُّفَق[٢]؛ والأميرُ الولدُ صحيحٌ في جسمِه وعزمِه، متصرّفٌ في مصالحه على عادته ورسمِه؛ جعله الله نعم الخَلَفُ المسعود، وأمتعه بظلِّ المجلس الممدود، في العمر الممدود؛ وعرَف الخادمُ أن المجلس ناب عنه مرّةً بَعد مرّةٍ بمجلس فلان ويشكُر على ما سلف من ذلك المنَاب، ويستزيدُ ما يستأنفُه من الخطاب؛ والبيتُ الكريمُ أنا في وَلائه وخدمتِه كما قيل: [من الخفيف]

إنّ قلبي لَكُم لَكالكبِد الحـ ـرَّى وقلبي لِغيرِكم كالقلوبِ[٣]

يسرّني أن يَمُدّ ظلَّهم، وأن يَجمعَ شملَهم؛ كما يسوءني أن تَختلفَ آراؤهم ولا تَنتظِمَ أهواؤهم؛ وهذا المولى يَبلغني أنه سَدّ وساد، وجَدّ وجاد، وخلف مَن سلَفَ مِن كرام هذا البيت من الآباء والأجداد؛ وٱشتهرتْ حسنُ رعايتِه لمن جعله الله من الرعايا وديعه، وحسنُ عنايتِه بمن جعله الله له من الأجنادِ شِيعه؛ وإذ بلغني ذلك سُررتُ له ولابنهِ ولجدّه، وعلمتُ أنه لم يمت من خلّفه لإحياء مجدِه؛ ومن ٱستعمله بحَسَنٍ فقد أراد الله به حَسَنًا، ومن أحسن إلى خلق الله كان الله له محسنًا؛ إن الله أكرمُ الأكرمين، وأعدَلُ العادلين؛ وكُتبُ المجلس السامي يُنعم بها متى خَفّ أمرُها، وتيسّرَ حملُها، وتَفرّغ وقتُه لها؛ والثقةُ حاصلةٌ بالحاصل من قلبِه، وعاذرة وشاكرةٌ في المبطىء والمسرع من كُتُبِه؛ ورأيُه الموفّقُ إن شاء الله تعالى.

---

(١) النصال: مفردها: النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين.
(٢) الرّفَق: مفردها: الرُّفقة، الرُّفاقة: أي الجماعة المترافقون.
(٣) الكبد الحرّى: العطشى، أو التي يبست من عطش أو حزن، والقلوب: الشّحم.

وكتب: ورد كتابُ الحضرة السامية ـ أحسن الله لها المعُونة، ويَسَّرَ لها العواقبَ(١) المأمونة، وأنجدَها على حرب الفئةِ الكافرةِ الملعونة ـ بخبَر خروجِ الخارجِ من قلعة كذا، وما صَرّح به من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحثاثِ في مَسِيرِ العسكر المنصور؛ وكلُّ ضِيقةٍ(٢) وردت على القلوب ففزِعت فيها إلى ربّها فرَجَتْ فَرَجَه وأَذكَى لها اليقينُ سُرُجه(٣)؛ ولَم تُشرِكْ معه غيرَه مستعانًا، ولم تَدْعُ معه مِن خَلْقِه إنسانًا؛ فما الضِّيقةُ وإن كانت منذرةً إلا مبشِّرة، والخطةُ(٤) وإن كانت وَعْرةً إلا ميسَّرة؛ لا جرم(٥) أن هذا الكتاب أعقبه وُصولُ خبر نهضة فلان ـ نصَرَ الله نَهضاتِه، وأَدّى عنه مفترَضاتِه ـ فاستَنهَض العساكر، وقوتل العدوُّ الكافر؛ فنفّسَ ذلك الخناق، وتماسكت الأرماق(٦)؛ وما أحسَب أنّ الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا كُربَ على الإسلام بعد اليوم؛ تَتوافى بمشيئة الله ولاةُ الأطراف، ويزول من نفْسِ العدوِّ وسمعِه ما استشعره بين المسلمين من الخلاف؛ ويجتمعون إن شاء الله على عدوِّهم، ويُذهِب الله بأهلِ دينه ما كان من فساد أعدائه في أرضه وعُلوِّهم؛ وقد شَمِمنا رائحةَ الهدنة بطلب الرسول، وبخبرِ هلاكِ مَلِكِ الألمانِ الذي هو بسيف الله مقتول، والموتُ سيف الله على الرقاب مسلول.

ومنها: فأما ما أشار إليه من القِلاع التي شَحَنها، والحصونِ التي حصّنها؛ والأسلحةِ التي نَقَلها إليها، والأقواتِ(٧) التي ملأ بها عيونَ مُقاتِلتِها وأيديها؛ فإن الله يَمُنّ عليه بأن يسرّه لهذه الطاعة، ورَزَقه لها الاستطاعة؛ فكم رزق الله عبدًا رزقًا حَرَمه منه وفتح عليها بابًا من الخير وصَرَفَه عنه؛ لا جرم أنه وفّى قومًا أجرَهم بغير حساب، ووقَفَ قومًا بموقِف مناقشةِ الحساب، الذي المَصرِفُ عنه إلى ما بعده من العذاب؛ الآن واللهِ مُلِّكَ الملَكُ العادلُ مالَه الذي أنفقَه، وأَودعَه لخير مستودَعٍ مِن الذي رزقَه؛ وشتّان بين الهمم: همّةُ ملِكٍ ذخر مالَه في رؤوس القِلاع لتحصينِ الأموال، وهمّةُ ملِكٍ أَودع مالَه في أيدي المُقاتلةِ لتحصين القلاع: [من الكامل]

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى شتّان بين مزارعٍ ورجالِ(٨)

---

(١) العاقبة: آخر كل شيء أو خاتمته. جمع العواقب.
(٢) الضّيقة: بكسر الضاد: مثل الضّيق.
(٣) أذكى لها سُرُجه: أي أوقد لها السُّرج، والسُّرُج: مفردها «سراج» وهو ما يوقد به للإنارة.
(٤) الخطّة: الحالة والآمر. (٥) لا جرم: لا بدَّ.
(٦) الأرماق: مفردها «الرّمق» وهو بقية الرّوح.
(٧) الأقوات: جمع «قوت» وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطّعام.
(٨) شتان ما بينهما: بعد وعظم الفرق بينهما.

والحمد لله الذي جعل مالَه له مَسرّة، يوم يَرى الذين يكنِزون الذهبَ والفضّةَ المالَ عليهم حسرة؛ ما أحسَب أحدًا من هذه الأمّة إن كان عند الله مِن أهلِ الشهاداتِ بين يديه، وإن كان كريمَ الوِفادة لديه؛ إلا تلقّاه شاكرًا لهذا السلطان شاهدًا بما يُولي هذه الأمّةَ من الإحسان، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٦] سيحصِدُ الزارعون ما زرعوا، والله يزيده توفيقًا إلى توفيقِه، ويلهم كلَّ مسلم القيامَ بمفترَض بِرِّه ويعيذه من محذورِ عقوقِه؛ وأنا أعلم أنّ الحضرة تُفرِد لي شَطْرًا من زمانها المهمّ، لكتاب تُلقيه إليّ، وخبر سارٍّ توردِه عليّ؛ وأنا أُفرد شطرًا من زماني لِشكرِها، وأسرُّ واللهِ لها بتوفيقِ الله في جميع أمرِها، فإن الذّاكر لها بالخير كثير، فزاد الله طيبَ ذكرِها؛ ورأيه الموفَّقُ في أن يُجريني على كنف العادة، ولا يقطع عني هذه المادّة؛ إن شاء الله تعالى.

وكتب: ورد كتاب المجلس السامي ـ نصر الله عزائمَه، وأمضَى في رؤوس الأعداء صوارمَه[١]، وشدّ به بنيانَ الإسلام ودعائمَه، واستردّ به حقوقَ الإسلام من الكفر ومَظالمه، وأخلف نفقاته في سبيل الله ومَغارِمَه[٢]، وجعَلَها مَغانمَه ـ وكان العهدُ به قد تطاول، والقلبُ في المطالَبة ما تساهل، ولمحتُ أشغالَه بالطاعة التي هو فيها وما كلُّ من تَشاغَل تَشاغَل؛ فهنّأه الله بما رزقَه، وتَقبّلَ في سبيل الله ما أنْفَقَه وعافى الجسمَ الذي أنضاه في جهاد عدوِّه وأَخلَقَه، وقد وُفّق مَن أَتعبَ نفسًا في طاعة مَن خلَقَها، وجسمًا في طاعة مَن خلَقَه؛ فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراسُ الأعمار، وهذه النفاتُ التي تُجرَى على أيديكم مهورُ الحُور[٣] في دار القرار[٤]؛ قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٩] وأما فلان وما يسّره الله له، وهوّنه عليه، مِن بذلِ نفسِه ومالِه، وصبرِه على المشقّات واحتمالِه، وإقدامِه في موقف الحقائق قَبل رجالِه؛ فتلك نعمةُ الله عليه، وتوفيقُه الذي ما كلُّ مَن طلبَه وصل إليه؛ وسوادُ العجاج[٥] في تلك المواقف، بياضُ ما سوّدتْه الذنوبُ مِن الصحائف ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٧٣] فما أسعدَ تلك الوقفات، وما

(١) الصوارم: مفردها الصارم، وهو السيف القاطع.
(٢) المغارم: مفردها: المغرم: أي الغرامة: وهي الخسارة، أو ما يلزم إداؤه تعويضًا.
(٣) الحوراء من النساء: البيض، جمع حور.
(٤) دار القرار: أي الدّار الآخرة لأنّ الدّنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ.
(٥) العجاج: الغُبار.

أعوَدَ بالطُّمَأنينةِ تلك المرجِفات[١]؛ وقد علم الله سبحانه وتعالى منّي ما علم من غيري من المسلمين من الدعاء الصالِح في الليل إذا يَغشَى، ومِن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلَّى[٢]؛ والله تعالى يؤيد بكم إيمانَكم، وينصُركم وينصر سلطانَكم، ويُصلحُكم ويصلح بكم زمانَكم، ويشكرُ هجرتَكم التي لم تؤثروا عليها أهليكم ولا أموالَكم ولا أوطانَكم؛ ويعيدُكم إليها سالِمين سالِبين، غانِمين غالِبين؛ إنه على كل شيء قدير.

وكتب: وصل كتاب الحضرة السامية ـ أيد الله عزمَها، وَسدّد سهمَها وجعل في الله همَّها، ووفَّر في الخيرات قِسمَها ـ مبشِّرًا بالحركة الميمونةِ السلطانيّة إلى العدوّ خذله الله، ومَسِيرِ المسلمين ـ نصرهم الله ـ تحت أعلامه أعلاها الله؛ ومُباشرةِ العدوّ واستبشارِ المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءة عليه، ومن إضمارِ العَودِ إليه؛ وهذه مقدّمةٌ لها ما بعدَها، وهي وان كانت نُصرةً من الله فما نَقنَع بها وحدَها فالهِمَّةُ العاليةُ السلطانيّةُ للحربِ التي تَسلُب الأجسامَ رؤوسَها، والسيوفَ حدَّها؛ فإن الجنّة غاليةُ الثّمَن، والخطابُ بالجهاد متوجِّهٌ إلى الملِكِ العادل دون ملوك الأرض وإلا فمَن؟ فهذه تُشترَى بالمشقَّات، كما أن الأخرى ـ أعاذنا الله منها ـ رخيصةُ الثّمَن وتُشترَى بالشهوات؛ والحضرةُ الساميةُ نعم القرين ونعم المعين، وفَرْضُ ذي اللّهجة المُبِين، أن يستجيش ذا القوّة المتين، وكلمةٌ واحدةٌ في سبيل الله أَنْمى[٣] من ألوف المُقاتِلةِ والمئين[٤]؛ والله تعالى يوسّع إلى الخيرات طُرقَها، ويُطلق بها منطلِقَها، ويُمتع الأخوان بخُلقها الكريم فما منهم إلا من يشكر خُلقَها؛ ورأيُها الموفّقُ في إجرائي على العادة المشكورة مِن كُتبِها، وإمطاري من خواطرها، لا عدمتُ صَوبَ[٥] سحبِها.

ومن كتاب كتبه إلى القاضي محيي الدين بن الزكيّ: بعد أن أصدرتُ هذه الخدمةَ إلى المجلس ـ لا عَدِمتُ عواطفَه وعوارفَه، ولطائفَه ومعارفَه؛ وأَمتع الله الأمةَ عمومًا بفضائله وفواضلِه، ونَفعَهم بحاضره كما نفعهم بسلفِه الصالِح وأوائلِه، وعادى الله عدوَّه ودَلَّ سهامَه على مَقاتلِه ـ ورد كتابٌ منه في كذا وما بقِيتُ أذكر

(١) المرجفات من الإرجاف، وهو الزلزال، وأرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.
(٢) يشير في هاتين الجملتين إلى السّورة المباركة «الليل» (القرآن الكريم رقم ٩٢).
(٣) أنمى: أكثر نموًا.
(٤) المئين: مفردها: المائة.
(٥) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

الإغبابَ[١]، فإن سيّدَنا يقابله بِمِثلِه، ولا العتابَ فإن سيدنا يساجله[٢] بأفيَض من سَجْلِه؛ ولا أُلقِي عليه من قولي قولًا ثقيلًا، ولا أقابِل به من قوله قولًا جليًا جليلًا؛ فقد شَبّ عمرو عن الطَّوق[٣]، وشَرُف البُراقُ[٤] عن السَّوق؛ وذلك العمرو[٥] ما برح محتنَكًا[٦] والطَّوق للصَّبيّ، وذلك البُراقُ حِمى لا يقدَّم إلا للنّبيّ؛ ومع هذا فلا تُقلّص عنّي هذه الوظيفة، واْعتقِدْها من قُرَب الصحيفة؛ فإنك تسكُن بها قلبًا أنت ساكنُه وتَسرّ بها وجهًا أنت على النوى معاينُه.

وكتب إلى العماد[٧]: كانت كتبُ المجلس ـ لا غيّر الله ما به من نِعَمِه ولا قطع عنه مَوادَّ فضلِه وكرَمِه، ولا عَدِمت الدنيا خَطَّ قلمِه وخطو قدَمِه؛ وأعاذنا الله بنعمة وُجودِه من شِقوةِ عدَمه ـ تأخّرتْ وشقَّ عليّ تأخُرُها، وتغيّرتْ عليّ عوائدُها والله يعيذها مما يغيّرُها؛ ثم جاءت ببيت ابن حجّاج[٨]: [من مجزوء الرمل]

غــاب مــا غــاب ووافــا نـي عـلى ما كـنـتُ أعـهـدْ

وأجبتُه ببيت الرّضيّ[٩]: [من المديد]

ومـتـى تَـدنُ الـنـوى بـهـمُ يـجـدوا قـلبـي كـمـا عَـهِـدوا

---

(١) الإغباب: ساعة استلام الكتاب. (٢) تساجلوا: تباروا وتفاخروا.

(٣) في أساس البلاغة مادة «طوق» «جلّ» والمعنى مستقيم على كلتا الروايتين، وهذا المثل لجذيمة الأبرش في عمرو بن عدي، كما في جمهرة الأمثال.

(٤) البُراق: دابةٌ يركبها الأنبياء عليهم السّلام، مشتقة من البرق، وقيل: البراق: فرس جبريل عليه السلام (اللسان مادة برق).

(٥) العمرو: كذا ورد هذا الاسم في الأصلين مقرونًا بالألف واللّام، وقد جاءا في مغني اللبيب ص ٥٠ ما نصّه: وقيل: «أل» في اليزيد والعمرو للتعريف، وإنهما نكرة ثم أدخلت عليهما «أل» كما ينكّر العلم إذا أضيف.

(٦) محتنكًا: يقال: حنكته السنّ واحتنكته: إذا أحكمته التجارب.

(٧) العماد: هو عماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن صفي الدين، أبو عبد الله، مؤرّخ عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، استخدمه نور الدين زنكي ثم لحق بصلاح الدين الأيوبي، فكان معه في مكانة وكيل وزارة، إذا انقطع القاضي الفاضل بمصر لمصالح صلاح الدين قام العماد مقامه مات سنة ٥٩٧هـ. (الأعلام، ٧/ ٢٦).

(٨) ابن حجّاج: هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجّاج، كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني جلّ قوله على سخف قال عنه صاحب التيمية: إنّه من سحرة الشعر وعجائب العصر. (اليتيمة ٣/ ٣٥).

(٩) هو الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب، يرجع نسبه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، قال الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل يتحلّى مع محتده الشريف بأدب=

كتابةٌ لا ينبغي مُلكها إلا لخاطرِه السليمانيّ، وفَيضٌ لا يسند إلا عن نُوح قلمِه الطُّوفانيّ، أَوجبت على كل بليغ أن يتلوَ، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٨] وبالجملة فالواجب على كلّ عاقل ألّا يتعاطى ما لم يُعْطَه، وأن يدخل بابَ مجلس سيّدِنا ويقولَ حِطّه[1]؛ فأما ما أفاض فيه من سكون الأحوال بتلك البلاغة فقد كدت أَسكَر لما أَستخرجتُه من تلك المحاسن التي لو أن الزمان الأصمّ يَسمع لأسمعتْه، ولو أن الحظَّ الأشمّ يخضع لأخضعْه؛ وبالجملة فإنه لا يُشنأُ[2] زمنٌ أَبقى من سيّدِنا نعمةَ البقيّةِ التي مهما وُجدتْ فالخير كلُّه موجود، والمجدُ بحفيظته مشهود؛ وكما تَيسّرتْ راحةُ جسمِه، فينبغي أن يقتديَ به قلبُه في راحة مِن همِّه؛ وأعراضُ الدنيا متاعُ المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهذه الدنيا وهدةٌ[3] إليها مَصابُ المصائب؛ والحالُ التي هو الآن عليها عاكفٌ إلا مِن عِلم يدرُسُه، وأدبٍ يقتبسُه، وحريم عقائلَ يَذبّ عنه ويحرسه؛ هي خير الأحوال، فالواجب الشكر لواهبِها، والمَسرّةُ بالإفضاء إلى عواقبِها؛ وما يُنقص شيءٌ من المقسوم، وإن زاد عند المجلس فليس من حظِّه، ولكن من حظّ السائل والمحروم؛ فلا يَسمح ٱلمجلسُ بكتابٍ من كتبِه على يدٍ من الأيدي التي لا تؤدّي، ولا يؤمَن أن تكون أناملُها حروفَ التعدّي، وهي إحدى ما تعلّقتْ به الشهواتُ من اللذّات، وهو يُنعم بها على عادته في كفِّ ضراوةِ[4] القلب ودفعِ عاديتِه[5]؛ موفَّقًا إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى القاضي محيي الدين بن الزكيّ أيضًا: كان كتابي تَقدّم إلى المجلس السامي ـ أدام الله نفاذَ أمرِه، وعلوَّ قدرِه، وراحةَ سرِّه ونعمةَ يسرِه؛ وأجره على أفضل ما عوّدَه، وأَسعد جَدَّه وأَصعدَه، وأَحضرَه أمثالَ العام المقبل وأَشهدَه؛ ولا زال يلبَس الأيّامَ ويخلعها. ويستقبِل الأهلّة ويودّعها وهو محروس في دنياه ودينِه، مستلئمٌ من نُوَب الدهر بدرعِ يقينِه، كاشفٌ لليل الخطبِ بنور جبينِه، وليومِ الجدب بفَيض يمينِه؛ وأعمالُه مقبولة، ودعواتُه على ظهرِ الغمام محمولة؛ والدنيا ترعاه وهي تأتي برغمِها، والآخرةُ تُدّخَر له وهو يسعى لها سعيَها ـ من أيدي عِدّةٍ من المسافرين، ولثقتي بهم ما قَدّرتُ أسماءهم، ولِضيق صدري بتأخير كتب المجلس ما حفظتُها.

= ظاهر وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر على حدّ قول الثعالبي في اليتيمة. (وفيات الأعيان ٤/ ٤١٤).

(١) الحطّة: طلب المغفرة، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨]، فعله من حطّ الله عنك خطاياك.

(٢) يشنأ: يبغض.

(٣) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٤) الضراوة: الشدّة والقساوة.

(٥) العادية: الظلم والشرّ.

وجاء منها: وما كأنا إلا أن دعونا الله سبحانه دعوةَ الأوّلِين أن يباعد بين أسفارِنا[١]، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارِنا؛ فأجيبت الدّعوة، ولا أقول لِسابقِ الشَّقوة[٢]، ولكن لِلاحقِ الحُظوة؛ فإن مكابَدةَ الأشواقِ إلى الأبرار، تَسُوق إلى الجنّة ولا تَسُوق إلى النار، وأُقسم أنني بالاجتماع به في تلك الدار، أَبهجُ مني بالاجتماع به لو أُتيح في هذه الدار؛ فعليه وعليّ من العمَلِ ما يَجمعَ هنالك سلكَ الشمل ويصلُ جديدَ الحبل؛ فثَمّ لا يُلقِي العصا إلا من أَلقَى هنا[٣] العِصيان، وهناك لا تَقرّ العينُ إلا ممن سهِرتْ منه هٰهنا العينان فلا وجه لجمع أَسمى مع أَسمه في هذه الوصيّة مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مَصيري، ولكن لِيزيدَ سيّدُنا من وظائفه وعوارفِه، ـ فكلّ فعلِه تفضُّل من فضلِه ـ ما يخلّصني بإخلاصه فإنني أستحق شفاعته لِشُفعةِ جِوارِ قلبي لقلبِه، وهذا معنى ما بَعث على شُغل الكُتّاب به، مع علمي باستقرار نفسِه النفيسة، إلا أنه ـ أبقاه الله ـ قد أَبعَد عهدي مِن كُتبِه بما يقع التفاوضُ فيه، والمراجَعةُ عنه؛ والخواطرُ في هذا الوقت منقبضة، والشواغلُ لها معترِضة، وأيامُ العُمر في غير ما يُفرَض من الدنيا للآخرة منقرِضة؛ ومتجدِّدُ نوبةِ بَيْروتَ قد غَمّت كلّ قلب، وهاجت المسلمين أشوقًا إلى الملِكِ الناصر، وذكرَى بما ينفعه الله به من كلّ ذاكر، وأَخَذَ الناسُ في الترحّم على أوّلِ هذا البيت والدعاءِ للحاضر والآخر ـ وليس إن شاء الله بآخر؛ فما أدَّخر المولى لهذه الحرب مجهودًا، ولا فَلّلتْ[٤] عسكرًا مجرورًا ولا مالًا ممدودًا: [من الطويل]

فإن كان ذنبي أنّ أحسَنَ مطلبي إساةٌ ففي سوء القضاء ليَ العذرُ

ومنه: وسيّدُنا يستوصي بالدار بدِمَشق فقد خَلتْ، وإنما الناسُ نفوسُ الديار؛ وأنا أعلم أن سيّدَنا في هذا الوقت مشدُوهُ الخاطر عن الوصايا، ومشغولُ اللسان بتنفيذِ ما ينفّذه ممَا هو منتصب له من القضايا؛ فما في وقتِه فضلةٌ[٥] ولكن فضْل، وسيّدُنا يُحسِن في كلّ قضيّة مِن بَعد كما أَحسَن مِن قَبل؛ فهو الذي جعل بيني وبين الشام نَسَبًا وأنشأني فيه إلى أن أدّخرتُ عَقارًا ونَشَبًا[٦] فعليه أن يَرعى ما أقناه[٧]، وينفيَ

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ: الآية ١٩].
(٢) الشقوة: من الشقاء.
(٣) في الأصل «هنالك» وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.
(٤) فلّلت: كسرت.
(٥) الفضلة: الزيادة.
(٦) النّشب: المال أو العقار.
(٧) أقناه: يقال: أقنيت فلانًا: إذا أعطيته ما يقتني.

الشَّوكَ عن طريقِ اليدِ إلى جَناه؛ والجارُ إلى هذا التاريخ ما ٱندفع جَورُه، ولا أُدرِكَ غَورُه؛ يَعِدُ لسانُه ما تُخلف يدُه، ويَدّعي يومه ما يكذّبه فيه غدُه؛ وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظُ منّي ألفاظًا مجهولةً ما كنت أسمح بأن أعرفها، وكشَفَ مستورًا من أسباب الحَرَج ما يسرّني أن أكشفها ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٨] وأَسْوَأُ خُلقًا مِن السيىء الخُلق مَن أَحوَجه إلى سوء الخُلق؛ وما ذكرتُ هذا لِيُذكَر، ولا طويتُ الكتابَ عليه لِيُنشَر، والسرُّ عند سيّدنا ميتٌ وهو يَقضِي حقَّه بأن يُقبَر.

وكتب: أدام الله أيامَ المجلس وخصه مِن لطفِه بأوفر نصيب، ومنحه من السعادة كلّ عجيب وغريب، وأَراه ما يكون عنه بعيدًا مما يؤمّله أقربَ مِن كلّ قريب ـ الخادمُ يخدُم ويُنهِي وصولَ كتابِ كريم تفجّرتْ فيه ينابيعُ البلاغة، وتبرّعتْ له بالحكم أيدي البراعة؛ وجادَ منه بسماء مزيَّنةٍ بزينةِ ٱلكواكب، وهطَلَ منها لأوليائه كلُّ صَوبٍ[١] ولأعدائه كلُّ شهابٍ واصب[٢]، وتجلّى فما الغِيدُ الكواعب[٣]؛ وما العقودُ في التَّرائب[٤]، وتَفرّق منه جيشُ الهمّ فانظر ما تفعل الكتبُ في الكتائب؛ وما ورَدَ إلا والقلب إلى مَوردِه شديدُ الظما، وما كُحِلَ به إلا ناظرةُ الذي عَشِي عن الهدى وقَرُب من العمى؛ وما نار إبراهيم بأعظَم مِن نوره، ولا سرورُه ـ ﷺ ـ حين نجا أعظَمَ يومَ وصولِه مِن سرورِه؛ فحيّا الله هذه اليدَ الكريمةَ التي تَنهلّ بالأنواء[٥] وتجزل سوابغَ النعماء؛ وتُعطِي أفضلَ عطاءٍ يسرّها في القيامة، وتحُوز به أفضلَ أنواع الكرامة، فأما شوقُه لعبدِه فالمولى ـ أبقاه الله ـ قد أُوتِيَ فصاحةَ لسان، وسحَبَ ذيلَ العِيّ[٦] على سَحبان[٧]؛ ولو أنّ للخادم لسانًا مُوات[٨]، وقلبًا يقال له هِي هات[٩]؛ لقال ما عندَه، وأذكرَ عهدَه ووُدَّه؛ وباح بأشواقِه، وذمّ الزمَن على

---

(١) الصوب: المطر النافع. (٢) الواصب: الخالص الدائم.

(٣) الكواعب: مفردها الكاعب: وهي الفتاة التي برز نهداها.

(٤) الترائب: موضع القلادة من الصدر. (٥) الأنواء: الأمطار والعطاء مفردها «النّوء».

(٦) العيّ: ضد الفصاحة.

(٧) سحبان: هو سحبان وائل، من باهلة، خطيب يضرب به المثل في البيان، اشتهر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وأسلم مات سنة ٥٤ هـ. (الأعلام ٣/ ٧٩).

(٨) موات: كان يقتضي إثبات الياء والوقوف عليه بالألف فيقال: «مواتيا» إلّا أنّ السجع اقتضى أن يجري الكاتب المنقوص المنصوب مجرى المرفوع والمجرور في الإعراب، فيسكّن ياءه ويحذفها في الوقف، .

(٩) هي هات: يقال عند الاغراء بالشيء «هي هي» فإذا بنوا منه فعلًا قالوا: هيهيت به أي أغريته.

اعتياقِه[(١)]؛ وأما تفضّلُه بكذا فالخادمُ ما يقوم بشكرِه، ولا يقدّرُه حقَّ قدرِه؛ وقد أحال مكافأةَ المجلس على مَليءٍ[(٢)] قادر، ومَسرّة خاطرة عليه يوم تُبلَى السرائر؛ واللَّهُ تعالى يصِلُه برزقٍ سنيٍّ يَملأ إناه، ويُوضح هداه؛ ولا يُخلِي المجلسَ مِن جميلِ عوائدِه، ويمنحُه أفضلَ وأجزلَ فوائدِه إن شاء الله تعالى.

ومن مكاتباته يتشوّق إلى إخوانه وأودّائه[(٣)]، ومحبِّيه وأوليائه ـ كتب إلى بعضهم: [من الطويل]

أأحبابَنا هل تَسمعون على النوى ... تحيّةَ عانٍ أو شكيّةَ عاتبِ[(٤)]

ولو حَملتْ ريحُ الشَّمال إليكمُ ... كلامًا طَلبْنا مِثلَه في الجنائبِ[(٥)]

أصدر العبد هذه الخدمة وعنده شوقٌ يَغُور به ويُنجد[(٦)]، ويستغيث من ناره بماء الدمع فيجيب ويُنجِد؛ ويَتعلّل بالنسيم فيُغرِي نارَه بالإحراق، ويَرفع النواظرَ إلى السُّلوان فيعيدها الوجدُ في قبضة الإطراق؛ أسفًا على زمنٍ تَصرَّم[(٧)]، ولم يُبقِ إلا وجدًا تَضرَّم، وقلبًا في يد البين المُشتِّ يَتظلّم: [من الوافر]

ليالِيَ نحن في غفلات عيشٍ ... كأنّ الدّهر عنّا في وَثاقِ

فلا تَنفَّس خادمُه نفسًا إلا وصَلَه بذكره، ولا أَجرَى كلامًا إلا قيَّده بشكرِه، ولا سار في قفرٍ إلا شبَّهه برحيب صدْرِه، ولا أَطلّ على جبل إلا ٱحتقره بعليّ قدرِه، ولا مرّ بروضةٍ إلا خالَها تفتّحت أزهارُها عن كريم خُلقِه ونسيم عطرِه، ولا أَوقد ٱلمصطَلون[(٨)] نارًا إلا ظنّهم ٱقتبسوها من جمرِه، ولا نزل على نهر إلا كاثَرَ دمْعَه ببحرِه: [من الطويل]

سقى الله تلك الدارَ عَودةَ أهلِها ... فذلك أَجدَى من سحاب وقَطْرِه[(٩)]

لئن جَمَع الشَّملَ المشتّتُ شَملَه ... فما بَعدَها ذنبٌ يُعدّ لدهرِه

فكيف تَرَى أشواقه بعد عامه ... إذا كان هذا شوقُه بَعد شهرِه

---

(١) الاعتياق: من الإعاقة.

(٢) المليء والمليّ بتشديد الياء: الغني القادر، أو هو الحسن القضاء للدين.

(٣) الأوداء: مفردها: الوديد، وهو المحب. (٤) العاني: الذليل الأسير.

(٥) الجنوب: ريح تهب من جهة الجنوب. جمع الجنائب.

(٦) ينجد: يرتفع. (٧) تصرّم: انقضى.

(٨) المصطلون: من اصطلى النار أي استوقد ليستفدىء.

(٩) القطر: المطر.

بعيدٌ قريبٌ منكُم بضميره يَراكم إذا لم تروه بفكْره
تَرحّل عنكم جسمُه دون قلبه وفارقكم في جهره دون سرِّه
إذا ما خلتْ منكم مجالسُ ودّه فقد عَمَرَتْ منكم مجالسُ شكرِه
فيا ليل لا تُجلِبْ عليهم بظُلمة وطلعةُ بدر الدين طلعةُ بدرِه

ونسأل الله تعالى أن يمنّ بقُربه ورحابُ الآمال فسائح، وركابُ الهموم طلائح[1] والزمن المناظرُ[2] بالقرب مسامِح؛ هنالك تُطلَق أعنّةُ الآمال الحوابس، ويهتزّ مخضّرًا من السعود عودٌ يابس: [من الطويل]

وما أنا من أن يَجمعَ الله شَملَنا بأحسنِ ما كنا عليه بآيسِ[3]

وقد كان الواجب تقديم عَتْبِه، على تأخيرِ كُتْبِه؛ ولكنه خاف أن يجنيَ ذنبًا عظيمًا ويؤلَم قلبًا كريمًا: [من الطويل]

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليلِ[4]

وحاشى[5] خِلاله من الإخلال بعهودِ الوفاء، ومن انحلال عقودِ الصفاء، وما عهدتُ عزمَه القويَّ في حَلْبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشيةَ خُلُقِه إلا أرقَّ مِن مدامعِ غُرَماء الجفاء: [من الكامل]

من لم يَبِتْ والبينُ يصدع قلبَه لم يدر كيف تَقلقُلُ الأحشاءِ[6]

وكتب أيضًا في مثل ذلك: كتَبَ مملوكُ المولى الأجل عن شوقٍ قدَحَ الدمعَ من الجفون شرارًا، وأَجرَى من سيل المار نارًا، واستطال واستطار فما تَوارَى أُوارًا[7]، ووجدٍ على تذكّر الأيام التي عَذُبتْ قِصارًا، والليالي التي طابت فكأنما خُلقتْ جميعُها أسحارًا: [من الطويل]

وبي غَمرةٌ للشوق من بَعد غمرةٍ أَخوض بها ماء الجفون غِمارا

---

(١) الطلائح: مفردها: الطليح، المهزول والمجهود، أو المعيي.
(٢) المناظر: المجادل. (٣) الآيس: الذي يئس وانقطع رجاؤه.
(٤) البيت لكُثَيِّر عَزّة. انظر الأغاني ج ١، ص ١٤٣، طبع دار الكتب المصرية. والخليل: الصاحب، والنائل: العطاء.
(٥) يقال: حاشاك وحاشى لك، والمعنى واحد؛ وحاشى اسم على الصحيح مرادف للبراءة.
(٦) تقلقل: تحرك.
(٧) الأوار: حرّ الشمس والنار: أو الدخان؛ أو اللهب.

وما هي إلا سَكرةٌ بَعد سكرةٍ إذا هي زالت لا تزال خُمارا[١]

رحلتم وصبري والشبابَ وموطني لقد رحلتْ أحبابُنا تَتبارى[٢]

ومن لم تصافح عينُه نورَ شمسِه فليس يرى حتى يُراه نهارا

سقى الله أرض الغُوطتين مدامعي وحسبكِ سُحْبًا قد بعثتُ غزارا[٣]

وما خدعتْني مصرُ عن طيبِ دارِها ولا عوّضتْني بعد جاريَ جارا

أدارَ الصِّبا لا مِثلَ ربعك مَربَعٌ أرى غيرَكِ الربعَ الأنيس قفارا[٤]

فما اعتضتُ أهلًا بعد أهلِكِ جيرةً ولا خلتُ دار المُلك بعدَكِ دارا

وما ضرّ اليدَ الكريمةَ التي أياديها بيض في ظلمات الأيّام، وأفعالها لا يقوم بمدحها إلا أسنة الألسنة والأقلام؛ لو قامت للمودّة بشرطِها، ومحتّ خطَّ الأسى بخطِّها؛ وكَتبتْ ولو شطرَ سطرٍ ففرّغتْ قلبًا من الهمّ مشحونًا، وأطلقتْ صبرًا في يد الكمد[٥] مسجونًا؛ ونَزّهتْ ناظرَ المملوك في رياض منثورةِ الحُلى، وحَلّت عهودَه بمكارمَ مأثورةِ العُلا: [من الطويل]

وما كنت أرضى من علاك بذا الجفا ولكنه من غاب غاب نصيبُه[٦]

ولو غيرُكم يَرمِي الفؤادَ بسهمِه لَما كان ممن قد أصاب يصيبُه

وما ليَ فيمن فرق الدهر أُسوةٌ كأن محبًّا ما نآه حبيبُه[٧]

والمملوكُ مذ حطّت مصر أثقاله، وجهّز الشامُ رحالَه؛ وألقت النوى عصاها وحلّت الأَوبةُ[٨] عُراها؛ يكتب فلا يجاب، ويستكشف[٩] الهمَّ بالجواب فلا ينجاب[١٠]: [من الكامل]

يا غائبًا بلقائه وكتابِه هل يُرتَجى من غَيبتيك إيابُ

---

(١) الخُمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها.

(٢) تتبارى: تتنافس وتتعارض.

(٣) الغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، تحيط بها جبال عالية جدًا ومياهها خارجة من تلك الجبال. والمراد الواحد وإن كان قد ثنى.

(٤) الرّبع: الموضع ينزل فيه في زمن الربيع. أو الدار أو المنزل أو الحيّ.

(٥) الكمد: الحزن.

(٦) الجفا: الإعراض والانقطاع، والنّصيب: الحظّ، والسّهم من الرزق.

(٧) نآه: ابتعد عنه.

(٨) الأوبة: من الإياب، أي الرجوع والعودة.

(٩) يستكشف: يقال: استكشف الهمّ: بمعنى طلب أن يزول وينكشف.

(١٠) ينجاب: ينكشف.

ومتى يصفّي الله وردَ الحياة من التكدير، ويَتحقّق بلقائه أحسَنُ التقديرُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشّورى: الآية ٢٩]: [من الكامل]

وزمــانٍ مــضــى فــمــا عُــرِف الأوّلُ إلّا بــمــا جــنــاه الأخِــيــرُ

أيــن أيّــامُــنــا بــظــلّك والــشّــمــلُ جميعٌ والعيشُ غضٌّ نضيرُ

وحوشي المولى أن يكون عَونًا على قلبِه، وأن يرحل إثره الرِّيُّ على شربِه[١]، وأن ينسيَه بإغبابِ[٢] الكُتبِ ساعاتِ قربه، وأن يحُوجه إلى إطلاق لسانِه بما يصون السمعَ الكريمَ عنه من عَتْبِه؛ الأخ فلان مخصوصٌ بسلام كما تفتَّحتْ عن الورد كمائمُه[٣]، وكما توضّحتْ عن القَطر غمائمُه: [من الطويل]

إذا سار في تُرْبٍ تَعَرَّفَ تربُها بريّاه والتفّتْ عليها لطائمُه[٤]

وقد تَبع الخلقَ الكريمَ في الإغباب والجفوة، وأعْدَتْ عزائمُه قلبَه فاستويا في الغِلظة والقسوة. [من الرجز]

إن كــنــت أنــت مُــفــارقــي من أين لي في الناسِ أُسوة[٥]

وهبْ أن المولى اَشتغل ـ لا زال شغلُه بمَسارِّه، وزمنُه مقصورًا على أوطارِه ـ فما الذي شغله عن خليلِه، وأغفله عن تَدارُك غليلِه؟ هذا وعلائقُه قد تقطّعت وعوائقُه قد اَرتفعت؛ وروضةُ هواه قد صارت بعد الغضارة هشيمًا، وعهودُه قد عادت بعد الغضاضة رميمًا[٦]: [من الخفيف]

إنّ عــهــدًا لــو تــعــلــمــان ذمــيــمًــا أن تــنــامــا عــن مــقــلــتــي أو تُــنــيــمــا

وما أَولى المولى أن يواصل بكتبِه عبدَه، ويجعل ذكرَه عقدَه، ولا ينساه ويألَف بُعدَه، ويَستبدل غيرَه بَعدَه.

---

(١) الشَّرب بفتح الشين وسكون الراء: الجماعة يشربون.

(٢) الإغياب: من الغبّ، يقال: زر غبًّا تزدد حبًّا، أي أن تكون الزيارة متقطعة يومًا بعد يوم وليس متواصلة.

(٣) الكمائم: مفردها «الكمامة» وهي غطاء النُّور.

(٤) التّرب: جمع ترباء وهي الأرض ذات التراب، واللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك، والرّيّا: الرائحة الطيبة.

(٥) الأسوة: ما يُتعزّى به، أو ما يُقتدى به.

(٦) الغضاضة: النضارة والطرادة، والرّميم: البالي.

وكتب أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

أكــذا كــلُّ غــائــبٍ غــاب عـمّـن يـحـبُّـه

غـاب عنه بشخصِه وســلا عــنــه قـلـبُـه

ولو أن لي يدًا تكتب، أو لسانًا يُسْهِب، أو خاطرًا يَستهِلّ، أو فؤادًا يَستدِلّ؛ لوصفتُ إليه شوقًا إن آستمسك بالجفون نَثَرَ عِقدَها، أو نزل بالجوانح أسعَر وقْدَها؛ أو تَنفَّس مشتاقٌ أعان على نَفَسِه، وظنّه آستعاره من قَبسه؛ أو ذكَرَ محبٌّ حبيبًا خالَه خطَر في خَلَدِه[1]، وتَفادَى من أن يَخطِر به ذكرُ جَلَدِه: [من البسيط]

حتّى كأنّ حبيبًا قَبل فرقتِه لا عن أحبّتِه ينأى ولا بلدِه

بالله لا ترحموا قلبي وإن بلغتْ به الهمومُ فهذا ما جنى بيدِه

ولولا رجاؤه أنّ أوقاتَ الفراق سحابةُ صيف تَقشَعها[2] الرياح، وزيارةُ طيفٍ يَخلعَها الصباح؛ لاستطار[3] فؤادُه كمدًا، ولم يجد ليوم مسرّته أمدًا؛ ولكنه يَتعلل بميعاد لقياه، ويدافع ما أَعَلّه بلعلّه أو عساه: [من الطويل]

غِنًى في يد الأحلام لا أستفيدُه ودَيـنٌ عـلى الأيّام لا أتـقـاضـاهُ

ومن غرائبِ هذه الفُرقة، وعوارض هذه الشُّقّة؛ أنّ مولاي قد بخِل بكتابه وهو الذي يداوِي به أخوه غليلَ آكتئابِه، ويستعديه على طارق الهمّ إذا لجّ[4] في انتيابِه: [من المنسرح]

كـمـثـلِ يـعـقـوبَ ضـلّ يـوسـفَـه فـاعـتـاض عـنـه بـشـمِّ أثـوابِـه

وهبْ أنّ فلانًا عاقه عن الكتب عائق، وآختَدَع ناظرَه كمن هو في ناضِر عيشٍ رائق؛ فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهرُ ودّه عرَضًا[5]، وجَعَل قلبي لسهام إعراضه غَرَضا؟: [من البسيط]

بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت من المكاره أو للبرق ما ومضا[6]

---

(١) الخلد: البال والنفس.
(٢) تقشعها الرّياح: تكشفها.
(٣) استطار: انصدع.
(٤) لجّ في انتيابه: لزمه وأبى أن ينصرف عنه.
(٥) العرض: الزّائل الذي لا يدوم ولا يثبت.
(٦) ومض البرق: لمع خفيًا وظهر، والبيت لأبي العلاء المعرّي «سقط الزّند».

وما عهدتُه ـ أدام الله سعادته ـ إلا وقد أستراحت عواذلُه، وعُرّيَ[١] به أفراسُ الصِّبا ورواحلُه؛ إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللُّجج[٢]، ومرِض قلبه فما على المريض حرَج؛ وأيًا ما كان ففي فؤادي إليه سريرةُ شوقٍ لا أُذيعها ولا أضيعها، ونفسي أسيرةُ غُلّةٍ[٣] لا أُطيقها بل أُطيعها: [من الطويل]

وإنّي لمشتاقٌ إليك وعاتبٌ　　　عليك ولكن عَتْبةً لا أُذيعُها

والأخ النِّظام ـ أدامَ الله أنتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجد بلقائه ـ مخصوصٌ بالتحية إثرَ التحيّة، وَوَالَهْفي على تلك السجيّة السخيّة؛ وردتُ منها البابليّ[٤] معتّقًا، وظَلتُ مِن أسرِ الهموم بلقائها معتقًا[٥]: [من الطويل]

خلائق إمّا ماءُ مُزنٍ بشُهْدةٍ　　　أغادَى بها أو ماءُ كرْمٍ مصفَّقا[٦]

وقد أجتمعتْ آراء الجماعة على هجراني، ونسُوا كلَّ عهدٍ غيرَ عهد نسياني: [من المتقارب]

وما كنتمُ تعرفون الجفا　　　فبالله ممّن تعلّمتمُ

وكتب أيضًا: إن أَخَذ العبدُ ـ أطال الله بقاء المجلس وثبّت رفعتَه وبسَطَ بسطتَه، ومكّن قدرتَه، وكَبَت حسَدتَه ـ في وصفِ أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارًا وأعادت الأيامَ بعدها طوالًا، والليالي التي جَمعتْ من أنوار وجهه شموسًا ومن رغدِ العيش في دارِه ظلالًا: [من الطويل]

وجَدتُ أصطباري بعدهنّ سفاهةً　　　وأبصرتُ رشدي بعدهنّ ضلالا

---

(١) لعلّه يشير بهذه العبارة إلى قول زهير بن أبي سُلمى: (ديوانه: ٦٤ دار صادر).

صحا القلب من سلمى وأقصر باطله　　　وعُرّي أفراس الصِّبا ورواحله

(٢) اللُّجج: مفردها اللجّة: وهي معظم الماء، ومن الأمر: معظمه، ومن الليل: شدته.

(٣) الغلّة: شدّة الظمأ ولباس تحت الثوب يلي شعر الجسد.

(٤) البابلي: يريد: الخمر البابلي «المنسوب إلى بابل».

(٥) المعتق من العتق: وهو التحرّر.

(٦) الشُهدة: العسل، وأغادي بها: من الغداة: أي أصبح بها باكرًا، والمصفّق: من صفقت الشراب: أي حوّلته من إناء إلى إناء ليصفو، وقد نصب مصفّقًا على الحال من ماء.

وإن أَخَذ في ذكرِ ما ينطق به لسانُه من وَلاءٍ صريح، ويَعتقِده جَنانُه[١] من ثناءٍ فصيح[٢]: [من الطويل]

تَعاطَى مَنالًا لا يُنال بعزمه وكلُّ اعتزامٍ عن مداه طليحُ[٣]

ولكنه يعدِل عن هذين إلى الدعاء بأن يبقيَه الله للإسلام صدرًا، وفي سماء الملّة بدرًا، وفي ظلماتِ الحوادث فجرًا؛ وأن يَجمعَ الشَّملَ بمجلِسه وعِراصُ[٤] الآمال مطلولة[٥] وسهامُ القُربِ على نحور البعد مدلولة، وعقودُ النوى بيَدِ اللّقاء محلولة؛ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: الآية ٢٠]: [من الطويل]

فقد يجمع الله الشَّتِيتَين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تَلاقِيا[٦]

وما رمت به النوى مراميَها، ولا سَلكتْ به الغربةُ مواميَها[٧]؛ إلا اَستَنجَد شوقُه من الجفون هاميًا، واستَدْعَى من الزَّفْرة ما يُعيد مَسلكه من الجوانح داميًا، وصدَرَ[٨] عن مَنهل الماء العذبِ النمير[٩] ظاميًا، وتَعلّل بالأماني في الاجتماع «وآخر ما يبقى الإياس الأمانيا»[١٠] والسلوةُ أن الطريقَ بحمد الله أَسفرتْ[١١] عن فضل اجتهادِه، وفضيلةِ جهادِه؛ ونُصرةِ الإسلام، وإعلاءِ الأعلام؛ وخدمةِ المجلس الفلاني ـ أعزّه الله نصرَه، وأسعَد بها جَدَّه، وبلغ بها قصدَه، وأمضَى في الكفر حدَّه؛ وأَورَى بها للإسلام قَدْحًا، وشَرُفتْ حديثًا وشرحًا، وأَجهَدت الأعداء إثخانًا[١٢]

---

(١) الجنان: القلب والعقل.
(٢) الظاهر أن في هذه الجملة والتي قبلها تقديم وتأخير، ولعلّ صوابه: ما ينطق به لسانه من ثناء فصيح، ويعتقده جنانه من ولاء صريح، فإنّ الثناء محلّه اللسان، والولاء وهو المحبة محلّه القلب.
(٣) الطليح: الضعيف والمعيي.
(٤) العراص: مفردها «العرصة» وهي ساحة الدّار.
(٥) المطلولة: التي نزل بها الطلّ.
(٦) البيت لقيس بن الملوّح، وهو المعروف بالمجنون، والشتيتان: مثنّى الشتيت: أي المتفرّق.
(٧) الموامي: جمع موماة وهي المفازة من الأرض.
(٨) صدر عن الماء: رجع وعاد. (٩) النمير: العذب.
(١٠) كذا ورد هذا اللفظ منصوبًا، ولم يتضح لنا وجه نصبه، لأنّ القواعد تقتضي رفعه على أنه خبر للمبتدأ وهو قوله: «وآخر».
(١١) أسفرت: تكشّفت، وأسفر الصبح: أضاء إضاءة لا يشك فيه. (اللسان، مادة سفر).
(١٢) الإثخان: المبالغة في القتل.

وجرحًا: [من الطويل]

وأَبقَى بها في جبهة الدّهر أسطرًا إذا ما أنمحَى خَطُّ الكواكب لا تُمحَى
إذا جاء نصرُ ألله فالفتحُ بَعدَه وقد جاء نصرُ الله فليَرقب ألفتحا

فأما الخادمُ فيودّ ألّا يزالَ لشرف محصّلًا، ولتلك اليدِ الكريمةِ مقبّلًا، وللغُرّةِ[١] المتهلّلة[٢] كالصباح مستقبِلًا: [من الطويل]

محيًّا إذا حيّاك منه بنظرةٍ فتحتَ به بابًا من اللطف مُقفَلا

ويرى أن خير أوقاته ما كان فيه بالحاشية الفلانيّة مكاثِرًا، وتحت ظلال ألويتِها سائرًا: [من الطويل]

فثَمَّ ترى معنى السعادة ظاهرًا وثَمّ ترى حزبَ الهداية ظاهرًا

والخادم يؤثر من المجلس المواصَلةَ بالمراسم[٣] التي يعُدّ أيامَها من المواسم، ويقال بها أوجهَ المسَارّ طَلقةَ المباسم؛ ويرتقبها آرتقابَ الصُّوّام للأهلّة، والرُّوّادِ لمواقع السحائِب المنهلّة.

وكتب عن الملك الناصر صلاح الدين إلى تقي الدين بن عبد الملك: [من الطويل]

سقى الله أرضَ الغُوطتين وأهلَها فلي بجنوب الغُوطتين جنونُ
وما ذكرتُها النفسُ إلا استفزّني إلى طيبِ ماء النَّيْرَبَيْن حنينُ[٤]
وقد كان شكّي في الفراق مروِّعي فكيف أكونُ اليوم وهو يقينُ

كم جَهْدِ ما تتسلّى القلوب، وتُسرَّى[٥] الكُروب؛ لا سيّما إذا كان الذي فارقتَه أَعلقَ بالأكباد من خِلْبِها[٦]، وأقربَ إلى القلوب من حُجبِها؛ وهل يَستروِح إلا أن يَفُضَّ ختامَ الدمع، ويَخترِقَ حجابَ السمع، ويستغيثَ بسماء العيون ذات الرَّجْع[٧]،

---

(١) الغرّة: من الرجل وجهه.
(٢) المتهلّلة: المشرقة.
(٣) المراسم والمراسيم: المكاتيب.
(٤) المراد بالنَّيربين: قرية نيرب، وإنما ذكرها بالتثنية جريًا على عادتهم من ذكر اللفظ المفرد بلفظ المثنّى، وهذه القرية بدمشق على نصف فرسخ وسط البساتين، وذكر ياقوت أنها أنزه موضع رآه، وهذا الشعر لأبي المطاع وجيه الدولة بن حمدان. (انظر معجم البلدان ٥/ ٣٣٠).
(٥) تسرَّى: تنكشف.
(٦) الخِلب: بكسر الخاء: حجاب الكبد.
(٧) الرَّجع: المطر بعد المطر.

لتجودَ أرضَ الخواطر ذاتَ الصدع[١]؛ وهنالك أوفَى ما يكون الشوقُ جندًا، وأورَى ما يُورِي الوجدُ زندًا[٢]: [من الطويل]

إلـى زفـرةٍ أو عَـبـرةٍ مـسـتـبـاحـةٍ لهذي مَراحٌ عنده ولذي مَغدَى[٣]

وقد علم الله أنّي مذ فارقتُه ما دعاني الذكرُ إلا لبّيتُه بجوابٍ من ماء الغليل غيرِ قليل ولا ذكرتُ خُلقَه الجميلَ إلا ورأيت الصبرَ الجميلَ غيرَ جميل: [من الطويل]

وغـيـرُ كـثـيـرٍ فـيـه وجـدُ كُـثـيّـرٍ ولـوعـةُ قيس والـتـيـاحُ جـمـيـلِ[٤]
أهيم برسمٍ فيك للمجدِ واضحٍ وهـامـوا بـرسـمٍ لـلغرام مُـحـيـلِ[٥]

وقد كتبتُ إليه حتى كاد يشيب له المداد، لو لم يَخلع عليه الناظرُ حلّةَ السواد وحبّةَ الفؤاد[٦]، فما رَدّ، وجارَ عن خُلقِه الكريم فإنّه قطّ ما وَدَّ وصَدّ؛ وأُوثرُ منه ألّا يحكّم الفراقَ عليّ فيَشتطّ[٧]، ولا يمكّنَ اللوعةَ من مهجتي فتَخبِط[٨]: [من الطويل]

فـجُـد لـي بـدرٍّ مـن بـحـارِك إنّـنـي من الدمع في بحرٍ وليس له شطُّ
بـكـفٍّ بـهـا لـلـحـرب والـسـلم آيـةٌ فيُحيِي لديها الخطُّ أو يَقتُل الخطُّ[٩]

ونسأل الله الرغبة في اجتماع لا يكدر وِردُه، ولا يُنثَر عِقدُه، ولا يعزُب[١٠] عن آفاق الوفاق سعدُه: [من الطويل]

وما كان حُكمي أن أفارقَ أرضَكم ولـكـنّ حُـكـم الله لـسـنـا نـردُّه

---

(١) يشير بهاتين الجملتين إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ [الطّارق: الآيتان ١١، ١٢].
(٢) أورى الزّند: أشعله، والزّند: هو العود الأعلى الذي تقدح به النّار.
(٣) المراح: الموضع الذي يروح القوم منه وإليه، والمغدى: مكان الغدوّ.
(٤) الإلتياح في الأصل: العطش، والمراد هنا: شدّة الشّوق والهيام، وهو يشير في هذا البيت إلى شعراء العشق: كثيّر عزّة، وقيس بن الملوّح وجميل بن معمر. . .
(٥) المُحيل: الذي مضى عليه الحول.
(٦) حبّة الفؤاد: مهجته.
(٧) يشتطّ: يسرف في الظلم والهجر.
(٨) تخبط: يقال: هو يخبط في عمياء إذا ركب ما ركب بجهالة. . .
(٩) الخطّ: الأولى: يريد بها الكتابة، والخطُّ الثانية: يريد بها الرّماح المنسوبة إلى الخطّ، وهي مرفأ في البحرين، وفي الكلام جناس تام. . .
(١٠) يعزُب: يبتعد.

وكتب عنه أيضًا إلى عز الدين فَرّوخ شاه[١]: [من البسيط]

أحبابَنا لو رُزِقتُ الصبرَ بَعدكُم ... لَما رضيتُ به عن قربكم عِوَضا
إني لأَعجب أنّي بَعد فرقتكم ... ما صحّ جسميَ إلا زادني مَرَضا
أُنبيكُم عن يقينٍ أنّ قلبيَ لو ... أضحى مكانَ جناحَيْ طائرٍ نَهَضا
هذا ولو أنّه بالعهد فيك وفى ... لكان حين قضى الله الفراق قضى[٢]

كتبتُ - أطال الله بقاء المولى الولَدِ - عن قَريحةٍ قَريحة، وإنسانٍ[٣] مقلةٍ جَريحٍ في جَريحة، ولوعةٍ صريحة، وذكرةٍ إذا ذُكِر الصبرُ كانت طَريحة: [من المتقارَب]

وليلٍ بطيءٍ طلوعِ الصّبا ... جِ شوقًا إلى القَسَماتِ الصَّبيحة[٤]
أَبحتَ فؤادي وأنت المُباحُ ... وما كان مِن حقّه أنْ تُبيحَه[٥]
وما أصحبَتْ في قتال العذول ... أعِنّةُ قلبٍ عليهم جَموحَه[٦]
مُعنًّى بريحِ شمالِ الشآم ... لقد عذّب الله بالريحِ رُوحَه[٧]
فلا رَوّح الله مِن قربِكم ... فؤادي بخطرة يأسٍ مُريحَه[٨]

ولولا التعلّلُ بأبنية ألمنى الخادعة، والنزولُ بأفنيَةِ الأُسا[٩] الواسعة؛ لتصدّعتْ أكبادٌ وتفطّرتْ، وتجدّلتْ[١٠] أفراسُ دموعٍ وتقطّرتْ[١١]: [من الكامل]

يا صاحبي إنّ الدّموع تنفّستْ ... فدَعِ الدموعَ تبيح ما قد أضمرَتْ

---

(١) في الأصول: «فرخشاه» والتصويب عن وفيات الأعيان ١/ ١٢٠ ط بولاق.
(٢) قضى الله: أراد في قضائه، وقضى الثانية: أي مات وفي الكلام جناسٌ تام.
(٣) إنسانُ المقلة: ناظرها.
(٤) القسمات: واحدها قسمة بكسر السّين وفتحها وهي «الحسن». أو أعلى الوجه أو ظاهر الخدّين.
(٥) أنت المباح: أي أنت الفؤاد الذي أبحته.
(٦) أصبحت: انقادت، والأعنّة: مفردها «العنان» وهو ما يُقاد به، والجموح: التمرّد.
(٧) المعنّى: المكلّف بما يصعبُ عليه ويشقّ.
(٨) الخطرة: المرّة والحين، وخطر في باله: ورد ولاح.
(٩) الأُسا: بكسر الهمزة وضمّها: جمع إسوة، وهي ما يأتسي به الحزين.
(١٠) تجدّلت: من جدله بتشديد الدّال وتخفيفها: أي صرعه على الجدالة بفتح الجيم، وهي الأرض.
(١١) تقطّرت: من قطره: إذا ألقاه على أحد قطريه، وهما جانباه.

قـد كـنـتُ أكـتـم عـن وشـاتـي سـرَّهـا
ولـقـد جرى طِرْفُ الـحـديث كـمـا جـرَتْ[١]

لله لـــيـــلاتٌ قَـــرَنَّ نـــجـــومَـــهـــا
بــل بـدرَهـا بـوجـوهِ عـيـشٍ أقـمـرَتْ

أغـلـتْ عـلـى الـسُّـلوان شَـوقـكُـم فـمـا
بـاعـت كـمـا أمـر الـغـرامُ مَـن اْشـتـرَتْ

ومذ فارقتُ تلك الغرَّة البدريّة، والطلعةَ العزيزةَ العِزّيّة؛ ما ظفرتُ بشخصِه نومًا ولا بكتابِه يومًا: [من الطويل]

* فواعجبًا حتى ولا الطيفُ طارقًا[٢] *

وأعجِبْ له في الحرب نثرُ كتائبٍ — بكفٍّ أبتْ في السِّلم نظْمَ كتابِ[٣]

يحاسبني في لفظةٍ بَعد لفظةٍ — ومعروفُه يأتي بغير حسابِ

ولو رضيتُ ـ وكَلّا ـ بأن أَحملَ من هذا الجفاء كَلًّا[٤]؛ لما رضِيَ به لخُلُقه الرَّضِيّ، ولأخذ بقول الرَّضِيّ: [من الطويل]

هبونيَ أَرضَى في الإياس بهجركم — أتَرضَى لمن يرجوك ما دون وصلِه[٥]

والرغبةُ مصروفةُ العِنَانِ إلى الله أن يُبيح من اللقاء مَنيعًا، وينتجَ من اللّطفِ صنيعًا: [من مجزوء الكامل]

لـو تـأخـذون بـسـاعـةٍ — من وصلِكم عُمري جميعا

لـرغـبـتُ فـي أن تـشـتـرى — إن كـنـتَ تَـرضَـى أن تـبـيـعـا

ومـفـارقِـيـن مـع الـصَّـبـا — عـزمًا فـهـل أرجـو الـطـلوعا[٦]

أقـسـمـتُ لـو رجـعـوا لأعــ — ـقبَني الصِّبا معهم رجوعا

---

(١) الطِّرف: الكريم الأصل من الخيل... وقد استعاره للحديث.
(٢) الطيف: الخيال، والطّارق: الزّائر ليلًا.
(٣) نثر الكتائب: تفريقها في الحرب، وقد قابل بين النثر والنظم... يقال: نظم العقد: أي سلكه في سلك واحد.
(٤) الكلّ: التعب والفتور. (٥) الوصل: ضد الهجر.
(٦) الصِّبا: الشوق، أو الصغر والحداثة ولعلّ صواب الشطر الثاني: رغمًا فهل برحوا الظلوعا.

هـبْـكـم مَـنـعـتـم قُـربَـكـم ولـبـسـتُـم بُـعـدًا مَـنـوعـا[١]
أفـتَـمـنـعـون بـكـم ضـلـو عًـا عـاقـد شُـفِـيـن بكـم وَلُوعـا
مـا غـايـتـي إلا الـدمـو عُ وأسـتـقِـلّ لـك الـدمـوعـا

وكتب أيضًا رحمه الله تعالى يتشوق: [من الطويل]

فيا ربّ إنّ البين أنْحتْ صروفه عليّ وما لي من معينٍ فكن معي[٢]
على قربِ عذّالي وبعدِ أحبّتي وأمـواهِ أجـفـانـي ونيـرانِ أضـلعـي

هذه تحيّةُ القلب المعذّب، وسريرةُ الصبرِ المذبذَب، وظلامةُ عزمِ السلوّ المكذَّب؛ أصدرتُها إلى المجلس وقد وَقدتْ في الحشى نارُها، الزَّفير أُوارُها[٣]، والدموعُ شرارُها، والشوقُ أثارَها وفي الفؤاد ثارُها: [من الرجز]

لـو زارنـي مـنـكـم خـيـالٌ هـاجـرٌ لَهـدتْـه فـي ظُـلُـمـاتـه أنـوارُهـا

أسفًا على أيّام الاجتماع التي كانت مَواسمَ لسرور الأسرارِ، ومَباسمَ لثغورِ الأوطار؛ وتذكّرًا لأوقاتِ عَذُب مَذاقُها، وعَذّب فراقُها؛ ورَوَّحتْ[٤] بُكَرُها، ورَوَّعتْ ذكَرُها: [من البسيط]

والله مـا نـسـيـتْ نـفـسـي حـلاوتَـهـا فـكـيـف أذكـر أنّـي الـيـوم أذكـرُهـا

ومذ فارقتُ الجنابَ النُّوريّ ـ لا زال جَنَى جنابِه نضيرًا، وسنا سنائه[٥] مستطيرًا؛ وملكُه في الخافِقَين خافق الأعلام، وعزُّه على الجديدَين جديدَ الأيام؛ لم أقفْ منه على كتاب يَخلُف سوادُ سطورِه ما غَسَل الدموعُ من سواد ناظرِي، وينظم ببيان منظومِه ومنثورِه ما وَزّعه البينُ من شتات خاطرِي: [من الطويل]

ولـم يَـبـقَ فـي الأحـشـاء إلّا صُـبـابـةٌ من الصبر تَجري في الدموع البوادرِ[٦]

---

(١) المنوع: الذي يمنع غيره.
(٢) البيْن: الفراق، وأنحت: أقبلت ومالت.
(٣) الأوار: حرّ الشمس والنار، أو الدخان، أو اللهب.
(٤) روّحت: ذهبت في الرّواح؛ وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل، ويقابله الصباح.
(٥) السناء: الرفعة وعلو المنزلة.
(٦) الصُّبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه، والبوادر: المنهلّة.

وأسأله المَناب[1] بشريف الجناب، وأداءَ فرض، تقبيلِ الأرض؛ حيث تَلتقِي وفودُ الدنيا والآخرة، وتَغمُر البيوتَ العامرةَ المننُ[2] الغامرة؛ ويظَلّ الظلُّ غيرَ منسوخٍ بهجيرِه، ويُنشَر المجد بشخص لا تسمح الدنيا بنظيرِه: [من الطويل]

تَظاهَر في الدّنيا بأشرفِ ظاهرٍ فلَم يُرَ أنقَى منه غيرَ ضميرِه

كفانيَ عزًّا أن أسمَّى بعبدِه وحسبيَ هَدْيًا أن أسير بنورِه

فأيُّ أميرٍ ليس يشرف قدرُه إذا ما دعاه صادقًا بأميرِه

وإنني في السؤال بكتبه أن يوصلها ليوصل بها لدي تهانيء تَملأ يدِي، ويُودعَ بها عندي مسَرّةً تقتدح في الشكر زنْدِي: [من الطويل]

عهدتُك ذا عهدٍ هو الوَردُ نَضرةً وما هو مِثلُ الورد في قصر العهدِ[3]

وأنا أرتقِب كتابه اْرتقابَ الهلال لتفطر عين عن الكرى صائمة، وتَرِدَ نفسٌ على موارد الماء حائمة.

وكتب أيضًا يتشوّق: [من الكامل]

لا عَتْبَ أخشاه لِقطعِ كتابِكم واْسمعْ فعذري بَعده لا يُعتَبُ

مهما وجدتُك في الضمير ممثّلا أبدًا تناجيني إلى مَن أكتبُ

كَتَبَ عبدُ حضرة مولاه ـ حرس الله سموّه، وأدام مزيدَ علائه ونموّه، وقَرَنَ بالمَسارِّ رواحَه وغدوَّه، وكَبَت[4] حاسدَه وأَهلَك عدوَّه ـ عن سلامة ما اْستثنى فيها الدهرُ إلا ألَم فراقِه، وعافيةٍ موصولةٍ بمرضِ قلبٍ لا أرجو موعدَ إفراقِه[5]: [من الكامل]

لو لم يكن إنسانُ عينِي سابحًا لخشيتُ حين بكَيتُ مِن إغراقِه[6]

وعندي إليه وجدٌ يَكلُمُ[7] الضلوع، ويتكلّم بألسنة الدموع؛ والنفسُ قريبةُ اْستعبار، لِذكرِ أوقات السرور القِصار، وأنوارِها التي يكاد سنا برقِها يَخطَف

(١) المناب: مصدر ميمي من النوب، أي أن ينوب عنه.
(٢) المنن: مفردها: المنّة، وهي الإحسان والانعام.
(٣) نضرة الورد: أن يكون ذا رونق وبهجة.
(٤) كبت حاسده: ردّه بغيظه.
(٥) إفراق المريض: برؤه وإقباله.
(٦) إنسان العين: البؤبؤ والناظر.
(٧) يكلمُ الضلوع: يجرحها.

الأبصار: [من الوافر]

شهورٌ ينقضِين وما شَعَرنا بأنصافٍ لهنّ ولا سَرارِ(١)

إذا العيشُ غضٌّ وَرِيق، والمهجُ لم يتقسّمْها التفريق، ولا سار منها إلى بلدٍ فريقٌ وبقيَ في بلدٍ فَريق، ولا سقاها كؤوسَ وجدٍ للجفونِ المترَعةِ تُريق: [من المجتث]

ثمِلتُ منها وما لي سوى الغرامِ رَحِيق(٢)

وإلى الله الشكوى من شوقٍ في الصّميم، وصبرٍ راحلٍ وغرامٍ لا يَريم(٣)، كأنه غريم: [من الخفيف]

زعموا أنّ مَن تَباعَد يسلو لا ومُحيي العظامِ وهي رميمُ

ولقد ٱستَغرَب وُصولَ الرفاقِ بعد أن طال غيابهم وقد صَفِرتْ(٤) من كتابهم الكريمِ عيابُهم، ولو زاره لَعدّه تحفةَ الخصِيصِ(٥) بالتخصيص، وأدرَك به بُغْيَةَ الحريص، ورأى للدّهرِ المذنب مزيّةَ التمحيص، وَصالَ به على نوائبِ الأيامِ المتتابةِ صولةً لا يجِدُ عنها من محيص(٦): [من مجزوء الكامل المرفّل]

وحسِبتُني لِوصولِهِ يعقوبَ بُشّر بالقميص

هنالك يرتع في تلك الرّياض التي غصونُها أسطارُها(٧)، وشكلُها أطيارُها، وألفاظُها نُوّارُها، ومعانيها ثمارُها، وبلاغتُها أنهارُها، وجزالتُها تيّارُها: [من الكامل]

إن أَظلمتْ للنفسِ فيها ليلةٌ قمرُ المعاني عندنا سمسارُها(٨)

---

(١) السّرار: بفتح السين وكسرها: الليلة التي يستسرّ فيها الهلال آخر الشهر.

(٢) ثمل: أصابه الثمال وهو السكر، والرّحيق: الشراب والطيب.

(٣) لا يريم: لا يحول عني ولا يفارقني.

(٤) صفرت عيابهم: أي خلت، والعياب: أوعية الثياب.

(٥) المراد بالخصيص: من خصصته بودّك، ولم تردّ هذه الصيغة في كتب اللغة بهذا المعنى، ولكنّها وردت في معجم الأدباء لياقوت الجزء الرابع ص ٥٣ ـ دار الكتب العلمية حين تحدّث عن أبي الفرج الأصفهاني فقال: وكان أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني من ندماء الوزير أبي محمّد الخصيصين به».

(٦) من محيص: من مَحيد.

(٧) الأسطار: واحدها «السّطر» وهو الصفّ من كلّ شيء.

(٨) السمسار: الدّليل والهادي، وهو في الأصل: المتوسّط بين البائع والمشتري أو السّفير بين المحبين.

ويتلقّاه قَبل يدِه بقلبِه، ويكاد يسبق ضميرَه إلى أكلِه وشربِه: [من الكامل]

ويظنّه والطّرفُ معقودٌ به شخصَ الرقيب بدا لعين محبِّه[1]

وإذا ضنّ[2] مولاه بمأثورِه، جاد عليه بميسورِه؛ ...: [من الكامل]

فكأنّني أهدَيتُ لِلشمسِ السّنا وطرحتُ ما بينَ المصاحِف دَفترا[3]

وعلى كلّ حالٍ فيسأله أن يواصلَه مِن مَراسمِه بما ينتظره ناظرُه ليجد نورًا، وقلبُه ليستشعر به سرورًا، وخاطرُه ليجعله بينه وبين الهمّ سُورًا؛ وألّا يخلَى رِفقةً من كتابٍ ولو بالقلائد القلائِلَ من دررِ أقلامِه، ودراريِّ كلامِه.

وكتب: لو أستعار الخادمُ ـ أدام الله نعمةَ المجلس ـ أنفَاس البَشَر كلامًا، وأغصانَ الشجر أقلامًا؛ وبياضَ النهار أطراسًا[4]، وسوادَ الليل أنقاسًا[5]؛ ما عبّر عن الوجد الذي عبّرت عنه عَبَراتُه، ولا عن الشوق الذي لا يستثير مِثلُه معَبدًا[6] إذا هَزِجتْ[7] في الثقيل الأوّل نَبَراتُه[8]؛ أسفًا على ما عَدِمه في هذه الطريق، من ذلك المحيّا الطَّليق، والخُلُقِ الذي هو بكل مَكرُمَةٍ خليق، والصفاتِ التي يَحسُن بها كلُّ حُسنٍ ويليق، ويُعذَر كلُّ جفنٍ يَسفَح[9] ذخيرتَه شوقًا إليها ويُريق: [من الطويل]

قِفا أو خذا في العذْل أيَّ طريقِ فما أنا مِن سكرِ الهوى بمُفيقِ
أما والهوى إنّ الهوى لأليّةٌ يعظّمُها في الحبِّ كلُّ مَشُوقِ[10]
لو أنّ الهوى مما تصحّ هِباتُه لقاسمتُ منه قلبَ كلِّ صديقِ

وما زار ناظرَ خادِمه الكرى إلا تَمثّل له مولاه طيفًا يَهُمّ أن يتعلّق بأذيالِه، وقَبِلَ تمويهَ ناظرِه على قلبِه في وصالِه: [من البسيط]

وَوَدَّ أنّ سوادَ الليل مُدَّ له وزاد فيه سوادَ القلبِ والبصرِ

---

(١) الطّرف: النظر، ولعلّه يريد «شخص الحبيب» بدل «شخص الرقيب».
(٢) ضنّ: بخل. (٣) السّنا: الضوء.
(٤) الطرس: الصحيفة التي يكتب فيها.
(٥) الأنقاس: جمع نقس بكسر النون وهو المداد أو الحبر.
(٦) معبد: هو معبد بن وهب، أبو عبّاد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، كان أديبًا فصيحًا، أصواته وأخباره كثيرة مات سنة ١٢٦هـ. (الأعلام ٧/ ٢٦٤).
(٧) هزجت: يقال هزج المغنّي بكسر الزاي: إذا طرّب وترنّم.
(٨) النّبرات: مفردها «النّبرة» وهي رفع الصوت بعد خفضه.
(٩) يسفح: يصبّ الدّمع. (١٠) الأليّة: اليمين.

ولقد وَجَد طعمَ الحياة لِبعدِه مرًّا، وقال بَعدَه للذّتَي ٱلعين والقلب: مُرًّا: [من الطويل]

وها هو يرجو في غدٍ وعدَ يومِه لعلّ غدا يأبى لمنتظرٍ عذرا

وإلى الله سبحانه وتعالى يَرغب أن يجعلَه بالسلامة مكنوفًا، وصَرْفَ الحِدْثان[1] عن ساحتِه مكفوفًا، وعِنانَ الصُّروف عن فِنائه[2] مصروفًا، ووُفودَ الرجاء على أرجائه عُكوفًا؛ وأن يُمتِع الوجه بوصفه الذي هو أشرفُ مِن كلِّ وجهٍ موصوفًا: [من الكامل]

مَن كان يُشرِك في علاك فإنّني وجّهتُ وجهيَ نحوهنّ حنيفا

وقد كان يَنتظر كتابًا يشرّفه ويشنّفُه، ويستخدمُه على الأوامر ويصرّفُه؛ ويَجتنِي ثمرَ السرور غضَّ المَكاسِر ويقتطفُه؛ فتأخَّر ولَمْ يُحدِثْ له التأخيرُ ظنًّا، ولا صرَفَه عن أن يَعتقِدَ أنّ مولاه لا تُحدث له الأيامُ بخلًا بفضله ولا ضنًّا: [من الطويل]

ولو تُصرَف السحْبُ الغزارُ عن الثّرى

لَما ٱنصرفتْ عن طبعك الشّيمُ الحُسنى

وهو ينتظرُ مِن الأمرِ والنهيِ ما يكون عملُه بحسبِه، ويثبت له عهد الخدّام بنسَبِه: [من الطويل]

ومِن عَجَبٍ أنّي أحِنّ إليهمُ وأَسألُ عنهم مَن أرى وهمُ معي

وتَطلبُهم عيني وهُم في سوادِها ويشتاقهم قلبي وهُم بين أضلعي

وكتب أيضًا: كتبتُ والعبَراتُ تمحو السطور، ويُوقد ماؤها نارَ الصدور ويَهتِكُ[3] وجدًا كان تحت السّتور، ويُرسِل من بين أضلعي نَفَسَ المَوْتور[4]: [من الخفيف]

قد ذَكرْنا عهودَكم بعد ما طا لت ليالٍ مِن بَعدِها وشهورُ

عَجَبًا لِلقلوبِ كيف أطاقتْ بُعدَكم! ما القلوبُ إلّا صخورُ

---

(١) الحدثان: من الدّهر مصائبه. (٢) الفناء: الساحة.

(٣) هتك: يكشف ويفضح، وهتك الستر: أزاله من موضعه.

(٤) الموتور: من الوتر وهو الظلم في العداوة أو الانتقام.

وما وردتُ الماءَ إلّا وَجدتُ له على كبدي وَقْدًا لا بَرْدًا، ولا تعرّضتُ لنفحات النسيم إلا أَهدَى إليّ جَهْدًا، ولا زارني طيفُ الخيال إلا وجدني قد قطعتُ طريقه سُهْدًا، ولا خَطِفَ[1] لي البارقُ الشّامي إلّا باراه قلبي خُفوقًا ووقدًا[2]: [من المتقارب]

وأيسرُ ما نال منّي الغليـ ـلُ ألا أُحِسَّ من الماء بردا

فسقى الله دارَه ما شربتْ [من][3] الغمام، وأيّامَنا بها وبُدورُ ليالي تلك الأيّامِ تمَام: [من الكامل]

ذُمَّ الليالي بَعد منزلة اللّوى والعيشَ بَعد أولئك الأقوامِ[4]

وكان قد وصل منه كتابٌ كالطّيفِ أو أَقْصرُ زَوْرًا، وكالحبِّ أو أَظْهَرُ جَوْرًا، والربيعِ أو أَبْهَرُ نَوْرًا، والنجم أو أعلى طَوْرًا، والماءِ الزلال أو أَبْعَدُ غَوْرًا؛ فنَثرتُ عليه قُبَلي، وجعلتُ سطورَه قِبَلي بل قِبَلي[5]، ووردتُ منه مَوردًا: [من البسيط]

أهلًا به وعلى الإظماءِ أَنشُدُه لو بَلّ مِن غُللي أبللتُ مِن عِللي[6]

إلّا أنه - أبقاه الله - ما عزّزه[7] بثان، ولا آنس غريبه، وإني وإيّاه غريبان: [من الطويل]

وكم ظلّ أو كم بات عندي كتابُه سميرَ ضميرٍ أو جِنانَ جَنان[8]

---

(١) خطف البارق: مرّ سريعًا. (٢) الوقد: الاشتعال.

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق ولم ترد في الأصل، والكاتب يشير بهذه العبارة إلى قول الشريف الرّضي:

سقى مِنًى وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحيّاها وحيّاك

(انظر ديوان الشريف الرّضي).

(٤) البيت لجرير: (انظر ديوانه ص ٤١٦، دار الكتب العلمية)، وقد ورد هنا مع بعض التغيير، فقد ذكره الديوان على الشكل التالي:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللّوى والعيش بعد أولئك الأقدام

(٥) قبلي الأولى: بكسر القاف وفتح الباء: أي تجاهي، ويجوز ضبطها بضمّ القاف وسكون الباء أي قصدي، وقبلي الثانية: هي جمع قِبلة بكسر القاف وفي الكلام جناس تام.

(٦) بلّ غللي: أي روى ظمأه، وأبللت من عللي: أي شفيت من سقامي.

(٧) عزّزه: من التعزيز وهو التقوية والإعانة.

(٨) الجنان بكسر الجيم مفردها «الجنّة» وهي الستر، والجَنان: بفتح الجيم: القلب.

وأَرغبُ إليه ـ لا زالت الرّغَبات إليه ـ، وأسأَلُه ـ لا خَيّم السؤالُ إلا لديه ـ؛ أن يلاطِفَ بكتابه قلبي، ويمثّلَ بمثالِه أيّامَ قربي: [من الكامل المرفّل]

والله لــــولا أنّــــنــــي | أرجو اللِّقا لقَضَيتُ نَحْبي
هــذا ومــا فــارقــتُــكــم | لــكــنــنــي فــارقــتُ قــلــبــي

وكتب جواب كتاب ورد عليه: [من الطويل]

شكرتُ لدهري جَمعَه الدارَ مرّةً | وتلك يدٌ عندي له لا أُضِيعُها
وطلعة مولانا يطالِعُ عبدَه | وكلُّ رُبوعٍ كان فيها رُبوعُها[1]
فؤادُ سقَاه لا يعودُ غليلُه | وعينٌ رأتْه لا تَفيض دموعُها

ورد على الخادم كتابُ المجلس ـ أَعلى الله سلطانه وأَثبَتَه، وأَرْغَم أنفَ عدوه وكَبَتَه، وأصماه[2] بسهام أسقامه وأَصمَتَه؛ ولا أَخلَى الدنيا من وجودِه، كما لم يُخْلِ أهلَها مِن جودِه، ولا عَطّل سماءَ المجد من صعودِه، كما لم يُعطّل أرضَها من سُعودِه ـ وهو كتابٌ ثانٍ يَثنِي إليه عِنانَ الثناء، ويَصِفُ لي حسنَ العهد على التّناء، ويستنهِضُ الأدعيةَ الصالحةَ في الأطرافِ والآناء[3]، ويبشِّرُ الخادمَ بأنه وإن كان بعيدَ الدارِ فإنه بمثابة المقيم في ذلك الفِناء، وأن هذه الخدمة التي أنعم الله عليه بها وَثيقةُ الأساس على الدهر شامخةُ البناء؛ فقال له قائمًا على قدمِه، وسَجَد في الطِّرس ممثِّلًا سُجودَ قلمه، وٱستَرعى الله العهدَ على أنه تعالى قد رعى ما أَوْدعه في ذمّة كرمِه؛ وصارت له نَجْرانُ[4] علاقةَ خيرٍ صَرَفَ إليها وجهه فكأنها قِبْلة، ودعا بني الآمالِ إلى ٱعتقادِ فضلِ مالكِها فكأنّما يدعوهم إلى ملّة، والله يُوزِعُه شكرَ هذا الافتقادِ[5] على البِعاد، ولا يُخلِه من هذا الرأي الجميل الذي هو مَلجأُ الاستناد؛ وعَقْدُ الاعتقاد؛ والخادم لا ينفكّ متطلّعًا لأخبار المولى فتَرِده مُفْضِلةً ومُجْمِلة، ومُفَصَّلةً ومُجْمَلَة؛ ويَعرِف منها ما يَعرِف به مَوْقعَ ٱللطف بالمولى في أحوالِه،

---

(١) الربوع الأولى: المحلّة أو الدّار، والرّبوع الثانية: المكان الذي ينزل فيه وقت الربيع، أي أنه ربيع حيث أقام وفي الكلام جناس.

(٢) أصماه بالسهم: أي رماه به وأنفذه فيه «قتله».

(٣) الآناء: ساعات الليل، والأطراف: أي أطراف النّهار أي المساء والصّباح.

(٤) نجران: محلّة في عدّة مواضع، منها نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة. (انظر معجم البلدان (٥/ ٢٦٦).

(٥) افتقده: طلبه عند غيبته.

ومكانَ النجح في آمالِه؛ وأنّه بحمد الله في نعمةٍ منه ـ لا غَيَّر اللهُ ما به منها، ولا صَرَفَها عنه ولا صَرَفَه عنها ـ فيجدِّد لله الشكرَ والحمد، ويبلِّغه ما يَبلُغه منها المرادَ والقصد؛ ونسأل الله ألّا يخلَى الدولةَ الناصريّةَ منه ناصرًا لسلطانِها، وعينًا لأعيانِها؛ وسيفًا في يدِ الإسلام يناضِل عن حقِّه، وفرعًا[1] شريفًا يَشهد مَرآه بشرف عرقِه؛ والرأي أعلى في إجرائه على ما عُوِّد مِن هذا الإنعام، وزيادته شرفًا بالاستنهاض ـ إن صَلَح له ـ والاستخدام.

ومن جواب آخر: وَرَد كتاب المجلس ـ أدام الله وارداتِ الإقبال على آمالِه، ولا سَلَبت الأيامُ نعمتَي جميلِه وإجمالِه، ولا انحطّ قدرُ بدرِه عن درجتَي تمامِه وكمالِه، وأحسن جزاءه عن ميثاق الفضل الّذي نَهَض باحتمالِه ـ ووقفتُ منه على ما لا يَجِدُ الشكرُ عنه مَحيدًا، وآنستُ[2] به القلبَ الّذي كان وحيدًا، وعَددتُ يومَ وصوله السعيد عيدًا، ووردتُ منه بئرًا معطَّلةً وحللتُ قصرًا مَشِيدًا[3]؛ ولا يكلِّف الله نفسًا إلّا وُسعَها، وتلك الغايةُ ليست في وُسعي، ولا تَعلم نفسٌ إلا ما طَرَقَ سَمْعَها، وتلك المحاسنُ ما طَرَق مِثلُها سمعي، ولا تتناول يدٌ إلّا ما وِسعه ذَرْعُها، وهذه الأوابدُ[4] الأباعدُ ما طالها ذراعي ولا أستَقَلّ بها ذَرْعي.

ومن آخر: خَلّد الله أيّامَ المجلس، وعضّد الملّةَ الحنيفيّةَ منه بحاميها، والأركانَ الإسلاميّةَ من سيفِه بشائِدها وبانيها، وأمتَع الدولةَ المحمديّةَ بعزمته التي حسُنتْ الكفايةُ بها، فلا غرو أن تَحسُن الكفايةُ فيها؛ ولا عَدِمت الدنيا نَضرةً بأيّامِه النَّضيرة، والدينُ نُصرةً بأعلامِه النصيرة؛ المملوكُ يقبِّل الترابَ الذي يومًا يَستقِرُّ بحوافر[5] سَيْلِه، ويومًا يَستقِرّ بحوافر خيلِه ـ فلا زال في يوم السِّلْم جُوده سحابًا صائبًا، ويومِ الحربِ شهابًا ثاقبًا ـ ويُنهِي أنه وردتْ عليه المكاتبةُ التي استيقظتْ بها آمالُه من وَسَنِها[6]، وأفادته معنًى من الجَنّة فإنها أذهبَتْ ما بالنفوس من حَزَنِها، وتَلقَّى المملوكُ قُبْلَها[7] بالسجود والتقبيل، وتَحلَّى بعقودِ سطورِها فهيهات بعد هذا

---

(١) الفرع: من كلّ شيءٍ أعلاه، والفرع: الأصل. (٢) آنست: من الأنس.

(٣) البئر المعطّلة: التي لا وارد لها، وقصر مشيد: رفيع بالصّخور والجصّ، «والشيّد» عند العرب: الجصُّ بعينه، وقد ورد ذكر البئر المعطلة والقصر المشيد في القرآن الكريم سورة الحج الآية: ٤٥، ووردت تفاصيلهما في الجزء الثالث عشر من نهاية الأرب في الباب السابع من القسم الأول من الفنّ الخامس فانظرها...

(٤) الأوابد: الدواهي مفردها «الآبدة».

(٥) الحوافر: جمع حافرة وهي الأرض المحفورة.

(٦) الوسن: النّعاس والنّوم. (٧) القُبْل: بضمّ القاف وسكون الباء: الوجه.

شكوى التعطيل[١]؛ وأكتَحَلَ من داء السهد بإثْمِدِها[٢]، وأدار على الأيّام كأسَ مَرقَدِها[٣]، وأسمعتْه نَغْمَ النِّعم التي هي أعجبُ إلى النفس من نَغَمات مَعْبَدِها، وأطالت الوقوفَ عليها رِكاب طَرْفِه فما وقوفُ ركابِ طَرَفَةَ ببُرْقَةِ[٤] ثَهمَدِها؛ وضَرِعَ إلى من يشفَع وسائلَ المتضرّعين، ويملأ مواقعَ آمالِ المتوقّعين؛ أن يَغُلّ[٥] عنه كلَّ يدٍ للخطوب بسيطة، ويفكّ به كلَّ رِبْقةٍ[٦] للأيّام بأعناق بَنِيها محيطة.

ومن آخر: رفع الله عمادَ الإسلام ببقاء المجلس، وبَسَط ظلَّه على الخلق، ومَلَّك يدَه الكريمةَ قصَبَ السَّبق، وجَمَعَ بتدبيره بين ناصيتَي الغربِ والشرق؛ وألَّف لقدرته طاعَتي الجهرِ والسرّ، وصَرّف بعزمته زمامَي النَّهى والأمر، وأحْرَزَ لجَدّه مَسَرَّتَي الأجرِ والنصر، وقَطَّ[٧] بفتكته شَوكَتي النفاقِ والكفر ـ وَردتْ على المملوك مكاتبةٌ كريمةٌ رَفَعها حيث تُرفع العمائم، ومَدَّ اليدَ إليها كما تُمَدّ إلى الغنائم؛ وفَضّها، بعد أن قَضَى باللّثم فرْضَها، واستَمطَرتْ نفسُه سماءها فأرضتْ[٨] أرضها؛ وكاد المملوكُ يَتأمّلها لولا أنّ دمعَ الناظرِ إلى العين سبَقه، على أنه دمعٌ قد تَلوّن بتلوُّنِ الأيّام في فراقه، فلو فاض لَعَصْفَرَ[٩] الكتابَ وخَلَّقه[١٠]؛ فلا أعدمه الله المولى حاضرًا وغائبًا، ومُشافِهًا ومُكاتِبًا، وأحلّه[١١] في جانب السعادة ويَعَزّ على المملوك أن يَحِلّ من مولاه جانبًا.

---

(١) التعطيل: من العَطَل: يقال جيدٌ عاطل: أي لا حليّ فيه.

(٢) الإثمد: الكحل الأسود.

(٣) يريد أنّه بهذه الرّسالة قد أنام الأيام عن محاربته وأغفلها عن الكيد له.

(٤) البرقة والبرقاء: أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل، وجمعها بُراق وبراق بكسر الباء، وفي معجم البلدان ١/ ٥٧٩ ط جوتنجن أنّ برقه ثهمد لبني دارم وذكر في ج ١/ ٩٤٢ في الكلام على ثهمد أنه جبلٌ أحمر حوله أبارق كثيرة في ديار غني، وقيل: في ديار بني عامر، وقد أشار الكاتب بهذه العبارة إلى قول طرفة بن العبد في معلقته:

لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(انظر ديوان طرفة ص ١٩، دار صادر).

(٥) يُغلّ: يمسك، ويقيّد.

(٦) فك الربقة: فرّج الكربة، والرّبقة من الرّبق: وهو حبلٌ فيه عدّة عُرى.

(٧) القطّ: القطع عامة.

(٨) أرضت أرضها: أمطرتها وأصلحتها وأرض المرعى: كثر عشبه.

(٩) يقال: عصفرت الثوب، أي صبغته بالعصفر، وهو نبات سلافته الجريال، وبذره القرطم، وهو ريفيّ وبريّ، وكلاهما ينبت بأرض العرب.

(١٠) خلّقه: طلاه بالخلوق، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره.

(١١) وأحلّه: أي وأحلّ المملوك، يريد الدعاء لنفسه بأن ينزله الله في جانب السعادة، أي جانب=

ومن آخر: ورد كتابُه ووقفتُ على ما أودَعه مِن فضلِ خطٍّ وفصلِ خِطاب، وعقائلِ[١] عقولٍ ما كنا لها من الأكفاء وإن كنا مِن الخُطّاب، وآثار أقلام تُناضِل عن المِلّة نضالَ النِّصال، وكأنها فضلُ سبقٍ[٢] لما تحُوزه مِن حقِّ السّبقِ وخَصْلِ[٣] الخصال؛ فأُعيذَ الإسلام مِن عَدَمِه، ولا عَدِمَ بَسطةَ قلمِه، وثبوتَ قدمِه؛ فإنه الآن عينُ الآثار، وأثرُ الأعيان وخاطِرُ الحِفظِ إلا أنّ الخطوب تَصحب فيه خواطرَ النِّسيان؛ ولَيِّنٌ اْهتَصَر الدهرَ[٤] سَطْوًا، واْختَصَر[٥] خطْوًا؛ وإنه سيفٌ يمانٍ إن قَدُم عهدًا، فقد حَسُن فِرندًا[٦]، وخشن حدًّا؛ وأَجرَى نهرًا، وأَورَى شررًا؛ واْخضرّ خميلَه، وقَطَع الأيّامَ جميلَه؛ وضارَب الأيّام فأَجفَلتْ[٧] عن مضاربه ضرائبُها[٨]، وشَرَدَتْ عن عزمه غرائبُها[٩]؛ ولبِسَها حتى أَنهَجتْ[١٠] بَواليًا، ثم اْختار منها أيامًا وأبى أن يلبسها لياليًا؛ لا جرم أن صحيفَته البيضاءَ شعارُ شِعرِه، وروضةَ علمه الغنّاء قد جلت أنوارَ نَورِه، وزواهرَ زهرِه؛ فالزمانُ لا يعدو عليه بزَمانةٍ تعدُو، ولا يَتجاوز أوقاتَه إلّا مَوسُومَةً بمحاسنه ولا يعدو؛ حتى يَمُتَّ إليه عدوٌّ يَلتفِت[١١] أمس، ويَروِيَ اليومَ أنّ قرابتَه مِن فضلِه أَمَسّ؛ والله يعلم أنّني لأَرَى له ولا أَرَى فيه، وأَسُدّ عنه كلَّ خَرْقٍ تعجز عنه يدُ رافِيه[١٢]؛ ضنًّا بالصدور أن تخلوَ من صدرٍ كقلبِها، ومحاماةً عن حقوقِ تَقدِمتِه التي أَوجبَها أن تُعارَض بسَلْبِها.

ومن آخر: وصل كتابُ الحضرة فجعَل مستقَرُّه النِّعمةَ في الصدور، وأخرجتْني ظلماتُ خطِّه إلى نور السرور؛ ووقفتُ وكأنّي واقف على طللٍ[١٣] من الأحبّةِ قد بكَى عليه السحابُ بِطَلِّه[١٤]، واْبتَسَم له الروضُ عن أخبار أهلِه وآثارِ منهلّه؛ فلم أزل

= المكتوب إليه.

(١) العقائل: يريد بها كريم القول ونفيسه، والعقيلة: السيّدة الكريمة المتخدّرة.

(٢) المراد السبق إلى الإسلام الذي كان من مفاخر بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، كعليّ بن أبي طالب وأبي بكر وغيرهما.

(٣) الخصل: الخطر الذي يتراهن عليه في الرمي، والخصال: المراهنة في الرمي.

(٤) اهتصر الدهر: جذبه وأماله وشذبه وسوّاه.

(٥) اختصر خطوًا: كناية عن الوثب، لأن الواثب يقل الخطو إلى غايته.

(٦) فرند السيف: جوهره.

(٧) أجفلت: نفرت وأسرعت في الهرب.

(٨) الضرائب: مفردها: الضريبة.

(٩) الغرائب: مفردها الغريبة.

(١٠) أنهجت: أخذت في البلى.

(١١) يلتفت: ينصرف عنه ويعرض.

(١٢) الرافي: أي الرّفّاء، وهو الذي يصلح خروق الأثواب وغيرها.

(١٣) الطلل: ما يبقى شاخصًا من آثار الديار ونحوها.

(١٤) الطلّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

أرشِف مسكَ سطورِه ولَماها[١]، وأنزِّهُ العينَ والقلبَ بين حسنِها وجَناها؛ وأُطلِقُ عِنانَ شوقٍ جَعَلَتُ الأقلامَ له لُجُمًا، وحسِبتُ النَّفْسَ ليلًا، والكتابَ طيفًا، والوقوفَ عليه حُلُمًا؛ إلى أن قضت النفوسُ وَطَرًا، وحَمَلَتْ الخواطرُ خطرًا، وقرنت بما ظنّه سحابًا ما ظنّه مطرًا؛ هذا على أنه قريبُ العهد بيدِ النَّعماء، فإن هَرَبَ فمن ماءٍ إلى ماء.

ومن آخر: فلَمّا وقف على الكتابِ جَدَّدَ العهدَ بلَثمِه ما لَم يصِلْ إلى اليد التي بعثَتْه، وشَفَى القلبَ بضمِّه عوضًا عن الجوانح[٢] التي نفثَتْه: [من المتقارب]

وأيـن الـمـطـامـعُ مِـن وصـلِه ولـكـن أعـلِّلُ قـلبًـا عـلـيـلا

ومن آخر: وصلَ كتابُه، وكان من لقائه طيفًا إلا أنه أَنِسَ بالضُّحى، وأثار حربَ الشوقِ وكان قطبَ الرّحَى[٣]: [من الطويل]

تَـخطَّى إليّ الـهـولَ والـقـفرُ دونـه وأخطارُه لا أَصـغَرَ اللهُ مَمشاه[٤]

ومن كلامه رحمه الله يصف بلاغة كتابٍ، قال: كتابٌ إلى نحري[٥] ضممتُه، وذَكرتُ به الزمنَ الذي ما ذممتُه، وأكبَرتُ قدرَه فحين تسلّمتُه ٱستَلمتُه وٱلتَقَطتُ زَهْرَهُ فحين لَمَحتُه ٱستملحتُه، وامتَزج بأجزاء نفسي فحين لحظتُه حفِظتُه؛ وجمعتُ بينه وبين مستَقرِّه مِن صدْري، وٱستطلتُ به مع قِصرِه على حادثات دهري، وجعلتُ سِحره بين سَحْري[٦] ونَحري، وٱستضأتُ به ورَشَفتُه فهو نهاري وهو نَهري؛ فإن أردتُ العِطرَ بلا أثرٍ أمسكتُ مِسكَه بيدي، وإن أردتُ السكرَ بلا إثم أدرتُ كأسَه في خَلَدي[٧]؛ فللّه أناملُ رَقَمْته، ما أَشرفَ آثارَها! وخواطرُ أَملَته، مَا أَشرقَ أنوارَها! ولم أزل متنقلًا منه بين روضةٍ فيها غدير، وليلةٍ فيها سمير؛ وإمارةٍ لها سرير، ومَسَرّةٍ أنا لها طليقٌ أسير، ونعمةٍ أنا لها عبدٌ بل بها أمير؛ حتى أَدبرتْ عني جيوشُ الأسى مفلولة[٨]، وقصُرتْ عَنّي يدُ الهمّ مغلولة، ومُلِئتْ منّي مسامعُ المكارم حمدًا،

(١) اللمى: السمرة، أو السواد.
(٢) الجوانح: مفردها، الجانحة، وهي الضلع القصيرة مما يلي الصدر.
(٣) الرّحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر، ويدار الأعلى على قطب.
(٤) أصغر ممشاه: أي ألحق به الصّغار، وهو الذلّة والخضوع والمهانة.
(٥) النحر: أعلى الصدر.
(٦) السحر: بفتح السين وسكون الحاء المهملة وفتحها: الرئة، أراد ما يحاذيها من الصدر.
(٧) الخلد: بفتح الخاء واللام: البال والنفس. (٨) المفلولة: المنهزمة.

وخواطرُ الصنائع ودًا؛ وحَطَّ الأملُ بربعي رحلَه، وأَنبَتَ الربيعُ بفِنائي بَقْلَه، ولبِسْتُ من الإقبال أَشرَفَ خلعه، ووردتُ من القبول أَغزَرَ شرْعه، وانتجعتُ[١] من رياض الرجاء أرجى نُجْعه.

وقال أيضًا من آخر: هذا مِن عفوِ الخواطر، فكيف إذا استدعَى المجلسُ خَطِّيّةَ[٢] خَطِّه فجاءت تَعسِل[٣]، وحَشَدَ حُشودَ بلاغته فأتت من كل حَدَبٍ[٤] تَنسِل[٥]!.

ومن آخر: ورَتَعَ في رياض بلاغته التي لم يقتطفهنّ مِن قبلِه غارس ولا جان، واَجتَلى الحورَ المقصوراتِ في الطروس[٦] التي لم يَطْمِثهنّ[٧] إنسٌ قَبلَه ولا جانّ؛ وغَنِيَ بتلك المحاسن غنًى خيرًا مِن المال، واعتَقَد[٨] فيها كنوزًا إذا شاء أنفق منها الجُمل، وإذا شاء أَمسَكَ منها الجمال.

وقال أيضًا: كتابٌ اَشتَمَل على بديع المعاني وباهِرِها، وزَخَرتْ بحارُ الفضل إلا أنني ما تعبتُ في اَستخراج جواهِرِها؛ بل سبَحتْ حتى تناولتُها، وجَنحتْ إليّ فما حاولتُها؛ واَقتبستُ مِن محاسنِ أوصافِه، وبدائعِ أصنافِه؛ نكتًا[٩] اَستقَلّتْ أجسادُها بالأرواح، وزُهِيَتْ جيادُها بما فيها من الغرر والأوضاح؛ فيالله مِن بدائعَ وروائع، ولطائفَ وطرائف! فيها ما تَشتهِي الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين، وما يقرّط[١٠] الأسماعَ ويقرّط[١١] الألسُن؛ فكأنه قطر قطر صَوبُه مِدرار، وعَلَمٌ[١٢] عِلْم منصوبٌ في رأسه نار؛ صَحّح السحر وإن كان ظنًا، وفضح الدّرَّ إذ كان أبرعَ معنى، وأَسنَى حُسنًا،

---

(١) انتجع: ذهب لطلب الكلأ.

(٢) الخطية: رماح تنسب إلى الخطّ، وهو مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه لأنها تحمل إليه من الهند فتباع به.

(٣) عسل الرمح عسلًا: اشتدّ اهتزازه واضطرب.

(٤) الحدب: بفتح الحاء والدال: الغلظ المرتفع من الأرض.

(٥) تنسل: تسرع

(٦) الطروس: مفردها الطرس، وهي الصحيفة.

(٧) يطمثهنّ: يفتضّهنّ.

(٨) اعتقد: أحرز واقتنى.

(٩) نُكَتٌ: مفردها: نكتة، وهي الفكرة اللطيفة المؤثرة بالنفس.

(١٠) يقرط الأسماع: أي يحلي بها الأسماع، كما تتحلى الآذان بالأقراط، وهو جمع قرط، وهو ما يعلق من الحلي في شحمة الأذن.

(١١) يقرط الألسن: من التقريط، وهو التقطيع؛ أو هو من تقريط الفرس، أي إلجامه.

(١٢) العلم: الجبل: يشير إلى قول الخنساء:

وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداة به ... كأنّه علم في رأسه نار

(انظر ديوان الخنساء ص ٤٩، دار صادر).

وأَدنى مجْنى، وأَغنَى مَغْنى؛ فما ضره تأخيرِ زمانِه، مع تقدُّمِ بيانِه؛ ولا مَن سبَقَه في عصرِه، مع أنه قد سَبق في شعرِه.

ومن آخر: ولله هو من كتابٍ لَمّا وقفَتْ عليه الغُلّةُ شَفاها، ورأيت وِرْدَها كلَّ ماءٍ غيرِه سَفاها[١]، ووطّأ مضاجعَ أُنسِها بعد أن كان الشوقُ يُقلّب الجنوبَ على سَفاها[٢]؛ فلا عدم ودّها الذي به عن كلّ مودّةٍ سُلوة، ولا برحت كفايةُ ٱلله تُحِلّها في الذُّرا[٣] وتُعلِي قدرَها في الذُّروة، ولا فقد مما يُنعِم به أيَّ نعمة، ولا مما يُنشيه أيَّ نشوة.

ومن آخر: كتابٌ كريمٌ تبَسّم إليّ ضاحكًا، وظُنَّ مدادُه أنه قد جلا سَطرُه عليّ حالكًا؛ فما هو إلّا سوادُ الحدقة منه ٱنبعثَت الأنوار، وما هو إلا سُويداءُ[٤] ليلة الوصل ٱشتَملتْ على دجًى تحته نهار، فللّه هو مِن كتابٍ ٱستغفر الدهرُ ذنبَ المشيب بسوادِه، واستَدرك الزمانُ غلطَه بسدادِه.

ومن آخر: كتابٌ تقارعَت[٥] الجوارحُ عليه فكادت تَتَساهم، فقالت اليدُ: أنا أولى به، شَددَتُ على مولاه ومولاي عَقدَ خِنصَرِي، ورفعتُ ٱسمَه فوق منبري: وقبضتُ عليه قبضتي، وبسطتُ في بسطِ راحتِه وقت الدُّعاء راحتي؛ وقالت العين: أنا أولى به، أنا وعاءُ شخصِه، وإليّ يرجع القلبُ في تمثيلِه ونصِّه؛ وأنا سهرتُ بعد رحيلِهِ وحْشَة، وأنا إذا ذَكَا هجيرُ القلبِ عَلَلتُه[٦] رشّةً بعد رشّة؛ فقال القلب: طمعتما في حقّي لأني غائب، وهل أنتِ لي يا يدُ إلّا خادم؟ وهل أنتِ لي يا عينُ إلا حاجب؟ أنا مستقرُّه ومستودَعُه، ومَرتَعُه ومَشْرَعُه، وأنا أَذكُرُه وبه أَذكُرُكما، وأُحضِرُه ولخدْمتِه أُحضِرُكما؛ فاليدُ أستخدمُها مَرّةً في الكتابة إليه، ومرّة في شدِّ الخِنصِرِ عليه؛ ومَرَّةً في الإشارة إلى فضلِه، ومَرَّةً في الدعاءِ بكلِّ صالحٍ هو مِن أهلِه؛ والعينُ ٱستخدمتها في ملاحظةِ وجهه آئبًا[٧]، وفي تَوقُّعِ لقائه غائبًا؛ وفي السهدِ[٨] شوقًا إلى قربه، والمطالَعةِ لما يَخرُج أمري بكَتْبِه مِن كُتْبِه؛ فهنالك سَلّمتا وٱستَجَرّتا[٩]، وألقتا

---

(١) السفاه: الجهل. (٢) السفا: الشوك.
(٣) الذّرا، يقال: إنه لكريم الذّرا: أي كريم الطبيعة، والذّرا: الملجأ والسّتر.
(٤) السويداء: تصغير السوداء. (٥) تقارعت: تقارع القوم: ضربوا القرعة.
(٦) عللته من العلل، وهو الشرب الثاني. (٧) آئبًا: عائدًا، راجعًا.
(٨) السهد: الأرق.
(٩) استجرتا: انقادتا؛ يريد أنهما وافقتاه على دعواه.

وٱستأخرتا؛ وكدتُ أرشِف نِقسه[١] لأنقلَه إلى سُويداه، لولا أنّ سواد العين قال: أنا أحْوَج إلى الاستمدادِ من هُداه.

ومن كلامه رحمه الله تعالى ما رُكّب نصف قرائنه على نصف بيت نحو قوله: [من الطويل]

وَصَلَ كتابُ مولاي بعدما: «أصات[٢] المنادي للصَلاة فأعتما»

فلمّا ٱستَقرّ لديّ، «تَجلّى الذي من جانب البدر أَظلَما» فقرأتُه، «بعينٍ إذا استَمطَرتُها أمطرتْ دمًا» وساءلتُه، «فساءلتُ مصروفًا عن النطقِ أعجَمًا»[٣] ولَم يردَّ جوابًا، «وماذا عليه لو أجاب المتيّما» وردّدتُه قراءة، «فعوجلتُ دون الحلمِ أن أتحلّما» وحفِظتُه، «كما يحفظ الحرُّ الحديثَ المكتَّما» وكرّرتُه، «فمن حيثما واجهتُه قد تبسّما» وقبّلتُه، «فقبّلتُ درًّا في العقود منظَّما» وقمتُ له، «فكنتُ بمفروض المحبّة قيّمًا» وأخلصتُ لكاتبِه، «وليس على حكم الحوادث محكِمًا»[٤] ولَم أصدّفه[٥]، «ولكنّه قد خالط اللحم والدما» وأرّختُ وُصولَه، «فكان لأيام المواسم موسمًا» وداويتُ عليلَ «حَشًا ضَرّما فيه من النار ضُرّما» وشفَيتُ غليلَ «فؤادٍ أُمنّيه وقد بلغ الظما» فأما تلك الأيام التي «حماها من اللوم المُقامُ على الحمى» والليالي العذابُ التي «ملأن نحور الليل بِيضًا[٦] وأنجمًا» [فإنّي لأذكُرها، «بصبرٍ كما قد صُرّمتْ قد تَصَرّما»][٧] وأرسِل الزفرة «فلو صافحت رَضوَى[٨] لَرُضّ[٩] وهُدّما» وأرسل العبرة، «كما أنشأ الأُفق السحابَ المديّما»[١٠] وأخطب السَلوة، «فأَسأل

(١) النقس: بالكسر المداد.
(٢) أصات: نادى وهو من الصّوت.
(٣) الأعجم: الأخرس.
(٤) ارتباط هذا الشّطر الشعري بما قبله من النّثر غير ظاهر، ولعلّه يريد: «ولست على حكم الحوادث محكمًا» أي أنّني لا أملك ردّ الحوادث التي تعوقني من أن أكتب إليه بما عندي له من الشوق، فيكون بذلك الارتباط واضحًا...
(٥) لم أصدّفه: أي لم أُغشّه بالصَّدَف، كما يُغشّى الدرّ، وفي صبح الأعشى ١/ ٣٢٥ دار الكتب العلمية «ولم أصدّقه».
(٦) البيض: جمع أبيض، ومن معانيه الرّجل النقي العرض، والظاهر أنّ هذا هو المراد، فهو يريد أن يصف خلانه وجلساءه بنقاء أعراضهم من الدّنس والعيب، وأنّهم كالنجوم في علوّ الشرف وبعد المنزلة.
(٧) ما بين قوسين زيادة عن مسالك الأبصار.
(٨) رضوى: جبل بالمدينة. (معجم البلدان ٣/ ٥١).
(٩) رُضّ: من الرّض وهو الدقّ والكسر.
(١٠) أنشأ الأفق السّحاب: أي رفعه، والمديّم: من ديم السّحاب: أي دام مَطره.

معدومًا وأَقفُل[١] معدمًا» فأما الشكرُ فإنما «أفضّ به مسكًا عليك مختَّما»[٢] وأقوم منه بفرض «أراني به دون البريّة أَقْوَما» وأوَفّى واجبَ قرض، «وكيف تُوَفّي الأرض قَرْضًا من السما»[٣].

وقال أيضًا: وصل كتابُ الحضرة بعد أن عددتُ الليالي «ليلةً بعد ليلة»[٤] لطلوعِ صَدِيعِه[٥] «وقد عشتُ دهرًا لا أعُدّ الليالي»، وبعد أن انتظرتُ القيظَ[٦] والشتاءَ لِفصلِ ربيعِه «فما للنوى تَرمى بليلي المراميا»! واستروحتُ إلى نسيم سَحَرِه، «إذا الصيفُ أَلقَى في الديار المراسيا»[٧] ومددتُ يدي لاقتطاف ثَمَرِه، «فللّه ما أَحلَى وأحمَى المجانيا!»[٨] ووقفتُ على شكواه مِن زمانِه، «فبتُّ لشكواه من الدهر شاكيًا» وعجبتُ لعمى الحظِّ عن مكانِه «وقد جمع الرحمٰن فيه المعانيا» وتَوقّعتُ له دولةً يعلو بها الفضل «إذا هزّ مِن تلك اليراعِ عَواليا»[٩] ورتبةً يَرتقِي صهوتَها بحكم العدل «فرُبّ مَراق[١٠] يُعتدَدن مَهاويا» وإلى الله أرغب في إطلاع سعودِه، «زواهرَ في أفق المعالي زواهيا» وفي إنهاض عثَراتِ جدودِه، «فقد أعثرتْ بَعدَ النهوض المعاليا».

وقال أيضًا:

وَصلَ من الحضرة: [من الطويل]

كتابٌ به ماءُ الحياةِ ونَقعةُ الـ ... ـظما فكأنّي إذ ظفِرتُ به الخِضْرُ

ووَقَفَ عبدُها منه على:

عقودٍ هي الدرُّ الذي أنت بحرُه ... وذلك ما لا يَدَّعِي مِثلَه البحرُ

---

(١) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) (فأسأل معدومًا وآمل معدمًا) وأقفل: من القفول: وهو الرجوع.
(٢) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) «عليه مختما» وأفضّ: من فضّ أي نزع الختام،، والمختّم: الذي غطّي فوهته بطينٍ أو شمع أو غيرهما حتى لا يدخله أو يخرج من شيء.
(٣) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) «فرضًا من السّما».
(٤) (التكملة من صبح الأعشى ١/٣٢٧). (٥) الصّديع: الصبح.
(٦) القيظ: الحرّ وصميم الصّيف.
(٧) المراسي: مفردها المرسى وهو محطّ السفينة بالسّاحل.
(٨) وأحمى المجانيا: وصف مجانيها بالصّيانة وأنّها ممنعة غير مبتذلة.
(٩) اليراع: القصب، والعوالي: الرّماح، يريد أنّه قد هزّ من اليراع ما هو مستخدمٌ في صناعة الرّماح.
(١٠) المراقي: مفردها المرقاة، وهي ما يرقى به إلى العُلا. . . فالجود مثلًا مرقاة الشرف.

ورَتَعتُ منه في:

رياضِ يدٍ تُجْنَى وعَينٍ وخاطرٍ … تَسابَق فيها النَّورُ والزهرُ والثُّمْرُ[١]

وكرَعتُ منه في حياضٍ:

تَسرُّ مَجانيها إذا ما جنى الظما … وتُروِي مَجاريها إذا بَخِل القَطرُ[٢]

وما زلتُ منه أنشد:

كأنّيَ سارٍ في سَرِيرة ليلةٍ … فلمّا بدا كبّرتُ إذ طلع الفجرُ[٣]

ووافَى على ما كنتُ أعهد:

فخلتُ بأنّ العين مِن سُحْبِ كفِّه … فمِن ذي ومِن ذي فيه يَنتثِر الدرُّ[٤]

وأسترجع فائتَ الدنيا من مَوردِه:

وما كان عندي بعد ذنبِ فراقِه … بأنّي أرَى يومًا به يَعِد الدهرُ

ونفّس عن النفسِ بأبيض ثِمادِه[٥]، وعن العين بأَسْوَدِ إثْمِدِه:

به لهما سبحٌ طويلٌ فهذه … على خاطرٍ بَردٌ وفي خَطَرٍ بدرُ[٦]

وجَدَّدَ إليه أشواقًا جديدُها:

يمرّ به ثوب الجديدين دائمًا … فيبلى ولا تَبلَى وإن بَلِيَ الدهرُ[٧]

وذَكّر أيامًا لا يزال يستعيدها:

وهيهات أن يأتي من الدهر فائتٌ … فدع عنك هذا الأمرَ قد قُضِيَ الأمرُ[٨]

وكلامُ القاضي الفاضي ـ رحمه الله ـ كثيرٌ، بأيدي الناس منه عدّةُ مجلّدات، أَخبرَني من أثق بقوله من القضاة الحكام الأعيان أنه يزيد على خمسين

---

(١) الثمر: جمع ثمار بكسر الثاء، وهذا الجمع يجوز فيه كسر عينه وضمّها.
(٢) القطر: المطر.
(٣) السّريرة: التي تسرُّ من الظلمة أي تخفي، والسّرار: حين يكون القمر في المحاق.
(٤) العين: نبعُ الماء، وفي (صبح الأعشى ١/ ٣٢٤)، «فمن ذا ومن ذا فيه. . .».
(٥) الثماد: الماء القليل.
(٦) السبح: الفراغ والمتسع، والخطر: الأمرُ المخوف.
(٧) الجديدان: الليل والنّهار.
(٨) هيهات: اسم فعل بمعنى «بعُد».

مجلّدًا قد جُمِعتْ، أما ما لم يجمعه الناس فكثير جدًّا؛ وقد نَقل بعضُ مَن أَرّخ، أنه وجد للقاضي الفاضل مسوَّداتِ كتب صدرتْ[١] عنه وأجْوبةٍ تزيد إذا جُمِعتْ على مائة مجلّد، ولا يحتملِ الحالُ أن نورد له أكثرَ مما أوردناه، ورسائلُه المختارةُ كثيرةٌ قد يكون فيها أجودُ مما اخترناه ونحوه، وإنما أوردناه له ما حضر في هذا الوقت، إذ لم يمكن البحث عن كلامه والاستقصاء، وإن كان كلُّ رسائله مختارةً رحمه الله.

ذكر شيء من رسائل الشيخ الإمام الفاضل ضياء الدين أبي العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العابد القدوة أبي عبد الله محمدِ بنِ عمرَ بنِ يوسفَ بنِ عمرَ بنِ عبد المنعم الأنصاريِّ القرطبيِّ رحمه الله

ـ وكانت وفاتُه بقِنا[٢] من أعمال قوص[٣] في سنة اثنتين وسبعين وستمائة ـ.

كتب إلى شيخنا الإمامِ العلّامةِ تقيِّ الدين محمد ابنِ الشيخ الإمام الحَبرِ مجدِ الدين أبي الحسن عليّ بنِ وهب بنِ مطيع القُشيريِّ المعروفِ بابن دقيقِ[٤] العيد رحمهم الله تعالى: تخدِم المجلس العاليَ صفاتٌ يقِف الفضلُ عندَها، ويَقْفُو[٥] الشرفُ مجدَها، وتَلتزِم المعالي حمدَها؛ وسِماتٌ يبتسم ثغرُ الرياسة منها، وتُروَى أحاديثُ السيادة عنها؛ الصدريّ الرئيسيّ المفيديّ؛ معانٍ ٱستحقّها بالتمييز، واستَوجبها بالتبريز، وسَبَكتْه الإمامةُ لها فألْفتْه خالصَ الإبريز[٦]؛ ومعالٍ أقرّتْه في سويدائها، وأطلعتْه في سمائها، وألبستْه أَفْضلَ صفاتِها وأَشْرفَ أسمائها؛ العلّاميّ الفاضليّ التقَويّ؛ نسبٌ ٱختص به ٱختصاصَ التشريف، لا تعريفًا له فالشمس تستغني عن التعريف؛ لا زالت إمامتُه كافلةً بصون الشرائع، واردةً من دين الله وكفالةِ أمّةِ رسول الله

---

(١) صدرت عنه: نشأت.

(٢) قِنا: مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد، وقِنا: كلمة قبطية. (انظر معجم البلدان ٤/ ٣٩٩).

(٣) قوص: كلمة قبطية، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، وأهلها أرباب ثروة واسعة، شديدة الحرّ، وهي محطّ التجار القادمين من عدن. (معجم البلدان ٤/ ٤١٣).

(٤) ابن دقيق العيد: هو محمد بن عليّ بن وهب بن مطيع، قاضٍ من أكابر العلماء بالأصول نشأ بقوص وتعلّم بالإسكندرية ثم بالقاهرة، ولي قضاء الدّيار المصرية إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢هـ له تصانيف كثيرة. (انظر الأعلام ٦/ ٢٨٣).

(٥) يقفو: يتبع.

(٦) الإبريز: الذهب الخالص.

أَشْرفَ الموارد وأَعْذبَ الشرائع[١]، آخذةً بآفاق سماء الشرف فلها قَمَراها والنجومُ الطَّوالع[٢]، قاطعةً أطماع الآمال عن إدراك فضلِه وما زالت تُقطِّع أعناقَ الرجال المطامع[٣]، صارفةً عن جلاله مَكارهَ الأيام صرفًا لا تَعتَورُه القواطع، ولا تعترضه الموانع؛ ويُنهِي ورودَ عذرائه التي «لها الشمسُ خِدْنٌ[٤] والنجومُ ولائدُ» وحسنائه التي «لها الدرُّ لفظٌ والدَّراري[٥] قلائدُ» ومشرِّفتِه التي «لها من براهين البيان شواهدُ» وكريمتِه التي «لها الفضلُ وِردٌ والمعالي موائدُ» ووديعتِه التي «لها بين أحشائي وقلبي مَعاهدُ»: [من الطويل]

وآيتِه الكبرى التي دلّ فضلُها ... على أنّ من لَم يشهدِ ٱلفضل جاحدُ
وأنّك سيفٌ سلّه الله للهدى ... وليس لسيفٍ سلّه الله غامدُ

فلِمِثلِها يحسُن صَوغُ السوار، ولِفضلِها يقال: «أناةً أيها الفَلَكُ المُدار» وإنها في العِلم أصلُ فرعٍ نابت، والأصل علّةُ النشأة والقرار، وفرعُ أصلٍ ثابت، والفرعُ فيه الورقُ والثمار؛ هذه التي وَقفَتْ قرائحُ الفضلاء على استحسانِها، وأوقفَتْني على قدم التعبُّدِ لإحسانِها، وأيقنتُ أنّ مفترقَ الفضائل مُجتمِعٌ في إنسانِها، وكنتُ أعلم عِلمَها بالأحكام الشرعية فإذا هي في النثر ٱبنُ مقفّعِها[٦]، وفي القصائد أخو حسّانِها[٧]؛ هذه وأبيك أمُّ الرسائل المبتكَرة، وبنتُ الأفكار التي هذّبتها الآدابُ فهي في سهل الإيجاز البَرْزةُ[٨] وفي صَونِ الإعجاز المخدَّرة، والمليئةُ ببدائع البداثة، فمتى تقاضاها متقاضٍ لَم تقُلْ: «فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ»؛ والبديعةُ التي لم تُوجَّه إليها الآمالُ فكرَها لاستحالةِ غيرِ مسبوقٍ بالشعور، ولَم تسمُ إليها مقلُ الخواطر لعدَمِ الإحاطة بغيبِ الصدور قَبْلَ

---

(١) الشّرائع: مفردها الشّريعة وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تسمّيها شريعة حتى يكون الماء، عدًا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا معينًا لا يسقى بالرّشاء.

(٢) إشارة بهذه العبارة إلى قول جرير:
أخذنا بآفاق السّما عليكمو ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

(٣) أشار بهذه العبارة إلى قول البعيث المجاشعي:
طمعت بليلى أن تريع وإنّما ... تقطّع أعناق الرّجال المطامع

(٤) الخدن: الصّديق أو الصّديق في السرّ.

(٥) الدّراري: الكواكب العظام التي لا تعرف أسماؤها.

(٦) أي عبد الله بن المقفع الأديب العباسي صاحب كتاب كليلة ودمنة.

(٧) حسّانها: أي حسّان بن ثابت شاعر الرسول.

(٨) البرزة: البارزة المحاسن.

الصدور، والبديهةُ التي فَصَّل البيانُ كلماتِها تفصيلَ الدرر بالشذور[١]؛ إنّ كَلِمَها لَيمِيس[٢] في صدورها وأَعجازِها، ويختال في طورها وإعجازِها، وتنثال[٣] عليها أغراض المعاني بين إسهابِها وإيجازهها؛ فهي فرائدُ ٱئتلفَتْ من أفكار الوائليِّ والإيادي، وقلائدُ ٱنتظمَتْ ٱنتظامَ الدراري، ولطائمُ[٤] فُضَتْ عن العنبر الشُّحْرِيِّ[٥] والمسكِ الداري[٦]؛ لا جرم أن غوّاصِي الفضائل ظلوا في غمراتها[٧] خائِضين، وفُرسانَ الكلام أضحَوا في حَلَباتها راكضِين، وأبناءَ البيان تُلِيَتْ عليهم آياتُها: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٤]: [من الكامل]

ما إنْ لها في الفضل مِثلٌ كائنٌ ... وبيانُها أحلى البيانِ وأَمثَلُ
فالعجزُ عنها مَعْجِزٌ متيقَّنٌ ... ونبيُّها بالفضل فينا مرسَلُ[٨]
ما ذاك إلا أنّ ما يأتي به ... وحيُ الكلام على اليراعة ينزلُ[٩]

بزَغَتْ شمسًا لا تَرضَى غيرَ صدرِه فَلَكًا، وانقادت معانيها طاعةً لا تختار سواه مَلِكًا، وانتَبَذَتْ[١٠] بالعراء فلا تخشى إدراكَ الإنكار ولا تخاف دَرَكًا، ونَدَّت[١١] شواردُها فلا تقتنصها الخواطرُ ولو نصبَتْ هُدْبَ الجفون شَرَكا: [من البسيط]

فلِلأصائلِ في عليائها سَمَرٌ
إن الحديث عن العلياء أَسمارُا[١٢]
ولِلبصائرِ هادٍ مِن فضائِلها
يهدي أُولي ٱلفضلِ إن ضلّوا وإن جاروا

(١) الشذور: مفردها: الشذر، خرز يفصل به بين حبات العقد ونحوه.
(٢) يميس: يتبختر ويختال. (٣) تنثال: تتتابع.
(٤) اللطائم: أوعية المسك، واحدتها لطيمة.
(٥) الشحريّ: نسبة إلى الشحر، وهو صقع بساحل بحر الهند من ناحية اليمن، بين عدن وعمان، على حد قول الأصمعي. (معجم البلدان ٣/ ٣٢٧).
(٦) الداريّ: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين فيها سوق كان يحمل إليها المسك من ناحية الهند. (معجم البلدان ٣/ ٤٣٢).
(٧) الغمرات: مفردها «الغمرة» وهي الشدّة والزّحمة.
(٨) المعجز: مصدر ميمي بمعنى العجز.
(٩) اليراعة: واحدة اليراع، القلم يتخذ من القصب.
(١٠) انتبذت: تنحت واعتزلت. (١١) ندَّت: هامت وشردت.
(١٢) الأسمار: مفردها «سمر» بفتح السين والميم وهو معروف.

بادِي الإبانةِ لا يخفى على أحد

«كأنّه عَلَمٌ في رأسه نارُ»

أَعْجِب بها من كَلِمٍ جاءت كغمام الظِّلالِ على سماء الأنهار! وسَرتْ كعليل النسيم عن أندِية الأسحار، وجُلِيَتْ محاسنُها كلؤلؤ الطلّ على خدود الأزهار، وتجلّت كوجنة الحسناء في فَلَكِ الأزرار، وأهدت نفحةَ الروض متأوِّدَ[١] الغصن بليلَ الإزار، فأحيتنا بذلك النفَسِ المِعطار، وحيّتنا بأحسنَ من كأسَيْ لمًى وعُقار[٢]، وآسَيْ[٣] ريحانٍ وعذار؛ ولؤلؤَى حَبَبٍ وثغر، وعَقِيقَيْ شفةٍ وخمر، وربيعَي زهرٍ ونهر، وبديعَي نظمٍ ونثر؛ ولم أَدرِ ما هي أثغورٌ ولآلئ؟ أم شذورُ قلائد؛ أم توريدُ خدود، أم هيفُ[٤] قدود؛ أم نهودُ صدور، أم عقودُ نحور؛ أم بدورٌ ائتلقَتْ في أضوائها، أم شموسٌ أشرقت في سمائها؟: [من الطويل]

جَمَعن شتيتَ الحسن مِن كلِّ وجهة ... فحَيّرن أفكاري وشَيَّبن مَفرِقي[٥]

وغازلها قلبي بودٍّ محقّقٍ ... وواصلها ذكري بحمدٍ مصدَّقِ

وما كنتُ عَشّاقًا لِذات محاسنٍ ... ولكنّ من يبصرْ جفونك يَعشَقِ

ولم أدر والألفاظُ منها شريفةٌ ... إلى البدر تسمو أم إلى الشمس ترتقِي

إنما هي جملةُ إحسان يُلْقِي اللهُ الرُّوحَ مِن أمرِه على قلبِها، أو روضةُ بيان «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»؛ أو ذاتُ فضلٍ اشتَمَلتْ على ذواتِ الفضائل، وجنت ثمر العلوم فأَجْنَتْها بالضحى والأصائل[٦]؛ أو نفسٌ زكت في صنيعِها، ونفَثَ رُوحُ القُدُس في رُوعِها[٧]؛ فسلكَتْ سُبُلَ البيان ذُلُلا، وعدمَتْ مماثِلا فأضحت في أبناء المعالي مَثَلا؛ وسَرَتْ إلى حَوْزِ الأماني والأنامُ نيام، فوَهب لها واهبُ النعم أَشرَفَ الأقسام؛ فجادت في الإنفاق، ولَم تُمسكْ خشيةَ إِملاق، وقيّدتْ نفسَها في طَلَق[٨] الطاعة

---

(١) تأود: تعوّج وتثنّى.
(٢) العقار: الخمر، واللّمى: السّمرة المستحبّة في باطن الشّفة السفلى.
(٣) آسَي: مثنّى الآس: وهو نبات ذو ثمار كروية بيضاء وسوداء ورقه عطر، وخضرته دائمة، ويسمّى أيضًا «الرّيحان».
(٤) الهيف: مفردها: أهيف، وهو الدقيق الخصر الضامر البطن.
(٥) المفرق من الرأس: حيث يفرق الشعر، والشتيت: المتباعد المتفرّق.
(٦) الأصائل: مفردها الأصيل.
(٧) الروع: الفزع.
(٨) في طلق الطاعة، أي في قيدها. وأصل الطلق بالتحريك، القيد من جلود.

فجاءها توقيعُ التفضيل على الإطلاق: [من الطويل]

أَبِنْ لِيَ مَعْزاها أخا الفهم إنّها ... إلى الفضل تُعْزَى أم إلى المجد تُنسَبُ
هي الشمسُ إلّا أنّ فكرَك مَشرِقٌ ... لإبدائها عندي وصدري مَغرِبُ
وقد أبدعَتْ في فضلها وبديعِها ... فجاءت إلينا وهي عنقاءُ مُغْرِبُ[١]
فأعرَب عن كلّ المعاني فصيحُها ... بما عجزَتْ عنه نزارُ ويَعرُبُ
ومذ أشرقَتْ قبل التناهي بأَوْجِها ... عفا في سناها بدرُ تمٍّ وكوكبُ[٢]
تناهت علاءً والشبابُ رداؤها ... فما ظنكم بالفضل والرأس أَشيَبُ
لئن كان ثغري بالفصاحة باسمًا ... فثغرك بسّام الفصاحة أشنبُ[٣]
وإن ناسبَتْني بالمجاز بلاغةٌ ... فأنت إليها بالحقيقة أَنسَبُ
ومذ وَرَدَتْ سمعي وقلبي فإنها ... لتُؤكَل حُسْنًا بالضمير وتُشرَبُ
وإني لأشدو في الورى بثنائها ... كما ناح في الغصن الحمامُ المطرِّبُ[٤]
وتشهد أبناء البيان إذا انتدَوا ... بأنيَ من قسّ الإياديّ أخطَبُ[٥]
وإنّي لَتدنيني إلى المجد عصبةٌ ... كرامٌ حوتهم أوّلَ الدهر يَثرِبُ
وإنّي إذا خان الزمان وفاءَه ... وفيٌّ على الضراء حرٌّ مجرّبُ
إباءٌ أبت نفسي سواه وشيمةٌ ... قضى لي بها في المجد أصلٌ مهذّبُ
ونفسٌ أبت إلا اهتزازًا إلى العلا ... كما اهتزّ يومَ الرَّوع رمحٌ ومِقضَبُ[٦]
ولي نسبٌ في الأكرمين تَعرّفَتْ ... إليه المعالي فهو ريّانُ مخصِبُ[٧]
نَمَتْهُ أصول في العلاء أصيلةٌ ... لها المجدُ خِدْنٌ والسيادةُ مَركبُ[٨]
تَلاقى عليه المطعمون تكرّمًا ... إذا احمرّ أفقٌ بالمَجَرّة مجدِبُ[٩]

(١) العنقاء المغرب: أي العنقاء التي أغربت في البلاد ونأت ولم تحس ولم تر. والمراد أنّ هذه الرّسالة غريبة في بلاغتها وحسن بيانها، ولا عهد للكتّاب بأمثالها.
(٢) عفا: امّحى.
(٣) الأشنب: الثغر الذي رقت أسنانه وابيضت.
(٤) الورى: الخلق.
(٥) الإيادي، هو قس بن ساعدة الإيادي، رجل يضرب المثل بفصاحته في الخطابة.
(٦) المقضب: السيف القاطع.
(٧) يريد كثرة ما يعدّ فيه من الكرام وأصحاب المفاخر.
(٨) الخدن: الصديق.
(٩) احمرار الأفق: كناية عن الجدب. والمجرّة: البياض المعترض في السماء، والنسران عن جانبيها.

من اليمنيّين الذين سما بهم إلى العزّ بيت في المعالي مطنَّبُ[١]
قرَوا تُبّعا بيضَ المواضي ضَحاءَه وكُومَ عِشارٍ بالعشيّات تُضْهَبُ[٢]
فرحّلَه الجودُ العميم ومنصُلٌ له الغمدُ شرقٌ والذوائبُ مَغرِبُ[٣]
وهم نَصَروا والدين عزّ نصيرُه وآوَوا وقد كادت يدُ الدين تُقضَبُ[٤]
وخاضوا غمار الموت في حومة الوغى فعاد نهارًا بالهدى وهو غيهبُ[٥]
أولئك قومي حسبيَ الله مثنيا عليهم وآيُ الله تُتلىٰ وتُكتَبُ

هذه اليتيمة أيدك الله مِلْحتُها الإحماض[٦]، وتحليتُها الألفاظُ في أبعاض الاعتراض لِتَسرحَ مقلُ الخواطر في مختلفات الأنواع، ويتنوّعَ الواردُ على القلوب والأسماع، وإلا فلا تَماثُل في الأدوات، وإن وقع التماثُل في الذوات، كالجمع بين (التُّوريّة في السراج والشمس، واْشتمال الإنسانيّةِ على القلامة[٧] والنفس، والتوارُدِ الإداركيِّ بين كلّيٍّ بالعقل، وجزئيٍّ بالحسّ[٨]؛ وكالعناصر في افتقار الذوات إليها، وإن تميّزت الحرارة عليها؛ وكالمشارَكة الحيوانيّة في البضعة اللسانيّة، واختصاص الناطقيّة بالذات الإنسانيّة؛ فسيّدنا ثمرُ الروض ونسيمُه، وسواه ثراه وهشيمُه، وزهرُه وأنداؤه، وغيرُه شوكُه وغُثاؤه؛ والبدرُ وإشراقُه، وسواه هلاليّتُهُ ومِحاقُه[٩]؛ اشتراكٌ في الأشخاص، وامتياز في الخواصّ، ومشابهَة في الأنواع والأجناس، ومغايَرة في العقول

(١) المطنّب: المشدود، والطّنب: الحبل تشدّ به الخيمة إلى الوتد.
(٢) قروا: من القرى أي أطعموا، وتُبَّع: قيلٌ من أقيال اليمن، وبيض المواضي: السيوف، والضّحاء: أي وقت ضحائه، والضحاء إذا امتدّ النّهار وارتفعت الشمس، والكوم: النّياق العظيمة الأسنمة واحدتها «كوماء» وتضهب: من قولهم ضهبه بالنار: إذا لوّحه وغيره، ولعلّه من ضهّب اللحم بتشديد الهاء: أي قطعه.
(٣) المنصل: السيف، والذّؤابة: علّاقة السيف. (٤) تقضب: تقطع.
(٥) الغيهب: الشديد الظلمة.
(٦) الإحماض: مصدر أحمضَت الإبل: إذا أكلت الحمض، وهو ما ملح وأمرّ من النّبات، وهو كفاكهة الإبل تأكله عند سآمتها من الخلة فهو يريد أن يصف رسالته إذا نسبت لرسالة ابن دقيق العيد بإحماض الإبل بعد أن تسأم أكل الحلو من النبات.
(٧) القلامة: ما يطرح من الظفر.
(٨) أشار في هذه العبارة إلى ما هو معروف في كتب المعقول من أنّ الماهيّات الكلّيّة إنما تدرك بالعقل دون غيره، وذلك لأنها ليس لها وجود في الخارج وأمّا جزئيات هذه الماهيات وأفرادها فإنّها تدرك بالحسّ لوجودها الخارجي.
(٩) المحاق: آخر الشهر القمري، وثلاث ليالٍ من آخر الشهر القمري، أو ما يرى في القمر من نقص بعد اكتماله.

والحواسّ؛ كالورد والشَّقِيق، والقَهرمانِ[١] والعقيق؛ تماثُلَا في الجواهر والأعراض، وتغايرًا في تمييز الأغراض؛ فسيّدنا من كلّ جنسٍ رئيسُه، ومن كلّ جوهرٍ نفيسُه؛ وأما حسناءُ المملوك على مذهبهم في تسمية القبيحِ بالحَسَنِ، والحَسَنِ بالقبيح، والضريرِ بالبصيرِ والأخرسِ بالفصيح؛ فما صَدّت ولا صَدّت يمني[٢] كاسِها. ولا شذّت في مذهب ولائه عن اطّراد قياسِها، ولا زَوَتْ عن وجه جلالتِه وجهَ إيناسِها، ولا جهلَتْ أنه في العلوم الشرعيّة ابن أنَسِها، وفي المعاني الأدبيّة أبو نواسِها[٣]؛ ولا خفِيَ عنها أن سيّدنا مجرَى اليمين[٤]، وفي وجه السيادة إنسانُ المقلة وغرّةُ الجبين، والدرّةُ في تاج الجلالة والشّذْرةُ[٥] في العقد الثمين؛ وأنه الصدرُ الذي يَأرِز[٦] العِلمُ إلى صدرِه، وتُقْتَرَحُ[٧] عقائلُ المعاني مِن فكره، وتأتمّ الهداةُ ببدرِه، وتَنتمِي[٨] الهدايةُ إلى سرِّه، وإنّها في الإيمان بمحمديّته أمُّ عمارة[٩] لا أمُّ عمرِه؛ وانّه غاية فخارِها؛ ونهايةُ إيثارِها، وآيةُ نهارِها ومستَوطَنُ إفادتِها بين شموس فضائله وأقمارِها؛ فكيف تَصُدّ وفيه كلّيةُ أغراضِها، ومنه علّيّةُ جملتِها وأبعاضِها، وفي محلّه قامت حقائقُ جواهرها وأعراضِها؛ لكنّها توارت بالحجاب، ولاذت بالاحتجاب؛ وقُرب بالمجلس الكماليّ ليكمّل ما بها مِن نقصِ كمالٍ وكمالِ عيب، وتَجمعَ بين حقيقتَي إيمان الشهادة والغيب، وتُعرَضَ على الرأي التقويّ سليمةَ الصدر نقيّةَ الجيب، وأشهَدُ أنها جاءت تمشي على اَستحياءٍ وليست كبنت شعيب[١٠]؛ هذا ولَم تشاهدْ وجهَ حسنائه، ولا

---

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص لتدبير دخله وخرجه.

(٢) أشار بهذه العبارة إلى قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

صددت الكأس عنّا أم عمروٍ وكان الكأس مجراها اليمينا

(انظر شرح القصائد المشهورات لأبي جعفر النحاس ٢/ ٩١، دار الكتب العلمية).

(٣) أبو نواس: هو الحسن بن هانىء، أديب شاعر، ولد بالأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد، وأجود شعره خمرياته توفي سنة ١٩٨هـ. (الأعلام ٢/ ٢٢٥).

(٤) أراد بمجرى اليمين: أنّه أولى من سواه بالتقديم.

(٥) الشذرة: واحدة الشّذر، وهي قطع من الذّهب تلتقط من معدنه.

(٦) يأرز: يأوي ويلجأ.

(٧) تقترح: تستنبط وتبتدع من غير سبق مثال.

(٨) تنتمي: تنتسب.

(٩) أمّ عمارة: هي نسيبة بنت كعب إحدى نساء بني مازن، شهدت بيعة العقبة، والثانية: هي أسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة. (انظر سيرة ابن هشام ١/ ١٥٥، ط، بولاق).

(١٠) أشار بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥] .

(١١) يريد السيدة سكينة بنت الحسين بن عليّ عليهما السّلام، كانت سيدة نساء عصرها، نبيلة شاعرة كريمة، كانت إقامتها ووفاتها بالمدينة سنة ١١٧هـ. (الأعلام ٣/ ١٠٦).

عاينَتْ سُكَينةَ[١] حسينِه وهند[٢] أسمائه، ولا قابلَتْ نيّرَ فضلِه وبدرَ سمائه؛ أقسم لقد كان يصرفها الوجل، ويقيّدها الخجل؛ عالمةً أنّ البحر لا يُساجَل، والشمسَ لا تُماثَل؛ والسيفَ لا يُخاشَن، والبدرَ لا يحاسَن؛ والأسدَ لا يُكْعَم[٣]، والطّودَ[٤] لا يُزْحَم؛ والسحابَ لا يبارَى، والسيلَ لا يُجارَى؛ وأنّى تبلُغ الفَلَكَ هامةُ المتطاوِل، «وأين الثريّا مِن يدِ المتناوِل»؛ تلك عوارفُ ٱستولت على المعالي ٱستيلاءَها على المعالم، وشهدَتْ لها الفضائل بالسيادة شهادةَ النبوّة بسيادة قيس بن عاصم[٥]؛ ولا خفاءَ بواضح هذا الصواب، عند مقابلة البداية بالجواب؛ [من الكامل]:

فالشمسُ أَوْضح مِن ضياء الأنجمِ ... ما البيّنُ الأعلَى كداجٍ مظلمِ

يا مُثريًا مِن كلّ علم نافعٍ ... أيقاس مثرٍ في العلوم بمعدم

أَوْكَفْتَ فضلَك في رذاذ غمائمي ... ما للرذاذ يدٌ بنَوْء المِرزَم[٦]

وانصبّ بحرُك في ربيع خواطري ... ما للربيع وفَيضَ بحرٍ أعظمِ[٧]

وسَللتَ سيف العلم أبيضَ مِخْذَما ... كالبرق يلمع في غمامٍ مُثْجِمِ[٨]

فلّلتَ حدَّيْ مِعضَدٍ في راحتي ... ما للكَهام وحدَّ أبيضَ مِخْذَمِ[٩]

يا سابقًا جُهدي مصلّي عفوِه ... ما للسُّكَيت يدٌ بعفو مطهَّمِ[١٠]

بذّ السوابقَ في العلوم وحازها ... بالكسب منه والتراث الأعظمِ[١١]

---

(١) هي هند بنت أسماء بنت خارجة، وكان قد تزوّجها الحجّاج بن يوسف بعد بشر بن مروان، وهي من أجمل نساء عصرها وأظرفهنّ. (انظر الأعلام ٨/٩٦).

(٢) يُكعم: يشدُّ على فيه، وهو من كعم البعير: أي شدّ فاهه عند هياجه لئلا يعضّ أو يأكل.

(٣) الطّود: الجبل العظيم الذّاهب صعدًا في الجو.

(٤) أشار بهذه العبارة إلى قوله ﷺ في قيس بن عاصم المنقري: «هذا سيّد أهل الوبر» وقيس أحد أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشجاعة، كان شاعر اشتهر وساد في الجاهلية نزل البصرة آخر أيّامه وروى أحاديث وتوفي بها نحو سنة ٢٠هـ.

(٥) أوكف: يقال وكفت العين الدمع: أي أسالت، (الأعلام ٥/٢٠٦). والمرزم: من أرزم الرّعد إذا اشتدّ صوته.

(٦) الربيع: النهر الصغير.

(٧) المخذم: القاطع، والمثجم: السّريع المطر.

(٨) فلّلت حدي معضد: أي أصاب حدّ السيف شطب وكسور، والمعضد السيف الذي يمتهن في قطع الأشجار، والكهام: السيف الذي لا يقصع، والمخذم: السيف القاطع.

(٩) المصلي من الخيل: الذي يجيء بعد السّابق، سمّي بذلك لأن رأسه يلي صلا المتقدّم، والصلا: منحدر الوركين، والسكيت: العاشر من خيل السّباق، والمطهم: الحسن التام البارع الجمال. . .

(١٠) بذّ: تفوق وتقدّم.

العلم علمُ محمد وكفى به | وعليٌّ البابُ المبلِّغ فاعلَم
ما كنتُ أوّلَ مُحجِم عن موردٍ | عذُبتْ مواردُه لقَرْنٍ مُجحِم[١]
سابقتُ سُبّاقًا شأَوتُ بيانَهم | ببديعِ نثرٍ أو بليغ منظَّم[٢]
وسقيتُ بالكأس الكبيرة منهما | لما سقوا بالأصغر المتثلِّم[٣]
حتى إذا سابقتُه وهو ابنُ بحـ | ـر أو أبو بحرٍ إليه يَنتمي
طارت فضائله إلى عليائها | بجناح فَتْخاء ونسرٍ قَشْعَم[٤]
وسما به العلم الأجلُّ محلّه | حتى تَوَقَّل في المحلّ الأعظم[٥]
ومشى حضارًا فانثنيتُ مقصّرًا | أتجول خيلي في مَقرّ الهَيثم[٦]
لا عار إن عضِلت بداءة فكرتي | بابن المقفّع أو بنجل الأهتم[٧]
يا أعلمَ الفضلاء لستُ مقاوِلًا | فُضْحَى بناتِك باللسان الأعجم[٨]
لو حاولَتْ فِكَري مساواةً لها | يومًا لجاءت بالغراب الأعصم[٩]

أقتصِرُ فلِلبيان في بحر فضائله سَبحٌ طويل، ولِلسعي في غاياته مُعرَّسٌ[١٠] ومَقِيل، ولِلمَحامد ببُثَينة محاسنه صَبابةُ جميل، وإنّي وإن كنتُ كثيرَ عَزَّةِ ودِّه، إلا أنّي في حلبة الفضل لستُ مِن فُرسان ذلك الرَّعيل؛ لا سيّما وقد وردتُ مَشرعَ[١١] ألفاظه التي راقت معانيها، ورقّت حواشيها، وأدنَتْ ثمرات الفضل من يمين جانيها؛ فجاءت

---

(١) القرن: السيد من القوم، والمُجحم: إسم فاعل من الإحجام وهو التقدّم.
(٢) شأوت: غلبت. (٣) المتثلّم: المكسور حرفه.
(٤) الفتخاء: العقاب اللينة الجناح والقشعم: المسنّ من النسور.
(٥) توقّل: أي صعّد بتشديد العين، وأصله من التوقل في الجبل: أي التصعيد فيه.
(٦) الحضار: مصدر حاضرُه: أي سابقهُ في العدو، وهو هنا على الاستعارة يريد المسابقة في الفضل، والهيثم: فرخ النّسر.
(٧) عضلت: قويت واشتدت، وابن المقفّع: هو عبد الله بن المقفّع الكاتب العبّاسيّ المشهور، صاحب كتاب كليلة ودمنة ونجل الأهتم: هو عمرو بن سنان المنقري، والأهتم هذا: لقب لقّبه به أبوه لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوسه فهتم فاه، وقد وفد عمرو والزبرقان بن بدر على رسول الله ﷺ فقال فيه الرسول: «إنّ من البيان لسحرًا» وبنو الأهتم: أهل البيت بلاغة في الجاهلية والإسلام. (انظر زهر الآداب ١/ ٥ ـ ٦ ط، الرحمانية).
(٨) أراد بناته: أي رسائله.
(٩) الأعصم: الذي في جناحيه ريشة بيضاء، ويقال هذا للشيء الذي يعزُّ وجوده.
(١٠) المعرّس: من التعريس وهو النزول آخر الليل للرّاحة.
(١١) المشرع: مكان ورود الماء للإستقاء.

كالنسيم العليلِ، والشذا من نفحة الأصيل، والشرابِ الباردُ والظلّ الظليل: [من الكامل]

طبعٌ تدفّق رقّةً وسلاسةً ... كالماء عن متن الصفاة يسيلُ[(١)]

كالمقلة الحسناءِ زان جفونَها ... كَحَلٌ وأخرى زانها التكحيلُ

والروضة الغناء يَحسُن عَرْفُها ... وتزاد حُسنًا والنسيمُ عليلُ[(٢)]

والخاطرُ التقويُّ كَمَّل ذاته ... عِلمًا وليس لكامل تكميلُ[(٣)]

والله تعالى يبقيه جامعًا للعلوم جمع الراحة بنانَها، رافعًا له رفع القناة سنانَها، حافظًا له حفظ العقائد أديانَها، والقلوبِ إيمانَها:

ليُضحِي نديمًا للمعالي كأنّه ... نديما صفاء مالكٌ وعَقِيلُ[(٤)]

ويصبح ظلُّ الفضل من فَيْءِ ظلّه ... على كَنَف الإسلام وهو ظليلُ

وينشأ أبناءُ العلوم وكلُّهم ... بحسنائه في العاشقِين جميلُ

دَلالته في الفضل من ذات نفسِه ... وليس على شمس النهار دليلُ

وكتب ـ رحمه الله تعالى ـ رسالةً إلى الصاحب شرف الدين الفائزيّ[(٥)] عندما ورد عليه كتابٌ يذكر أن رسول الخليفة وصَل يلتمس إجابةَ المَلِك المعزّ[(٦)] أوّلِ ملوك الترك إلى صلح المَلِك الناصِر صلاحِ الدين يوسف[(٧)] ـ وقد كان الناس يذكرون أن الملك الناصر يريد أن يَهجُم بعساكره على الديار المصرية، وأنه لا يجيب إلى

---

(١) الصفاة: الحجر العريض الأملس. (٢) العَرف: الرائحة الطيبة.

(٣) التقويّ: يريد تقي الدين ابن دقيق العيد.

(٤) مالك وعقيل: هما نديما جذيمة بن الأبرش، وكان يضرب بهما المثل في طول الاجتماع، وهما اللّذان عناهما متمّم بن نويرة بقوله في رثاء أخيه مالك:

وكنّا كندماني جذيمة حقبةً ... من الدّهر حتى قيل لن يتصدّعا

(انظر زهر الآداب (٣/ ١٦٠).

(٥) شرف الدين الفائزي: هو هبة الله بن صاعد، من وزراء دولة المماليك البحرية، كان في صباه نصرانيًا يلقب بالأسعد، وأسلم وخدم الملك الفائز إبراهيم بن بكر ونسب إليه مات سنة ٦٥٥هـ. (الأعلام ٨/ ٧٢).

(٦) المعزّ: هو عزّ الدين بن أيبك الجاشنكير الصالحي، تولى السلطنة بالديار المصرية سنة ٦٤٨هـ وقتل سنة ٦٥٥هـ. (انظر تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٩١ ـ ٢٠٠ ط، الأستانة).

(٧) هو الملك الناصر يوسف، صاحب حلب، قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ. (انظر تاريخ أبي الفدا ٣/ ٢٢٠، ٢٢١).

الصلح، فلما جاء الرسول بذلك ظهر للناس خلافُ ما ظنّوه ـ: [من الطويل]

لأمرك أمرُ الله بالنجح عاضدُ ... فَصُلْ آمِرًا فالدهر سيفٌ وساعدُ
وقُلْ ما اقتضت علياك فالعزّ قائمٌ ... بأمرك والمجد المؤثّل قاعدُ[1]
وَنَمْ وداعًا فالجَدُّ يقظانُ حارس ... لمجدك والعادِي لبأسك راقدُ[2]
فما تُبرِمِ الأيّامُ ما الله ناقضٌ ... ولا تنقض الأيّامُ ما الله عاقدُ
وقد بَرزتْ بكر المكارم والعلا ... وفي جيدها من راحتيك قلائدُ
فحَفَّت بها الأملاكُ وهي مواهب ... وسارت بها الرّكبان وهي محامدُ
وزُفَّتْ لها النعماءُ وهي مصادرٌ ... رفعنا لها الأمداح وهي مواردُ[3]
فنثَّرها الإحسانُ وهي لآلئٌ ... ونظَّمها الإفضالُ وهي فرائدُ
فلا زلتَ محروس العلا يا ابن صاعدٍ ... وجَدُّك في أفق السيادة صاعدُ
تُسَرّ بك الدنيا ويَبتهجُ الورى ... وتُستوكَف النُّعمى وتُحوَى المقاصدُ[4]

وَرَد كتابٌ كريم، ونبأٌ عظيم؛ لَم تُجرِ يَنبوعَه جياد الأقلام، ولَم تجُدْ بنوئه عهاد الأيام، ولم تَظفَر بمثله أعياد الإسلام؛ فتُلِيَ على عذبات[5] المنابر، وجُلِيَ على آماق الأبصار وأحداق البصائر؛ وكانت بشراه البِكرَ العَوان[6]، لِما ابْتَدَأتْ به من البشائر، ولِما تَلِدُه من البشائر، وطليعةَ المَسارّ التي واجهَت الآمالَ ووجهُ السعد سافر، ومقدّمةَ الأمن التي لا يُسَرّ بها إلا مؤمن ولا يساء بها إلّا كافر؛ وتحيّةَ الله التي أحيت قلوب العباد، ومنةَ الله التي سكنتْ لها السيوفُ في الأغماد، ونعمةَ الله التي عَمّتْ كلّ حاضر وباد؛ ورحمةَ الله التي رحم بها هذه الأمّةَ وما زال بالمؤمنين رحيمًا، وفضْلَ الله على هذه الملّة وكان فضل الله عليها عظيمًا؛ وسعادةً سارت بها الأيام إلى المقام المعزّيّ بين الخَبَب والتقريب[7]، ومَركبَ عزٍّ قدّمتُه عناية الله تقدمةَ الجَنِيب، وكتابًا عنايتُه[8] هذا عطاء الله، وعِنوانُه «نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قريب»، وسِلْمٌ جلّل وجه الإسلام

---

(١) المؤثّل: المتأصّل الثابت. (٢) العادي: العدو المعتدي، وراقد: غافل.
(٣) الأمداح: من المدح، وهذا الجمع لم يرد في كتب اللغة.
(٤) تستوكف النعمى: تستقطر وتجري في أيدي النّاس.
(٥) العذبات: العذبة من كلّ شيء طرفه، وعذبة الغصن: طرفها الأعلى ويريد بعذبات المنابر: أعاليها.
(٦) العوان: أراد بهذه العبارة: أنا بكر لأنها لم تسبق بمثلها وعوان: لأنها تلد البشائر.
(٧) الخبب: الإسراع، والتقريب: الجري. (٨) عنايته: مقصده.

بُردَ لباسِه القشيب[١]، وسلامةٌ جَنتْ يمين الإيمان ثمرَ غصنها الرطيب، وعزٌّ ألبس المُلكَ خِلَعَ شبابه بعد ما خَلَع غبارُ الوقائع عليه رداءَ المَشيب، وشمسُ سعادةٍ منذ طلعَتْ في أفقها لَم تجنح للمغيب، ولطفٌ خفيّ قعد له كلُّ حمدٍ وقام به كلُّ خطيب، ومَملكة تُسمِعُها الأيّام: قِفا نَضحكْ بمَسارِّ الإنعام لا قِفا نَبكِ من ذكرى حبيب[٢]، وغنيمة باردة حازتها يدُ المُلك ولسانُ السنان غيرُ ناطق وكفُّ السيف غيرُ خضيب: [من الطويل]

بتسديد رأيٍ لو رأته أميّةٌ لمَا ٱحتَفَلَتْ يومًا بقتل شَبيبِ[٣]

إلى غير ذلك من فكرةٍ صاحبيّةٍ شَرَفيّةٍ سَكَن المُلكُ تحت ظلالها ونام، وقعد بأمرها وقام؛ وتحرّكَتْ لها العزائم، وسكنَتْ لها الصوارم، وٱستُنزلت العُصْم[٤] وذُعِرَتْ العواصم، وهمم إذا سمَتْ سامت ٱلسماء وإذا هَمَّتْ أهمت ٱلغمائم، وعزٌّ تحت ظلّ طلاله الشرفُ مقيم وفي خدمته المجدُ قائم، وعزم ٱستيقظ له جفن النصر والسيفُ في جفنه نائم، وسيفِ حزم على عاتق المُلك منه نِجادٌ وفي يد جبّار السمٰوات منه قائم؛ وآراءٍ ٱستفتح عقائلها فأَنجبَتْ، ورَمَى غرض إصابتها فأَكثبَتْ، أي أصابت وأَعمَل رائدَها فاستيقظت له ٱلهمم والأنام نيام، وجلس في صدور رِياستها والعالمون قيام، وتدبير أُحكِم بإبرام[٥] النقض ونقض الإبرام، وذُعِر به رابضُ الأُسد وأُنِسَ به نافرُ الآرام[٦]؛ وأجال به خيله في مَسارِي الأرقم[٧]، ومَقَرِّ الهَيثم[٨]، وأمضاه في مَضايق خطْبِه فأغناه عن سنّ السِّنان وشفة اللَّهذم[٩]؛ هٰذا

---

(١) القشيب: الجديد الزّاهي.

(٢) أشار بهذه العبارة إلى قول امرىء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(ديوان امرىء القيس ص ١١٠، دار الكتب العلمية).

(٣) شبيب: هو شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الخارجي أبو الضّحّاك، خرج في زمن الحجّاج، وهو أحد الأبطال الثائرين على بني أميّة مات غرقًا في نهر دجيل سنة ٧٧ ـ. (الأعلام ٣/ ١٥٦).

(٤) العُصم: مفردها أعصم، وهو من الحيوان ما كان في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر.

(٥) الإبرام: العقد.

(٦) الآرام: حجارة تنصب في الصحارى علمًا يُهتدى به.

(٧) الأرقم: ذكر الحيّات أو أخبثها. (٨) الهيثم: فرخ النّسر.

(٩) اللهذم: القاطع من السيف والسّنان والنّاب.

ولما صَدقتْ عزائمُ المملكة التي نظم الله قلادةَ مُلكِها فليس لها انتثار، ولمعَتْ كواكب أَسَلها[١] في ليل الرَّهج[٢] وسماءِ الغبار، وبَنتْ حوافر خيلِها سورًا من متراكم النَّقَع[٣] المُثار، وحصَّنَتْها[٤] يد الله بما أظهرَتْه مِن كامنِ الغيب وأَخفتْه من طلائعِ الأقدار، وحضَّنَتْها[٥] رعاية الله وله مِن القدر أعوانٌ ومِن الملائكة أنصار: [من الطويل]

فعمّت عمومَ اللّيلِ واللّيلُ مظلمٌ وجاءت مجيءَ الصبح والصبحُ مُشرقُ
ومَدّت غمامًا من سنابك خيلها بَسلِّ المَواضي المَشرَفيّات يَبرُقُ[٦]

في كتائبَ إذا سارت سوابقُها ملأَتْ عَرْضَ الغبراء[٧]، وإذا نُشرَتْ خوافقها[٨] سترَتْ وجهَ الخضراء؛ وكادت تُذْعَر الآسادُ بمَواضي حتوفِها، وتسكن المنايا تحت ظلال سيوفِها؛ لا سيما إذا أنجمَتْ[٩] أنجُمُ عواليها، ولمعَتْ بروقُ مَواضيها؛ وجاءت خيلُها كالصخر الأصمّ والطود الأشمّ أعجازُها وهَواديها؛ من كلِّ كُمَيْتٍ[١٠] حلوٍ في الإزار، بين الشُّقرة والاحمرار، كأنه وَرْديّةُ العُقار: [من البسيط]

يُحِسّ وقعَ الرزايا وهي نازلةٌ فيُنهِب الجريَ نفْسَ الحادث المَكِرِ[١١]

وكلِّ أشقرَ[١٢] كأنما قُدَّ أديمُهُ مِن لهبَ النار، مُعارِ رداءَ الحُسن، وأَحَقُّ الخيلِ بالركضِ المُعار[١٣]، لا تَعلَق به المَذاكِي[١٤] يوم رِهان ولا تَشُقّ له الحوادثُ وجهَ

---

(١) الأسل: الرماح، سمّيت أسلًا تشبيهًا له بنبات الأسل الذي يخرج قضبانًا دقاقًا ليس لها ورق ولا شوك، وشبّهت الرّماح لطولها واعتدالها ودقتها.
(٢) الرّهج: الشعب والفتنة، والغبار. . .
(٣) النقع: الغبار.
(٤) حصّنتها: وقتها.
(٥) حضنتها: أي حفظتها وكفلتها.
(٦) السّنابك: مفردها «السّنبك» وهو طرف الحافر.
(٧) الغبراء: الأرض.
(٨) الخوافق: مفردها «الخافق» وهو العَلَم.
(٩) أنجمت: ظهرت.
(١٠) الكميت: من الخيل ما كان لونه الكمتة، وهي حمرة يداخلها سواد.
(١١) هذا البيت لأبي العلاء المعريّ. «انظر سقط الزّند».
(١٢) الأشقر من الدواب: الأحمر، وفي الإنسان: الحمرة تعلو بياضًا.
(١٣) المعار: المسمّن، يقال: أعرت الفرس: أي أسمنته.
(١٤) المذكي من الخيل: التي تمّ سنّها وكملت قوّتها.

غبار كأنما لبس ثوبًا من خالص النُّضار: [من الوافر]

عِتاقٌ لو جرت والريحَ شأوًا لفاتته وأوثَقَه إسارُ[١]
غَدت ولها حُجول من لُجَينٍ وراحت وهي من عَلَقٍ نُضارُ

وكلّ أدهمَ كريمَ النِّجار، غَذيِّ اللِّبانِ[٢] الغِزار، كأنما فُصّلتْ ثيابه من سواد الليل وصِيغتْ من بياض النهار: [من الكامل]

بأغَرَّ يَبتسم الصباح بوجهه حُسنًا ويَسفِر عن مُحيًّا مُسفرِ
خَلَعَ الظلامُ عليه فضلَ ردائه وثنَى من التحجيل ثوبَ مقصِّر

وكلّ أشهبَ أُفرِغ في قالَب الكمال، وَجِيهيَ[٣] الأب أعوَجي[٤] الخال، إن مشى ضاق بزهْوِهِ فَسيحُ المجال، وإن سعى رأيتَ البرقَ ملجَمًا بالثريّا مسرَجًا بالهلال، كأنما ٱنتَعَلَ خدَّ الجنوب وٱشتَمل بثوب الشَّمال: [من البسيط]

مِن الجياد التي لَم تَبْدُ في رَهَجٍ إلّا أرَتْكَ بياضَ الصبح في غَسَقِ[٥]
ولا جَرين مع النَّكْباء في طَلَقٍ إلّا ٱحتَقَرتَ ٱلتماعَ البرق في الأفقِ[٦]

وكلّ مطهَّم إن رَكض قَلِق السُّماطُ[٧] لرَكضِه، وخِلت بعضَه منفصلًا عن بعضِه وإن مشى رأيتَ الطودَ في سمائه والرياحَ في أرضه؛ وإن خطا ظننتَه يَرْتَع في روض المَجَرّة ويَكرَع في حوض الغمام، وخلته الأشَمَّ مِن ٱبنَيْ شَمام[٨]، همُّه جهة الإمام

---

(١) الرّيح: الهواء، أعاد عليها ضمير المذكر في قوله «لفاتته» مع أنّ التأنيث هو الأكثر فيها، وإنّما آثر التذكير منعًا للالتباس الذي يحصل من «العتاق».

(٢) اللّبان: ذوات اللبن.

(٣) الوجيهيّ: نسبة إلى الوجيه، وهو اسم فرس من خيل العرب نجيب تنسب إليه كرام الخيل.

(٤) الأعوجي: هو اسم فرس سابق ركب صغيرًا فاعوجّت قوائمه، وإليه تنسب كرام الخيل أيضًا.

(٥) الرّهج: الغبار المتصاعد في الحرب.

(٦) النّكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين، أو بين الصّبا والشمال، والطلق: الشوط الواحد في جري الخيل.

(٧) كذا بالأصل؛ ولعل الصواب «السّماك» وهو كوكب مشهور، وهما سماكان.

(٨) شمّام: اسم جبل لباهلة، مشتق من الشمم، وهو العلو، وقيل: هو جبل بالعالية له رأسان يقال لهما: ابنا شمّام، قال لبيد:

فهل نبئت عن أخوين داما على الأحداث إلّا ابني شمام

(انظر معجم البلدان لياقوت ٣/ ٣٦٠، وديوان لبيد ص ٢٠٣، دار صادر).

وصوتُه حركةُ اللجام، كأنه قطعةٌ من سماءٍ أو ظُلّةٌ من غمام: [من الوافر]

جَرى والريحَ في طَلَقَي رِهانٍ فقامت دونه ومضى أَماما
ومَدّ من السنابِك ثوبَ غَيمٍ ولَم أرَ قبلها ثوبًا غماما

عليها كلُّ كمّيٍّ[١] لابَسَ[٢] الحربَ ولابَسَته، ومارسها ومارسَته؛ وكَتبَتْ عليه المواضي في صدره كتابًا أعجمَتْه أطرافُ الأَسَل، وجَنَى ثَمرِ الحديدِ أحلى عنده من العسل وسار إلى مهج الأبطال كسيف القضاء وحَثِّ[٣] الأجل؛ له حُنْكَةُ الأَشيَب ونجدةُ الغلام، وصنعةُ الضرب الفَذّ[٤] والطعنِ التُّؤَام[٥]، والفَتكاتُ التي تُطلِع صبح الصوارم في ليل القَتام[٦]، والفَعَلاتُ التي لها فَتَكاتُ الأَوْرق[٧] في النَّقَد[٨] وصَولاتُ الأسد في السَّوام: [من البسيط]

يمشي إلى الموت عالي الكعب معتقِلًا
أظمَى الكعوب كمشي الكاعب الفُضُلِ[٩]

يُحسِنُ في بحار الدروع سَبْحَ الفوارس[١٠]، بين بدور اليَلَب[١١] ونجومِ القَوَانس[١٢]؛ من كلِّ سابغة[١٣] لا تصل إليها ألسنةُ الحداد، كأنها أثواب الأراقم خِيطت بأعين الجراد؛ كفيلة بحماية الأنفس وصيانةِ المهَج، تُنير مسالكَ لابِسِها في

---

(١) الكميّ: لابس السّلاح، أو الشجاع المقدام الجريء.
(٢) لابس الحرب: خالطها. (٣) الحثّ: الإعجال، والأجل: الموت.
(٤) الفذّ: الفرد.
(٥) التؤام: المولود مع غيره في بطن واحد، يريد الطعنة تلو الطعنة.
(٦) القتام: الغبار الأسود.
(٧) الأورق: هو الذّئب، فإنه لونه الورقة، ويقال للذئبة: الورقاء «وجاء في اللسان مادة ورق» وكذلك شبهت العرب لون الذئب بلون دخان الرمث لأن الذئب أورق...
(٨) النّقد: صغار الغنم، واحدته نقدة.
(٩) الأظمى من الرماح أو الكعوب: هو الأسمر، والكاعب: الفتاة التي نهد ثدياها، والفُضل: المختالة التي تفضل من ديلها. (اللسان، مادة فضل).
(١٠) سبح الفوارس: جريها وعدوها.
(١١) اليلب: الترسة، أو هي جلود يحرز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة.
(١٢) القوانس: جمع قونس وهي أعلى بيضة الحديد التي تلبس على الرأس.
(١٣) السابغة: الدرع الفضفاضة.

دياجِي الرَّهَج، إنما هي البحر ولا حرج[١]: [من البسيط]

إذا ما مشَوا في السابغات حسِبتَهم سيولًا وقد سالت بهنّ الأباطحُ[٢]

وكلّ أبيضَ هنديٍّ تألّفتْ من المِلحِ أبعاضُه، البَرْدُ جسمُه والبرْقُ إياضهُ؛ المَفارقُ مغاربُه والأجفانُ مَطالعُه، والأنفُس موارِدُه والمنايا منابعُه؛ لو أثمَر لأنبت رءوسًا ولو تفجّر لسال نفوسًا، ولو تَكشّف صافي حديدِه لرأيتَ فيه عُبوسًا: [من الوافر]

سَليلُ النار دَقّ ورَقّ حتى كأنّ أباه أورَثه السُّلالا[٣]
ودَبّت فوقه حمرُ المنايا ولكن بعد ما مُسخَتْ نِمالا

وكل أَسمَرَ[٤] إذا انتحى فهو صاحٍ وإذا انثنى فهو نشوان، وإذا ورد دمَ القلبِ فهو ظمآنُ القناةِ ريّانُ السنان؛ إذا خطَب النواصيَ وَخَط[٥]، وإذا كَتبت المواضي نَقَط؛ وإذا قَصُرت يدُ القِرْنِ طال، وإذا صَلِيَتْ نار الحرب العوالي صال: [من الوافر]

تَوَهّم كلّ سابغةٍ غديرًا فرَنّق يشرب الحِلَق الدّخالا[٦]

وكلّ صفراءَ رَقشاءِ[٧] الأديم، كأنها أرقَمُ الصَّريم[٨]؛ لها فَلَكٌ بالرزيّة دائر، وسهمٌ بالمنيّة طائر، إن رَكِب فهو مقيم وإن نزل فهو سائر؛ مع عزائمَ بَنتْ على الدولة سورًا، وجَعلَتْ بينها وبين الذين لا يؤمنون بالدولة المعزّيّة حجابًا مستورًا؛ على أنها غنيمةٌ لَم تَحتج إلى الإيجاف[٩] والإيضاع، وطَلِبَةٌ ألفاها على طرف

---

(١) أشار بهذه العبارة إلى قولهم: «حدّث عن البحر ولا حرج» والمراد أنه لا لوم على من يطيل في وصف هذه الدروع لشبهها بالبحر في بريقها والمراد متنها.

(٢) الأباطح: مفردها الأبطح، وهو المكان المتسع يمرّ به السّيل فيترك فيه الرّمل والتّراب والحصى.

(٣) سليل النّار: يريد أنّ هذا السيف قد ولدته النّار لأنه أخرج بها من معدنه وطبع سيفًا بواسطتها، والشعر لأبي العلاء المعرّي. (انظر شرح التنوير على سقط الزّند ١/٢٧، ٢٨ ط، بولاق).

(٤) الأسمر: يراد به الرمح.

(٥) خطّ: طعن طعنًا نافذًا.

(٦) رنّق الطائر: إذا حام حول الماء ليشرب، والغدير: ماءٌ متجمّع والدّخال: المتداخل بعضه في بعض.

(٧) الرّقشاء: المنقوشة، يريد القوس الرقشاء.

(٨) الأرقم: الأفعى السّامة، والصّريم: القطعة من معظم الرّمل.

(٩) الإيجاف: التحريك والإسراع.

الشمام[١] وحبلِ الذراع[٢]؛ وعنايةٌ جاءت على ٱختيار المراد ومرادِ الاختيار، ونعمةٌ كَرّتْ هي والتوفيق في قَرَنٍ[٣] وجَرَتْ والسعادةَ في مضمار، ومنحةٌ رَكضَتْ بها إلى المقام المعزّى سوابقُ الأقدار ومعنًى خفيٌّ من نعم الله لم تَلِجه عقائل الأفكار؛ وإذا سبَقت عناية الله فليس لأمر حتمه الله رافع، وإذا لحظَتْ السعادة أمرأ وقفَتْ دونه آمال المطالب وتقطّعَتْ خلفه أعناق المطامع، وٱستولت يمينه على آفاق سماء[٤] الشرف فلها قمراها والنجوم الطوالع، وهذه مواهبُ لا تدركها دقائقُ الأَسْطُرْلاب[٥] ولا دَرَج الشمس ولا رَصَدُ الطوالع: [من الطويل]

لعمرك ما تدري الضَّواربُ بالحصا ولا زاجراتُ الطيرِ ما ٱلله صانعُ[٦]

«ويُنهِي[٧] أنّ حاملها مَن عَقدَتْ عليه الملوك خناصرَها، وٱختَصَّ منها بالصحبة ناصرَها؛ وله فضلٌ لا يذاد عن مَنهل العلم سَوامُه، ولا تُجهَل في مسالك الشرف أعلامُه؛ وله نفسٌ سَمَت حتى أَخذَتْ سماء السيادة بيمينِها، وهمّةٌ إذا رأيتَ ذاتها الكريمة تَوسَّمتَ الرِّياسةَ في جبينِها، وأبوّةٌ لا تتّجر من المعالي إلّا في ثمينِها؛ وقد أكلَتْه السنة بل السنوات، وترادفت عليه الملمّات[٨] بل المؤلمات؛ وقد صيَّر الجناب الزينيَّ لما يحاوله ذَريعه، ووَرَد المنهَل الرَّحْبَ وإنه لعذبُ الشريعة، وقد أصاب به مولانا طريقَ المَصنع فألبَسه ثياب الصنيعة؛ ومولانا أَولى مَن أَولاه شرَف جلاله ونظر إليه بعينِ كريمةٍ يقابِل بها ما يقابِله من كرم خلالِه؛ فالإبريزُ[٩] قد يَشتبِه إلّا على نُقّادِه، والغيثُ قد يُخْلِف إلا على رُوّادِه، والماء قد يأجَن[١٠] إلا على وُرّاده؛ وسيّدنا

(١) يقال: هو له على طرف الثمام: إذا كان هيّن المتناول.
(٢) يقال: هو على حبل الذراع: إذا كان ممكنًا مستطاعًا.
(٣) القرن: أي في حبلٍ واحد...
(٤) يشير بهذه العبارة إلى قول جرير:

أخذنا بآفاق السماء عليكمو لنا قمراها والنّجوم الطّوالع

(٥) الأسطرلاب: ميزان الشمس، وبه يعرف مقدار السّاعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب.
(٦) البيت للبيد بن ربيعة. (انظر ديوانه ص ٩٠، دار صادر).
(٧) الظاهر أن هذا الكلام من قوله: «وينهي إلى قوله فيما سيأتي «من أفقها صبحًا» ليس من تتمة الرّسالة السابقة، وإنّما هو بعض رسالة أخرى سقط أوّلها من الأصل الذي بين أيدينا، ويدلّ على ذلك أن الرسالة السابقة موجهة للصاحب شرف الدّين الفائزي وهذه موجّهة إلى «الجناب الزينيّ» وهو زين الدين يعقوب بن الزبير وزير الملك المنصور نور الدين عليّ بن الملك المعزّ أيبك.
(٨) ترادفت الملمّات: تتابعت مصائب الدّهر. (٩) الإبريز: الذهب الخالص.
(١٠) يأجن: يصبح آجنًا أي آسنًا فيتغيّر طعمه ولونه ورائحته.

مصعبيُّ[١] الهممِ وهذا ٱبن قيس[٢] رقيّاته، ومهلبيُّ الشِّيم وهذا حبيب أبنائه[٣]، وواثقيُّ الإحسان وهذا في الجلالة ٱبنُ أبي دُوادِه[٤] وفي الأدب ٱبنُ زيّاتِه[٥]؛ فليضعْه

---

(١) مصعبي الهمم: يشير إلى مصعب بن الزبير الأسدي، أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، وكان عضد أخيه عبد الله الذي ولاه البصرة قتل سنة ٧١هـ. (الأعلام ٧/ ٢٤٧).

(٢) ابن قيس الرّقيات: هو عبد الله بن قيس الرّقيات، شاعرٌ من بني عامر، لقّب بالرقيات لأنّه شبّب بثلاث نسوة سمّين جميعًا رقية، وكان منقطعًا إلى آل الزبير، وهو القائل في مدح مصعب:

إنّـمـا مـصـعـبٌ شـهـابٌ   تجلّت عن وجهه الظلماء

(انظر الأغاني ٤/ ١٥٥، ط بولاق)

(٣) قال معجم المطبوع: قوله: «وهذا حبيب أبنائه» في الأصل «حبيب أبياته» وهو تصحيف فإن الذي وقفنا عليه أن حبيبًا هذا من أبناء المهلب لا من شعرائه الذين مدحوه اهـ. ولكن اهتمام أولئك الكتّاب بمراعاة السجع وتفريطهم بالمعنى لأجله أحيانًا ـ أمر معروف: «فرقيّاته» و «زياته» يكون بينهما «أبنائه» ـ بعيد عن طبيعة إنشاء ذلك العصر. فلا مندوحة عن القول بصحة «أبياته» الواردة في الأصل. ويكون المراد بحبيب أبياته هو أبو تمام حبيب الطائي لا حبيب بن المهلب ولا سيما أن المؤلف قال مهلبي ولم يقل مهلب وبينهما فرق؛ فالمهلبي أحد أبناء المهلب المنسوبين إليه وهم كثيرون ولم يمدح أبو تمام أحدًا منهم وأشهرهم الوزير أبو محمد المهلبي وكان بعد أبي تمام بنحو مئة سنة. فلا بد أن تكون كلمة مهلبي محرفة عن اسم آخر من ممدوحي أبي تمام. ولأن نقول بوقوع التحريف في مهلبي خير من أن نقول بوقوعه في الكلمة التي تنتهي بها السجعة ومنزلة السجعة في نفوس القوم منزلتها. أما ممدوحو حبيب الطائي فكثيرون ومن أشهرهم الحسن بن وهب وأخوه سليمان بن وهب وله في الحسن ثلاث عشرة قصيدة فقوله: «ومهلبي الشيم» صوابه إذن «ووهبي الشيم وهذا حبيب أبياته» وبهذه الصورة تتناسق السجعات. وتبقى كلمات «أبيات» على حالها كما وردت في الأصل. و«آل وهب» ليسوا بأقل من «آل المهلب» منزلة في تاريخ الإسلام والخلفاء: فقد كان آباؤهم كتابًا من عهد الأُمويين وكان الحسن بن وهب ممدوح أبي تمام متوليًا له ديوان الرسائل وكتَب لابن الزيات. وأخوه سليمان ولي الوزارة للمهتدي ثم للمعتمد. وأرى أن الذي جعل الكاتب يقول: «وهبيّ الشيم» ثم يقول: «حبيب أبياته» فيجعل أبا تمام ذا أبيات يضرب بها المثل في كل وهبي ـ هو قول حبيب في الوهبيين:

كـلِ شـعـبٍ كـنـتـم بـه آل وهـب   فـهـو شعـبـي وشعـب كـل أديـب

إن قـلـبـي لَـكـم لـكـالـكـبـد الـحـرَّ   ى وقـلـبـي لـغـيـركـم كـالـقـلـوب

وقد سمع هذا بعض الصالحين فقال لو كانت هذه الأبيات في آل رسول الله ﷺ كان أليق إذ لا يستحق هذا القول إلّا هم رضي الله عنهم.

(٤) ابن أبي دوادة: هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد الإيادي تولى القضاء في زمن المعتصم والواثق العباسيين مات سنة ٢٤٠هـ. (الأعلام ١/ ١٢٤).

(٥) ابن الزّيات: هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر من أهل الأدب والفضل، كان عالمًا بالنحو واللغة، وكاتبًا وشاعرًا، وقد استوزره المعتصم مات سنة ٢٣٣هـ. (الأعلام ٦/ ٢٤٨).

حيث وضعَتْه السيادة صدرًا، وليُطلعْه كما أطلعَتْه الفضائل بدرًا؛ وليَصرِف إليه عنايةً تَعلّق بها الحمدُ عَلاقةَ غَيلانَ[١] بمَيّة، والحَكَم[٢] بأميّة؛ وهو يعلم ـ أدام الله أيامه ـ أن المناصبَ عرائس، والصنائع قلائدُها، والولاياتِ مآدب، والمكارم موائدُها، والليالي ـ كما علمت ـ حَبالى، والسّيئات والحسنات ولائدُها؛ وخيرُ مَن لَبِس ثوبَ نعمة كاهلُ هذا الإمام، وإن الحسنة إليه لأشرفُ مواهب الأيام، فٱغتنمْها فإنّها غاية الاغتنام؛ وأعيذ مولانا بالله أن يَجعل نظرَه إليه لمحًا، أو يَضرب عنه الذكر صفحًا، أو يكون مولانا روضةً ثم لا يجِدُ هذا الصدرُ منها نفحًا، ومَطلَعَ آفاق الشرف ثم لا يَستَوضِح هذا الملتمِسُ مِن أفقها صبحًا».

ومثل صدر هذه الرسالة لبعض الكتاب المتقدّمين:

الحمد لله مقلّب القلوب، وعالِم الغيوب؛ الجاعِل بعد عسرٍ يسرًا، وبعد عداوةٍ ودًّا، وبعد تحاربٍ ٱجتماعًا، وبعد تباينٍ[٣] ٱقترابًا؛ رأفةً منه بعباده ولطفًا، وتحنّنًا عليهم وعطفًا؛ لئلا يَستتِمّهم التتايُع[٤]، في التدابر والتقاطُع؛ وليكونوا بَررةً إخوانًا، وعلى الحقّ أعوانًا؛ لا يتنكّبون منهجًا، ولا يركبون من الشبهة ثَبَجًا[٥]؛ بغير دليلٍ يهديهم قصد المسالك، ولا مرشدٍ يذودهم عن دَرْك المهالك؛ أحمده على نعمه التي لا يحصي الواصفون إحصاءها، ومننهِ ٱلتي لا تَحمل الخَلقُ أعباءها؛ حمدًا يتجدّد على مَمرّ الأزمان والدهور، ويزيد على فناء الأحقاب والعصور؛ وإنّ أحقَّ ما ٱستعمله العاملون ولَحِق به التالون، وآثره ٱلمؤمنون، وتَعاطَى بينهم المسلمون؛ فيما ساء وسَرّ، ونفع وضَرّ؛ ما أصبح به الشَّمْل ملتئمًا، والأمرُ منتظمًا؛ والفتقُ مرتتِقًا[٦]؛ والسيفُ مغمودًا ورواقُ[٧] الأمن ممدودًا؛ فحُقنَتْ به الدماء، وسكنَتْ معه الدهماء، وٱنقَمَع به الأعداء؛ وٱتصل به السرور، وأُمنَتْ معه الشرور؛ وليس بذلك أَولى، وإلى إحرازِ الثواب به أدنى من الصلح الذي أمر الله تبارك وتعالى به، وخَصّ وعَمّ ورغّب.

---

(١) غيلان: يريد غيلان بن عقبة بن نهيس، المعروف بذي الرُّمة وهو أحد عشاق العرب المشهورين، وصاحبته ميّة بنت فلان بن طلبة بن قيس بن عاصم بن سنان، ويكنّى أبا الحارث. مات سنة ١١٧هـ. (الشعر والشعراء ص ٣٥٠).

(٢) الحكم: يريد الحكم بن أبي العاص، والد مروان ثالث خلفاء بني أميّة.

(٣) التباين: التغاير والمخالفة.

(٤) التتايع: التهافت، أو اللجاجة.

(٥) الثبج: وسط الشيء تجمّع وبرز، ومنه: ثبج البحر، وثبج الأكمة.

(٦) رتق الفتق: أصلح شأنه وضمّ بعضه إلى بعض.

(٧) الرواق: بيت كالفسطاط، يحمل على عمود واحد طويل...

ولنعد إلى كلام الشيخ ضياء الدين بن القرطبي.

فمن ذلك ما كتب به أيضًا إلى الصاحب شرف الدين الفائزيّ جوابًا عن كتاب شفاعة يوصي على أخيه نجم الدين، فأجابه الشيخ: يخدِم الجنابَ الشرفيّ - رفع الله قدره بين أوليائه، وأطاب ذكره في مقام عليائه؛ وأطال عمره مقترنًا بعزِّه، وأَقرّه في كنف سلامته وكهف حرزِه - وردَتْ الأوامر المطاعة، المقابَلةُ بالسمع والطاعة؛ في حق أخي المملوك مولانا نجمِ الدين، فتَلقَّى راية طاعتها بيمينِه، وأَقرّها من تعظيمه في أسرّة جبينِه، وأَحَلَّها من شرف الامتثال في مستودَع دينِه؛ وقابل حاملَها بأَوْفر ترحيبِه، وأَقربِ تقريبِه؛ وواجَهه بإجلال الأخوّة، وخلال البنوّة؛ وأحَلَّه كنَف[1] قلبِه، وَأَوْدعه بين شغاف[2] القلب وخِلْبِه[3]، وأعاده إلى معهود ولائه وحبه؛ وقَرّر له في كلّ شهر عشرة دنانير وهي نهاية قدرتِه، وأَعلَمه أنّها أَعْوَد نفعًا من ولايتِه وأَقربُ عونًا مِن إمرَتِه؛ وعاهد الله ألا يتعرّض لجنديّةٍ أبدًا، ولا يمَدَّ لطلب ولايةٍ يدًا؛ ولا يَقِفَ بين يدَي الأمراء بعدَها، ولا يتجاوزَ بجلالة أبوَيه حدَّها، ولا يهمل شرف نسبته التي لَم تُصاعِرْ[4] [لها][5] الأيامُ خدَّها؛ وأخذ عليه عهود الله والمملوك في الوفاء مهما عهِدَها؛ وقد تَوجَّه إلى المَشارع الصاحبيّة التي استعذَب وِرْدَها والمكارمِ الشرفيّة التي أَلِف حمْدَها، والصنائعِ الإحسانيّة التي وَجد في مرارة الفقر حلوَها وفي حرارة الغربة بَرْدَها؛ وعاوَدَ عشَّ الفضل الذي منه دَرَج، وبيتَ الكرم الذي إليه دَخَل ومنه خَرَج[6]، وسماءَ الإحسان التي أَطلعَتْ نجمَ إمامتِه فَعَرَّج عليها وإليها عَرَج، وبحرَ المعروف الذي إذا أَطنب[7] لسانُ ثنائه قالت شواهد بيانه: «حدِّثْ عن البحر ولا حَرَج»؛ ومولانا يضعُه تحت كنَفِه، ويرفعُه لله ولسلَفِه، ويقابله الجنابُ الشرفيُّ بما عَرَفه من شرَفِه؛ ويُعينُه على جاريه الذي هو مادّةُ رفقِه، وأوّلُ ما أجراه الله على يد مولانا من رزقِه؛ بكتاب يُجزل له العَزَمات ويُنْميها، ويُسكن رُوحَ الحياة في جسد فاقته ويُبقيها؛ فهو ذو ضرّاءَ لا تسدّها إلا القناعة، وذو فاقةٍ لا ترفعها إلا السَّعةُ التي تمدّ باعَه؛ والله يجعل مولانا وقايةً لمن لجأ إليه، وإعانةً لمن اعتمد عليه؛ إن شاء الله تعالى.

---

(١) الكنف: جانب الشيء.

(٢) الشغاف: غشاء القلب وغلافه.

(٣) الخلب: حجاب الكبد.

(٤) صاعر خدّه وصعّره: أماله كبرًا.

(٥) هذه الكلمة ليست في الأصول، والسّياق يقتضيها.

(٦) في الأصول: الذي منه دخل وإليه خرج والصواب كما أثبتنا...

(٧) أطنب: مضى في المدح وبالغ...

وكتب إليه أيضًا شفاعةً في بعض الأعيان فقال:

ويُنهِي أنّ الله تعالى متولّي سرائرَ عبادِه، ومُجازيهم على مخالفَةِ أمره وإن كان على وَفْق مرادِه؛ أَعَدّ دارَيْ ثوابِه وعقابِه، وحذّر أُولي الحُوبَة[1] مِن أليم عذابِه؛ ثم عمّت رحمته فشَفَّع في العصاة، وعفا عن الجناة؛ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: الآية ٢٥]، ثم بُذِلت عوارفُ الإحسان، وعواطفُ الحَنان؛ حتى شَفَع إلى خَلقِه، في العفو عن حقّهم وحقّه؛ صفة كرم رحمانيّة، وصِلة عفوٍ إحسانيّة، وصنائع أَلطافٍ ربانيّة، فشفع إلى الصدّيقِ في مِسْطَح، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النُور: الآية ٢٢]، فقدّم مُوجباتِ العطف بما قدّم من القرابة والمسكنة والمهاجَرة، ثم تلقّاها مِن أجرِ الآخرة بكرم المُجازاة وربح المعاملة، وحُسنِ جزاء المنعم، تعريفًا بمواقع الإحسان، وتكريمًا لنوع الإنسان؛ ومملوكُ مولانا فلان الّذي أنزل حاجتَه بعبدِك، وقَصَده قَبل قصدِك؛ وأَسكَنَ حريمَه مجاورًا لحريمِه وتَشفّع به إلى صدر الزمن وكريمِه، واستَوهَبه الذنب وإن كان معترفًا بعظيمه؛ والصنعُ الجميل ثمرةُ الأيام، والفضلُ أثبتَتْه ألسن الأقلام؛ ولله لحظاتٌ تَلحظ عبادَه ويرحم الراحمين، ويجزى المتصدّقِين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ وإن مولانا عِقالُ الشرف[2] وذو الفضل الأُنُف[3]، والعارفُ في صنائع الإحسان كيف تُؤكَل الكَتِف؛ وقد أَحلتُه على مَلاءةِ[4] أياديك، وألبستُه مُلاءَةَ معاليك، وأحللتُه بضَمان الله كَنَفَ ناديك؛ وأنت الكريم أخلاقًا ونسبًا، والطَّيِّبُ أعراقًا وأبًا، والصَّدرُ الذي إذا سامته[5] الأيّام خُطَّةَ[6] ضيم أبى، وإذا أوطأتْه مَهانةً وخسفًا نَبا[7]؛ وأحقُّ مَن قَبِل هذه الشفاعَة كرمُك وأَولى من رعاها شيمُك، والمعالي جنودُ الشرف وأحقُّ عَلَم رُفِع عليها عَلَمُك؛ والله تعالى يبقيه للأنام ملاذًا، وللأمل مَعاذًا، ويَهب عزمَه مَضاء وقلمَه نفاذًا؛ إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل «العقوبة» والصواب «الحُوبة» وهي الإثم.

(٢) عقال الشرف: يريد أن الشرف محتبس عليه لا يفارقه، وهو مستعار من عقال البعير، وهو الحبل الذي يعقل به عن النهوض.

(٣) الفضل الأنف: أي الذي لم يسبق إليه، وهو استعارة من قولهم «روضة أنف» أي أنها لم ترع، وكأس أنف: أي أنها لم يشرب بها قبل ذلك...

(٤) الملاءة: القدرة والغنى.

(٥) سامته: أذلته.

(٦) الخطّة: الأمر والحالة.

(٧) نبا: لم يصب، ونبا السيف عن المضروب: لم يصبه.

وكتب إلى قاضي القضاة تاج الدين بن خلف:

يخدُم ٱلجنابَ التاجيَّ ـ أدام الله شرف الملّة ببقائه، وأعلى كلمةَ الأمّة بعلائه وأَجرَى ألسنةَ الأقلام بثنائه، ورَفع ألوِيةَ أوليائه بولائه ـ ويُنهِي ورودَ مشرِّفته ٱلّتي تَجلّت في سماء السيادة حُسنًا، وسهلَتْ لفظًا وجَزُلَتْ معنى، وغدا لسان الإحسان عليها يُثنِي، وعِنانُ الفضائل إليها يُثنَى؛ وقد أخذَتْ برقاب المعانِي، وأطربَتْ إطراب المثاني[1]، وبعثَتْ روحَ الحياة إلى روح الأماني، وثنت إلى فضلها الأوّلِ عِنانَ الثاني:

فَحَيَّ هَلا بالمكرُمات وبالعلا ... وحَيَّ هَلا بالفضل والسُّؤدَد المحضِ[2]

لا جَرَم[3] أنّ المملوك سجد لله ثم لجلالة ذلك الاستغفار، وقبولِ كلماتِ الاعتذار؛ وعَلِم أنّ مولانا لبس حلَةَ التواضع لتمام شرف الاصطناع، وليحُوزَ أقسام السيادة بالصدرِ الرَّحبِ والخُلقِ الوَساع[4]: [من الطويل]

سجيّة نفسٍ شَرّف ٱلله مجدَها ... بما شاء من فضلٍ لديها ومن حلمِ

وسُؤدُدِ آباء وكسبِ سيادة ... تَضُمّ إلى عزّ العلا شرفَ العلمِ

هذا مع إساءتنا التي تُسوِّد وجوهَ الأمل، ويَقضِي كفرُها ـ لولا إيمان مولانا بإحباط العمل، على أنه مُلازَمةُ المعلولات[5] للعلل: [من الطويل]

وما كنتُ جاني فتنةٍ غير أنّها ... إذا وقعَتْ أردَتْ مسيئًا ومحسنا

ولو رشقَتْني مُصْميات سهامِها ... لألَفَتْ لها حُكمًا من الله بيّنا[6]

وإن جلال الله يشهد انني ... بَذلتُ مِن الوُسع ٱلذي كان ممكنا

وحَذِرتُ حتى لم أَجِد متحرِّزًا ... وأسمَعتُ لكن لم أَجد ثَمّ أُذُنا[7]

وكانت صعابٌ تقتضيها مشيئةٌ ... وهل لقضاء الله ردٌّ إذا دنا

(١) المثاني: الآيات تتلى وتكرّر.

(٢) يقال: حيّ هلا بكذا بلا تنوين: أي عليك به، ويقال: أيضًا حيّ هلا بالتنوين، وحيَّ هل بفتح الجزأين كخمسة عشر: ولكنها بمعنى الحثّ، والسؤدد: السيادة، والمحض: الخالص الصّريح.

(٣) لا جرم: لا بدّ.

(٤) الوَساع بفتح الواو: الواسع.

(٥) المعلولات والعلل: أي الأسباب والمسبّبات.

(٦) المصميات: أصمى السّهم: قتل.

(٧) المتحرّز: المتوقّي، والحذر، والأُذُن: بضمّ الهمز، وتشديد الذّال: جمع آذن وهو المستمع، يقال: أذنت إليه وله: إذا استمعت إليه معجبًا.

وأما إشارة مولانا إلى الحاجب الذي هو لمولانا أشرفُ مِن حاجب بنِ زُرارة[(١)] بما أودَعه أثناءَ تلك الكلم مِن لطيف الإشارة وشريف العبارة؛ فجزاءُ موانا على الله في جبره لقلب المملوك المنصدع، وصِلةِ أمله المنقطع.

وكتب إلى الصاحب قاضي القضاة بدر الدين السنجاري ـ وهو يوم ذلك متولي الحكم والوزارة بالديار المصرية:

لا زال الإسلام يستضيء ببدرِه، والإيمانُ يَأرِز[(٢)] إلى صدرِه، والشرفُ يَتضاءل عند قدر جلالته وجلالةِ قدرِه، والآمالُ والآجالُ مصرَّفةً بين بسطةِ نعمته وسطوةِ قهرِه، هذه على ذكرِه وهذه على شكرِه، والمكارمُ والمحامدُ تَتعلّق وتَتألّق هذه بنشْرِه وهذه ببشْرِه، والعزمُ والرأيُ إذا فُلَّ أو فالَ[(٣)] ٱستغاث وٱستضاء هذا بنصرِه وهذا بفكرِه: [من الطويل]

ولا غرو أن تَثنِي الوِزارة جيدَها ... إلى ناظمٍ في جيدها عِقدَ فخرِه[(٤)]

إلى أَحوَذيِّ الرأي إن ناب معضِلٌ ... أراكَ جليَّ الأمرِ إيحاءُ سرِّه[(٥)]

إذا ٱستَغزَر الذهنَ الذكيَّ تضاءلَتْ ... له فكرتا قيسِ ٱلذكاءِ وعَمرِه[(٦)]

فيُطلِع رأيًا واضحًا من سداده ... كما ٱنشقَّ بُردُ الليل عن ضوء فجرِه

إلى سؤدُد أَجرَتْ معاليه خيلَه ... سوابقَ غُرًّا في بَهيمات دهرِه[(٧)]

وكم سابقٍ أجرى إلى غاية العلا ... ولكن طوى سبْقًا مُلاءةَ حُضرِه

---

(١) هو حاجب بن زرارة بن عدس الدّارمي التميمي، من سادات العرب في الجاهلية، وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مالٍ عظيم ووفى به، أدرك الإسلام وأسلم وبعثه النبيّ ﷺ على صدقات بني تميم فلم يلبث أن مات سنة ٣ هـ. (الأعلام ٢/١٥٣).

(٢) يأرز: يأوي ويلجأ.

(٣) فال الرأي يفيل: أي ضعف وأخطأ.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) الأحوذي: هو الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، وناب: حلّ.

(٦) يريد قيس بن زهير بن جذيمة العبسي، صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس وغبراء، وكان فارسًا شاعرًا داهية، يضرب به المثل، يقال: أدهى من قيس مات سنة ١٠هـ. (الأعلام ٥/٢٠٦). وعمرو: هو عمرو بن العاص، ويكنّى أبا عبد الله، أمير فاتح، ولاه عمر رضي الله عنه فلسطين، ووّجهه إلى مصر ففتحها مات سنة ٤٣هـ. (انظر طبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء السابع ص ١٨٨، ط، ليدن).

(٧) الغرّ: مفردها (أغر) وهو من الخيل ما ابيضت غرثته، والسّوابق: الخيل، والبهيمات: الليالي السّود.

بحلم تجلّى في أسرّة وجهه وجودٍ تجلّى من طلاقة بشرِه
يمينًا لقد أضحت جلالةُ قدرها على شرف ٱلمقدار من دون قدرِه

سطّرها المملوك بعد ما لبست الوِزارةُ حلّة فخرِها، وسحبتْ ذيل ٱفتخارِها، وبدا معصم شرفها في حلية سِوارِها، وتجلت معانيها بين شموس فضلها وأقمارِها، وجَنينا ٱلغض من زهرِها، والطيّب من ثمرِها، وحَمِدنا جميل تأثيرها وحميدَ آثارِها: [من الطويل]

وحيّتْ على بعد المدى نفَثاتُها بأطيَبَ من رَنْد الرُّبا وعَرارِها[1]

وٱجتلَى المملوك حسناء إحسانِها فما ضارعتْها البدورُ مذ فارقتْ سَرارَها[2]، ولا الأنجمُ ولو نظم الفَلَكُ أنوارَها، ولا الروضةُ وقد عقدت الغمائمُ[3] إزارَها، ولا أطلال ميّةَ وقد دَبّجت يدُ الأنواء[4] أزهارَها، ولا أَرْدانُ عَزّةَ[5] «وقد أوقدتْ بالمَندَل الرطب[6] نارَها»؛ صلة جاءت كبُرد الشباب[7]، وبرد الشراب؛ اقتضابًا قبل السؤال، وابتداء الآمال؛ والمملوكُ يحضر عقيبها ليجتلي وجه المنعم قريبًا، ويجتني غصنَ النِّعَم رطيبًا: [من الخفيف]

ومتى لم أَقُم بشكرك للنا س خطيبًا فلا وُقيتُ الخطوبا

وكتب إلى الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حِناء[8]:

---

(١) الرّند: هو عود يتبخّر به، طيّب الرائحة، أو شجر من أشجار البادية طيّب الرائحة، يستاك به، والعرار: النرجس البرّي.
(٢) السّرار: آخر ليلة من الشهر القمري يكون القمر فيها محتجبًا.
(٣) يريد تشبيه النبت والأزهار حول الروضة بإزار عقدته الغمائم عليها.
(٤) الأنواء: مفردها النوء: المطر.
(٥) هي عَزّة صاحبة كُثَيِّر الشاعر المعروف بكُثَيِّر عَزّة.
(٦) المندل: عود يتبخر به وقد أشار بهذه العبارة إلى قول كثيّر:
بأطيب من أردان عَزّة موهنًا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها
(انظر الأغاني ١٤/٥٩).
(٧) بُرد الشباب: نشاطه وزهوه، والبُرد: كساء مخطّط.
(٨) ابن حنّاء: هو محمد بن محمد بن عليّ بن الصاحب بهاء الدين بن حنّاء المصري وزير الدّيار المصرية، وكان مولده سنة ٦٤٢هـ وتفقه وبرع ونظم ونثر وحدّث بمصر ودمشق توفي سنة ٧٠٧ هـ.

رفع الله قدر الجناب الصاحبيّ التاجيّ في شرف الأقدار، وأَجرَى بإرادته وسعادته سوابقَ الأقدار، وألبَسَه حلية الشرف التي هي على رأس رياسته تاجٌ وفي مِعصم سيادته سِوار، وحلّةَ النعم التي ينكمش[١] لأجلها رُدْن[٢] المساءة وينسحب بمثلها ذيل المَسار، وأَمضَى عزائم آرائه التي إذا سَطت يوم البأس نفذتْ نفوذ السهم ومضت مضاء الغِرار[٣]، وإذا سرت في ليل الخطب هدت هدايةَ النجم ووضَحت وضوح النهار، وأَمْضَى همّته التي إذا همَّت أغنت عن الأبيض المرهَف والأسمرِ الخطّار، وإذا أمّت شَأَتْ[٤] ناصيةَ الْحَنْفاء[٥] وبَذَّت قاصيةَ[٦] الخطّار[٧]؛ وأرهف أقلامه التي إذا أجراها أثبتَتْ خَال النِّقس[٨]، في وجنة الطرس، وطَرَّزت بالظلماء أرديةَ الشمس؛ وإذا هزّها أنْستْ هزَّ العوامل، وأصابت مِن الأمر الكُلَى والمفاصل، وإذا أمضاها لنعمة أو لنقمة فللجاني لعابُ الأفاعي القواتل، وللعافي أَرْيُ[٩] الجنيَ أشتاره[١٠] أيدِ عواسل؛ ولا زال ربعه مَربعًا للجلال ومَصِيفًا، ومَرتَعًا لسَوام الآمال وخريفًا، ومَشرَعًا وارف الظلال ورِيفًا؛ وحرمًا آمنًا تُجبَى إليه ثمرات الحمد وتُجْنَى منه ثمرات الرِّفْد، وتقف المعالي عليه «وقوف مطايا الشوق بالعَلَم الفرد[١١]»؛ فإنه الربع الذي وقفَتْ به الآمال وقوفَ غِيلان[١٢] بدار ميّة، وعكفَتْ عليه[١٣] المحامد عكوف تَوبَة[١٤] على حبّ الأخيَليّة[١٥]؛ والجنابُ [الذي][١٦] فاءت ظلالُه وفاضت مواهبُه

---

(١) ينكمش: يتقلّص. (انظر المنهل الصافي نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣).
(٢) الرُّدن: الكمّ من الثوب.
(٣) الغرار: حدّ السيف والرّمح.
(٤) شأت: سبقت.
(٥) الحنفاء: اسم فرس لحذيفة بن بدر الفزاري.
(٦) القاصية: يراد بها الغاية التي ينتهي إليها الفرس في جريه.
(٧) الخطّار: فرس لحذيفة بن بدر الفزاري.
(٨) خال النقس: النقس: الحبر، والخال: بثرة بارزة في الوجه والجسد أراد ما يتركه الحبر من نقط سوداء تشبه الخال.
(٩) الأريّ: عسل النحل.
(١٠) اشتارته: استخرجته.
(١١) العلم الفرد: جبل شرقي الحاجر يقال له: أبان، فيه عيون ونخيل ومياه والعلم: الجبل.
(١٢) غيلان: هو ذو الرّمة تقدّمت ترجمته.
(١٣) ما بين قوسين لم ترد في الأصل والسّياق يقتضيها...
(١٤) توبة: هو توبة بن الحُميِّر العامري، أبو حرب، شاعر من عشاق العرب المشهورين، كان يهوى ليلى الأخيلية مات سنة ٨٥هـ. (الأعلام ٢/ ٨٩).
(١٥) هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرّحال، وهي من النّساء المتقدمات في الشعر، من شعراء الإسلام، وكان يهواها توبة. (انظر الأغاني ١٠/ ٦٧).
(١٦) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والسياق يقتضيها.

ومارت مَذانبه[١]، وجادت سحائبُه، وجلّت شيمه وتجلّت غياهبُه[٢]؛ في روض المعالي الذي فاحت نسائمُه، وناحت حمائمُه، ومَنشإ المجد حيث شاب فأُرخيَتْ ذوائبه وشبّ فقُطِّعت تمائمُه[٣]، وبيتِ الرياسة الذي إذا دنوتَ حباك بإكرامه وإذا نأيت حيّتك مكارمُه، وصدر السيادة الذي خضعت له الأعناق هيبة «لأَبلجَ[٤] لا تيجانَ إلّا عمائمُه»: [من الطويل]

ولا زال بدرًا في سماء سيادةٍ ... يشار إليه في الورى بالأناملِ
بسيط مساعي المجد يركب نجدَه ... من الشرف الأعلى وبذلِ الفواضلِ
إذا سيل أغنى السامِعين جوابُه ... وإن قال لم يترك مقالًا لقائلِ
محدّد أيّامِ الحياة فكلُّها ... لطالبِ علم أو لقاصدِ نائلِ

ويُنهِي ولاء مخبوءًا بسويداء قلبِه، موضوعًا بين شَغافه وخِلْبِه؛ وثناءً مسموعًا في محافل الأنام، معلَنًا في صحائف الحمد بألسنة الأقلام، جديدًا على ذهاب الليالي واختلاف الأيام؛ ودعاءً سابَقَ أراعيلَ[٥] الرياح، ووَضحَتْ أنوار إجابته وضوح الصباح، وطار إلى ملإِ القبول بقادمة[٦] كقادمة الجناح؛ وتحية إذا واجهتْ وجه الجهام[٧] أمطر، وإذا هزّتْ أعطافَ الكَهام[٨] أثّر؛ أرقّ من النسيم السَّحَري، وأعطر من العنبر الشّحريّ؛ وأَصفَى من ماء المَناقع[٩]، وأحلى من «جنَى النحل ممزوجًا بماء الوقائع»[١٠] يرى ذلك في شرعِ المروءة واضحًا واجبًا...؛ تحيّةَ من أُولي النعمة فشكرَها وعرف العارفةَ وما أنكَرها، وآمن بيده البيضاءِ من غير سوء ومذ آمن بها ما كفرها؛ كيف لا وقد اُمتزج بحبها لحمُه ودمُه، وسبّح بحمدها قلمُه وفمُه، وجرت شِيَمُ حمده على أعرَق جيادها والخيِّرُ من سبقتْ به إلى شكر المنعم شِيمَهُ؛ لا سيّما

(١) المذانب: مسايل الماء إلى الأرض، أو الجداول تسيل عن الروضة إلى غيرها لتسقيها.
(٢) الغياهب: الظلمات، مفردها «الغيهب».
(٣) التمائم: مفردها تميمة، وهي ما تعلّق في عنق الطفل لدفع العين.
(٤) الأبلج: الذي بعد ما بين حاجبيه من النّاس.
(٥) أراعيل الرياح: أوائلها.
(٦) القادمة: ريش مقدّمة الجناح، جمعها القوادم.
(٧) الجهام: السّحاب لا مطر فيه.
(٨) الكهام: الكليل الحدّ من السيوف، أي الذي لا يقطع.
(٩) المناقع: مجامع الماء.
(١٠) الوقائع: جمع وقيعة، وهي مكان صلب يُمسك الماء.

وقد جنى الطيّبَ من ثمارِها، ووَرد العذب من أنهارِها؛ فلا أعدم الله مولانا صنائعَ الإحسان الذي انعقدتْ عليه كلمةُ الإجماع، وأَنشَده لسانُ المحامد عن شرف الاصطناع: [من الوافر]

فلو صوّرتَ نفسك لم تزدها على ما فيك مِن كرم الطباع[1]

ولا زال اللطف صدَى صوتِه إذا دعا، والنجحُ قرينَ مساعيه أنَّى سعى، وحاكمُ الفضل يصدِّق دعواه حَوْزَ كلٍّ فضيلة كيف ادَّعى؛ حضر المملوك مهنِّئًا نفسَه بهنائه، ساعيًا في خدمته سعي الأَجْدل[2] في هوائه، والنجم في سمائه؛ من ملازمة وجهه الذي ألقى الله عليه محبّةً منه فاستنار، واكتَسَى حلّة الحياء فألبسته حلّة الوقار؛ واجتلته المقل فرأت رونق الخفر عليه باديًا، وائتمّتْ به الهداة فألفته نجمًا في سماء السيادة هديًا؛ وقالت الأماني في ظلّه فأنشأ جودُه قائلًا: [من الطويل]

* نزلتُ على آل المهلّب شاتيا[3] *

ورأيتُه والناس موجسون من ليث عليه مهابة فكانوا الكِرْوانَ[4] أَبصَرن بازيًا[5]؛ أبّهة الجلالة، وجلالةُ الأصالة؛ وأَصالة الشرف، وشرفُ الفضل الأنف، ورِياسةٌ ورّثها خيرُ سلفٍ لخير خلف، وشيمٌ علّمته في المعالي كيف تؤكَل الكتف؛ فصادف ركابَه العاليَ قد استقلّ، وحلّ من دارة العزّ حيث حلّ؛ فأقام رجاءَ أن يعاين أسرّةَ جبينِه، ويقبّلَه كتقبيل الندى في يمينِه؛ وحين جنحت[6] الشمس إلى مستقرّ الأنوار وطوى الفَلَكُ بيدِ القدرة رداء النهار، وأَشرَفَ اليومُ من خشية طيّه على شفا جُرُف[7]

---

(١) الطباع: السّجايا والأخلاق، والبيت لأبي تمام الطائي. (انظر ديوانه: ص ١٧٢، دار صعب).

(٢) الأجدل: الصقر.

(٣) تمام البيت:

نزلت على آل المهلّب شاتيًا غريبًا عن الأوطان في زمن المحل

(انظر الأمالي لأبي عليّ القالي ١/٤٢، دار الكتب العلمية).

(٤) الكروان: بكسر الكاف وسكون الرّاء: جمع كروان، وهو طائر طويل الرّجلين أغبر دون الدّجاجة في الخلق، وله صوتٌ حسن، يكون بمصر.

(٥) يشير بهذه العبارة إلى قول ذي الرّمة في بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري:

من آل أبي موسى ترى الناس حوله كأنّهم الكروان عاينّ بازيًا

والبازيّ: ضربٌ من الصقور.

(٦) جنحت: مالت.

(٧) الجُرف: شقّ الوادي إذا حفر الماء في أسفله، والشّفا: حدُّه الأعلى.

هار؛ وثَوَّب[١] داعي العصر وحيْعَل[٢]، وعاين نيِّرَ الفلكَ في وجه السماء كعين الأقْبَل[٣]؛ ثَنَى عِنانَه إلى مَثْوَى قرارِه، وٱنثنى يسابق أدهمَ ليلِه بأشهب نهارِه؛ وعلى الرغم أَخفق مسعاه، ولم يَقْلِ[٤] قلبُه الشوقَ الذي دعاه؛ لكن بِار وأقام خالص ولَائه وعاد بعد ما أودع الحفَظَةَ مرفوعَ دعائه؛ فعرّف ٱللهُ مولانا بركاتِ هذا الشهر الذي سارت به إلى إحسانه مطايا أيامِه، وجعلَه مثبِتًا لحسناته ممحيًا[٥] لآثامِه، وحلّاه بالمقبول من صيامه والمشهورِ من قيامِه؛ وأراه صدرَ بِرِّه أَثْلَج، ووجهَ بدرِه أَبلَج، وثغرَ ٱبتسامِه عن رضوان القبول أَفلَج[٦]؛ ورقّاه درَجَ تَضاعُفِ حسناتِه، ولقّاه من كرم الله مذخورَ إحسانه وموعودَ هباتِه؛ وأراده الأملَ في بَنِيه، وأرانا فيهم ما رأينا فيه؛ فهو باغُ[٧] العلم وهم أغصانه وشجرُه، ومُطَهَّمُ[٨] السابقين وهم حُجولُه[٩] وغُررُه[١٠]؛ وإني لألمح من مَخايل شرفهم وشرف مَخايلِهم، وشمائِل شيمهم وشيمِ شمائِلهم؛ نجابةً تضعُهم من الرِّياسة في أنفِها، ومن السيادة بمكان شَنفِها؛ فهم جذوة فضلٍ مُبرِقة، ودوحةُ عِلم مُورِقة ونَبعةُ سيادةٍ مُعرِقة، وشموس معالٍ في أفق كلّ شرف مُشرِقة؛ سمت بهم أَصالة النسب، وفضيلةُ الأدب المكتسَب، وجمعوا بين شرف العمومة والخؤولة في كرم المنتسَب؛ فلِلعلا ألسنٌ تثني محامدها على الحميد من فعلهم وشيمهم، وللندى مواهبُ عُزِيَتْ[١١] مذاهبها إلى العليِّين من كرمهم وهممِهم؛ لا زالت محاسنهم قلائدَ الأجياد وأيَّامُهم مواسمَ الأعياد، وحرمهم المخصب بالمكارم سواء العاكفُ فيه والباد[١٢]؛ إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى القاضي شمس الدين الأصفهاني الحاكم ـ وكان بالأعمال القوصيّة ـ رحمهما الله تعالى ـ:

---

(١) ثوّب: ردّد الصّوت، من التثويب. (٢) حيعل: قال: حيّ على الصلاة مثلًا.

(٣) الأقبل: من القبل بفتحتين: وهو في العين: إقبال سوادها على الأنف، أو هو مثل الحول...

(٤) قلى: أبغض وهجر. (٥) ممحيًا: من محاه تمحية أي بالغ في محوه.

(٦) الأفلج: من الفلج وهو تباعد ما بين الأسنان.

(٧) الباغُ: البستان؛ فارسيّ معرب.

(٨) المطهّم: الكريم الحسب، أو المتناهي في الحسن.

(٩) الحجول: البياض في قوائم الفرس.

(١٠) الغرر: مفردها «الغرّة» وهي بياض جبهة الفرس.

(١١) عُزيت: نُميت.

(١٢) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: الآية ٢٥].

أَوْضح الله صنائعَ المجلس في بهيم الآمال غررًا، ونظم أياديَه في أجياد الأيّام دررًا، وصفّى مشارعَ أمانيِّه إن كان مَشرَعُ الأمانيِّ كدِرًا[١]، ولا زال الإسلام يشدو بحمده مفتخرًا، والأيّامُ تتلو مجدَه سُورًا، والشرعُ المحمديُّ يكون بمضائه في ذات الله منتصرًا: [من الطويل]

فـقـد نـشـرت يـمـنـاك أرديـةَ الـعـلا
تُـحـلِّي بـلادَ الله بـالـديـن والـعـلـمِ[٢]
وأمـضـيـتَ أمـر الله فـي شـرع أحـمـد
وقَـيّـدتَ شـكـر الله فـي مـطـلق الـحُـكـمِ
وتُرضِي كلا الخصمين في السّخْط والرضا
كـأنـك تُـعطِـي ألـخـصـم مـا كـان لـلخـصـم

إلى غير ذلك من محاسنَ وضحت وضوح النجم في الليل البهيم[٣]، وسرت إلى الحمد سُرى المُجِدِّ إلى الشرف الصميم، وحدَّثتْ عن مساعيه فجاءت بالنثر البديع والدرّ النظيم، وأثنتْ عليه ثناءَ وارِف الروض على واكِف[٤] الوَبل بألسنة النسيم: [من الطويل]

وهـزّت جـنـاحَـي فـضـلـه وجـلالـه ... إلـى دَرَك الـعـلـيـاء من غـايـة الـمـجـدِ[٥]
وقـالـت مـعـالـيـه لـيَ الـمـجـد كـلُّه ... فـما أَبنةُ ذي البردين والفرسِ الوَرِدِ[٦]

---

(١) المشرع: مورد الماء، والكدر: غير الصافي.
(٢) الأردية: مفردها «رداء» وهو ما يلبس فوق الثّياب كالجبّة والعباءة.
(٣) البهيم: الأسود المظلم. (٤) واكف الوبل: هاطل المطر.
(٥) درك العلياء: إدراكها، ودرك: إسم المصدر من الإدراك.
(٦) ذو البردين: عامر بن أحيمر بن بهدلة، لقّب بذلك يوم اجتمعت العرب عند المنذر بن ماء السماء، وأخرج المنذر بردين يبلو الوفود، وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وائتزر بأحدهما وارتدى الآخر، فقال له المنذر: أأنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: العزّ والعدد في معدّ ثمّ في نزار ثمّ في مضر ثم في خندق ثمّ في تميم ثم في سعد ثمّ في كعب ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرني أي يفاخرني فسكت الناس، فقال المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك؟ فقال: أنا أبو عشرة وخال عشرة وعمّ عشرة، وأما في نفسي فشاهد العزّ شاهدي» ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل، فلم يقم أحدٌ من الحاضرين ففاز بالبردين. (انظر ديوان حاتم الطائي ص ٣٥، دار الهلال) والشّعر لحاتم...

فلا عدمه الإسلام إمامًا فاضلًا، وحَكَمًا فاصلًا، وساعيًا إلى غايات الفضائل واصلًا، وفاعلَ حسناتٍ صيَّر الحاصل من ثنائه باقيًا والباقيَ من عملِه الصالح حاصلًا؛ المجلس ـ أدام الله أيامه ـ يعلم أن الأيام مسّتني بحدّ شَباتِها[١]، ورمتني عن قوس أذاتِها، وجنتني الحنظلَ[٢] من شَجَراتِها، والمرَّ من ثمراتها، وأضرمتْ من نار ألمي ما لم تُطفئه مقلتي بفيض عبراتِها: [من الطويل]

كأني لم أَطلُع بأفق سمائها ولَم أتقلّب في ثياب سماتِها
ولم أكُ منها في سويداء قلبها مَخايلَ من هدى العلا وهداتِها

ـ أستغفر الله ـ فإنها اُسترجعتْ ما لم يكن مستحَقًّا، وأبقت إن شاء الله لمجلسه السامي ما كان حقًّا، وأسكنَتْه ـ أدام الله نعمته ـ وفَلَكَ السعادة شرقًا ومَطلَع الشمس أفقًا، وأحلَّته من كَنَف السيادة قلبًا ومن رأس الرِّياسة فَرْقًا[٣]: [من الطويل]

وتُطلِعه الآمال خيرَ غمامةٍ فتُلمِعُه بَرقًا وتُوكِفُه وذقا[٤]
وتبقيه للدين الحنيفيِّ عصمةً وللهَدْي والإضلال إن أَبهَما فَرْقا[٥]
وتُبرزُه في صدر كلّ فضيلة كما بَذّ شأوَ الفاضلين بها سَبْقا[٦]

حضر مملوكُ مولانا الولَدُ وقد[٧] رَفع من المحامد الشمسيّة لواء، والتَزم العبوديّةَ والإخلاصَ وَلاء، وعَمَر الأفنيَةَ ودادًا والأندية ثناء؛ وقال: أحسن مولانا حين أساءت الأيام، وأَولى نعمةً حاتميّةً وإنها أشرفُ الإنعام: [من الطويل]

وما ليَ لا أُثنِي عليه بصالحٍ وأشكره والشكرُ بعضُ حقوقِه
وأملأ من حسن الثنا كلَّ مَسمَعٍ وإنّي لأَخشى بَعدُ إثمَ عقوقِه[٨]

---

(١) الشّباة: من السّيف والعقرب. حدّه وطرفه.
(٢) الحنظل: نبات ثمرته في حجم البرتقالة ولونها؛ فيها لبٌّ شديد المرورة.
(٣) الفرق: الزيادة والتمييز، والفرق: الزيادة والتمييز، والفرق: الخطّ الفاصل بين صفّين من شعر الرأس.
(٤) الودق: المطر شديده وهيّنه. (٥) الفرق: ما يميّز أمرًا عن أمر.
(٦) بذّ: غلب وسبق وتفوّق.
(٧) لم ترد هذه الكلمة التي بين قوسين، والسّياق يقتضيها.
(٨) الثنا: الإطراء والمديح، والعقوق: نكران الجميل والمعروف ومعصية الوالدين.

ثم سار وقلبي يتبَعُه، ودمعي يشيّعُه، ولساني يستحفِظه ٱللهَ ويستودِعُه؛ وعليه من الديون ما أحاط به إحاطة الجفون بمقلِها، والأغمادِ بمُنصلِها[١]؛ لتَوالِي هذه المغارم التي طَمّ جُداها[٢]، والمظالِم التي عَمّ رداها، والمحنةِ التي مَلَكَتْني يداها؛ من خراج طَمى بحرُ ظلمِه، وزاد على حدّ الجور رسمُه وخُصِصتُ من بين هذا العالم بوَسمه[٣]؛ للزوم قام بوصفي فتبعه لازمُه، ومعنًى وجب لذاتي فاستحال عَدمُه؛ وقد كان المملوك وولدُه فيما سلف يجودان بما يَجِدان لقانع ومُعترّ[٤] وغنّي ومضطرّ؛ صيانةً للأعراض مِن أعراضِ اللّوم، ورغبةً في صِلة حمدِ الأمس بفائد[٥] اليوم؛ وسجيّةَ نفس تأنف من عَلاقة الذم؛ وإن كان هذا فيما لا يجب فالقياسُ فيما يجب انبعاثُ النفس إليه مِن حَتْم المروءة أَمضَى، والدّينُ بأداء الواجب أقضى؛ لأنه مؤيَّد بإبرام الشرع، وقد صحّ هذا القياس بجامعيّة الأصل والفرع؛ لكن ضاقت يد القدرة عن نفاذِها، واعتاضت من وابل[٦] الثروة برذاذِها[٧]؛ وإذا توافرت القرائن أفادت فوق ما تفيد غلباتُ الظنون من مَدار الشرعيّات عليها، وانتهاءِ غالب الأحكام إليها؛ وقد كان المملوك حرّك عزائم سيّدنا قاضي القضاة ـ شرّف الله قدرَه، وأدام على الإسلام أمرَه ـ إلى تَحرّيها العلومَ الكريمةَ بما هي عالمة، وحُكمها بما هي حاكمة؛ ليكون[٨] له مستنَد يدفع أقوال المتعرّضِين، ويصرف ٱعتراضَ المعترِضين؛ ولئلّا يقفَ له واقف فيجريَ قلمه الشريف بأمرٍ حازمٍ يجب الوقوفُ على مثالِه، والمسارعَةُ إلى ٱمتثاله؛ فيعزّ ٱستدراكِ الأمر بعد إحكامِه، ويكون السعيُ في معارضته كالنقض لأحكامِه؛ فكتَبَ بما يقف مولانا عليه، وتشير مروءتُه وديانتُه إليه؛ ويقرِّر مع نائبه ما يقف عنده، ولا يتجاوز حدَّه؛ غير ذاكرٍ عن مولانا منْعًا ينفِر عنه الرُّواة، ولا مشنِّع بكتّاب سيّدنا قاضي القضاة؛ بل يكون كالشافع، إذا صمّم الخصمُ ٱعتذر بما هو لهذه المصالح

(١) المنصل: السّيف.
(٢) طمّ جداها: الجداء: بضمّ الجيم: مبلغ حساب الضرب كقولك: ثلاثة في ثلاثة جداؤها تسعة، وطمّ: زاد، يريد: زاد مبلغ حساب هذه المغارم.
(٣) الوسم: أثر الكيّ.
(٤) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: الآية ٣٦]، والقانع: هو الذي يقنع بما أعطي، والمعترّ: هو يتعرّض لك ولا يسألك. . .
(٥) الفائد: المستفاد يقال: فادت لفلان فائدة: أي حصلت.
(٦) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.
(٧) الرّذاذ: المطر الضعيف، أو السّاكن الدائم الصغير القطر كأنّه الغبار.
(٨) ليكون: أي ليحصل ويثبت.

كالجامع؛ ليكون المملَّكُ في إرضائه بحسب الإمكان ويَرَى الخصمُ ما أخذه بعد اليأس نوعًا من الإحسان؛ فالنفوس إذا مُنِعتْ كلَّ المنع طَلَبَتْ كلَّ الطلب، وتعلّقَتْ في دَرَك أغراضها بكل سبب؛ وإذا أُخذتْ بالكَلام البيّن، وعوملَتْ بالسهل الليّن؛ بَعْد دَرءِ[١] سَورتها[٢] بالمنع، ودفعِ شهوتِها بالدفع؛ اتَّسَق حُكم الأشياء وانتظم، وانشعب صَدعُ هذا الجرح والتأم؛ وجرَى الأمرُ على سداد بحفظ النظام وحفظِ الحرمة والحفظ للشارع، ولذلك قال: «أقيلوا[٣] ذوي الهيئات عثَراتِهم» لا سيما مع شهادات ضروراتِهم؛ بَسَط الله يمينَ سيدنا في المعالي كما بسط لسانَه في المعالم، وقيَّد عليه لسان المحامد كما أطلق يدَه بالمكارم؛ وعليه تحية الله التي تُوالي عليه نفحاتِها، وتُهدِي إلى آماله العاليَ [من][٤] مقترحاتِها.

وكتب إلى شهاب الدين محمود متولي سَمهودَ[٥] من عمل قوصَ ـ وكان بينهما مودّة، فاستدعاه للسلام عليه ـ فكتب: [من الطويل]

إلينا فإنا قد حللنا بأرضكم	على فرط شوقٍ لابن عثمان دائم
وزرناك محمودًا كما زار أحنفٌ	لنَيل الأماني ربعَ قيس بن عاصمِ[٦]
ولسنا بغاةً للندى والتماسِه	وإن كنتَ معروف الندى والمكارِم
ولكن وفاءً بالإخاء لمن وفَى	وقد خان حتى حدُّ سيفي وقائمِي
وجدتك ذخري والزمانُ محاربي	كما كنتَ عَوني والزمانُ مسالمِي
فلا غرو أن أثني إليك أعنّتي	كما قد ثنت يمنايَ خِنصَرَ خاتَمِي

يُهدى إلى المجلس السامي الشرفيّ تحيّةَ الله التي تحملها أنفاس النسيم معطّرة بعَرْف الرياض، مكلَّلةً بأندية الكرم الفيّاض؛ تغاديه في السحر والمَقِيل، وتُراوحه في

(١) الدرء: الدَّفع بشدة. (٢) السّورة: الحدّة.
(٣) أقيلوا عثرتهم: يقال: أقال عثرة فلان: أي أنهضه من سقوط وصفح عنه.
(٤) ما بين قوسين زيادة على الأصول فالسّياق يقتضيها.
(٥) سمهود: يقال: سمهوط، قرية كبيرة على شاطىء غربي النّيل بالصعيد دون فرشوط. (معجم البلدان ٣/ ٢٥٥).
(٦) محمود: هو الشّهاب محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الدمشقي، أديبٌ كبير وشاعر، ولد بحلب وولي الإنشاء بدمشق وانتقل إلى مصر فكتب بها في الديوان له تصانيف كثيرة مات سنة ٧٢٥ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٢). والأحنف: هو الضحّاك بن قيس، ويكنى أبا بحر، يضرب به المثل في الحلم، شهد صفين مع عليّ عليه السلام. مات بالكوفة سنة ٧٢ هـ. (الأعلام ١/ ٢٧٦). وقيس بن عاصم: هو قيس بن عاصم المنقري سيّد أهل الوبر تقدّم ذكره.

الطَّفَل[١] والأصيل، وتشاهد محاسنَه المقل أَحسَنَ من محاسن بثينة في وجه جميل؛ وأثنيته[٢] التي تنتظم في الأجياد ٱنتظامَ القلائد، وتَرِد على الأسماع ورود الهِيم[٣] على عِذاب المَوارد؛ ويوليه من حبِّه مزيّةَ الاختصاص، ومن مُوالاته السوانحَ[٤] التي لا تمتد إليها يد الاقتناص؛ فهو نسيم الأنس، ومسرّةُ النفس، وذخرُ اليوم والأمس؛ مصعبيُّ الهمم، مهلّبيُّ الشيم، حاتميُّ الكرم؛ فاق أخلاقًا، وراق أعراقًا؛ وسما نفسًا، وطلع في سماء الشرف شمسًا: [من الطويل]

وأَلـفـيـتُـه فـي نـفـسِـه وولائـه وحسنِ معانيه كما ٱنتظم الدر

وضـاع شـذا أنـفـاسـه فـانـتـشـقـتُـه على النأي منه مثلَما ٱبتسم الزهرُ[٥]

ولاحـت مـعـالـيـه بـآفـاق مـجـدِه كما لاح في ليل التَّمام لنا بدرُ

لا حُرِم إتياني إليه، وإيثارَ تسليمي عليه؛ مع أني كنت أعهد له خلوةً حلوةً مع الله ووقفةً على بابِه، والتجاءَة في جنح الليل إلى جنابِه، ودمعةً يرسلها إذا ٱسترسل في محرابِه؛ وضراعةً يتابعها خشوعُه، وزفرةً يشتمل عليها قلبه وتفرّق عنها ضلوعُه: [من الطويل]

فيا ليت شعري هل أقامت بثينةٌ على عهدها أم قد ثنتها الشواغلُ

وهـل ذلـك الـودّ الـذي كـان بيننـا بوادي الخزامى مثلُ ما كان أوّلُ[٦]

وكتب إليه - رحمهما الله - يستدعي منه ثلاث أسهم ومليات[٧] - وقد أوردنا بعض هذه الرسالة في الفن الأوّل - في السواقي، ونُوردها في هذا الموضع بجملتها

---

(١) الطّفل: إقبال الليل على النّهار بظلمته، أو الوقت قبيل الغروب. . .

(٢) الأثنية: جمع ثناء. (٣) الهيم: الإبل العطاش.

(٤) السّوانح: مفردها «السّانح» وهو من الطير ما يمرّ من يسار الرّائي إلى يمينه.

(٥) ضاع: انتشر، وضاع الشذا: عبق وانتشر.

(٦) لم يلتزم الشاعر هنا ألف التأسيس، وهي التي يكون بينها وبين الرويّ حرف متحرك، ويجب على الشاعر التزامها اتفاقًا. (انظر الحاشية الكبرى للدمنهوري على متن الكافي ص ١١٧، ط، بولاق).

والخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفوية، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه.

(٧) المليّات: يريد بها الكاتب: أوانٍ من خزف يستخرج بها الماء من السّواقي وتسمّى هذه الأواني: القواديس. (انظر مستدرك التاج، مادة قدس).

لتكون متتابعة يتلو بعضُها بعضًا: [من الكامل]

والسيفُ يُندَب في الوغى فيهزّه نَدْبُ الكميّ إلى مضاء غِرارِهِ[١]

والحرُّ أَولى بانتداب خلالِه لمؤمِّلٍ فيه قضا أوطارِهِ[٢]

فلذلك حرّكتُ العزائمَ العاليةَ المولويّةَ الشرفيّةَ ـ أدام الله علاها، ورفع لواها وأَودع أسماعَ الأنام ثناها؛ ولا زالت مرفَّهةَ السرائر، منوَّرةَ الضمائر، سائرةً في قطب المعالي سير الفَلَك الدائر، آخذةً بحظها من شرف المفاخر، جامعةً بين دَرَك إحسان الله في اليوم الأوّل واليوم الآخر ـ تحريكَ الطَّسْميّة[٣] عزائمَ الأَسوَد بنِ عَفار[٤] وبعثتُها إلى إنالة الأمل انبعاثَ الهمم العربيّة يومَ ذي قار[٥]، واستَجشتُ[٦] عزائمها استجاشةَ رسول الله ﷺ عزائمَ الأنصار، واستنجدتُها استنجادَ العثمانيّة بالهاشميّة يوم الدار[٧]، واستحثثتُها سرعةَ الإجابة استحثاثَ أدهمِ[٨] الليل أشهبَ[٩] النهار؛ فإنها للتي ثَنَيتُ عليها خِنصَرَ الاعتماد، وصرفتُ إليها عَقيدَةَ الاعتداد، وجعلتُها من القلب في سويدائه ومن المقلة في السواد، واعتمدتُ عليها اعتمادَ بكرٍ على الحارث بن عُبَاد[١٠]؛ لا

(١) يندب: يوجّه، وندبُ الكمي: توجيهه، والغرار: الحدّ.

(٢) الأوطار: الحاجات...

(٣) الطسميّة: لعلّه يريد «الجديسيّة» لأن الذي حرّك الأسود بن عفار للذود عن شرفه وشرف قومه هي عفيرة أخته، وهما من جديس لا من طسم... وطسم: قبيلة من العرب البائدة...

(٤) الأسود بن عفار من جديس، وهو الذي خطب في قومه وائتمروا بطسم وملكهم الذي كان يفتضّ كلّ فتاة قبل زوجها، فصنعوا طعامًا ودعوا إليه ملك طسم وقومه ودفنوا سيوفهم في الرمل، فلمّا حضروا وجلسوا إلى الطعام أخذتهم سيوف جديس فلم تبقِ منهم أحدًا. (انظر تفصيل هذه القصة في الكامل لابن الأثير ١/ ٢٥٢، ٢٥٣، ط، ليدن).

(٥) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، به كانت الوقعة المشهودة بين بكر بن وائل والفرس، وهو أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم. (معجم البلدان ٤/ ٢٩٤).

(٦) استجاش: استنفر.

(٧) يوم الدّار: يريد دار عثمان بن عفّان رضي الله عنه حين حوصر فيها وقتله الثوار وذلك سنة ٣٥ هـ.

(٨) الأدهم: الأسود.

(٩) الأشهب: ما كان لونه الشهبة وهي بياض يغلب على السّواد.

(١٠) هو الحارث بن عبّاد أحد فرسان بني بكر بن وائل المعدودين، وكان قد اعتزل الحروب التي وقعت بين بكر وتغلب، وهي المسمّاة بحرب البسوس ثم شهدها بعد ذلك لما قتل مهلهل بن ربيعة ابن أخيه بجيرًا وقال حين قتله: بؤ بشسع نعل كليب» فغضب الحارث عند ذلك وقال:

قربا مربط النعامة منّي إن قتل الكريم بالشّسع غال

(انظر تاريخ ابن الأثير ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

جرم أنها والحمد لله تعالى ساعيةٌ لآمالي متى استَسعَيتُها، وصدَى صوتي متى دعوتُها وفاتحةُ كتابِ المحامد متى تلوتُها؛ وأعيذها بالله أن تَنكُب عن قضائها، أو تقفَ دون غاية انقضائها؛ وإنها لأورقُ[١] فرعًا من أفنان السَّلَمة[٢]، وأرْسَخُ أصلًا في الوفاء من أصل السَّلِمة[٣]، وأرْشَقُ سهمًا في كنانة سَلِمة[٤]، وأَوْثَقُ في حفاظ المودّة من ٱبن شُبْرُمة[٥]؛ يقينٌ أحطتُ بأنبائه، إحاطةَ رسول ابن داود[٦] يوم إنبائه؛ فلا أشكّ في شرف نفسِها وسموّ نجمها ووضوحِ شمسِها، وزيادةِ يومها في الوفاء على أمسِها، كما لا تشكّ الإيادية في فصاحة قُسِّها[٧]، ولا العامريّةُ[٨] في عَلاقة قيسِها؛ وقد تَوجّه إليه حاملُها لحمل السهام التي أَسهمتْ له مِن الموالاة[٩] أوفرَ أقسامِها، ونَشرتْ رداءَ ذكرِه على أفئدة قلوبها وألسنة أقلامِها؛ عند اشتداد الحاجة إليها، وجَرّ ثِقَلِ السواقي عليها؛ وحركةِ الحرّ التي حلّت شمسُهُ بُرجَ حَمَلِها[١٠]، وتوالت جيوشُ جنودِه بين صدور ظُباها وأطرافِ أَسَلِها[١١]؛ تجفّف أنداءَ الثرى، وتُعيد عنبرَ الأرض عِثْيَرا[١٢]، وتُشيب مَفارِقَ نَباتِها، وتُذيق المماتَ أكباد حَبّاتِها؛ فاستَنصَر العزائمَ العاليةَ المولويّةَ الشرفيَّةَ في إطفاءِ لهبِهِ وٱقتَضَينا إعانته قَبل ٱنتضاء قُضُبِه، وبعثْنا لمحلّ الهمة الشرفيّة قبل سطوتِه على قَضْبِه[١٣] وقَصَبِه؛ لتجري جداولُها على صفحة الثرى مستفيضة، وتُجنَى ثمراتُ رياضها من أنداء همّته أَريضة[١٤]؛ وتغازِل مقلُ النفوس لحظاتِ أزهارِها، وتفتِن أفنانُ[١٥]

---

(١) أورق: من ورق الشجر يرق، والأكثر في هذا الفعل «أورق».
(٢) السَّلَمة: شجرة ذات شوك يدبغ بورقها وقشرها، وورقها يسمّى القرظ ولها زهرة صفراء فيها حبّة خضراء طيّبة الرّيح تؤكل في الشتاء وتحضر في الصيف.
(٣) السَّلِمة: بكسر اللام: الصخرة، يريد أنه ثابت العهد على الأيام ثبوت الصخر.
(٤) سلِمة: بطن من الأنصار.
(٥) ابن شبرمة: لعل المراد بابن شبرمة: سعيد بن النضر بن شبرمة الحارثي الكوفي، من المحدّثين. (انظر مستدرك التاج).
(٦) أراد برسول ابن داود: الهدهد، وقصته مع نبيّ الله سليمان بن داود صلّى الله عليهما وسلّم مشهورة. (انظر القرآن الكريم سورة سبأ).
(٧) يريد قسّ بن ساعدة الإيادي، الخطيب المشهور.
(٨) العامرية: يريد ليلى العامرية التي أحبها قيس وعرف بها.
(٩) الموالاة: يقال: والى فلانٌ فلانًا: إذا أحبّه وصادقه.
(١٠) الحمل: من بروج السّماء، وهو أوّل البروج...
(١١) الأسل: الرّماح. (١٢) العثير: الغبار.
(١٣) القضب: كل نبات يقتضب فيؤكل طريًّا غضًّا.
(١٤) الأريضة: المعجبة للعين. (١٥) الأفنان: الغصون.

فنونها بنَوح بلبلها وهَزارِها[١]، ويبوح شذا الروض عن سرِّها وآثارِها؛ هذا مع أنها خَطبتْ حُسنَ إحسانه، وتقلّدتْ جميلَ برِّه وجزيلَ آمتنانِه؛ والربيع منَمنَم العذار، مُوشَّى الإزار؛ قد لبس رداء شبابِه، وماسَ في خَضِرِ ترابه وخَضِلِ رَبابِه[٢]؛ يهزّ أعطاف سَنائه، ويَخطِر في بُرد هوائه وبَرد مائه فكَلل وجناتِ نَوْرِه بَبرد أندائه؛ والثرى عنبريُّ الأديم[٣]، سَحريُّ النسيم، رَنديُّ الشميم؛ موشّحٌ بقلائد غدرانِه، مغازِلٌ بعيون نرجسِه بسّامٍ بثغر أُقْحُوانِه؛ لا يغرّد ذبابُه ولا يطرِّب، ولا يَصِرّ[٤] بسُحُراته الجُندُب؛ تطلُع شمسه محتجبةً في ضبابِها، مقنَّعةً مِن سحابِها؛ جاريةً في أثناء حُبُكِها[٥]، جائلةً في أدنى فَلَكِها؛ تسعى فتُسرِع، وتكاد أن تغرب حين تَطلعُ؛ والجوّ معقود الأزرار، فاختيُّ[٦] الإزار؛ غَيمُه منسكب، ونُورُه منسحب؛ وليلُه يضمّ أطراف نهاره، ويلفّ وجهَه في حاشية إزارِه؛ يَنفِي القذاةَ عن مائِه، ويَجمع الحواسَّ على جَلْوائه، ويُعشِي المقل من ضوء سَنائه: [من الطويل]

فلو أنّ ليلى زارني طيفُ أنسها ... وماءُ شبابي قاطرٌ في ذوائبِي

ضَممتُ عليها البرد ضمّةَ آلفٍ ... وألصقتُ أحشائي بها وترائبي[٧]

ولكن أتتني بعد ما شاب مَفرِقي ... وودّعتُ أحبابي له وحبائبي

والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثة أسهم، كأنها هَقْعةُ[٨] الأنجُم؛ ممتدّة آمتداد الرمح، مقوَّمة تقويم القِدْح؛ غير مُشعَّثةِ الأطراف، ولا معقَّدةِ الأعطاف، ولا مسوَّسةِ الأجواف؛ تُحاسِن الغصون بقوامِها، والقدودَ بتمامِها؛ وتُخالِف هيفَها بامتلاء خصورِها، وتُساوِي بين هَواديها وصدورِها؛ معتدلة القدود، ناعمة الخدود؛ مع مليات[٩] أخذت النار فيها مَأخذَها فاسودّتْ، وتطاولت عليها مدّةُ الجفاف فاشتدّتْ؛

---

(١) الهزار: طائر حسن الصوت «فارسي معرّب» يقال له: هزاردستان لأنّه يغنّي ألحانًا كثيرة.

(٢) الرّباب: السّحاب.

(٣) الأديم: الجلد.

(٤) الصرّ والصرير: صوت الجندُب.

(٥) حبك الشمس: طرائقها، الواحد حبيكة.

(٦) الفاختي: نسبة إلى الفاختة، وهي ضربٌ من الحمام المطوّق لأن لونها يشبه الفخت، وهو ضوء القمر. . .

(٧) ترائب: مفردها «تريبة» وهي موضع القلادة من الصدر.

(٨) هقعة الأنجم: ثلاثة كواكب فوق منكبي الجوزاء كالأثافي، إذا طلعت مع الفجر اشتدّ حرّ الصيف.

(٩) المليّات: يريد بها الكاتب أوان من خزف يستخرج بها الماء من السّواقي، وتسمّى بالقواديس».

وترامت بها مدّة القِدَم، كأنها في حيّز العدم؛ صِلاب المَكاسر، غِلاظ المآزر؛ تشبه أخلاقَه في هيجاء السِّلم، وتَحكِي صلابة آرائه في نفاذ الرأي ومَضاء العزم؛ تَكظِم[1] على الماء بقَبضها، فتجود على الأرض بفَيضِها؛ تمدّ يَد أيدِها[2] في اقتضاء إرادتها، وتَطلُع طلوعَ الأنجم في فَلَكِ إدارتِها؛ وتُعانِق أخواتها معانَقَةَ التشييع[3]، فآخرُ التسليم أوّلُ التوديع؛ على أنها تؤذِن بحقائق الاعتبار، وتَجرِي جَرْيَ الفَلَك المُدار في فَناء الأعمار: [من الطويل]

تَمرّ كأنفاس الفتى في حياته ... وتسعى كسعي المرء أثناء عمرِه

يفارق خِلٌّ خِلَّه وهو سائرٌ ... على مِثل حال الخَلّ في إثر سيرِه

ويُعلِمه التّداورُ لو يعقل الفتى ... بأن مرور العمر فيه كمَرِّه

فمن أَدركتْ أفكارُه سرَّ أمرها ... فقد أَدركت أفكارُه سرَّ أمرِه

ومن فاته الإدراك أدركه الردى ... إذا جُرِّعتْ أنفاسه كأسَ مُرِّه

هذه آخر خَطَوات القلم، ومنتهى خَطَرات[4] الكَلِم؛ فقُم في سرعة وصولِها وتعجيلِ رسولِها: [من الطويل]

بعزمٍ غدا يُنسِي لمروانَ عَزمَه ... براهِطَ إذا جاشت عليه القبائلُ[5]

غيرَ معتمد عليه، ولا مفوّض أمرًا إليه؛ فلَم أعتمد عليه اعتماد الصُّوفة[6]، وإنما هو العِماد عند أهل الكوفة[7]؛ وإنما هو حمار سَير، وذَنَب طَير؛ يَحمِل ورقة مطويّةً عن عِلمِه، مزويّةً عن فهمه؛ «كما يحمل الزَّندُ[8] الشرارَ إلى العَظْم» والله تعالى يُحلّه من السعادة أشرفَ آفاقِها، ويحرسه في طَفل[9] الشمس وإشراقِها:

---

(١) تكظم: تحبس.
(٢) الأيد: القوّة.
(٣) التشييع: التوديع.
(٤) الخطرات: ما يخطر على الفكر والبال.
(٥) مروان: هو مروان بن الحكم أحدُ خلفاء بني أميّة، وراهط: موضع في الغوطة من دمشق. (معجم البلدان ٣/٢١) ومنع من الصّرف للعلميّة، يريد معركة مرج راهط المشهورة بين مروان بن الحكم، وأتباع عبد الله بن الزبير، وكان النصر فيها لجيش مروان.
(٦) لعله يريد اعتماد أهل الصّوفة: أي أهل التصوّف الذين يعتمدون في الأمور التي تفوّض إليهم على خالقهم ويسلّمون له في كلّ أمر، ويقال: إن الصوفيّة منسوبة إلى الصّوف.
(٧) العماد عند أهل الكوفة: هو المسمّى بضمير الفصل عند البصريين مثل «هو» في زيد هو قائم، وتسميته عماد لأنّه يحفظ ما بعده حتى لا يسقط عن الخبريّة كالعماد في البيت الحافظ للسقف من السقوط، وأهل الكوفة: أهل المذهب الكوفي في النّحو...
(٨) الزّند: العود الأعلى الذي تقدح به النّار.
(٩) طفل الشمس: الوقت قبل غروبها.

[من الطويل]

ويُجريه من ألطافه نحو غاية ... تُبلّغه الألطافِ حلوَ مَذاقِها

ويُلبِسه فخرَ السيادة والعلا ... كما لبسَتْ أسماءُ فخرَ نطاقِها[(١)]

إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من إنشاء المولى القاضي الفاضل البارع الأصيل الأجلّ محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر[(٢)] رحمه الله تعالى

كان رحمه الله من أجلّ كتاب العصر، وفضلاءِ المصر؛ وأكابرِ أعيان الدُّوَل والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل؛ له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحُسنًا، ومن النثرِ الرائق ما فاق بلاغةً ومعنى؛ فقصائدُه مدوَّنةٌ مشهورة، ورسائلُه بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة؛ وكلامُه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجّة، وطريقُه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضحُ مَحَجّة؛ وهو رحمه الله ممن عاصرتُه ولسوء الحظ لم أشاهدْ محيّاه الوسيم، ولم أَفُز بالنظر إلى طلاقة وجهه الكريم؛ والذي أُورده من كلامه هو ممّا نقلتُه من خطِّه، وتَلقَّيتُه ممّن سمعه مِن لفظِه؛ فمن كلامه ـ رحمة الله عليه ـ ما كتبه عن السلطان الملكِ الظاهِر ركنِ الدين بيبرس الصالحيّ ـ رحمه الله ـ إلى ملك الغرب، كتب:

تحيّاتُ الله التي تَتابَع وفودها وتَتوالَى، وتشرق نجومُها وتَتلالا، وتنفق إسرافًا ولا تخاف من ذي العرش إقلالًا؛ تخصّ الحصرةَ السنيّةَ السَّريّة، العالمِيّةَ العادليَّةَ المستنصريّة؛ ذخيرةَ أميرِ المؤمنين، وعصمة الدنيا والدين، وعُدّة الموحّدين؛ لا زالت سماؤها بالعدل مُغدِقةَ الأنواء مُشرِقةَ الأنوار، ورياضُها بالفضل مُورِقةَ الأغصان مُونقةَ الثّمار؛ ولا برحتْ ضَوالُّ الأماني في أبوابها تُنشَد، وقصائدُ

---

(١) أسماء: هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت تلقّب بذات النّطاقين، لأنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل الطعام في الآخر إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر الصّديق في الغار وقيل: إن النبيّ عليه السّلام لمّا خرج وأبو بكر مهاجرين قطعت أسماء من نطاقها وأوكت به الجراب فسمّيت لذلك ذات النطاقين. (انظر طبقات ابن سعد ٨/١٨٦).

(٢) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السّعدي، أبو الفضل، قاضٍ أديب مؤرّخ من أهل مصر مولدًا ووفاة كان كاتبًا للإنشاء في الدّيار المصرية، له كتب منها «الرّوضة البهية الزاهرة في خطط المعزّيّة القاهرة» مات سنة ٦٩٢هـ. (الأعلام ٤/٩٨).

القُصُود[١] في اتصافها تُنشد؛ وسُري الآمال عند صباح أمرها يُحمد، وأحاديثُ الكرم عن جودها تُرسَل وإلى وجودها تُسنَد؛ وسلامُه الذي يكاثر نسيمَ الروض الأنيق، ويفاخِر جديدُه عتيقَ[٢] المسك وأين الجديد من العتيق؛ يغادِيان تلك الأنداءَ[٣] المباركةَ مُغاداةً[٤] الغوادي من وابل المطر، ويراوحانِها مُراوَحةَ الرِّقّة للأُصُل والبُكَر؛ حيث العزّة القعساءُ[٥] يمتدّ رواقُها، والنعمةُ الغرّاءُ تُخصَف[٦] أوراقُها، والدِّيمةُ الوَطفاءُ[٧] يَتوالى إغداقُها، ويتَتالى إغراقُها؛ وحيث العدل منشور الجناح، والحقُّ مشهور السلاح، والإنصافُ مبرورُ الأقسام لِطالِبه باقٍ لا يزاح؛ سجيّةٌ تتوارث تَوارُثَ الفخار، ومزيّة تَستأثِر بالهداية ٱستئثارَ النجوم بالأنوار، وشِيم تُستصحَب ٱستصحابَ الأهلّة للإبدار؛ فلذلك يَتلفّت الأمل إليها تلفُّت الساري إلى تَبلُّج الصباح، ويرتاح إلى تَلقّي إحسانها ٱرتياحَ الظامىء إلى ارتشاف الماء القَراح، ويَحتمِي بها في المطالب ٱحتماءَ الليث بالغابة، ويَستمِدّ إسعافَها ٱستمدادَ الحديقة من السحابة؛ ويهزّ عَدلها كما هَزّ الكميُّ المُرْهَف، وينبّه فضلَها تنبيةَ النسيم جفن الزهر الأَوْطَف[٨]؛ فيناجِي بالجُؤور[٩]، ويَلتمِسُ لها حسنَ الصنع الذي لا يزال مبتسمَ الثغور؛ فما قَصَّ عليه من مناجاتِه، وطَوَى عليه طَوِيّةَ مفاوضاتِه؛ أنّ القاضيَ زينَ الدين بنَ حَباسةَ من بيتٍ أَسلَف سلفُه جميلًا، وغدا هو على مكارمه دليلًا؛ وكان له غلام قد سيَّر معه جملةً... والاحتفالُ الحفيُّ[١٠] مسؤولٌ في تقدّم يجيب النجاحُ داعِيَه، ويغدو الفلاحُ مُراوِحَه ومُغادِيَه؛ وٱعتناءٍ يستخلص حقَّه ممن عليه ٱعتَدَى، ويَرَى مِن قبسِه نورًا يجد به هدى[١١]؛ فببارقةٍ يضيء لديه

---

(١) القصود: جمع قصد، وجمع القصد موقوف على السّماع.

(٢) عتيق المسك: قديمه.

(٣) الأنداء: جمع النادي، وهو القوم المجتمعون.

(٤) المغاداة: من غادى، وغادى المكان: أتاه باكرًا.

(٥) القعساء: الممتنعة الثابتة.

(٦) تخصف أوراقها: أي تتصل أجزاؤها اتصالًا لا انقطاع له، وخصف الورق والنعل: أوصل أجزاءهما بعضها ببعض.

(٧) الوطفاء: المسترخية، أو الدائمة السحّ للقطر.

(٨) الأوطف: المسترخي، يريد تشبيه الزّهر في سكونه بالجفن الذي غشيته سِنةٌ من الكرى.

(٩) الجؤور: جمع جأر، مصدر جأر يجأر: إذا دعا وتضرّع.

(١٠) الحفيّ: المبالغ في البرّ والإكرام...

(١١) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [طه: الآية ١٠].

الحالك، وبلمحةٍ يَهتدِي «بحيث ٱهتدت أمُّ النجوم الشوابك»[١]؛ وما هو إلا رسمٌ يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد؛ وخاف الخائف، وكَفَّ الجانف[٢]؛ وجُمِعت الضَّوالّ، وضاق على المختزِل[٣] واسعُ المَجال؛ مَهابة قد سكنت القلوب، وسياسة قَوِيَ الطالبُ بها وضعف المطلوب، وعزّة لا يزال الرجاء يُنيب إليها فيما ينوب؛ وأيُّ مطلب تُناجَى فيه الآلاءُ المباركةُ فلا يُصحِب قيادُه، ويُستسقَى له مُزْنٌ ولا تُعاهَد عِهاده[٤]؛ وأيُّ ذاهبٍ لا يُسترجَع به ولو أنه عشيّاتُ الحمى[٥]، وأيُّ فائتٍ لا يُرَدّ ولو أنه زمن الشبيبة المعسولُ اللَّمى؛ وحسبُ العاني أن يحطّ برحابها رحالَه، أو أن يوفد إلى أبوابها آمالَه؛ وقد تبادرتْ إليه المَناجحُ متسابقة، وٱنتظمتْ لديه ٱلمصالح متناسقة؛ فحينئذ يُفعَم إناءُ تأميلِه، ويَستوعِب الإحسان لجملة قصده وتفصيلِه؛ ويناديه السعد من تلك البقعة المباركة، فيوافيه التوفيقُ بصحائف القبول تحملُها الملائكة، أمتع الله ببركاتها التي ٱمتدّ رواقُها، وأنار ٱلحالكَ إشراقُها؛ ولا زالت يراوحها تسليمٌ عَطِرُ النفحة، وتصافحها تحيّاتٌ جميلة الصفحة؛ بمنّه وكرمه.

وكتب رسالة صَيديّة عن السلطان الملِك الظاهِر[٦] إلى الأمير عز الدين الحلّيّ[٧] نائِب السلطنة بالقلعة

هذه المكاتَبة إلى المجلس لا توارت شُموسُ أنسه، ولا أُذبِلتْ ثمار غرسِه ولا برح غدُه في السعد مُرْبيًا على يومه ويومُه على أمسِه؛ تتضمّن إعلامَه بأنا خرجنا إلى

(١) الشّوابك: من شبكت النّجوم: إذا دخل بعضها في بعض واختلطت.
(٢) الجانف: من الجنف: وهو الميل والجور.
(٣) المختزل: الخائن، يقال: اختزل الوديعة: إذا خان فيها.
(٤) العِهاد: وهو المطر بعد المطر، أو هو أوّل مطر الوسميّ.
(٥) يشير بهذه العبارة إلى قول الصمّة بن عبد الله بن طفيل القشيري:

وليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

والمعنى: إن أفرطت في الجزع فإن أوقات المواصلة بالحمى مع أحبابك لا تكاد وتعود ولكن أدم البكاء لها مع التوجّع في أثرها تجد فيه راحة. (انظر ديوان الحماسة ج ٢، ص ٦٠، دار القلم).
(٦) هو الملك الظاهر بيبرس الجاشنكير المنصوري، من سلاطين المماليك بمصر والشّام، ولقّب بالمظفر، وهو من خيار المماليك سيرة مات سنة ٧٠٩ هـ. (الأعلام ٢/ ٧٩).
(٧) هو عزّ الدين أيدمر بن عبد الله الحلّي الصالحي النجمي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثمّ عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستنيبه في غيبته. مات سنة ٦٦٧ هـ. (انظر تاريخ العيني نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤).

الصيد المبارك بجنود تملأ السهل والجبل، وتستحيي الشمس منها فتستتر في سحابها من كثرة الخجل؛ تَسِير على الأرض منها جبال، وتَأوِي الرمال منها إلى أورَف ظلال؛ وَتوجّهنا إلى جهة الطّرّانة[١] وإذا بحشود[٢] الوحوش قد توافدتْ، وعلى مناهل المناهج قد تواردتْ؛ والأجلُ يسوقُهم، والبِيدُ تعقّهم[٣]، والمنايا تَعُوقُهم؛ ولم تزل أيدي الخيل تجمعهم في صعيد، وتَطوي بهم سطورًا في طروس البِيد؛ حتى أحاطت بهم إحاطةَ الفَلَك بالنجوم الزواهر، والأجفانِ بالعيون النواظر؛ وجُرّدَتْ السيوف فظنَنّتها غُدُرًا[٤]، ورُميتْ النبال فحسِبَتْها شَرَرًا؛ وعُزلتْ[٥] الرماحُ بالسهام وحيّتها السِّلام[٦] بالسَّلام، وسَكنتْ نهارًا من العَجاج في ظلام؛ وضاقت عليها الأرض بما رَحُبتْ، وأَدركتْ المنيّةُ منها ما طَلبتْ، وراسلتْها المنايا، وأهدت إليها رياحينَ تَحايا؛ فمن صريعٍ وصديعٍ وطريحٍ وطريد، وجريحٍ ومقبلٍ وشريد، وقائمٍ وحصيد؛ ولم تسلم في هذه اليوم غيرُ غزالة السماء فإنها استترت بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نُصِب فخًا لصيدها وصيد غيرها من النجوم؛ والموتُ أَسَرَ كلَّ مَهاةٍ مهابة، ونال الحتف من كل طَلًا[٧] طِلابَه؛ وفتكت الظُّبا بالظّبي، وقالت السهام لِأجيادها: مَرحبًا؛ وثَنَينا الأعنّة والشفار قد أُنهِلتْ، والظهورُ قد أُثقِلتْ؛ والكُنُسُ[٨] خاوية على عروشها[٩]، والبيدُ قد أَوحشتْ من وحوشها؛ وما نشتمل عليه من محبة المجلس وإيثاره، ونَجِده من الوحشة له مع دنوِّ داره؛ وسرورُه بما عساه لنا يتجدّد، وحبورُه بما يَرِد من جهتنا وهذا لا نشكّ فيه ولا نتردّد؛ أَوجب أن نخصّه به ونُتحِفَه، ونصِفَه له على جليّته إذ كنّا بالتخصيص به لن ننصفَه؛ وقد بعثْنا إليه منه قِسمًا، ولم نَنسَ عند ذكرِنا أنفسَنا له اَسمًا.

---

(١) الطرّانة: اسم لوادي هبيب، وهي كورة من حوف رمسيس، وتعرف ببرّية شهاب، وبريّة الأسقط، وميزان القلوب، وبها قبر أبي معاذ الكبير. (مستدرك التاج).

(٢) الحشود: الجموع، وهو جمع حَشْد. (٣) تعقّهم: تنبو بهم، وتتجافى عنهم.

(٤) الغدر: جمع غدير، وهو الماء المجتمع، وقد شبّه لمعان السيوف عند تجريدها بلمعان الماء في الغدر عند وقوع نور الشمس عليها.

(٥) عُزلت الرّماح...: لعلّه أراد أن العمل في الصّيد كان بالسّهام دون الرّماح فشبّه ترك العمل بها بالعزل.

(٦) السِّلام: الحجارة، واحده سِلمة بكسر اللّام.

(٧) الطّلا: من أوراد الوحش من حين يولد إلى أن يتشرّد، والطّلا: ولد الغزال.

(٨) الكنس: جمع كُناس، وهو مولج الوحش من الظباء والبقر تكتنّ فيه من الحرّ.

(٩) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٩].

وكتب عن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون إلى صاحب اليمن جوابَ كتابٍ عزَّى فيه السلطانَ عن ولدِه الملكِ الصالِح[1] علاءِ الدِّين عليّ

ـ وكان الكتابُ الذي ورد في ورق أزرق، وسيَّره في كيسِ أطلسَ أزرق، والعادةُ أن يكون في كيسِ أطلسَ أصفر ـ:

أعزّ الله نُصرتَه وأحسن بتسليته الصبرَ على كل فادح، والأجرَ على كلّ مصاب قَرَح القرائح، وجرح الجوارح، وأَوفَد مِن تعازيه كلَّ مسكِّنٍ طاحت[2] به من تلقاءِ صنعاء اليمن الطوائح[3]، وكتب له جزاءَ المصبِّر عن جارٍ من دمع طافح، على جارٍ لسويداء القلب[4] صالح[5]؛ المملوك يخدُم خدمة لا يذُود المواصَلَةَ بها حادث، ولا يؤخّرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا تَنقُصها عن تحسينِها وترتيبِها بواعثُ الاختلاف ولا آختلافُ البواعث؛ ويُطلِع العِلمَ الكريمَ على ورود مثالٍ كريم لولا زرقةُ طرسه[6]، وزرقةُ لبسِه، لقال: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٨٤]؛ يتضمّن ما كان حدث من رزءٍ تلافاه ٱلله بتنَاسيه، وتَوافَى هو والصبر فتولّى التسليمُ تبيينَ عاسِيه[7] وتمرينَ قاسِيه؛ فشكرنا الله على ما أعطى وحمِدناه على ما أَخذ، وما قلنا: هذا جَزعٌ قد آنتبه إلا وقلنا: هذا تَثبُّتٌ قد آنتبَذ[8]، ولا توهمنا أن فِلْذة كبدٍ قد آختُطِفتْ إلّا وشاهَدْنا حولنا مِن ذرّيّتنا ـ والحمد لله ـ فِلَذ؛ وأحسنّا الاحتساب، ودخلت الملائكة علينا مِن كلّ باب، ووفّانا ٱلله أجر الصابرين بغير حساب؛ ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميلٌ لا نأسف معه على فائت ولا نأسَى على مفقود، وإذا علم الله حُسنَ الاستنامة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كلَّ يوم ما يقول

---

(١) كانت وفاة الملك الصالح هذا في سنة ٦٨٧هـ بعد أن مرض بالدوسنطارية الكبدية، وكان أبوه قد عهد إليه في الأمر من بعده، وخطب له على المنابر معه، فلما مات جعل أبوه الولاية من بعده إلى ابنه الملك الأشرف خليل. (انظر تاريخ العيني، دار الكتب المصريّة نسخة مصوّرة رقم ١٥٨٤).

(٢) طاحت به: أي أسرعت به.

(٣) الطّوائح: القواذف، وطاح به الفرس: إذا أسرع به كالسّهم.

(٤) سويداء القلب: حبّته ومهجته.

(٥) في الأصول: صائح، والتصويب عن (صبح الأعشى ٧/ ٣٨٣، دار الكتب العلمية).

(٦) الطرس: الصحيفة.

(٧) العاسي: الشديد الظلمة، واللّيل إذا عسعس.

(٨) انتبذ: أي ترك الحزن والجزع.

المبشِّر به: هذا مولًى مولود؛ وليست الإبل بأَغلظَ أكبادًا ممن له قلبٌ لا يبالي بالصدمات كثرتْ أو قلّتْ، ولا بالتباريح[١] حَقُرتْ أو جلّتْ، ولا بالأَزَمات إن هي توالت أو تولّتْ، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدّموع والهجوع وتخلّتْ؛ ويَخاف من الدهر من لم يَحلُب أشطُرَه، ويأسف على الفائت من لا تنتابه الخطوب الخطِرَة؛ على أن الفادح بموت الولدِ ٱلملكِ الصالح ـ رضي الله عنه ـ وإن كان مُنكيًا[٢] والنائحَ بشجوه وإن كان مُبكيًا، والنائجَ[٣] بذلك الأسف وإن كان لنار الأسى مُذكيًا؛ فإن وراء ذلك من تثبيت الله ما ينسفه نسفًا، ومن إلهامه الصبرَ ما يجدّد لتمزيق القلوب أحسن ما به يُرفا؛ وبكتاب الله وبسنة نبيّه ﷺ عندنا حُسنُ اقتداءٍ نَضرب به عن كلّ رثاءٍ صفحًا، وما كنّا مع الله ـ والمنّة لله ـ نُعطِي لمن يؤنِّب ويؤبّن[٤] أذنًا ولا نُعيرها لمن يَلحَى؛ إذ الولد الذاهب مَرّ في رضوان الله تعالى سالكًا طريقًا لا عِوَجَ فيها ولا أَمْتًا[٥]، وٱنتقل سارًّا بارًّا صالحًا وما هكذا كلُّ ٱلموتى نعيًا ولا نعتًا؛ وإن كان نَفَعنا في الدنيا فها نحن بالصدقات والترحُّم عليه ننفعُه، وإن كان الولدُ عملَ أبيه ـ وقد رَفَع الله روحَ ولدنا في أعلى علّيّين تَحقَّق أنه العملُ الصالح ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]؛ وفيما نحن بصدده من ٱشتغال بالحروب، ما يُهوّن ما يَهُول من الكروب[٦]؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وبين قلبه يَحُول، ومُلهٍ عن تَخيّلِ أسف في الخاطر يَجُول: [من الوافر]

إذا ٱعتاد الفتى خَوضَ المنايا ... فأَهْون ما يمرّ به الوُحولُ[٧]

ولنا بحمد الله ذرّيّةٌ دَرّيّة[٨]، وعقودٌ والشكر لله كلُّها دُرّيّة[٩]: [من الطويل]

إذا سيّدٌ منهم خلا قام سيّدٌ ... قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ[١٠]

---

(١) التباريح: الشدّائد، وتباريح الشُوق: توهُجه.
(٢) منكيًا: من نكأ الجرح: أي قرفه وقشره. (٣) النائج: من نأج ينأج: إذا صاح.
(٤) أبنه: أثنى عليه بعد موته.
(٥) الأمت: ما ارتفع من الأرض، وقوله: لا عوج فيها ولا أمتًا» أشار به إلى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٧] وهو يريد: أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.
(٦) الكروب: مفردها «الكرب» وهو الحزن والغمّ يأخذ بالنفس.
(٧) الوحول: جمع وحل بسكون الحاء، وهو الطين يكون لزجًا.
(٨) دَرّيّة: نسبة إلى الدَّرّ: وهو اللبن.
(٩) دُرّية: نسبة إلى الدُّرّ، وهو اللؤلؤ وفي الكلام جناس تام.
(١٠) البيت للسموءَل بن عادياء، من قصيدته المشهورة، وفي بيت السّموءل: «إذا سيّد منّا» فغيّر=

ما منهم إلا من نَظَرَ سعدَه وَمن سعدُه يُنتظَر، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن تسدَّ حالُه بكَفالتِه وكِفايتِه مَسَدَّ[١] البخر «والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمر» لا سيّما مَن الدينُ به إذ هو صلاحُه أعرَف، ومَن إذا قيل لبناء ملكٍ هذا عليُّه قد وَهَى[٢] قيل: هذا خيرٌ منه مِن أعلى بناءِ سعدٍ أَشرَف[٣]؛ وعلى كلِّ حال لا عُدِمَ إحسانُ المولى الذي يَتنوّع في بِرِّه، ويعاجِل قضاءَ الحقوق فتساعِف مرسومه في توصيله طاعةُ بحرِه وبَرِّه؛ وله الشكرُ على مساهمة المولى في القرح والترح، ومشاركتِه في الهناء إذا سَنَح، وفي الدمع إذا سَفَح؛ وما مِثلُ مكارم المولى من يَعزُب مِثلُ ذلك عن علمِها، ولا يُعزَى إلى غير حُكمها وحلمِها؛ وهو ـ أعزه الله ـ ذو التجارب التي مَخَضتْ له من هذه وهذه الزُّبدة، وعَرَضتْ عليه منهما الهَضْبةَ والوَهدة؛ والرغبةُ إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتِمة وكما لم يجعلها للظهور قاصمة فلا يجعلها لعرا الشكر فاصمة[٤]، وان يجعلها بعد حَمل هذا الهمّ وفِصالِه على عليِّه فاطمة؛ وأن يحبِّب إلينا كلَّ ما يلهي عن الأموال والأولاد من غزوٍ وجهاد، وأن يجعلنا ليس يُحِدّ لدينا على مفقود تأدّبًا مع الله غيرُ السيوف فإنها تُعرَف بالحِداد، وألّا تُقصَف رماحُنا إلا في فَودٍ أو في فؤاد، ولا تُحوَّلَ سروجُ خيلنا مِن ظهر جوادٍ في السَّرايا إلّا إلى ظهر جواد، وألا تُشَقَّ لدينا إلا أكباد أكناد[٥]، ولا تُجَزّ غيرُ شعور ملوك التتار تُتوَّج بها رؤوسُ الرماح ويُصعَد بها على قِمَمِ الصِّعاد[٦]؛ والله يشكر للمولى سعيَ مَراثيه التي لولا لطف الله بما صبَّرنا به لأقامت الجنائز، وٱستَخفّت النحائز[٧]، ولهَوَتْ بالنفوس في ٱستعمال الجائز من الأسف وغيرِ الجائز، ولا شغل الله لبَّ المولى

= الكاتب وقال: «منهم» تبعًا لسياق الكلام. (انظر ديوان السموءل ص ٩١، دار صادر).

(١) يشير بهذه العبارة إلى ما ذكره النّحاة من وجوب حذف الخبر وسدّ الحال مسدّه، وذلك إذا ما كان المبتدأ مصدرًا بعده حال لا تصلح أن تكون خبرًا كقولك: «ضربي العبد مسيئًا».

(٢) وهى: تشقّق وهمّ بالسقوط.

(٣) أشرف على الشيء: أي أطلّ عليه، وفي هذا اللفظ تورية عن الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وهو الثامن من ملوك الترك على الديار المصرية جلس على الملك سنة ٦٨٩هـ بعد وفاة أبيه قلاوون. (تاريخ ابن إياس ١/١١٩ ـ ١١٢).

(٤) الفاصمة: من فصم الشيء عن الشيء: أبعده وفرّقه.

(٥) الأكناد: الجاحِدين، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: الآية ٦].

(٦) الصعاد: جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستوية «يريد الرّماح».

(٧) النحائز: جمع نحيزة وهي الطبيعة.

بفادحة، ولا خاطِرَه بسانحة من الحزن ولا بارحة ولا أَسمَعه بغير المَسرّات من هواتف الإبهاج صادحة[١]؛ بمنّه وكرمه.

ومن إنشائه رحمه الله تقليدُ السلطان الملِك الأشرف صلاحِ الدين خليل بولاية عهد السلطنة من أبيه السلطان الملكِ المنصور ـ سقى الله عهدهما صوب[٢] الرحمة ـ وهو:

الحمد لله الذي لم يزل له السمعُ والطاعةُ فيما أمر، والرضا والشكرُ فيما هَدَم من الأعمار وما عَمَر، والتفويضُ في التعويضِ إن غابت الشمس وبقي القمر نحمده على أن جعل سلطاننا ثابتَ الأركان، نابتَ الأغصان، كلّ روضة من رياضه ذات أفنان؛ لا تُزعزعه ريحٌ عقيم[٣]، ولا يُخرجه رزءٌ عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يُعتَبَط[٤] من جملته كريم إلا ويَغتبِط من أُسرتِه بكريم؛ ونشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلَها لله تفويضًا، وتُجزِل له تعويضًا وتُحسِن له على الصبر الجميل في كل خطبٍ[٥] جليلٍ تحريضًا؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه الذي أنزل في التسلية به: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عِمران: الآية ١٤٤] والنبيُّ الذي أوضح الله به المناهجَ وبيَّن السُّبُل؛ صلّى الله عليه وعلى آله ما تجاوبت المحابرُ والمنابرُ في البُكَر والأُصُل؛ وما بُدِّدتْ عقود ونُظِّمتْ، ونُسِختْ آياتٌ وأُحكمتْ ونُقِضتْ أمور وأُبرِمتْ، وما عَزَمتْ آراءٌ فتوكّلتْ وتوكلت فعَزَمتَ؛ ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة، ومنهم من لم يُدرِك أحدٌ في تسويد النفس الحَصِيفة[٦] ولا في تبييض الصحيفة مُدَّه ولا نَصِيفَه[٧]، ومنهم من يسرّه الله لتجهيز جيش العُسْرة[٨] فعرف الله ورسولُه معروفَه، ومنهم من عمل صالحًا أرضى ربه فأصلح في ذريّته الشريفة؛ وبعد، فإن من الطاف الله بعبادِه،

---

(١) الصادح: الذي رفع صوته فأطرب. (٢) الصّوب: المطر.
(٣) الرّيح العقيم: هي ريح الإهلاك التي لا تبقي ولا تذر.
(٤) يعتبط: يقال: اعتبط الموت فلانًا: أخذه شابًا صحيحًا من غير علّة.
(٥) الخطب: المصاب، والحال والشأن والأمر الشديد.
(٦) الحصيفة: العاقلة ذات الرأي المحكم.
(٧) يشير بهذه العبارة إلى قوله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي فإنّ أحدكم لو أنفق ما في الأرض جميعًا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه، والنّصيف: نصف الشيء، كالعشير والثمين في العشر والثمن.
(٨) جيش العُسرة: هو الجيش الذي سار به رسول الله ﷺ إلى تبوك قال ابن عرفة: سمّي بذلك لأنهم ندبوا إليها في حمّارة القيظ فعسر عليهم ذلك وغلظ، . . .

وأكتنافِ عواطفِه ببلادِه؛ أن جعلنا كلّما وَهَى[١] للملك ركنٌ شديدٌ شيّدنا ركنًا عِوضَه، وكلّما اعترَضت للمقادير جلمةٌ بَدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسَينا تجلُّدا تلك الجملَة المعترِضة؛ فلَم نُحوِج اليومَ لأمسِه وإن كان حميدًا، ولا الغارسَ لغرسِه وإن كان ثمره يانعا وظلُّه مديدًا؛ فأطلعْنا في أفق السلطنة كوكبَ سعدٍ كان لحُسن الاستخلاف مُعَدّا، ومَن لِقبيل المسلمين خيرٌ ثوابًا وخيرٌ مَرَدّا، ومَن يبشّر الله به الأولياءَ المتقين ويُنذِر به من الأعداء قومًا لُدًّا[٢]، ومن لَم يَبقَ [إلّا به][٣] أنسنا بَعد ذهاب الذين نحبّهم [وبقِي][٤] كالسيف فَرْدا، والذي ما أَمضَى حَدَّه [في][٥] ضَريبة[٦] إلا قَدّ البيضَ[٧] والأبدانَ قَدّا، ولا جَهّز رايةَ كَتيبةٍ إلا: [من مجزور الكامل المرفّل]

أغنَى غَناءَ الذاهبِين وعُدّ لِلأعداء عَدّا[٨]

ولا بَعَثَه جزعٌ فقال: «كم من أخٍ لي صالحٍ» إلا لقِيَه وَرعٌ فقال: «وخُلِقْتُ يوم خُلِقْت جَلدًا»[٩]؛ وهو الذي بقواعد السلطنة الأدرَى وقوانينِها الأعرَف، وعلى الأولياء الأعطَفُ وبالرعايا الأرأف، والذي ما قيل لِبناءِ مُلكٍ: هذا عليه قد وَهَى إلا وقيل: هذا بناءٌ مِثلُه منه أسمى مُلْكًا وأشرَف، والذي ما برح النصرُ يُتنسّم مِن مَهابّ تأميلِه والفلاح، ويتبسّم ثغرُه فتَتوسّم الثغور من تبسُّمِه النجاح، وينقسم نُورُه على البسيطة فلا مصرَ من الأمصار إلا وهو يَشرَئبّ إلى ملاحظة جبينِ عهده الوضّاح ويتّفق اشتقاقُ النعوتِ فيقول التسلّي للتملّي سواءٌ الصالح والصلاح؛ والذي ما بَرِح لِشعار السلطنة

(١) وَهَى: سقط.
(٢) اللدّ: من اللّدادة وهي شدّة الخصومة.
(٣) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧١، دار الكتب العلمية).
(٤) هذه العبارة ساقطة من الأصول ومن صبح الأعشى، والسّياق يقتضي زيادتها، وهو يشير إلى قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ذهب الذين نحبّهم وبقيت مثل السيف فردا

وقد نصب فردًا على الحال. (انظر ديوان الحماسة ١/ ٥٢، شرح التبريزي، دار القلم).
(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصول وصبح الأعشى والسّياق يقتضي إثباتها.
(٦) الضريبة: ما ضربته بالسّيف.
(٧) البيض: جمع بيضة، وهي خوذة من الحديد تلبس على الرأس.
(٨) البيت لعمرو بن معديكرب. (ديوان الحماسة ٥/ ٥٢).
(٩) الجلد: القويّ الشّديد، وهذان الشطران (١/ ٥٠ ـ ٥٢). تمامهما:

كم من أخٍ لي صالحٍ بوّأته بيديّ لحدا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا

(الحماسة ١/ ٥١، ٥٢).

إلى تَوَقُّله[١] وتَنقُّله أَتَمُّ حنين، وكأنّما كوشفت الإمامةُ العبّاسيّةُ بشرف مسماه فيما تَقدّم مِن زمن مَن سَلَف مِن حِين، فسمّتْ ووَسمَتْ بأسمِه أكابرَ الملوك وأَخايرَ[٢] السلاطين فخوطب كلٌّ منهم مجازًا لا كهذه الحقيقة بـ «خليل» أمير المؤمنين؛ والذي كم جلا بهاءُ جبينه مِن بهيم، وكم غدا المُلكُ بحُسن رأيه[٣] ويمِن آرائه يَهيم وكم أبرأ مَوردُه العذبُ هيَم[٤] عِطاشٍ ولا يُنكَر الخليل إذا قيل عنه: إنه إبراهيم؛ ومن تَشخص الأبصارُ لِكماله يوم ركوبه حَسِيرة، وتُلقِي البنانُ سلاحَها ذَهْلًا وهي لا تدرِي لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مَسِيرَه؛ والذي ألهم الله الأمّةَ بجودِه ووجودِه صبرًا جميلًا، وآتاهم من نَفاسة كرمه وحراسةِ سيفِه وقلمِه تأمينًا وتأميلًا، وعَظُم في القلوب والعيون، بما مِن بِرّه سيكون، فسمّته الأُبوّة الشريفة ولدًا[٥] وسمّاه الله: خليلًا؛ ولَمّا تَحتَّم من تفويض أمرِ المُلكِ إليه ما كان إلى وقته المعلوم قد تأخر، وتُحُيِّنَ[٦] حِينُه فَكَمَل بزيادة كزيادة الهلال حين بادر تمامه فأبدر؛ اقتَضى حُسنُ المناسبة لنصائح الجمهور، والمُراقَبةِ لمصالح الأمور، والمُصاقَبةِ[٧] لمَناجح البلاد والثغور[٨]، والمقارَبة[٩] من فواتح كل أمرٍ ميسور؛ أن نفوِّض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظَّمة، المكرّمة المفخَّمة المنظَّمة؛ وأن تُبسَط يدُه المنيفةُ لمصافحتها بالعهود، وتحكيمِها في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور وفي التَّهائم[١٠] والنجود[١١]؛ وأن يُعْقَدَ بسيفها وقلمها كلُّ قطع ووصْل، وكلُّ فرعٍ وأصل وكلُّ نصر ونصْل وكلُّ ما يَحمي سرحًا، ويَهمِي مَنحًا، وفي المُثيرات في الإعداء[١٢] على الأعداء نَقْعًا وفي المُغِيرات صبحًا؛ وفي المنع والإطلاق، وفي الإرفاد[١٣] والإرفاق

---

(١) التوقّل: يقال: توقّل فلان في مصاعد الشرف: إذا صعّد فيها.

(٢) لم ترد العبارة في الأصول، والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢) والأخاير: جمع أخير، وهذه لغة بني عامر، يقولون: هذا أخير من هذا... (المصباح).

(٣) الرأي هنا: بمعنى المرأى والمنظر.

(٤) الهيم: العطاش، وهناك جناس بين «أبرأ هيم» و«إبراهيم».

(٥) في الأصول: «أبا» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(٦) التحيّن: الانتظار والطّلب، وفي الأصول «وتحرّر» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(٧) المصاقبة: المقاربة والمواجهة.

(٨) الثغور: مفردها الثّغر، وهو الموضع على الحدود يخاف هجوم العدوّ منه.

(٩) في الأصل: «المقارنة» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(١٠) التهائم: الأرض ذات الغور.

(١١) النجود: ما ارتفع من الأرض وصلُب.

(١٢) الإعداء: الجريّ.

(١٣) الإرفاد: الإعطاء من «الرّفد».

وفي الخَمِيس[١] إذا ساق[٢]، وفي الخُمُس[٣] إذا ٱنساق، وفي السيوف: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٦، ٢٧] وفي الرماح إذا ٱلتفت ٱلساقُ منها بالساق[٤]؛ وفي المعاهَدات والهُدَن وفي الفداء بما عُرِض مِن عَرَضٍ وبالبَدَن لِلبَدَن[٥]، وفيما ظهر من أمور المُلك وما بَطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثُه في السرِّ والعَلَن، وتسترعيه[٦] نوافثُه مِن كَبْتٍ وكَتْبٍ متفرّقين أو في قَرَن؛ عهدًا مباركةً عُوَذُهُ[٧] وتمائمُه، وفواتحُه وخواتمُه، ومَناسمُه[٨] ومَواسمُه، وشروطُه ولوازمُه: [من الطويل]

[على عاتق المَلْك الأغرّ نِجادُهُ وفي يد جبّار السمٰوات قائمُه][٩]

لا رادّ لحكمِه، ولا ناقضَ لبَرْمِه[١٠]، ولا داخضَ لما أثبتَتْه الأقلام من مكنون علمِه: [من الكامل]

ويزيده مَرُّ الليالي جِدّةً وتَقادُمُ الأيام حُسنَ شبابِ[١١]

وتَلزَم السنون والأحقاب، استيداعَه حتى الذَّراريّ[١٢] والأعقاب؛ فلا سلطانَ ذا قَدْرٍ وقدرة، وذا أمرٍ وإِمْرَة؛ ولا نائبَ في مملكة قربَتْ أو بعدَتْ، ولا مقدّم جيوشٍ أتهمَتْ أو أنجدت؛ ولا راعيَ ولا رعيّة، ولا ذا حكمٍ في الأمور الشرعيّة؛ ولا قلم

---

(١) الخميس: الجيش من خمس فرق. (٢) ساق: أي إذا ساقه.

(٣) الخُمُس: أراد خمس ما يغنمه الجيش في الحرب، وهو من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(٤) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: الآية ٢٩].

(٥) وبالبدن للبدن: أي أنّه متحكم في الفداء بالأسير لأسيرٍ مثله، كما كانت تلك عادتهم في تبادل الأسرى.

(٦) تسترعيه: تستحفظه، والنّوافت: الحوافظ، والكبت: من كبت عدوّه: أي ردّه بغيظه.

(٧) العوذ: جمع عوذة: وهي الرقية يرقى بها الإنسان من فزعٍ أو مسّ لأنّه يعاذ بها، وهي التي تكتب وتعلّق أيضًا على الإنسان من العين.

(٨) المناسم: وهو هنا بمعنى الأثر والعلامة.

(٩) هذا البيت لم يرد في الأصول، وقد أثبتناه عن (صبح الأعشى ١٠/١٧٣). وهو من قصيدة لأبي الطيّب المتنبي يمدح بها سيف الدّولة. والعاتق: المنكب. (انظر ديوان المتنبي ٢/٧، دار الكتب العلميّة).

(١٠) البرم والإبرام: الإحكام.

(١١) البيت لأبي تمّام الطائي، ورواية البيت «ويزيدها» بضمير المؤنّث مرادًا بها القصيدة. (انظر ديوان أبي تمام ص ٢٥، دار صعب).

(١٢) الذّراري: مفردها الذّريّة وهي النّسل، والأعقاب: من العقِب: أي ما يتركه المرء من ذريّة.

إنشاءٍ ولا قلمَ حساب، ولا ذوي أنسابٍ ولا ذوي أسباب؛ إلا وكلٌّ داخلٌ في قبول عَقْد هذا العهد الميمون، ومتمسّك بمحكَم آيات كتابه المكنون[1] والتسليمِ لنصّه الذي شهدتْه من الملائكةِ الكرامُ الكاتبون؛ وأمست بَيعتُه بالرضوان محفوفة، والأعداءُ يدْعُونها تضرّعًا وخِيفة، فليشكروا الصنعَ الذي بعد أن كانت الخلفاء تُسلطِن الملوكَ قد صار سلطانُهم يقيم لهم من وُلاة العهد خليفةً بَعد خليفة؛ وأمّا الوصايا فأنت يا ولدَنا الملِكَ الأشرفَ ـ أعزّك الله ـ بها الدَّرِب ولِسماعِ شدوِها وحدوِها[2] الطَّرِب، الذي لِلَّغو لا يضطرب؛ فعليك بتقوى الله فإنها مِلاكُ سدادِك، وهَلاكُ أضدادِك؛ وبها يُراش[3] جناحُ نجاحِك، ويَحسُن اقتداءُ اقتداحِك؛ فاجعلها دفينَ جوانح تأمّلِك ووعيِك، ونُصْبَ عينَيْ أمرِك ونهيِك؛ والشرعِ الشريفِ فهو قانون الحقّ المتّبَع، وناموسُ[4] الأمر المستمَع؛ وعليه مَدارُ إيعاءِ كلّ إيعاز[5]، وبه يَتمسّك من أشار وامتاز[6]، وهو جنّة والباطلُ نار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥]؛ فلا تخرج في كلّ حال عن لوازمه وشروطِه ولا تَنْكُب[7] عن معلّقِه ومَنُوطِه؛ والعدل، فهو مُثمّر غروس الأموال، ومُعمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو[8] الأعمار والأعمال؛ فاجعله جامعَ أطرافِ مَراسمِك، وأفضلَ أيّام مواسمِك؛ وسِمْ به فعلَك، وسَنِّم به فرضَك ونفلَك؛ ولا تُفرِد به فلانًا دون فلان ولا مكانًا دون مكان، واقْرُنه بالفضل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠]؛ وأَحسِن التخويل، وأَجمِل[9] التنويل، وكثّر لمن حولك التموينَ والتمويل؛ وضاعِف الخير في كلّ مُضافٍ لمَقامِك، ومستضيفٍ[10] بإنعامِك، حتى لا تَعدَم في كلّ مكان وكلّ زمان من النعماء ضيافةَ الخليل[11]؛ والثغور، فهي للممالك مباسمُها فاجعل نواجذَها تَفتر عن أحسن ثنايا الصَّون، ومَراشفَها شنِبةَ[12] الشِّفاهِ بحُسن العَون؛ ومُنْها

---

(١) المكتون: المحفوظ والمصان. (٢) الحدو: الغناء يحدى به.

(٣) يُراش: من راش: إذا قوّى وأعان وأصلح. (٤) الناموس: الوحيّ.

(٥) الإيعاز: من أوعز إليه في الشيء: أي تقدّم إليه فيه وأشار به.

(٦) في الأصل «امتار وامتار» وهو تحريف والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٤).

(٧) تنكبُ: تميل وتعدل. (٨) تزكو: تنمو وتزداد.

(٩) أجمل: أي أحسن الصنيع. (١٠) المستضيف: المستغيث.

(١١) يشير بهذه العبارة إلى قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام مع ضيوفه الملائكة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢٤] الآيات.

(١٢) الشنبة: من الشّنب وهو برد الأسنان.

بما يحمي السَّرْحَ[١] مِنها، وأَعِنها بما يدفع المَكارهَ عنها؛ فإنها للنصر مَقاعد، وبها حفظ البلاد من كلِّ مارٍّ[٢] من الأعداء مارد؛ وأمراء الجيوش، فهم السُّور الواقي بين يدَيْ كلِّ سور، وما منهم إلّا بطلٌ بالنصر مشهورٌ كما سيفه مشهور؛ وهم ذخائر الملوك وجواهرُ السلوك، وأَخايرُ الأكابر الذين خَلَصوا من الشكوك؛ وما منهم إلا من له حُرُماتٌ سلفتْ، وحقوقٌ عُرفتْ، ومَواتٌ على ٱستلزام الرعاية للعهود وُقفَتْ؛ فكن لجنودِهم متحبِّبًا، ولمَرابِعهم مُخصِبًا، ولمصالحِهم مرتِّبًا، ولآرائهم مستصوِبًا وللاعتضادِ بهم مستصحِبًا، وفي حمدهِم مُطنِبًا، وفي شكرهم مُسهِبًا؛ والأولياءِ المنصوريِّين الذين هم كالأولاد، ولهم سوابقُ أَمَتُّ من سوابق الإِيجاد[٣]؛ وهم مَن علمتَ ٱستكانةَ[٤] من[٥] قربِنا، ومكانةَ من قلبِنا، وهم المساهِمون فيما ناب، وما برحوا للدولة الظفرَ والناب؛ فأَسهِم لكلٍّ منهم من ٱحترامك نصيبًا، وأَدِمْ لهم ٱرتياحَك، وأَلِنْ جماحَك[٦] وقوِّبهم سلاحَك، تَجِدْ منهم ضُروبًا، وتَرَ كُلًا منهم في أعدائك ضَروبًا؛ وكما أنّا نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشَآتُ[٧] في البحر كالأعلام[٨]؛ فهو جيش الأَمْواه والأمواج، المضافُ إلى الأفواج من جيش الفِجاج[٩]؛ وهو الجيش السّليمانيُّ في إسراع السَّير، وما سُمّيَتْ شَوَانيه[١٠] غِربانًا إلا ليُجمَع بها لنا ما ٱجتمع لسليمان ﷺ من تسخيرِ الريحِ والطير؛ وهي من ٱلديار المصريّة على ثَبَج[١١] البحر الأسوار، فإن قَذفَتْ قَذفَت الرعبَ في قلوب الأعداء وإن أَقلعَتْ[١٢] قَلعتْ منهم الآثار؛ فلا تُخلِه من تجهيز جيشِه، وسكِّن طيشَ البحر بطيشِه؛ فيُصبحَ لك جيشان كلٌّ منهما ذو كرٍّ وفرّ، هذا في بَرٍّ بحرٌ وهذا ببحرٍ بَرّ؛ وبيوتِ العبادات فهي التي إلى مصلّى سميك خليلِ الله تنتهي محاريبُها، وبها لنا

---

(١) السّرح: الماشية، ولا يسمّى سرحًا إلّا ما يغدى به ويراح.

(٢) المارّ: الجاحد. (٣) الإيجاد: الولادة.

(٤) الاستكانة: هنا بمعنى السكون والاطمئنان. (٥) لعلّه إلى قربنا، كما تقتضيه تعدية استكان.

(٦) الجماح: اتباع الهوى، وجمح جماحًا: ركب هواه فلا يمكن ردّه.

(٧) المنشآت: السفن.

(٨) الأعلام: الجبال، وهو يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٤].

(٩) الفجاج: مفردها «فجّ» وهو الطريق الواسع البعيد.

(١٠) الشّواني: مفردها «شونة» وهي مركب يعد للجهاد في البحر.

(١١) الثبج: وسط الشيء تجمع وبرز. (١٢) أقلعت: أي سارت إلى الأعداء.

ولك وللمسلمين سُرَى الدعوات وتأويبُها[١]؛ فوفِّها نصيبَها المفروضَ غيرَ منقوص، ومُرْ برفعها وذكرِ اسم الله فيها حسب الأمر المنصوص؛ وأخواتِها من بيوت الأموال الواجداتِ[٢] الواجبات من حيث أنها كلَّها بيوتٌ لله هذه للصَّلاة وهذه للصلات؛ وهذه كهذه في رفع المنار، وجَمْعِ المبارّ، وإذا كانت تلك مما أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه، فهذه تُرفَع ويُذكَرُ فيها اسمه حتى على الدرهم والدينار؛ فاصرف اليها اجتهادَكَ فيما يعود عليها بالتثمير، كما يعود على تلك بالتنوير؛ وعلى هذه بإشحانها[٣] بأنواع الصروف، كإشحان تلك باستواء الصفوف؛ فإنها إذا أصبحت مصونَة، احتَمَلَتْ بحمد الله المعونَة وكَفَلَتْ بالمؤونَة وبالزيادة على المؤونَة، فتُكمِّل هذه لكلّ وليٍّ دنياه كما كَمَّلت تلك لكل وليٍّ دِينَه؛ وحدود الله، فلا يتعدّاها أحد، ولا يَرأف فيها ولدٌ بوالد ولا والدٌ بولد؛ فأَقِمْها وقُم في أمرها حتى تنضبط أتم الضبط، ولا تجعل يد القتل مغلولةً إلى عنقها ولا تبسُطها كلَّ البسط، فلكلٍّ من الجنايات والقصاص شرطٌ شرطه الله وحدٌّ حَدَّه فلا يتجاوز أحدٌ ذلك الحدَّ ولا يخرج عن ذلك الشرط؛ والجهاد فهو الدَّيْدَنُ[٤] المألوفُ من حين نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور الخيل فمِلْ على الأعداء كل الْمَيْل، وصبِّحهم من فَتَكاتك بالويل بعد الويل، وارمِهم بكلّ شَمَّرِيٍّ[٥] قد شمّر من يدِه عن الساعد ومن رمحِه عن الساق ومن جوادِه الذَّيل[٦]؛ واذهب بهم في ذلك كلَّ مذهب، وأَبِنْ بنجوم الخِرْصان[٧] كلّ غيٍّ وغَيهب وتَكثُّر[٨] في غزوهم من الليل بكلِّ أدهم[٩] ومن الشَّفَق بكلِّ أحمرَ وأشقرَ [ومن الأَصِيل بكلِّ أصفرَ][١٠] ومن الصبح بكلِّ أشهب[١١]، وانتهِبْ[١٢] أعمارهم واجعلها آخرَ ما يُسلَب وأوّلَ ما يُنهَب؛ ونرجو أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما

(١) التأويب: السير بالنهار، وعكسه الإسآد والسرى: وهما السير عامة الليل.
(٢) الواجدات: الغنيات.
(٣) الإشحان: الملك، كالشحن، وأشحن المدينة بالخيل: أي ملأها.
(٤) الديدن: العادة والدأب. (٥) الشمري: الرجل الماضي في الأمور.
(٦) المراد المضاء والجد في السير، وفي الأصول «على الذّيل» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٦).
(٧) الخرصان: أسنة الرماح. (٨) التكثّر: طلب الكثرة.
(٩) الأدهم: الذي اشتد سواده.
(١٠) لم ترد هذه العبارة في الأصول والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٦).
(١١) الأشهب: الذي خالط بياض لونه سواد.
(١٢) في الأصل وصبح الأعشى «واستنهب» ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة، فأثبتنا الصّواب.

يستنجزها لك صادقُ وعدِه، وأن ينصر بك جيوش الإسلام في كلّ إنجاد وإتهام وما النصر إلا من عندِه؛ وبيت الله المحجوج من كلّ فَجّ[١]، المقصود من كل نَهج؛ يَسِّرْ سبيلَه، ووَسِّع الخير وأَحسِن تسبيلَه[٢]، وأَوصِل من بِرِّك لكلٍّ من الحرمَين ما هُو له، لتصبح ربوعُه بذلك مأهولَة؛ واَحمِه ممّن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم، وطهِّرْه من كلِّ مَكْسٍ[٣] وغرم؛ ليعود نفعُك على البادي والعاكف، ويصبحَ واديه وناديه مستغنيَين بذلك عن السحاب الواكف[٤]؛ والرَّعايا، فهم للعدل زُروع، وللاستثمار فروع، ولاستلزام العمارة شُروع[٥]؛ فمتى جادهم غيثٌ[٦] أعجَب الزُّرّاعَ نَباتُهم، ونَمَتْ بالصلاح أقواتُهم، وصَلَحتْ بالنَّماء أوقاتُهم، وكثرت للجنود مستغَلّاتُهم، وتوافرتْ زكَواتُهم، وتَنوّرتْ مشكاتُهم[٧] ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١]؛ هذا عهدُنا للسيّدِ الأجلِّ الولدِ الملِكِ الأشرفِ صلاحِ الدنيا والدِّين، فخرِ الملوك والسلاطين، خليلِ أميرِ المؤمنين ـ أعزّنا الله ببقائه ـ فليكن بعروته متمسِّكًا، وبنفحه متمسِّكًا[٨]؛ وليتقلَّدْ سيفَ هذا التقليد، ويفتح مُغلَقَ كلِّ فتحٍ منه بخير إقليد[٩]؛ وها نحن قد كثّرْنا لديه جواهرَه فدونه ما يشاء تحليتَه: من تتويج مَفرَقٍ وتختيم أناملَ وتسويرِ زَندٍ وتطويقِ جِيد[١٠]، ففي كلّ ذلك تبجيلٌ وتمجيد؛ والله تعالى يجعل اَستخلافه للمتقين إمامًا، وللدين قوامًا، وللمجاهدين اَعتصامًا، وللمعتدين اَنقصامًا[١١]، ويطفىء بمياه سيوفه نارَ كلِّ خطب حتى تُصبحَ كما أصبحَتْ نارُ سميِّه ﷺ بردًا وسلامًا؛ إن شاء الله تعالى.

وكلامه رحمه الله كثير ورسائله مشهورة، وبيدِ الناس من إنشائه ما لو اَستقصيناه لطال وانبسط، وقد قدّمنا في كتابنا هذا من كلامه في باب التهاني بالفتوح ما تجده في موضعه.

---

(١) الفجّ: الطريق الواسع البعيد، وهو يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَج: الآية ٢٧].

(٢) التسبيل: أن تجعل الشيء في سبيل الخير قربة إلى الله.

(٣) المكس: ما يأخذه أعوان السلطان عنوة وظلمًا عند البيع والشّراء.

(٤) الواكف: الهاطل بالمطر.

(٥) الشروع: مصدر شرع في الأمر إذا أخذ فيه.

(٦) الغيث: المطر، وهو يشير بهذه العبارة، إلى الآية الكريمة: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحَديد: الآية ٢٠].

(٧) المشكاة: المصباح.

(٨) المتمسّك: المتطيّب بالمسك.

(٩) الإقليد: المفتاح، وهي لغة يمانيّة، وقيل: معرّب.

(١٠) الجيد: العنق.

(١١) الانقصام: الهلاك.

ونختم كلامه بشيء من أدعية الملوك، وهي:

ومَكّن الله له في الأرض، وجعل طاعتَه واجبةً وجوبَ الرفض، وأيّد آراءه بالملائكة في الحَلّ والعَقد والإبرامِ والنقض.

آخر: وأَنجَزَ له من النصر صادقَ وعدِه، وجعل الملوكَ من عبيده والملائكَةَ من جندِه، ومتّعه بما وهبه من المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بَعدِه.

آخر: وحَفِظه بمعقّبات من أمرِه، وحَمى حِمى الدين بقِصار بِيضه وطوالِ سُمْرِه، وجعل قدرَ مملكته في الدهر كليالي قدرِه، وأَلبَس أولياءه من طاعته ما يجرّون أذيالَ فخرِه.

آخر: ولا زالت الدنيا بعدله مخضرّةَ الوهاد[١] والرُّبا، والآمال بفضله قائلًا لها النجحُ: مرحبًا، والأقدارُ لنصره مسدّدةَ السهام مرهفةَ الظُّبا[٢]، والأيّامُ لا تَعدَم من جميل أثره وجليلِ تأثيره فعلًا مطربًا، ووصفًا مطيّبًا. وجَعلتْ مُلكَه موصولًا بحبل لا يُحلّ عَقدُه، وحَرَمَه محروسًا بسيف التوفيق لا يُفلّ[٣] حدُّه. ولا زالت راياته ألسنةَ تنذر أعداءه بالفرار، وتُبشّر أولياءه بالقرار، وآراؤه أعلامًا عاليةَ المَنار واضحةَ الأنوار. وأنجز له عِداتِه في عُداتِه، وجعل النصر والتوفيق مصاحبَين لآرائه ورايَاتِه. وأناله النصرَ الذي يغنيه عن الحيلة والحول، وعَقَد السعدَ بُعرا ما يُمضيه من الفعل والقول، وبوّأ أولياءه جُنّةً من النصر ما فيها غائلة[٤] وجَنّةً من العزّ ما فيها غَول[٥]. وقصم بمهابته كلّ جبّار عنيد، وعصم كلّ من يَأوي من رجائه إلى ركن شديد. وآتاه من التأييد سلطانًا نصيرًا، وجعل جيشه أكثر قوّى وأقوَى نفيرًا. ولا زالت الآمال بسحابه مخضرّةَ الرُّبا والوهاد، والتأييدُ بتمكينه مناديًا في كلّ ناد، والدنيا بمُلكه مسرورةَ الأسرار[٦] حاليةَ الأجياد، والأقدارُ لأمره متكفّلةً بالنّفاد[٧]. وطرّز بأيامه ملابس السِّيَر، وأحلّ أمره أعلى هَضَباتِ النصر والظَّفَر، وحلّى أجياد الممالك من عدلِه وبذلِه بأشرف

(١) الوهاد: مفردها الوهدة وهي الأرض المنخفضة.

(٢) الظّبا: مفردها «الظبّة» وهي حدّ السيف والسّنان والسكّين.

(٣) يُفلّ: يُثلم ويكسر.

(٤) الغائلة: الداهية والشرّ.

(٥) الغول: السكر الناتج عن الشّراب، أو الصُّداع وهو يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصّافات: الآية ٤٧].

(٦) الأسرار: هنا خطوط الوجه والجبهة، وأسند السّرور إليها لظهور إماراته فيها.

(٧) النّفاد: الجواز والمضي، ونفدني بصره: إذا بلغني وجاوزني. (اللسان، مادة نفد).

الدُّرَر، ولا برح القدر يوافق قُصُودَه(١) فيقول للقدر: لَقَدْ ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه: الآية ٤٠]. وأَتَمَّ نعمته عليه كما أَتَمَّها(٢)، وعَمَر بعدله الآفاقَ وعَمَّها، وأَوضح مَناهجَ كرمه لمن قَصَدها وأَمَّها، وأنجز عِداتِه في عُداتِه فأصماها وأَصمّها. وأَتَمَّ نعمتَه عليه كما أتمها على أبويه مِن قَبلِه، وحَمى حِمى الدين بنصرِه وفضلِه، وكسا الدنيا بمُلكه حلّةَ فخار مُعلَمةً(٣) بإحسانه وعدلِه، وجعل أقاليمَ الأرض معمورةً بسلطانه مغمورةً بعطائه وبذله.

ذكر شيء من إنشاء المولى الماجد

السالك من طريقيَ الفضل والفضائل أَوضحَ الطرق وأَنهجَ المَسالك، المفصِح بلسان براعته والمُوضِح بأنوار بلاغته ما أَبهَم وٱستبهم من ليل العِيِّ الحالك، المتصرِّف بقلمِه وكَلِمه لوثوق ملوك الإسلام بديانتِه وأمانتِه وأصالتِه ونزاهتِه في الأقاليم والثغور والحصون والممالك، العامرِ بفضله وفضائله والغامرِ بجوده ونائله باطنَ وظاهرَ من أمّله وأمَّ له من زائرٍ وقاطنٍ ومارٍّ وسالك؛ فينفصل هذا عن بابه وهو بجوده مغمور، وهذا عن مجلسه وقلبُه بوَلائه لِما أَولاه من إحسانه معمور؛ وهذا وهو يُنفق الجملَ من ماله، وذاك وهو يجود على المُعدم مِن فضلِ نوالِه؛ والآخرُ وقد امتلأ صدره سرورًا، وأشرق وجهُه بهجةً ونورًا؛ وٱنطلق لسانُه من عِقاله بعد تقييدِه، وٱنبسط أملُه لطلب الفضائل لَمّا ظفر بمعدنها بعد تعقيدِه؛ فتَجِده وقد ٱعتَلَق(٤) منه جملًا وٱعتَنق جمالًا، وأنفق الدّرر بعد ضنّه(٥) بالأصداف فهو لا يخشى عُدْمًا ولا يخاف إقلالًا؛ والمولى المعنيُّ بهذه المعالي التي ٱبتسمت ثغورُها، وتحلّت نحورُها؛ والمكارمِ التي جادت سحائبُها وامتدّت مَذانبُها(٦)، وترادفَتْ مواهبُها، واتّسعَتْ مذاهبُها؛ والفضائِل التي لجنابِهِ الكريم تُعزَى ولفضلِهِ العميم تَنتسب، والسيادةِ التي شادها لنفسِه لاستغنائه عمّا مهدتّه له آباؤه النُّجب(٧)، والمرادُ

---

(١) القصود: جمع قصد.

(٢) متعلّق هذا الفعل محذوف للعلم به وهو قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [يُوسُف: الآية ٦].

(٣) المعلمة: من العلامة.

(٤) اعتلق: هنا بمعنى حفظ، واعتلق: أحبّ، وأراد الكاتب المجانسة بين «اعتلق» و «اعتنق».

(٥) ضنّه: حفظه.

(٦) المذانب: مسايل الماء، واحده مذنب.

(٧) النجب: واحدها النجيب، وهو الفاضل على مثله النفيس.

بهذه الأوصاف التي: [من المديد]

خُـلِّيَـتْ والـحُـسـنَ تـأخـذه تَـنـتـقِـي مـنـه وتَـنـتـخـبُ[(١)]

هو لسانُ الدولة ويمينُها، وسفير المملكة وأمينُها؛ وجامعُ أشتات الفضائل، وناظمُ أخبارِ الأواخر وسِيَرِ الأوائل؛ وسيّدُ الرؤساء وجليسُ الملوك، ومؤلِّفُ كتابِ نظمِ السلوك؛ المولى المالكُ علاءُ الدين عليّ بن المولى المرحوم فتح الدين محمد بن المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، ذو الفضائل والمآثر، والنسبِ العريق والأصلِ الطاهر، والسببِ الوثيقِ والفضل الباهر؛ فهذه نبذة من أوصافه أثبتناها، ولُمعة من محاسنه أوردناها، أسامِ لم تزِده معرفةً وإنما لذّةً ذكرناها؛ وله ـ أعزّه الله وأوفر نعمه لديه، وأَتَمَّ نعمته عليه كما أتمها على أبويه؛ وأرانا في نجله الكريم ما رأيناه في سلفه وفيه، وأَنطَق الواصفَ لمحاسنهم بمِلءِ فيه ـ من الرسائل البليغة، والتَّقاليدِ البديعة؛ والعهودِ التي عاهدَتْها البلاغةُ ألا تتعدّاها فوفت بعهدِها، وأقسمت معانيها أنها لم تَقصِدْ سواه مِن قَبل لعلمِها أنّ غيرَه لا يوفّيها حقَّ قصدِها؛ وسنورد إن شاء الله من كلامه ما هو بالنسبة إلى مجموعه نبذةٌ يسيرة، ونرصّع في كتابنا هذا من فضائله لُمعةً خطيرة؛ ونفرع بما نضعه فيه من كلامه قدرَ هذا التصنيف، ونطرّز به أَرْدانَ هذا التأليف، ولا نحتاج إلى التعريف بمكانه وتمكُّنه من هذه الصناعة فالشمس تستغني عن التعريف؛ ونحن الآن نعتذر من التقصير في الانتهاء إلى وصف محاسنِه، ونعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبه الشريفة ومَيامِنه؛ ونأخذُ في ذكر كلامه لنمحوَ ذنبَ التقصير بحسن الإخبار[(٢)]، ونسأل الصفح عن ٱختصارنا واجبَ حقّه ونرجو قبول كلماتِ الاعتذار.

فمن إنشائه ما كتبه عن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ـ جمَّل الله به الدين، وأيّد ببقائه الإسلامَ والمسلمين ـ للسلطان الملكِ المظفَّر ركن الدين بيبرس المنصوريّ في شوّال سنة ثمان وسبعمائة، ابتداه بأن قال:

هذا عَقدٌ شريف ٱنتظمتْ به عقودُ مصالِح الممالك، وٱبتَسمتْ ثغورُ الثغورِ ببيعته التي شهِدَتْ بصحّتها الكرامُ الملائك؛ وتمسّكت النفوسُ بمحكَم عَقده النَّضيد[(٣)]

---

(١) البيت لأبي النواس.

(٢) لعلّه يريد بالإخبار: أن ذكر شيء من كلامه إخبار عن فضله وتمكّنه من ناحية البلاغة، أو لعلّ صوابه (الاختيار).

(٣) النّضيد: الذي ضمّ بعضه إلى بعض.

ومبرَم عهدِه النظيم، ووثقت الآمالُ ببركة مِيثاقه فتقرأه الألسنة مستفتِحةً فيه بقول الله الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: الآية ٣٠] الحمد لله الذي جعل الملّة الإسلاميّةَ تَأوِي من سلطانها إلى ركنٍ شديد، وتَحوِي من مبايعة مظفَّرِها كلَّ ما كانت ترومه[١] من تأبيد التأييد، وتَروِي أحاديثَ النصر عن مَلِكٍ لا يَملّ من نُصرة الدِّين الحنيفيِّ وإن مَلّ الحديدُ من الحديد؛ مُؤتى مُلكَه من يشاء من عبادِه ومُلْقِي مقاليدِه للوليّ الْمَليّ[٢] بقَمْع أهل عناده؛ ومانِحِه من لم يزل بعزائمه ومكارمه مرهوبًا مرغوبًا، ومُوليه [ومولّيه][٣] من غدا مَحبوًّا من الأنام بواجب الطاعة محبوبًا وباسِط أيدي الرغبات لمن حَكَم له كمالُ وصفِه ووصفُ كمالِه بأن يكون مسئولًا مخطوبًا ومفوِّضِ أمرِه ونهيِه إلى من طالما صَرَف خَطِّيَّه عن حمى الدين أخطارًا وخطوبًا؛ والحمد لله مُجرِي الأقدار برفع الأقدار، ومُظهِر سرِّ الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسيّة بحسن الاختبار من المصطَفينَ الأخيار، جامعِ أشتات الفخار، ورافعِ لواءِ الاستظهار[٤]، ودافعِ لأواءِ[٥] الأضرار، بجميلِ الالتجاءِ إلى ركنٍ أمسى بقوّة الله تعالى عاليَ المَنار وافيَ المَبارّ، باديَ الآثار الجميلة في الإيثار؛ والحمد لله على أن قلّد أمورَ السلطنة الشريفة لكافِلها وكافيها، وأَسنَد عَقدَها وحَلّها لمن يدرك بكريم فطنتِه وسليم فطرتِه عواقبَ[٦] الأمور مِن مباديها، وأيّد الكتائبَ الإيمانيّةَ بمن لم تزل عواليه تبلّغها من ذُرا الأمانيِّ معاليها؛ يحمده أمير المؤمنين على إعلاءِ كلمة الإيمان بأعيان أعوانِها، وإعزازِ نصرها بأركانِ تشييدِها وتشييدِ أركانِها؛ ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تبرح الألسنُ تَرويها، والقلوبُ تَنويها، والمواهبُ تُجزِل لقائلها تنويلًا وتنويهًا؛ ويشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله أكملُ نبيٍّ وأفضلُ مبعوث، وأشرفُ مُورِّثٍ لأجلِّ موروث؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تنمو بركاتُها وتَنُمّ[٧]، وتَخُصّ حسناتُها وتَعُمّ؛ ورضي الله عن عمّه العباسِ بنِ عبد المطلب جدِّ أمير المؤمنين، وعن أبنائه الأئمّةِ المهدّيين؛ الذين ورِثوا الخلافةَ كابرًا عن كابر، وسَمَتْ ووُسِمَتْ بأسمائهم ونعوتهم ذُرا المنابر؛ أما بعد، فإن الله تعالى لمّا عَدَق[٨] لمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجمهور وعَقَد له البَيعةَ في أعناق

---

(١) ترومه: تطلبه.
(٢) يقال: هو مليء بهذا الأمر: أي مضطلع به (الأساس).
(٣) لم ترد هذه الكلمة في الأصل، والزّيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ٦٩).
(٤) الاستظهار: العلوّ والغلبة.
(٥) اللأواء: الشدّة والمحنة.
(٦) عواقب الأمور: خواتيمها وأواخرها.
(٧) تنمّ: من نمّ المسك: إذا سطعت رائحته.
(٨) عدق: أي جمع.

أهل الإيمان فزادتهم نورًا على نور؛ وأورثه عن أسلافه الطاهرِين إمامةَ خيرِ أمَّة، وكَشَف بمُصابرته من بأس العدا غمامَ كلِّ غُمَّة؛ وأنزَل عليه السكينةَ في مواطن النصر والفتح المبين، وثبَّته عند تَزلزل الأقدام وثَبَّت به قلوب المؤمنين؛ وأفاض عليه من مَهابة الخلافة ومواهبِها ما هو من أهلِه، وأَتَمَّ نعمتَه عليه كما أَتَمَّها على أبويه مِن قبلِه؛ بايع ٱللهَ تعالى على أن يختار للتمليك على البرايا[١]، والتحكيم في الممالك والرَّعايا؛ من أَسَّس بنيانَه على التقوى، وتمسَّكَ من خشية الله سبحانه بالسبب الأقوى؛ ووَقَف عند أوامر الشرع الشريف في قضائه وحُكمِه، ونهض لأداء فرضِ الجهاد بمعالي عزمِه وحزمِه؛ وكان المقامُ الأشرفُ العالي المَوْلويُّ السلطانيُّ المَلكيُّ المظفَّريُّ الركنيّ، سلطانُ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الملوك والسلاطين؛ ناصرُ الملّة المحمّديّة، محيي الدولة العباسيّة (أبو الفتح بيبرس) قسيم أميرِ المؤمنين ـ أعزّ الله تعالى ببقائه حمى الخلافة وقد فَعَل، وبلغ في دوام دولته الأمل ـ هو المَلِك الذي ٱنعقد الإجماعُ على تفضيلِه، وشَهدتْ مناقبُه[٢] الطاهرة باستحقاقه لتحويل المُلْك [إليه][٣] وتخويلِه؛ وحَكَم التوفيقُ والاتفاقُ بتَرقّيه إلى كرسيِّ السلطنة وصعودِه، وقضت الأقدار بأن يُلقِيَ إليه أميرُ المؤمنين أزمّة[٤] عهودِه؛ والذي كم خَفَقت قلوبُ الأعادي عند رؤية رايات نصرِه، ونطقت ألسنةُ الأقدار بأن سيكون مليكَ عصرِه وعزيزَ مصرِه؛ وٱهتزّتْ أعطاف المنابر شوقًا للافتخار باسمِه، واعتزّتْ الممالك بمن زاده الله بسطةً في عِلمِه وجسمِه؛ وهو الذي ما برح مذ نشأ يجاهد في الله حقَّ جهادِه، ويساعِد في كل معركة بمرهَفات سيوفه ومتلِفاتِ صِعادِه، ويُبدِي في الهيجاء[٥] صفحتَه للصِّفاح فيَقيه ٱللهُ ويبقيه ليجعله ظلَّه في الأرض على عباده وبلاده، فيُردِي الأعداءَ في مواقف تأييده فكم عَفَّر[٦] من خدٍّ لملوك الكفر تحت سنابك جيادِه؛ ويشفِي بصدور سيوفه صدورَ قوم مؤمنين، ويسقي ظِماءَ أسنّته فيرويها من مَورد ورُود[٧] المشركين؛ ويُطلِع في سماء الملك من غُرَرِ رأيه نيّراتٍ لا تَأفُل ولا تَغُور، ويُظهِرُ من مواهبه ومَهابته ما تُحسَّن به الممالكُ وتُحصَّن به الثغور؛ فما من حصنٍ أغلقه الكفرُ إلا وسيفُه

(١) البرايا: الخلق.
(٢) المناقب: السجايا والأفعال الكريمة.
(٣) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ٧١).
(٤) الأزمّة: مفردها الزّمام، والمراد هنا التفويض إليه.
(٥) الهيجاء: الحرب.
(٦) عفّر الخدّ: مترغه في العفر وهو التراب.
(٧) الورود: جمع وريد، وهو عرق في العنق، ويقال: حبل الوريد، والظاهر أنّه أراد هنا بالورود: العروق التي فيها الدمّ، لا جمع وريد...

مفتاحُه، ولا ليل خطبِ دَجا[١] إلا وغرّتهُ الميمونةُ صباحُه، ولا عزّ أملٌ لأهل الإسلام إلّا وكان في رأيه المسدَّدِ نجاحُه، ولا حصل خللٌ في قطرٍ من الممالك إلّا وكان بمشيئة الله تعالى وبسَداد تدبيره صلاحُه؛ ولا اتّفق مشهدُ غزوٍ إلا والملائكةُ بمضافرته فيه أعدلُ شهود، ولا تَجدَّد فتوحٌ للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاد، «والجُودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود» كم أَسلف في غزوِ الأعداء من يوم أَغَرَّ محجَّل[٢]، وأنفق مالَه ابتغاءَ مرضات الله فحاز النصرَ المعجَّل والأجرَ المؤجَّل؛ وأحيا من معالم العلوم ودوارِس[٣] المدارس كلَّ داثر، وحثّه إيمانُه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعةِ لكلِّ تالٍ وذاكر، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبَة: الآية ١٨]؛ وهو الذي ما زالت الأولياء تَتخيّل مخايلَ السلطنة في أعطافه معنًى وصوره، والأعداءُ يرومون إطفاءَ ما أفاضه الله عليه من أشعَّة أنواره ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبَة: الآية ٣٢]؛ طالما تطاولتْ إليه أعناقُ الممالك فأعرض عنها جانبًا، وتطفّلتْ[٤] عليه فغدا لها رعايةً لذمّة الوفاء مجانبًا؛ حتى أَذِن الله سبحانه لكلمة سلطانه أن تُرفَع وحكم له بالصعود في دَرَج المُلك إلى المحلّ الأعلى والمكان الأرفع، وأَدَّى له من المواهب ما هو على اسمه في ذخائر الغيوب مستودَع؛ فعند ذلك استخار الله تعالى سيّدُنا ومولانا أميرُ المؤمنين (المستكفي بالله) ـ جعل الله الخلافةَ كلمةً[٥] باقيةً في عَقِبه، وأمتع الإسلامَ والمسلمين بشريفَيْ حسبِه ونسبِه ـ وعَهِد إلى المقام العالي السلطانيّ بكلِّ ما وراء سرير خلافتِه، وقلّده جميعَ ما هو متقلّدُه من أحكام إمامته؛ وبَسَط يَده في السلطنة المعظَّمة، وجعل أوامرَه هي النافذَة وأحكامَه هي المحكَّمة؛ وذلك بالدِّيار المصريّة والممالكِ الشاميّة، والفراتيّة والحلبيّة والساحليّة، والقلاعِ والثغور المحروسةِ والبلاد الحجازيّة واليمانيّة؛ وكلِّ مَا هو من الممالك الإسلاميّة إلى خلافة أمير المؤمنين منسوب، وفي أقطار إمامتِه محسوب؛ وأَلقَى إلى أوامره أزمَّةَ البسط والقبض والإبرامِ والنقض، والرفعِ والخفض، وما جعله الله في يده من حُكم الأرض، ومن إقامةِ سنّةٍ وفرض؛ وفي كلِّ هِبةٍ وتمليك، وتصرّفٍ في ولاية أمير المؤمنين من غير شريك؛ وفي تولية القضاة والحكام، وفصلِ القضايا والأحكام؛ وفي سائر التّحكّم

(١) دجا الخطب: أظلم واشتدّ. (٢) المحجل: الذي فيه بياض.

(٣) الدوارس: مفردها «الدّرس» وهو الذي عفا وذهب أثره.

(٤) في الأصول: تطلّعت (والتصويب عن صبح الأعشى ١٠/ ٧٢) لأنّ السّياق يقتضي ذلك.

(٥) لم ترد هذه الكلمة في الأصل، والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ٧٢).

في الوجود، وعقدِ الألوية والبنود، وتجنيدِ الكتائب والجنود، وتجيهزِ الجيوش الإسلامية في التأييد لكلٍّ مقام محمود؛ وفي قهرِ الأعداء ٱلذين نرجو بقوّة الله تعالى أن يمكنه من نواصيهم، ويحكِّم قواضبَه في ٱستنزالهم من صَياصيهم[١]، واستئصالِ شأفة عاصيهم؛ حتى يمحوَ الله بمصابيح سيوفه سوادَ خطوب الشِّرك المدْلهِمّة[٢]، وتغدو سَراياه في ٱقتلاع قلاعِ الكفر مستهِمّة[٣]؛ وتُرهِبهم خيلُ بعوثه وخيالُها في ٱليقظة والمنام، ويَدخُل في أيّامه أهلُ الإسلام مدينةَ السلام بسلام؛ تفويضًا تامًّا عامًّا منضَّدًا منظَّمًا، مُحْكمًا مُحكَّمًا؛ أقامه مولانا أميرُ المؤمنين في ذلك مُقامَ نفسه الشريفة، وٱستَشهَد الكرامَ الكاتبين في ثبوت هذه البَيعة المنيفة[٤]؛ فليَتقلّد المقامُ الأشرفُ السلطانيُّ ـ أعزّه الله نصرَه ـ عِقدَ هذا العهد الذي لا تطمح لمثله الآمال، وليَستمسِكْ منه بالعروة الوثقىٰ التي لا ٱنفصامَ لها ولا ٱنفصال؛ فقد عوّل أميرُ المؤمنين على يمن أرائك التي ما برحت الأمّةُ بها في المعضلات تَستشفِي، وٱستَكفَى بكفايتِك وكفالتِك في حياطة المُلك فأضحى وهو بذلك (المستكفِي)؛ وهو يقصّ عليك من أنباء الوصايا أحسنَ القَصَص[٥]، وينصّ لديك ما أنت آخذٌ منه بالعزائم إذا أَخَذ غيرُك فيه بالرُّخص؛ فإن نُبِّهتَ على التقوى فطالما تمسّكتَ منها بأوثقِ عروة، وإن هُديتَ إلى سبيل الرشاد فما زلتَ ترقى منه أشرفَ ذُروة؛ وإن ٱستَرهفْنا[٦] عزمَك الماضيَ الغِرار، وٱستَدعَينا حزمَك الذي أضاء به دهرُك وأنار وٱستنار؛ في إقامة مَنار الشرع الشريف، والوقوفِ عند أمرِه ونهيِه في كل حكم وتصريف؛ فما زِلتَ ـ خلّد الله سلطانَك ـ قائمًا بسننِه وفرضِه، دائبًا في رضى الله تعالى بإصلاحِ عقائدِ عبادِه في أرضِه؛ وما برح سيفُك المظفَّرُ للأحكام الشرعيّة خادمًا، ولموادِّ الباطل حاسمًا، ولأُنوفِ ذوي الزَّيغ والبِدَع[٧] مُرغِمًا؛ وكلُّ ما نوصيك به من الخير فقد جُبلتْ عليه طباعُك، ولم يزل مشتدًّا فيه ساعدُك ممتدًّا إليه باعُك؛ غيرَ أننا نُورد لمعةً اقتضاها أمر الله تعالى في الاقتداء بالتذكرة في كتابه المبين، وأَوجبَها نصُّ قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذّاريات:

---

(١) الصياصي: الحصون، واحدها «الصيصية». (٢) المدلهمّة: الكثيرة السّواد.
(٣) المستهمّة: أي المهتمّة، ويجوز أن تقرأ: مستهمة بتخفيف الميم أي مقتسمة.
(٤) المنيفة: التامة العزيزة.
(٥) يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: الآية ٣].
(٦) استرهفه: أي أرهفه: رقّقه وأحدّه.
(٧) البدع: مفردها البدعة: وهي ما استحدث في الدّين وغيره.

الآية ٥٥]، ويندرج تحت أصولها فروعٌ يَستغنِي بدقيق ذهنه الشريفِ عن نصِّها، وبفكره الثاقبِ عن قصِّها؛ فأعظمُها للملّة نفعًا، وأكثرُها للباطل دفعًا؛ الشرعُ الشريف، فليكن ـ أعزّ الله نصرَه ـ عاملًا على تشييد قواعد أحكامِه، وتنفيذِ أوامر حكّامِه؛ فالسعيدُ من قرن أمرَه بأمرِه، ورضي فيه بحلو الحق ومُرِّه؛ والعدلُ، فلينشرْ لواءه حتى يأوِيَ إليه الخائف وينكفَّ بردْعه حَيفُ[1] كلِّ حائف؛ ويَتساوى في ظلّه الغنيُّ والفقير، والمأمورُ والأمير؛ ويمسيَ الظلمُ في أيامك وقد خَمدتْ نارُه، وعفَتْ آثارُه؛ وأهمُّ ما ٱحتفَلتْ به العزائم، وٱشتملتْ عليه هممُ الملوك العظائم، وأُشرِعتْ له الأسنّةُ وأُرْهِفتْ من أجله الصوارم؛ أمرُ الجهاد الذي جعله الله سبحانه حصنًا للإسلام وجُنّة[2]، وٱشتَرَى فيه من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجَنّة؛ فجَنِّد له الجنودَ وجَمِّع له الكتائب وٱقضِ في مواقفه على الأعداء من بأسِك بالقَواضي القَواضب[3]؛ وٱغزُهم في عقر الدار، وأرهِفْ سيفَك البتّار، لتأخذَ منهم للمسلمين بالثار؛ والثغور والحصون، فهي سرُّ المُلك المصون، وهي معاقلُ النفوس «إذا دارت رحى الحرب الزَّبون»[4]؛ فلتقلّدْ أمرَها لكُفاتِها، وتحصِّن حِماها بحُماتِها، وتضاعِف لمن بها أسبابَ قوّتها ومادةَ أقواتِها؛ وأمراء الإسلام، وجنود الإيمان، فهم أولياء نصرِك، وحَفَظةُ شامِك ومصرِك؛ وحزبُك الغالب، وفريقُك الذي تَفرَق[5] منه قلوبُ العدوّ في المشارق والمغارب؛ فليكن المقام العالي السلطانيُّ ـ نصره لله تعالى ـ لأحوالهم متفقِّدًا وببسطِ وجهه لهم متوِّددًا؛ حتى تتأكّدَ لمقامه العالي طاعتُهم، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز ضراعتُهم؛ وأما غير ذلك من المصالح فما برح تدبيرُه الجميلُ لها ينفِّذ ورأيُه الأصيلُ بها يشير، ولا يحتاج مع علمه بغوامضها إلى إيضاحها «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» والله تعالى يخصّ دولتَه من العدل والإحسان بأوفر نصيب، ويمنح سلطانَه ما يرجوه من النصر المعجَّل والفتح القريب؛ بمنّه وكرمه.

وكتب تقليدًا مظفَّريًّا للأمير سيف الدين سَلّار المنصوريّ بنيابة السلطنة الشريفة في سنة ثمان وسبعمائة، وهو:

---

(١) الحيف: الظلم.
(٢) الجنّة: الدّرع.
(٣) القواضب: القواطع.
(٤) الزّبون: من الزّبْن بفتح وسكون: وهو الدفع، ومنه قيل: حرب زبون لأنها تدفع الأبطال عن الإقدام خوف الموت.
(٥) تفرق: تجزع ويشتدّ خوفها.

الحمد لله الذي شيّد ركنَ الإسلام بسيفه المنتضَى، وجدّد للمُلك مزيدَ التأييد بكافلِه الذي ما برح وفاؤه للملوك الأواخر والأوائل مرتضَى، وأَنجزَ مِن وعودِه الاتفاقُ والتوفيقُ ما كان من ذمّة الدهر مُقتضَى، جامعِ شملِ الأوامر والنواهي بتفويضها إلى مَن تبيت العدا مِن مهابته على جمر الغَضَى[١]، ومُنِيل المنى بمواهبه التي تحوز موادَّ الاختيار وتجوز أَمَدَ الرضا، ومُلقِي مقاليدِ التدبير إلى من أضحى جميلَ التأثير إذا تصرّف في الرفع والخفض حكمُ القضا، ومصرِّفِ أزمّةِ الأمور في يد من غدا ثابتَ العزَمات في الأزَمات، فما أَظلمَ خطبٌ إلا ٱنجلى بمصابيح آرائه وأضا؛ نحمده على أن عضّد دولَتنا بالكامل الكافي ٱلذي اختاره الله لنا على عِلم، ومنح أيّامَنا موالاةَ الوليّ ٱلذي جُمِعت فيه خَلّتان يحبهما اللهُ ورسولُه: وهما الأناةُ والحِلم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مشرقَة الأنوار، مغدقةً سحبُها بأنواء[٢] المنَنِ الغزار؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بعثه ٱلله لإقامة شعائر الإيمان، وخصّ ملّتَه في ٱلدنيا والآخرة باليمن والأمان؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ٱلذين منهم من أضحى بفضل السَّبْق للإيمان به صِدّيقَه وصَديقَه، وأمسى لفرط الأُلفة أنيسَه في الغار ورفيقَه؛ ومنهم من ضافَرَه في إظهار النبوّة ووازَرَه[٣]، وظاهَرَه على إقامة منارها بإطفاء كل ثائرة وإخمادِ كلّ نائرة[٤]؛ ومنهم من ساعد وساعف في تجهيز جيش العُسْرة[٥]، وأَحسَن وحسَّن مع إخوانه المؤمنين الصحبةَ والعشرة؛ ومنهم من كان سيفَه الماضيَ الحدّ، ومهنّدَه الذي كم فَلّ بين يديه الجموع فما اعترَض إلا قطّ[٦] ولا ٱعتَلى إلا قَدّ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد، فإن الله تعالى لما هنّأ لنا مواهبَ الظَّفَر، وهَيّأ لنا من الملك مَوادَّ إدراكِ المنى وبلوغِ الوَطَر، وأيدنا من أنصارنا بكلّ ذي فعلٍ أَبَرّ ووجهٍ أَغَرّ؛ وشدَّ أَزْرَنا بمضافرة سيف يُزهَى المُلكُ بتقليدِه، وأَمَدّنا بمؤازرٍ تَتصرّف المنى وٱلمنون بين وعدِه ووعيدِه؛ وجب علينا أن نحوط دولتنا بمن لم تزل حقوقُ مودّته بحسن الثناء حقيقَة، وعهودُ محبته في ذمام الوفاء متمكّنةً وثيقَة، وطريقتُه المثلى

---

(١) الغضى: شجرٌ من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفىء، واحده: غضاة.

(٢) الأنواء: مفردها النَوء وهو المطر.

(٣) وازره: أعانه وقوّاه، والأصل آزره، والمؤازرة بالهمز أفصح وبالواو شاذ.

(٤) النائرة: اسم فاعل من نارت الفتنة تنور: إذا وقعت وانتشرت.

(٥) جيش العسرة: هو الجيش الذي سار به النبي ﷺ إلى تبوك.

(٦) قطّ: قطع.

في المحاسن والإحسان مشهورةً ولا نرى مثلًا لتلك الطريقة؛ ونقلِّد كفالةَ ممالِكنا للوليِّ الذي ما برح يتلقى أمورَنا بفسيح صدرِه، ويتوَقَّى حدوثَ كلِّ ما نكرهه فينهض في دفعه بصائب رأيه وثاقبِ فكرِه؛ وكان الجنابُ الكريمُ العالي الأميريُّ الكبيريُّ العالميُّ العادليُّ الكافليُّ المؤيّديُّ الزعيميُّ الغياثيُّ(١) المُسنديُّ الممهِّديُّ المثاغِريُّ(٢) المظفَّريُّ المنصوريُّ السَّيفيُّ، معزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ أمراء العالمين؛ سندُ الممالك، مدبِّرُ الدُّوَل، مقدِّمُ العساكر، أميرُ الجيوش، كهفُ الله، حصنُ الأمّة، نُصرةُ الملوك والسلاطين، (سَلَارُ المنصوريُّ) نائبُ السلطنة المعظمة، وكافلُ الممالك الإسلامية، ـ أعز الله نصره ـ هو واسطةَ عِقد الأولياء، وسيفَ الدولة الفاتكَ بالأعداء، والذي أَسلف في نُصرة الإسلام حقوقًا غدت مرقومةً في صحف الفخار، واستَأنَف في مصالح الأمّة المحمّديّة تدبيراتٍ أَظهَر بها أسباب التأييد على الأعداء والاستظهار؛ كم أصلح بيمن سياسته ذاتَ البَين(٣)، وكم أبهج ببركة تَأتّيه(٤) وتَأنّيه كلَّ قلب وأَقرَّ كلَّ عين؛ وكم ساس من مُلك فأضحى ثابتَ الأساس، وجعل شعارَه دفعًا للباس ونفعًا للناس؛ ما عوهد إلا وأَوفَى، ولا عوند إلا وَعفّ وعفا، ولا استُشفِيَ في طبِّ معضلة إلا وشَفَى، ولا آستَدرَك تدبيرُ فارطَ(٥) أمرٍ كان على شفا(٦)؛ فما يومُه في الفضل بواحد، ولا أحد لمِثل محاسنه الجميلة بواجد؛ لِعزماتِه في مواقف الجهاد السوابقُ الغُرُّ المحجَّلة، ولِتدبيراتِه في مصالح العباد والبلاد المنافعُ المعجَّلةُ والمؤجَّلة؛ وهو الذي خافت مَهابَته الكتائب، وأُمِّلَت مواهبُه الرغائب(٧)، ولعبتْ(٨) سَطَواتُه للعدا خيالًا في المراقِد وخيلًا في المَراقب، وآمتَطَى من الشهامة كاهلَها(٩) فأَحجَم عنه لمّا أقدم كلُّ مُحارِب، وصدق مَن نَعَتَه بالسيف، فلو لم يُنعَت به لقيل: هذا سيف يفتِكِ

---

(١) الغياثي: من الغيث. (٢) المثاغري: من الثغور.

(٣) ذات البين: ما بين القوم من القرابة والصلة والمودّة أو غير ذلك من العداوة.

(٤) التأتّي للأمر: الترفّق والتلطف فيه.

(٥) الفارط: الفائت: يريد أنه يتوقّى الخلل بتدبيره قبل حصوله.

(٦) على شفا: أي شفا جرف هارٍ. يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٩]. والشفا: الحدّ الأعلى من الوادي وغيره.

(٧) الرّغائب: النفائس المرغوب فيها، واحدها «رغيبة».

(٨) لعبت سطواته: يريد أن سطواته في تشكّلها للأعداء في النوم بالخيال وفي اليقظة بالخيل تشبه فعل اللّاعب حين يتشكّل للناظر بأشكال مختلفة، ولعلّها «لعّبت» بتشديد العين: أي أثارت في خيال أولئك القوم الظنون وأصناف الفكر من شدّة سطوته وكثرة إثارته للخيل زحفًا وحربًا.

(٩) الكاهل من الإنسان: مقدّم أعلى الظّهر مما يلي العنق.

بالضَّريبة ولا تُفَلّ له مَضارب؛ وكم لقيَ بصدره الألوفَ من التتار ـ خذلهم الله ـ والمنايا قد بلغتْ من النفوس المنى، وأَمضى سيفَه في الحروب وما شكا الضنى؛ وحمل حملة فرّق بها كلّ شَملٍ للكفّار اجتمع، وقطع أعناق العدافي رضي الله تعالى ولا يُنكر السيفُ إذا قطع؛ ووصل من العلياء إلى غايةٍ تُزاحِم الكواكبَ بالمناكب، وتَفرَّد بأمر الجيوش فأضحى بدرَ الكتائب وصدرَ المواكب؛ إذا جاش الجيشُ ثبت عند مشتجر الرماح[1]، وإذا أظلم ليلُ النَّقْع[2] وَضَحت أساريرُ جبينِه وضوحَ الصباح، وإذا أقدم في كتيبة «رأيتَ البرَّ بحرًا من سلاح» وإذا رُفِعت راياتُه يوم الوغى كبّرَتْ بالظَّفَر على ألسنة الرماح، وإذا كان في جحفلٍ كانت عزائمُه للقلب قلبًا وصوارمُه جناحًا للجناح[3]، وإذا قَدَر في السَلم عفا لكنه في الحرب قليلُ الصفح بيِّنُ الصِّفاح؛ وهو الذي ما برحت أيدي انتقامه تهدم من أهل الشرك العمائرَ والأعمار، وبروقُ سيوفه تَذهَب بالنفوس لا بالأبصار، ويمنُ يمينه وصبحُ جبينه هذا يَستهِلّ بالأنواء وذا بالأنوار؛ اقتضَى حسنُ الرأي الشريف أن نوفيَ حقوقَ مودّته التي أسلفها لنا في كل نُعمى وبُوسى، وأن نضاعفَ علوَّ مكانه من أخوّتِنا ليكون منا كهارون من موسى؛ فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولَويّ السلطانيّ الملكيّ المظفَّريّ الركني ـ لا برح يوفي بعُهود الأولياء ويفي، ويَمنح من أخلص النيّةَ في ولائه البرَّ الخفيَّ والفضلَ الحَفِي ـ أن تكون كلمةُ الجناب الكريم العالي الأميريّ السيفيّ المشارِ إليه ـ أعزه الله نصره ـ نافذةً في كفالة الممالك الإسلاميّة، متحكّمةً في نيابة السلطنة المعظَّمة، وأوامرُه المطاعةَ في إمرة الجيوش وحياطة الثغور التي غدت بدوام كفالته متبسّمة؛ على أجمل عوائدِه[4]، وأكمل قواعدِه؛ نيابةً ثابتةَ الأساس، ناميةَ الغراس؛ لا يضاهَى فيها ولا يشارَك، ولا يَخرُج شيءٌ من أحوالها عن رأيه المبارك؛ فليبسُط نهيَه وأمرَه في التدبير والإحكام، وليَضبِط الممالكَ حتى لا تسامَى ولا تُسام؛ وليُطلع من آرائه في سماء الملك نجومًا بها في المصالح يُهتدَى، وليَرفع من قواعده ما يخفض به قدرَ العدا؛ وليُضاعِف ما أَلفته الأمّةُ من عدلِه، وليَجرِ على أكرم عاداته مِن نشرِ إنصافه وشمولِ فضلِه، وليعضُد[5] جانب الشرع المطهَّرِ في عَقِده وحَلّه، وتحريمه وحِلّه؛ ولينفذ كلمتَه على ما هو من ديانته

---

(١) اشتجرت الرّماح: تشابكت وتداخلت.
(٢) النقع: الغبار المتصاعد في الحرب.
(٣) القلب والجناح: فرقتان من فرق الجيش الخمسة...
(٤) العوائد: جمع عادة.
(٥) عضّد: أعان ونصر.

مألوف، وليَستكثِر من الاقتداء بأحكامه في النهي عن المنكر والأمرِ بالمعروف؛ وأمراء الإسلام وجنوده، فهم ودائعُ سرِّه، وصنائعُ شكره، وطلائعُ نصرِه، وما منهم إلا من غُذِيَ بلبان[(١)] دَرِّه، وغدا [من][(٢)] ثناء عصره متقلدًا لعقود دُرِّه؛ فليستدم حُنوَّه عليه وإشفاقَه، وليوال إليهم بِرَّه وإرفادَه[(٣)] وإرفاقَه[(٤)]؛ والوصايا كثيرةٌ لكنها منه تُستملى، والتنبيهاتُ على المصالح منه تستفاد نقلًا وعقلًا، وما زلنا نستضيء في المهمّات بيمن آرائه التي جَمعتْ للمصالح شملًا؛ فمِثلُه لا يُدَلّ على صواب وهو المتفرِّد بالسداد، والخبيرُ بتفريج كُرَب الخطوب والسيوفُ غامضةُ الجفون في الأغماد؛ والله تعالى يمتعنا من بركة كفالته بالخلِّ المُوافِي[(٥)] والأخ المواسِي، ويشدّ أزرَ سلطاننا من مضافرته بمن أمسى جبل الحلُوم[(٦)] الرواسي؛ إن شاء الله تعالى.

ومن إنشائه أيضًا أعزه الله تعالى مقامة عملها في سنة اثنتين وسبعمائة، على لسان من التمسها منه، فقال:

حَكَى أليفُ الغرام، وخليفُ السَّقام؛ وقتيلُ العيون، وصريعُ الجفون؛ وفريسةُ الأسود، والمصابُ بنبال الحَدَق[(٧)] السود؛ عن قصّتهِ في هواه، وقضيّتِه التي كان في أوّلها غِناه، وفي آخرها عَناه؛ قال: لم أزل في مدّة العمر أترقّب حبيبًا أتلذّذ بحبِّه، وأتنعّم بقربِه؛ وأحيا بانعطافِه، وأسكر من ريقه بسلافِه[(٨)]؛ وأستعذب العذاب فيه، وأرشُف خمر الرضاب مِن فيه، وأقتطِف ورد السرور من وجنتيه وأجتنيه؛ وأكتسِي به لطفًا وأكتسِب بمصاحبته ظَرْفًا؛ حتى ظفِرتْ يداي بمن رقّ وراق، ولطُفَتْ حدائقُ معانيه حتى كادت تَخفى عن الأحداق: [من الكامل]

لطُفَتْ معانيه فهبّ مع الصَّبا ورقيبُه بهبوبه لا يعرِفُ

قد جمع أوصاف المحاسن والمعاني، وفاق كلَّ مليح فليس له في الحسن ثاني؛ أما قوامُه، فقد ملك الفؤاد فأضحى مَلِكًا عادلًا، وآستباح النفوسَ من آعتدالِه

(١) اللِّبان: بالكسر أي الرضاع، يقال: هو أخوه بلبان أمّه ولا يقال بلبن أمّه.
(٢) ما بين قوسين زيادة لم ترد في الأصول والسّياق يقتضيها.
(٣) الإرفاد: الإعطاء، من الرّفد.
(٤) الإرفاق: من الرّفق أي حسن المعاملة والنفع.
(٥) الخلّ الموافي: أي الصديق والصاحب الوفيّ الذي يفي بالعهد.
(٦) الحلوم: جمع «حِلم» وهو الأناة وعدم الخفّة، والرواسي: صفة للحلوم.
(٧) الحدق: العيون، مفردها حدقة وهي السّواد المستدير وسط العين.
(٨) السُّلاف: أفضل الخمر وأخلصها.

فلا غرو إن أضحى لها قائلًا: [من الكامل]

عَجَبًا لقدّك ما ترنّحَ مائلا إلا وقد سلب الغصونَ شمائلا[١]

وأما لحاظُه فقد غَنيتْ عن الكُحْل بالكَحَل، وأذابت حبّاتِ القلوب في حُبّ تلك المُقَل: [من الكامل]

وإذا رأيتَ الطرف يعمل في الحشا عملَ الأسنّة فالقوامُ مثقّفُ[٢]

إلى غير ذلك من وجه كالبدر في تمامِه، يعوه من شعرِه ما يصير به كالبدر تحت غمامِه: [من الكامل]

قمرٌ تَبلّج وجهُه في حندسٍ من شعره فأضاء منه الحندسُ[٣]

ومقبَّلٍ أشهى من الراح، وأعطرَ من زهر الربا تفتّحت أكمامُه عند الصباح: [من مجزوء الكامل]

ومقبلٍ عذبٍ كأنْ نَ رضابَه بَرَدٌ وراح

وخدٌّ أمسى شقيقَ الشَّقيق[٤]، ومَبسِمٍ يُرشَف مِن شفاهِه العقيقِ الرحيق:

شفةٌ كمحمَّر العقيـ ـق ومَبسِمٌ مِثلُ الأقاح[٥]

وصُدْغٍ سال على خدّه القاني، وامتدّ كدمع محبِّه الأسيرِ العاني: [من الكامل]

صبٌّ له دمعٌ كصُدغك سائلٌ فعساك يا مُثْرِي الجمال تُواسِي[٦]

وخصرٍ لَطُف ودَقّ، وعلاه كَثيبُ ردفٍ فأثقله حتى ضَنِيَ ورَقّ: [من السريع]

يا ردفَه رفقًا على خصرِه بينكما حرمةُ جيرانِ

---

(١) ترنّح: تمايل غنجًا، والشمائل: الصفات.
(٢) الحشا: ما انضمّت عليه الضلوع، والأسنة: الرماح، والمثقّف: المستوي والمعتدل.
(٣) الحندس: الليل الشديد الظلمة.
(٤) الشقيق: يريد بالشقيق شقائق النعمان، وهو زهر أحمر، وإنما أضيف إلى النعمان لأنّ النعمان بن المنذر حمى أرضًا فكثر هذا النبت، وقيل: النعمان: اسم للدّم، وشقائقه: قطعه.
(٥) الأقاح: جمع أقحوان، وهو من نبات الربيع، له نورٌ أبيض كأنه ثغر جاريةٍ حديثة السنّ.
(٦) الصّدغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن.

إلى غير ذلك من أنواع حسنٍ قصر عن وصفها قلمي، وعجز عن حصرها كَلِمي؛ وأشفقتُ من شرحها خوفًا أن أَنُمَّ عليه، أو أذكر ما تفرّد به من الحسن فأكون قد أشرتُ إليه؛ وأنا قد تدرّعتُ ثوبَ الكتمان، وتستّرتُ حتى غاض مني الدمعُ وأَغضَى الطرفُ وسكت اللسان: [من الطويل]

يقولون من هذا الذي مُتَّ في الهوى به كَلَفًا يا ربِّ لا علموا الذي[١]

غيرَ أنّي قد متعت بذكر ملاحته فؤادي، ولا بدّ أن أُوردَها مجمَلةً لأُكْمِد بلفظها[٢] المُعادي: [من الطويل]

حكاه من الغصن الرطيبِ وَريقُه وما الخمرُ إلّا وجنتاه وريقُه

هلالٌ ولكن أفْقُ قلبي محلُّه غزالٌ ولكن سفحُ عيني عقيقُه[٣]

بديعُ التثنّي راح قلبي أسيرَه على أن دمعي في الغرام طَليقُه

أَقَرَّ له من كل حسنٍ جليلُه ووافقه من كل معنًى دقيقُه

من التُّرك لا يصبيه وجدٌ إلى الحِمى ولا ذكرُ باناتِ الغُوَير يشُوقُه[٤]

ولا حلّ في حيٍّ تلوح قبابُه ولا ساق في ركبٍ يساق وسيقُه[٥]

ولا بات صبًّا للفُرَيق وأهلِه ولكن إلى خاقانَ يُعزَى فَريقُه[٦]

يهدِّد منه الطرفُ من ليس خصمَه ويُسكِر منه الريقُ من لا يذوقُه

على خدّه جمر من الحسن مضرَمٌ يُشَبّ ولكن في فؤادي حريقُه

له مَبسِمٌ يُنسِي المدامَ بِريقِه ويُخْجِل نُوّارَ الأَقَاحي بَريقُه

---

(١) الكلف: الحبّ الشديد.

(٢) بلفظها: أي بذكرها فالمراد من اللفظ المصدر، أي التلفّظ.

(٣) سفحُ العين: دموعها المذروفة، والعقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص قال: إنّه يبكي دمًا.

(٤) يصبيه: من أصبى أي استمال، والبانات: مفردها بانة وهي شجرة ليّنة ورقها طويل، وزهر أبيض، والغوير: ماء لكلب بأرض السماوة بين العراق والشام، وقيل: إنّه ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة.

(٥) الوسيق: الموسوق أي الذي حمل عليه الوسق وهو الحمل، وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق: الآية ١٧].

(٦) الفريق بالتصغير: اسم موضع بتهامة. (معجم البلدان ٤/ ٢٦٠).

قال الراوي: فأعلمتُه ما خامر قلبي(١) من هواه، وبذلت نفسي ٱبتغاءَ لرضاه: [من الكامل]

بثَثتُ له سرّي ونحن بروضةٍ فمالت لتُصغِي للحديث غصونُ

فتلقّى ضراعتي بالرُّحْب والإقبال، وسَفَر عن وجه الرضا فبشّرتُ نفسي ببلوغ الآمال؛ وقلت: [من الطويل]

تذلّلتُ في الشكوى إليه فرقّ لي حُنوًّا لدمعي في الهوى وتذلُّلي
غزالٌ لبستُ السُّقمَ خلعةَ جفنه على أنني فيه خلعتُ تجمُّلي(٢)
تَعَلّلَ بالأعذار حتى خدعتُه بسِحر الرُّقَى أَفديه مِن متعلِّلِ
فراقَبَ إغفاءَ الرقيب وهَجعَةَ السَّـ ـمير وراعَى حينَ غفلةِ عُذّلي(٣)
ووافى أخا الأشواق حلفَ صبابةٍ أسيرَ هوًى مِن وجدِه في تَململِ(٤)
فلم أر روضًا كان أحسنَ بهجةً ـ لعمر الهوى ـ من وجهه المتهلّلِ
فأعظمتُ مَسراه وقبّلتُ خاضعًا ثرى خَطوِه شكرًا لفضل التطوّلِ(٥)

وٱنعطف عليّ ٱنعطافَ الغصن الرطيب، وتمازجتْ قلوبُنا حتى أشكل عليّ أينا الحبيب؛ وفزتُ منه ببديع جمال تلذّ به النفوس، ورَشَفتُ من رضابه أحلى ما تَرشُفُه الأفواهُ من شفاهِ الكؤوس: [من المتقارب]

تَعلّقتُه صائدًا للقلوب بألحاظه سالبًا للنُّهى
بديعَ الجمال إذا ما بدا ترى فيه للعين مستنزَها(٦)
فكم فيه للعين من روضةٍ وكم فيه للنفس من مشتهى

يا حسنَه لمّا أتى بوعد وعلى غير وعد، ويا لذاذةَ قربِه ويا حرارةَ ما ذقناه بعدها من هجرٍ وصدّ(٧)؛ فلم نزل على ذلك مدّةً أغفَى الدهرُ عنّا فيها، أُقضّي حياةً طابت تلذُّذًا وتَرْفِيهًا: [من الطويل]

رعى الله محبوبًا نعمتُ بوصلِه وقد بعدتْ عنّا الغداةَ عيونُ

(١) خامر القلب: خالطه ولازمه.
(٢) التجمُّل: الاعتدال والصبر.
(٣) الهجعة: النومة الخفيفة من أوّل الليل.
(٤) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(٥) التطوّل: التفضّل.
(٦) المستنزه: من الاستنزاه بمعنى التنزّه.
(٧) الصدّ: الإعراض.

حتى شعُر بنا الدهرُ الخؤون، ورماني بسهم فرقةٍ أبعدت ٱلمنى وجلبت ٱلمنون؛ وعلم بما كتمناه الرقيب، وعجَز عن داء قلبي ٱلطبيب: [من الكامل]

لو كان للعشاق حظٌّ في الهوى ... ما كان يُخلَق في الزمان فراقُ

فتجرّعتُ بعد الشُّهد علقمًا، ولَم أستطع أفتحُ[1] من الحزن فمًا؛ وهمتُ في ساحة الشوق والالتياح[2]، وفضحْتني الأدمعُ التي طال بها على المحبِّين الافتضاح: [من الخفيف]

لا جرى اللهُ دمَع عينيَّ خيرًا ... وجرى اللهُ كلَّ خيرٍ لساني
نَمّ دمعي فليس يكتم شيئًا ... ووجدتُ اللسانَ ذا كتمانِ[3]
كنتُ مِثلَ الكتاب أخفاه طيٌّ ... فٱستدَلُّوا عليه بالعُنوانِ

فإذا هو مُرُّ المَذاق، وأمنع الدمعَ فيقول: وهل خبأتني لأعظمَ من يوم الفراق: [من الطويل]

أبَى الوجدُ أن يُخفيه قلبٌ متيّمٌ ... يكابده والدمعُ يبُديه والضَّنى[4]

وكم ذاب القلبُ حسرة، وتَفتّتت ٱلكبدُ في تلك الفَترة؛ على خَلوة أبُثّ فيها حَزَني، وأَفسَح فيها المجالَ الذي ضاق به عَطَني[5]؛ فلم أَظفَر بخَلوة في لمحة بصر، ولا فزتُ بذكر كلمة أفرّج بها ما عرض مِن حَصَر: [من الطويل]

تعرّضتُ من شوقٍ إليه فأَعرضا ... ولولا الهوى لم أمنح ٱلحبَّ مُبغِضا
وبُحتُ إليه أنّ عندي رياضةً ... عليه وما تلك الرِّياضةُ عن رضا[6]
قَضى حبُّه أنّي إذا عزّ في الهوى ... أَذِلّ وإني قد رضِيتُ بما قضَى
لقلبيَ من عينيه سُقْمٌ وصحّةٌ ... فكم مرّة في الحبّ داوَى وأَمرَضا
مضى لي به عيشٌ بكَيتُ لفقده ... وهيهات أن يرتدّ عيشٌ إذا مضى

---

(١) يريد: أن أفتح، فإن في هذه العبارة محذوفة وقد أجاز اللغويون حذفها مع رفع الفعل بعدها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزُمَر: الآية ٦٤] والتقدير أن أعبد.

(٢) الالتياح: في الأصل شدّة العطش من اللوح، والمراد هنا الهيام والعشق لشبههما بالعطش في شدّة الغليل.

(٣) نمّ: أظهر ووشى بما عنده من الشوق. (٤) يكابد: يعاني.

(٥) العطن: الصبر والحيلة عند الشدائد.

(٦) الرّياضة: أراد بها هنا ملازمة المحبوب والإعراض عن كلّ ما سواه.

وبُليتُ برقيب قد سلب ٱلله من قلبه الإيمان، وسلّطه عليّ بغلظ الطباع وفظاظة اللسان؛ كأنه شيطان لا بل هو بعينه، لكنّه أربى[١] عليه في بهتانه ومَينه[٢]؛ يُحاقُّ[٣] على الكلمة الواحدة، ولا يسمح بأن طرفي يمتدّ إلى تلك ٱلمحاسن التي غدت القلوبُ بها واجدة؛ يوَدّ لو غُطِّيَ على بصري، ويبدلني مَغِيبي من مَحضَري؛ لا يَفتِر عن اللَّوم والعَذَل، ولا يرى أن يقضيَ ساعاتِه إلّا في بذل الحيَل؛ يرغب في شتات شملي، وانقطاعِ وصلي؛ وليس لي في دفعه حيلة، ولا في الانتقام منه وسيلة؛ وما زال حتى أحال الحبيب عن ودادِه، وكدر ما صفا من حسن ظنّه وٱعتقادِه؛ وأنا أَرُوض نفسًا كادت تذوب، وأتلّى بأيّام وصاله وأقول: لعلها ترجع وتؤوب: [من الطويل]

لئن ذقتُ مرَّ الصبر أو ملحَ أدمعي لقد أَعذبتْ تلك المَذاقاتُ مَنهلي[٤]

فلم يقنع ٱلدهرُ لي بذلك، ولا رضي بالصدّ والعذل والهجر الذي هو أعظمُ المهالك؛ حتى قضى بالفرقة والبِعاد، ورمتني النوى بسهم فلم يخطىء ٱلفؤاد؛ وكنتُ أتعلّل بالنظر، وأقول: مشاهدة هذا الوجه القمريِّ عندي أكبرُ وطر[٥]؛ حتى مُنِعتُ الوصالَ والمشاهدة، ونَدَبتُ قلبي القريحَ بأدمع عيني ٱلجامدة: [من البسيط]

أحبابَ قلبي لقد قاسَيتُ بَعدكمُ نوائبًا صيّرتْني في الهوى مَثلا
وقد تعجّبتُ أنّي بعد فرقتكم أحيا وأيسرُ ما لاقَيتُ ما قَتَلا[٦]

وٱنقطعتْ عنّي الرسائل، وذهبت لذاذةُ ما ٱعتدتُه من تلك الوسائل: [من الكامل]

هل مُخْبِرٌ عنكم يعيش بقوله ميتُ الرجا والصبرِ بعد إياسِ
أحبابَنا قسمًا بساعة وصلنا لَم أكتحِل من بَعدكم بنعاس
غبتم فعندي بالفراق مآتمٌ فمتى تعود بعَودكم أعراسي

---

(١) أربى: زاد. (٢) المين: الكذب.
(٣) يحاق: من المحاقّة بتشديد القاف، وهي المخاصمة والمنازعة.
(٤) المنهل: المشرب، أو موضع الشرب. (٥) الوطر: الحاجة.
(٦) الشطر الثاني من البيت هو صدر البيت الأول لقصيدة قالها المتنبي في مدح سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي، وتمام البيت:

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جارٍ على صعفي وما عدلا

(ديوان المتنبي ١/٥٩، دار الكتب العلمية).

وذَوَى غصنُ السرور بعد أن كان رطيبًا، وفقدت لنداء ألمي مجيبًا؛ وأغلقتُ بابَ الدَّعة، وأسبلتُ هواطلَ أدمعي قائلًا للأجفان: لا تخشَيْ منفقة من سَعة؛ ولولا التعلّلُ بالذكرى، والتأمّلُ في حسنه الذي تَشكّل[1] في مرآة القلب فسَرَّ سِرًّا؛ لقلت: [من الوافر]

كأنّك قد خَتمتَ على ضميري ... فغيرُك لا يمر على لساني
ولي عينٌ تراك وأنت تَنآى ... كما ترنو إليك وأنت داني
وأقربُ ما يكون هواك منّي ... إذا ما غاب شخصُك عن عِياني
شَغلتَ عن الورى بصري وسمعي ... كأنهما بِحبِّك مفرَدان
فها أنا لا أعاين ما بدا لي ... سواك ولا أُصِيخ لمن دعاني[2]

ثم إنّي فارقتُ الحياة، وبذلتُها راغبًا في هواه؛ ولم أزل كذلك إلى أن ظهرت آثار قربِه، وسَرَى النسيمُ عِطرًا فعلمتُ قربَ ركبِه: [من الطويل]

وأذكرني ذاك الصَّبا زمنَ الصِّبا ... وما الشوقُ إلا ما تَجدَّدَ بالذكرِ[3]

فكاد قلبي يطير للقائه، ولولا تستُّرهُ بحُجب الفؤاد لخرج من قوّة بُرَحائه؛ وتذكرتُ كيف يكون اللقاءُ والاجتماع، والرقباءُ قد أزمعوا على المنع والدِّفاع، وقلتُ: فارقَني على غير رضا، وجفاني من غير ذنب، ونآى عنّي من غير وداع؛ وهأنا في غيابه وحضورِه، وسخطه وسرورِه؛ لا أَحُول عن ودِّه، ولا أَرى إلا الوفاء بعهدِه: [من الكامل]

هيهات ما وجدي عليك بزائل ... فإلام يُطنِب في الملامة عاذلي
ناشدتك العهدَ القديمَ ويومَنا ... بِلوى الصَّريم وبانِه المتمايلِ[4]
هل تعلمنّ سوى هواك وسيلةً ... تدني رضاك وقد جهلتُ وسائلي
أدنَيتَني حتى إذا تيّمتَني ... بمحاسنٍ ومعاطفٍ وشمائلِ[5]

---

(١) تشكّل: من المشاكلة وهي المشابهة، ويريد بتشكّل: تصوّر وتمثّل.
(٢) أصيخ: استمع وأصغي.
(٣) الصَّبا بالفتح: ريحٌ مهبّها من مطلع الثريّا إلى بنات نعش، والصِّبا: الشباب وفي الكلام جناس تام.
(٤) اللّوى: ما التوى وانعطف ومال من الرّمل، والقرين: القطعة المحدودبة من الرّمل، والبان: شجر لين ورقه طويل وزهره أبيض، والتمايل: المنثني.
(٥) المعاطف: أراد بها مواضع الانثناء من الجسد كالخاصرتين والجيد.

وبحسنِ وجهٍ لو تَجَلَّى في الدجى سجد الصباحُ لضوئه المتكاملِ[١]
ونواظرٍ سحّارةٍ لجفونِها فضلُ الصناعة لا لساكنِ بابلِ[٢]
ووقعتَ من قلبي بودٍّ قد جرى مَجرَى دمي بجوانحي ومفاصلي[٣]
قاطعتني وسمعتَ قول حواسدي وصرمتَ من بعد الوصال حبائلي[٤]
ولربَّ ليلٍ بتُّ فيه مسهّدًا فردًا أسامر لوعتي وبلابلي[٥]
أطوي على حرّ الغرام أضالعًا يُطوَين فيه على قداح النابل[٦]

وها أنا أترقّب وصلَه، وأتوقّع عدلَه: [من الكامل]

أتراه من جَور الصبابة ينصفُ ويرقّ للعاني عليه ويَعطفُ
صبٌّ يرى السُّلوانَ عنه محرَّما فله إليه تولّهٌ وتلهُّفُ[٧]
يا أهل كاظمةٍ وحقِّ هواكمُ قسمًا بكم وبغيركم لا يُحلَفُ[٨]
مشتاقُكم ألِفَ الصبابة فيكمُ فكأنه لسواكمُ لا يَعرفُ
فعِدوه منكم بالوصال تعلّةً ولكُمْ بأن تعِدوا الوصال ولا تفوا
وحياتَكم يرعاكمُ في بُعدكم ولقربِكم في بُعدكم يَتشوّفُ[٩]

---

(١) الدّجى: الظّلماء.
(٢) المراد بالصناعة: صناعة السّحر، وبابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلّة ينسب إليها السّحر والخمر، وهو يشير هنا إلى الآية الكريمة: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢] .
(٣) في الأصول: حوى، والصّواب ما أثبتناه لأن السّياق يقتضيه والجوانح: ما انضمّت عليه الضلوع.
(٤) الحبائل: الأسباب والعهود واحده حبال جمع حبل.
(٥) البلابل: مفردها البلبال وهو شدّة الهمّ والوسواس.
(٦) القداح هنا: السّهام على طريق التجوّز في استعمال اللفظ، والقداح: هي السّهام قبل أن تراش وتركّب فيها النصال، والنّابل: الرّامي بالنّبل.
(٧) الصّبّ: الذي رقّ واشتاق، والتولّه: التعلّق.
(٨) كاظمة: جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. (معجم البلدان ٤/ ٤٣١).
(٩) وحياتكم: نصب هذا اللفظ على الظرفيّة أي أنّه يرعاكم ويتشوّف لقربكم ما حييتم، ولا يجوز الإعراب بالكسر على القسم لأن الفعل بعده لا يصلح أن يجعل جوابًا له لعدم تأكيده باللام والنّوم، ويتشوّف: تزيّن وطمح.

وليس لي ما أُمتّ به إلا صِدقُ الغرام، والإقدامُ في حبه على ارتكاب[١] الحِمام[٢]: [من الكامل]

جـدِّدْ عـهـودَ تـواصُـلٍ وتَـلاقِ ... وٱستبقِ لي رمقًا فليس بباقِ[٣]

وٱشفَع إلى ما رقّ من تَرف الصِّبا ... من وجنتيك برقّة الأخلاقِ[٤]

ما حقُّ ذي قلبٍ صفا لك ودُّه ... تـقـطـيـعـه بـقـطـيـعـةٍ وفـراقِ

مع ذا وذا كيف استَهَنتَ فكن أنا الـ ... ـموثوقُ بي مولاي في الميثاقِ[٥]

قال الراوي: فسمع شكواي وما أَشكَى[٦]، وقابل رقّتي بجفوة بها القلبَ أَنكَى[٧] والطرفَ أَبكَى؛ ولفق أعذارًا، وأقسمتُ عليه أن يزُور فلم ير لقسمي إبرارًا.

هذا ما ٱتّفق إيرادُه من كلامه ـ أدام الله علوَّه ـ في هذا الموضع، وسنورد إن شاء الله من كلامه أيضًا ما تقف عليه في آخر فن الحيوان في السفر الذي يليه إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من إنشاء المولى الفاضل الصدرِ الكبيرِ الكامل؛ البارعِ الأصيل، الأوحدِ النبيل؛ تاجِ الدين عبد الباقي بنِ عبد المجيد اليماني

هو الذي أتقن صناعة الأدب في غرّة شبابِه، وبرَّز[٨] على من ٱكتهل في طلبِها وشابَ في الترقّي إلى رتبِها، فما ظنُّك بأترابِه؛ وجارَى ذوي الفضل في الأقطار اليمنيّة فطلع مُجَلِّيَ[٩] الحَلْبة، وبارَى نجباءَ الأفاضل بالمملكة التَّعزِّيّة[١٠] وكان المؤمَّلُ[١١] منهم بالنسبة إليه أرفعَهم رتبة؛ وسما إلى سماء البلاغة فكان نجمَها الزاهر، وٱرتَقى

(١) يقال ركبه وارتكبه كلاهما بمعنى واحد. (٢) الحمام: قضاء الموت وقدره.

(٣) الرمق: بقية الروح. (٤) الصِّبا: الحداثة في السنّ.

(٥) أي أنات الموثوق بي منك، وقوله: أنا الموثوق بي: خبر لقوله (كن).

(٦) يقال: أشكى فلان فلانًا، إذا أزال شكواه. (٧) يقال: نكأ القرحة، إذا قشرها بعد البرء.

(٨) برّز الرجل: فاق أصحابه فضلًا. (٩) المجلّي من الخيل: السابق في الحلبة.

(١٠) التعزية: نسبة إلى تعز بفتح التاء وكسر العين وتشديد الزاي، وهي قاعدة اليمن. وقيل: إنها مدينة عظيمة ذات أسوار وقصور، كانت دار ملك بني أيوب ثم بني رسول من بعدهم. (انظر صبح الأعشى ٥/٧، دار الكتب العلمية).

(١١) المؤمل: الثامن من خيل الحلبة.

إلى أفلاك البراعة فكان نيّرَها الباهر، ورام مَن سواه الارتقاءَ إلى محلّه والمناوأة[١] لفضله فغدا وهو في ذيول حَيرته عاثر؛ فعند ذلك علموا عجزَهم عن إدراك غاياتِه، واعترفوا بالتقصير عن مجاراته ومباراتِه؛ وحين لم يجد لفضله مُجاريًا، ولا عاين لفضائله مُباريًا؛ صار بها كالغريب وإن كان في أهله ووطنِه، والفريد مع كثرة أبنائه وإخوان زمنِه؛ فسمت به نفسُه إلى طلب العلوم من مَظانّها[٢]، والاحتواء عليها في إبّانِها؛ واللّحاقِ بأعيان أهلِها، والاختلاطِ بمن ٱرتدى بأردية فضلِها؛ ورؤيةِ من توشّح بقلائدِها، وترشّح[٣] لبذلِ فوائدِها ونظمِ فرائدِها؛ ففارق الأقطارَ اليمنيّةَ وهي تسأله التأنّي، وتَبذُل لرضاه الرغبةَ والتمنّي؛ وهو لا يجيب مناديَها ولا يعرّج على ناديها، ولا يميل إلى حاضرها ولا ينظر إلى باديها؛ وصَرف وجهَه عنها، ونفض يدَه منها؛ وٱلتَحق[٤] بالديار المصريّة، وٱنبتّ[٥] في طلب العلوم بأجمل سريرةٍ وأحسنِ سيرةٍ وأخلصِ نيّة؛ فبلغ فيها مناه، وأدرك بها ما تمنّاه، وغدا وثغرُ فصاحته بالعلوم أشنَب[٦]، وبُردُ بلاغته بالآداب مُذْهَب: [من الطويل]

تَناهَى علاءً والشبابُ رداؤه فما ظنُّكم بالفضل والرأسُ أَشيَبُ

ولما عاينه أعيانُ أهلِ هذا الوادي، وشاهدوه يُبكّر في طلب العلوم ويُغَادِي[٧]؛ تلقّوه بالإكرام والترحيب، وقابلوه بالتبجيل والتقريب، وأنزلوه بالمحلّ الأرفع والفِناءِ الخصيب؛ وعاملوه بمحض الوداد، وساواه شبابُهم بالإِخْوةِ ومشايخُهم بالأولاد؛ وخلطوه بالنفس والمال، وظهر له في ٱبتداء أمرِه بقرائن الأحوال حسنُ المآل؛ فأصبح من عُدول المصر، وأمسى وهو من أعيان العصر؛ فشكر عاقبةَ مَسيرِه وحَمِد صباحَ سُراه، وأجابه لسانُ الفضائل بالتّلبيةِ لَمّا دعاه؛ ثم ٱرتحل إلى الشأم فجعل دِمَشقَ مَقرَّ وطنِه، وموطنَ سَكنِهِ؛ ومحلَّ ٱستفادته وإفادتِه، ونهايةَ رحلته وغاية إرادتِه، فعامله أهلُها بفوق[٨] ما في نفسِه، فحمد يومَه بها على أمسِه؛ وغدا لأهل المصرين شاكرًا،

---

(١) المناوأة: المفاخرة والمعارضة.
(٢) المظانّ: المراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.
(٣) ترشّح: تهيأ وتأهل. (٤) التحق به بمعنى لحق، كلمة مولدة.
(٥) إنبتّ: انقطع، أي انقطع عن الشواغل في طلب العلوم.
(٦) الأشنب: الثغر الذي رقّت أسنانه وابيضّت. (٧) يغادي: يذهب باكرًا.
(٨) كذا ورد هذا اللفظ مجرورًا بالباء، والذي في كتب اللغة: أن «فوق» و«تحت» من الظروف غير المنصرفة، فجرّهما بالباء غير سائغ، وأجاز بعض اللغويين تصرّفهما في نحو «فوقك»: رأسك، وتحتك: رجلاك برفع فوق وتحت على الابتداء...

ولمناقبِهم تاليًا ولمحاسنِهم ذاكرًا؛ وله من النظم ما رقَّت حواشيه[١]، وراقت معانيه؛ ومن النثر ما عَذُب وصَفا، وكَمَلُ بلاغةً ولطفًا؛ وحسُن إعجازًا، وتَناسَب صدورًا وأعجازًا؛ وقد قدّمنا من كلامه في هذا الكتاب ما بأسمه ترجمناه، ولفضائلِه نسبناه؛ مما تقف عليه في مواضعِه، وتغتذي بلِبان مَراضعِه؛ فلنورد له في هذا الباب غيرَ ما تَقدَّم إيرادُه وما تأخَّر، ونأخذ لتصنيفنا من بلاغته بالنصيب الأوفَى والحظّ الأوفَر.

فمن إنشائه كتاب عن الخليفة المستكفي بالله أميرِ المؤمنين أبي الربيع سليمان لِمَلك[٢] اليمن ـ عمِلَه تجربةً لخاطره عند ما رُسم بمكاتَبته، ابتداه بأن قال:

أما بعد حمد الله مانِح القلوبِ السليمةِ هداها، ومرشِد العقولِ إلى أمر معادها ومبتداها؛ وموفِّقِ من أختاره إلى مَحَجّة صوابٍ لا يضلّ سالكُها، ولا تُظلم عند اختلاف الأمور العظام مسالكُها؛ وملهِمِ من أصطفاه أقتفاءَ آثارِ السنن النبويّة، والعملَ بموجب القواعد الشرعيّة؛ والانتظامَ في سلك من طوّقَته الخلافةُ عقودَها، وأفاضت على سُدّته[٣] الجليلةِ بُرودَها؛ وملّكته أقاصيَ البلاد، وناطت[٤] بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد؛ وسارت تحت خوافق أعلامه أعلامُ الملوك الأكاسرة، وسَرتْ بأحكامه النيّرةِ مناجحُ الدنيا ومصالحُ الآخرة؛ وتَبختَر كلُّ منبر من ذكرِه في ثوبٍ من السيادة مُعْلَم، وتهلّلت من ألقابه الشريفةِ أساريرُ كلِّ دينار ودرهم؛ يحمده أميرُ المؤمنين على أن جعل أمورَ الخلافة ببني العباس مَنُوطة، وجَعَلَها كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ إلى يوم القيامة مَحُوطة؛ ويصلّي على أبن عمه محمدٍ ٱلذي أخمد الله بمبعثه ما ثار من الفتن، وأطفأ برسالته ما أضطَرم من نار الإحَن[٥]؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حَموا حِمى الخلافة فذادوا عن موارِدها، وتجهَّزوا[٦] لتشييد المعالم الدينيّة فأقاموها على قواعدِها؛ صلاةً دائمةَ الغدوِّ والرواح، متصلًا أوّلُها بطرّة[٧] الليل وآخرُها بجبين

---

(١) الحواشي: مفردها الحاشية وهي ما كتب على الكتاب من الشروح والتعليقات ويريد بالحواشي هنا: الأبيات، وحاشية الثوب: جانباه وعيشٌ رقيق الحواشي: أي ناعم في دعة وحشو البيت من الشعر: أجزاؤه غير عروضه وضربه.

(٢) في (صبح الأعشى ٦/ ٤١٠) أن المكتوب إليه بهذه الرسالة هو الملك المؤيّد هزبر الدّين داود بن الملك المظفر صلاح الدين يوسف بن رسول...

(٣) السدّة: ما يجلس عليه أو ما يصعد عليه كالمنبر والسرير.

(٤) ناطت بأحكامه: علقت بها.

(٥) الإحن: واحدتها الإحنة، وهي الحقد والضغينة.

(٦) تجهزوا: تهيأوا.

(٧) طرّة الليل: طرفه الذي يبتدىء فيه.

الصباح؛ هذا وإن الدين الذي فرض الله على الكافّة الانضمامَ إلى شعبِه، وأطلع فيه شموسَ هداية تشرق من مشرقه ولا تغرُب في غربِه؛ جعل الله حُكمَه بأمرنا مَنُوطًا، وفي سلك أحكامنا مخروطًا[١]؛ وقلّدَنا من أمر الخلافة سيفًا طال نجادُه، وكثُرَ أعوانُه وأَنجادُه[٢]؛ وفوّض إلينا أمرَ الممالك الإسلاميّة فإلى حرمِنا تُجْبَىٰ ثمراتُها، ويُرفَع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتُها؛ يخلّف الأسدُ إن مضى في غابه شبلَه، ويُلْفى في الخُبْر والخَبَرِ مِثلَه؛ ولما أفاض الله علينا حلّةَ الخلافة، وجعل حرمَنا الشريفَ محلَّ الرحمة والرأفة؛ وأقعَدَنا على سُدّة خلافة طالما أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وٱبتَهجتْ بالسادة الغطاريف[٣] من أسلافِنا؛ وألبسَنا خلعةً هي من سواد السؤدُد مصبوغة، ومن سوادِ العيون وسُوَيداواتِ القلوب مَصُوغة؛ وأمضَينا على سُدّتنا أمورَ الخاصِّ والعامّ، وقلّدْنا أربابَ الكفاية كلَّ إقليم من عملنا ممن تَصلُح سياستُه على الدوام؛ وٱستكفَينا بالكُفاة من عمّالنا على أعمالنا، واتخذنا مصرَ دارَ مُقامنا، وبها سُدّة مقامنا لما كانت في هذا العصر قبّةَ الإسلام، وفَيئةَ الأنام، وثانيةَ دارِ السلام؛ تَعيّن علينا أن نتصفّح جرائد عمّالِنا، ونتأمّل نظامَ أعمالِنا؛ مكانًا فمكانًا، وزمانًا فزمانًا؛ فتصفّحناها فوجدنا قطرَ اليمن، خاليًا من ولايتنا في هذا الزمن، والعادةُ مستمرّةٌ بأن لم تزل نوّابُنا في بلاد اليمن؛ عَرّفَنا هذا الأمرَ مَن اتخذناه للممالك الإسلاميّة عينًا وقلبًا، وصدرًا ولبًّا[٤]؛ وفوّضنا إليه أمرَ الممالك الإسلامية فقام فيها قيامًا أقعد الأضداد، وأَحسَن في ترتيب ممالكنا نهايةَ الإصدار وغايةَ الإيراد؛ وهو السلطان الأجلُ السيّدُ الملكُ الناصر، لا زالت أسبابُ المصالح على يديه جارية، وسحائبُ الإحسان من أُفق راحته[٥] سارية، فلم يُعِدَّ جوابًا لما رسمناه، ولا عذرًا عما ذكرناه؛ إلا تجهيزَ شِرْذِمَةٍ من جحافله المنصورة، وتعيينَ أناس من فوارسه المذكورة؛ يقتحمون الأهوال، ولا يَعبأون بتغيّرات الأحوال؛ يَرون الموتَ مغنمًا إن صادفوه، وشَبا[٦] المُرهَف مكسبًا إن صافحوه؛ لا يشربون سوى الدماء مدامَة، ولا يلبسون غيرَ التّرائِك[٧] عمامة؛ ولا

---

(١) مخروطًا: استعمل الناس كثيرًا الانخراط بمعنى الانتظام والدخول، وقالوا: خرطت الجواهر: جمعتها في الخريطة، فتجوّزوا بذلك عن جعلها في العقد. . .

(٢) الأنجاد: الشجعان الماضون فيما يُعجز غيرهم، واحده «نجِد».

(٣) الغطاريف: من الناس أشرافهم وسراتهم. (٤) اللبّ: العقل.

(٥) الراحة: باطن الكفّ الذي لا ينبت فيه الشعر.

(٦) الشبا: الشباة: حدّ السيف أو طرفه.

(٧) الترائك: جمع تريكة، وهي بيضة الحديد التي تلبس على الرأس في الحرب.

يَعرِفون طربًا إلا ما أَصدَرَه صَليلُ[١] الحسام من غِنا، ولا ينزلون قفرًا إلا وأنبَت ساعةَ نزولهم عن صَهوات خيلهم قَنا؛ ولما وثقنا منه بإنفاذهم راجَعْنا رأيَنا الشريفَ فاقتَضى أن نكاتب مَن بَسَط يدَه في ممالِكِها، ومَلَك جميعَ مسالِكِها؛ واتخذ أهلَها خَوَلًا[٢]، وأَبدى في خلال ديارها مِن عدم سياسته خَلَلًا؛ فبرز مرسومُنا الشريفُ النبويُّ أن نكاتب من قعد على تخت مملكتِها، وتصرَّف في جميع أمور دولتِها؛ فطُولع بأنه ولدُ السلطان الملكِ المظفَّرِ يوسفَ بنِ عمر الذي له شُبهةُ تمسُّكٍ بأذيال المواقف المستعصميّة[٣]، وهو مستصحِبُ الحالِ على زعمِه، أو ما علم الفرقَ بين الأحياء والأموات؟ أو ما تَحقَّق الحالَ بين النفي والإثبات؟ أصدرناها إلى الرِّحاب التَّعِزيّة[٤]، والمعالِم اليمنيّة؛ تُشعِر من تَولَّى فيها فاستبدّ، وتَولَّى كبرَه فلم يعرِّج على أحد؛ أنّ أمر اليمن ما برحتْ حكّامُنا ونوّابُنا تحكم فيه بالولاية الصحيحة، والتفويضاتِ التي هي غيرُ جريحة؛ وما زالت تَحمِل إلى بيت المال المعمورِ ما تمشي به الجمالُ وئيدًا[٥]، وتَقذِفه بطونُ الجواري[٦] إلى ظهور اليَعْمَلات[٧] وليدًا؛ وتُطالِعُنا بأمر مصالحه ومفاسِده، وبحال معاهده ومقاصدِه؛ ولك إسوةٌ بوالدك السلطان الملكِ المظفَّر، هلّا اَقتَفَيتَ ما سنّه من آثارِه، ونقلتَ ما دوّنته أيدي الزمن من أخبارِه؛ واتصل بمواقفنا الشريفة أمورٌ صدرت منك: منها ـ وهي العظمى التي تَرتَّب عليها ما تَرتَّب ـ قطعُ الميرة[٨] عن البيت الحرام، وقد علمتَ أنه وادٍ غيرُ ذي زرع، ولا يحلّ لأحدٍ أن يَتطرّق إليه بمنع؛ وكفتك الآيةُ[٩] دليلًا على ما صنعت، وبرهانًا على ما فعلت؛ ومنها اَنصبابُك[١٠] على تفريغ مال بيت المال في شراءِ لهوِ الحديث، ونقضُ العهود القديمة

(١) الصليل: صوت الرنّ من مقارعة السيوف.

(٢) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الاتباع والحشم.

(٣) المستعصميّة: نسبة إلى المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، وهو الذي قتله هولاكو ملك التتار.

(٤) التعزية: نسبة إلى تعز وهي قاعدة اليمن.

(٥) يقال: مشى مشيًا وئيدًا، أي على تؤدة وتأن؛ المراد أن ثقل ما تحمله هذه الجمال قلل من خطوها.

(٦) الجواري: المراد بها السفن.

(٧) اليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل.

(٨) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٩) المراد بالآية قوله تعالى: حكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله تعالى عليه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

(١٠) يقال: انصب البازيّ على الصيد، إذا انقضّ عليه.

بما تبديه من حديث؛ ومنها تعطيلُ أجياد المنابر من عقود آسمِنا، وخلوُّ تلك الأماكن من أمرِ عقَدِنا وحَلِّنا؛ ولو أوضحنا لك ما آتصل بنا من أمرك لطال، ولا اتّسعتْ فيه دائرة المقال؛ رسمنا بها والسيفُ يَوَدّ لو سبق العلم حدُّه، والعلَمُ المنصور يحب لو فات القلمَ وآهتزَّ بتلك الروابي قدُّه[١]؛ والكتائبُ المنصورةُ تَختار لو بَدَرت[٢] عُنوانَ الكتاب و[أهلُ][٣] العزم والحزم يَوَدّون إليك إعمالَ الرِّكاب؛ والجواري المنشآتُ قد تكوّنت من ليلٍ ونهار، وبَرزت كصور الفِيَلة[٤] لكنها على وجه الماء كالأطيار، وما عَمدْنا إلى مكاتبتك إلا للإنذار، وما جنَحْنا[٥] لمخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقلِعْ عما أنت بصدده من الخيلاء[٦] والإعجاب، وآنتظِم في سلك من آستخلفناه على أعمالنا فأخذ بيمينه ما أُعطِيَ من كتاب؛ وصُن بالطاعة نفوس من زعمتَ أنهم مقيمون تحت لواء علمِك، ومنتظمون في سلك أوامر كَلِمك، وداخلون تحت طاعة قلمِك؛ فلسنا نَشُنّ الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبُه، وآمتثل أوامرَ الله المطاعةَ عقله ولبُّه؛ ودان[٧] الله بما يجب من الدِّيانة، وتقلّدَ عقود الصلاح وآلتحف بمطارف[٨] الأمانة؛ ولسنا ممن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه خرج عن طاعتِنا، ورفض كتابَ الله ونزَعَ عن مبايعتِنا؛ [فأصدرنا][٩] مرسومنا هذا إليه يَقصّ عليه من أنباء حلمنا ما أطال مدّة دولتِه، وشيَّد قواعدَ صولتِه؛ ويَستدعِي منه رسولًا إلى مواقفنا الشريفة، ورحابِ ممالكنا المنيفة[١٠]؛ لينوب عنه في قبول الولاية مَنابَ نفسِه، وليجني بعد ذلك ثمارَ شفقاتنا إن غرس شجرَ طاعتنا ومن سعادة المرء أن يجني ثمارَ غرسِه؛ بعد أن يُصحِبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمةً وخفَّ حملًا، وتَغالى[١١] في القيمة رتبةً وحسُن مِثْلًا؛ وآشرُط

---

(١) القدّ: القامة أو القوام.

(٢) يقال: بدرت فلانًا إلى الأمر: إذا سابقته إليه.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).

(٤) في الأصل وصبح الأعشى «الأفيلة» ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة فأثبتنا الصواب.

(٥) جَنح: مال.

(٦) الخيلاء: التكبُّر والعجب.

(٧) دان الله: أطاعه وخضع وانقاد...

(٨) المطارف: في الأصل وصبح الأعشى ٦/ ٤١٤) «مطارف» بإسقاط الباء، واللّغة تقتضي زيادتها، والمطارف: مفردها «المطرف» وهو رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام.

(٩) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).

(١٠) المنيفة: المشرفة.

(١١) تغالى: ارتفع، قيل: كل ما ارتفع فقد غلا وتغالى. (انظر تاج العروس).

على نفسك في كل سنة قطيعةً[(١)] ترفعها إلى بيت المال، وإيّاك ثم إيّاك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال؛ ورتّب جيشًا مقيمًا تحت لواء علم السلطان الأجلّ الملكِ الناصرِ للقاء العدوّ ٱلمخذول التتار، ألحق الله أوّلهم بالهلاك وآخرهم بالبوار[(٢)]؛ وقد علمتَ تفاصيل أحوالهم المشهورة، وتواريخَ سِيَرهم المذكورة؛ وٱحترِصْ[(٣)] على أن يخصك من هذا ٱلمشرب السائغ أوفى نصيب، و[أن تكون][(٤)] ممن جهّز جيشًا في سبيل الله فرمَى بسهم فله أجرٌ كان مصيبًا أو غيرَ مصيب؛ ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدِها وتشاريفِها حاملًا أهلّةَ أعلامنا المنصورة، شاكرًا برَّ مواقفنا المبرورة؛ وإن أبى حالُك[(٥)] إلا أن ٱستمررتَ على غيِّك، وٱستمرأتَ مرعى بَغيِك؛ فقد منعناك التصرّف في البلاد، والنظرَ في أحكام العباد؛ حتى تطأُ خيلنا العتاقُ مشمخرّاتِ[(٦)] حصونِك، وتعجّل حينئذ ساعة منونك؛ وتُمسِي لهَوادي[(٧)] قِلاعِك عقودًا، ولعرائِس حصونك نهودًا[(٨)]؛ وما علّمناك غير ما علمه قلبُك، ولا فهّمناك غير ما حَدَسَه[(٩)] لبُّك؛ فلا تكن كالصغير تزيده كثرةُ التحريك نومًا، ولا ممن غرّه الإمهالُ يومًا فيومًا؛ وقد أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه، موفَّقًا إن شاء الله تعالى؛ والحمد لله وحده.

ومن إنشائه تقليد السلطان الملك الناصر لما ترك ٱلديار المصرية وأقام بالكَرَك[(١٠)] ـ وكُتِب له بذلك من ديوان الإنشاء عن الملك المظفَّر ركنِ الدين، فلم يمكن الكاتب الإطناب، ولا وَسِعَه غيرُ الاختصار، فلم يُرضه الكتاب، وعَمِلَ جماعةٌ منهم في ذلك تجرِبةً لخواطرهم ولم يُكتَب بشيء منها فعمِلَ هو ـ:

الحمد لله مدبّرِ الأمر على ما يشاء في عبادِه، ومنقِّلِ الحالِ على حكم ٱختياره ووَفِق مرادِه، ومُجرِي أسبابِ الممالك على يد من ٱختاره من عباده لإصدارِ الأمر

---

(١) القطيعة: الضريبة والوظيفة.
(٢) البوار: الهلاك.
(٣) يقال: احترص واحرص، من الحرص، وهو الحذر والاحتراس.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).
(٥) الحال: تذكّر وتؤنّث.
(٦) المشمخرات: التي اشتدّ ارتفاعها.
(٧) الهوادي: الأعناق مفردها «الهادية».
(٨) النهود: مفردها «النّهد» وهو الثدي.
(٩) الحدس هنا: اليقين، وحَدَس: ظنّ ظنًّا مؤكّدًا.
(١٠) الكرك: اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء، في جبالها بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدس، وهي على سنّ جبلٍ عال، تحيط به أودية إلّا من جهة الرّبض. (معجم البلدان ٤/ ٤٥٣).

وإيرادِه، ومجيبِ من أصبح قاصدًا بابَه الشريفَ والزهادةُ فيما حوله مِن ٱعتقادِه، ومعزٍّ من أضحى له من حِقونا[١] ركنٌ ٱستَنَد إليه الدهرُ في ٱستنادِه، يلبّي دعوة مرامه[٢] حيث كان من بلادِه؛ ويجيب داعيَ نِداه وإن بعد فيكون أقربَ من سرِّه إلى فؤادِه؛ يَذُبّ[٣] عن حَوزة نسائه ببِيض مرهَفاته وسمرِ صِعادِه[٤]، ويحمي بيضة جاهه[٥] بالغُلْب من أشياعِه والجُرْدِ[٦] من جِيادِه؛ نحمده على أن جعل مُوالاتَنا لهذا البيت الشريف المنصوريِّ تستديم عهودَه، وتَلتحف من المحافظة على مَراضيه الشريفة في كلِّ حالٍ بُرودَه؛ وتَرِد من القيام بواجب حقّه أَعذبَ منهل شَرَعه الصفاءُ وسَنّه، وأكّد مُوالاتَه ٱلوفاءُ وحسنُ ٱلوفاء من شعار أهل السُّنّة؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تَرفع أعلامَ الهدى بكَلِمها، وتُخمِد نارَ الشرك بنور هداية عِلْمها وعَلَمِها، وتطهّر أديمَ البسيطة من أرجاس[٧] الكفرة بالحدّين من غَرْبَيْ[٨] صَمصامها[٩] وقلمِها، وتُروِي كلَّ قُطر أصبح ماحلًا من قَطرَيْ عدلها ونعمِها؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي كانت الزهادة مِلاكَ أمره و[الملوك][١٠] تحت وطأة أقدامِه، والملائكةُ يحفُّونه[١١] مِن حوله[١٢] ومن أمامه، ومعادنُ الذهب تُعرَض عليه فيساوِي لديه لزهادته بين نُضارِه ورَغامه[١٣]؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تُحاكِي أرجَ الصَّبا وقد سرَى عن خزامِه[١٤]، وتُضاهِي فَتيقَ المسك[١٥] وقد تنفّس عن ختامِه، مشفوعةً إلى يوم القيامة برضوانه وسلامِه؛ وبعد، فإنه لما كان المقامُ العالي الملكيُّ الفلانيُّ هو الذي ربّته الممالكُ في حجرها وليدًا، وخوّلته السلطنةُ الشريفةُ من نفائس ذخائرها طارفًا وتليدًا؛ وبوّأته من مراتب

---

(١) الحقو هنا: الجناب الذي يستجار به ويلتجأ إليه، وهو مجاز.
(٢) المرام: المطلب. (٣) يذبّ: يدافع.
(٤) الصعاد: مفردها الصعدة وهي القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تقويم.
(٥) بيضة جاهه: يريد دياره وحماه.
(٦) الجرد: الخيل، مفرد «أجرد» وهو من الخيل ما كان شعره قصيرًا رقيقًا.
(٧) الأرجاس: مفردها الرّجس، وهو الشيء القذر، واللّعين.
(٨) الغرب: الحدّ، وغرب السيف: حدّه. (٩) الصمصام: السّيف.
(١٠) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق. (١١) يحفّونه: يحيطون به ويحدقون.
(١٢) لعله يريد من «خلفه» لأنه قال بعد ذلك «ومن أمامه».
(١٣) الرّغام: التراب.
(١٤) الخزامى: عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق زهرها أحمر، طيّبة الرّيح لها نورٌ كنور البنفسج.
(١٥) فتيق المسك: ما استخرجت رائحته بشيء آخر تدخله عليه.

العز أقصى غاية لا ترام، وأبادت بمرهفه البتّار جمعَ التتار الطَّغام[١]؛ واْستخدمتْ لطاعته جيشَين: جيشَ نهارٍ بَكّر فيه مواليه على أعدائه بسابِق خيلِه ومرهَفِ حسامِه، وجيشَ ليلٍ تَبسُط أولياءُ دولته أكُفَّهم للدعاء ببقائه في جنح ظلامِه؛ طالما هزّت المنابرُ أعطافَها طربًا عند ذكر اْسمِه، واْزدادت وسامةُ الدّينارِ حُسنًا لمّا شرّفها بحسن وسْمِه ورسْمِه؛ وتلت أوصافَ بأسه ألسنةُ خرصانِه[٢]، ورجعتْ سوابقُ الهمم عن التطاوُل للمطاوَلة في مَيدانِه، وقالت فوارس الحروب لمّا رأت كرّه: هذا سِباق لسنا من رهانِه؛ كم فرّق بجيشه اللُّهامِ[٣] جيشًا أرمَدَ جفنَ الشمس بقتامِه، ونصرَ الأحزابَ يوم الكريهة بالعاديات من خيله والمرسَلاتِ من سهامِه، فالدهرُ يشكر مواقفَ إقدامِه، والعدلُ ينشر منشور فضله وسديد أحكامِه؛ والممالكُ تُثنِي على عليائه بالسَداد، والمسالكُ تُهدي لسالكها ما خصّها به مِن أمنها المعتاد؛ والناسُ في ظلّ عدلٍ لياليه [خُلِقَتْ][٤] كما شاءوا أسحارًا، والوحشُ والغنمُ كلٌّ منهما قد جعل صاحبَه جارًا؛ ومواطنُ العلوم أمست تطرّز بمحاسن أوصافِه، وحُكّام الشرع الجليل أضحت تَمِيس في حلل عدله وإنصافِه؛ والأماكنُ التي تُشَدّ لها الرحالُ يفترّ ثغرها عن عدلِه، والمشَاعرُ المعظَّمةُ قد حمى حَوزتها بالسهم من نصلِه والشهم من رَجْلِه[٥]؛ تَنقَّل في مراتب الملك صغيرًا إلى أن اْشتدّ بالعزم القويّ كاهلُه، واْستوطن ربعَ العزّ مذ كان يَجتلِي بدورَه وتجتليه عقائلُه؛ فلم تَبقَ له مَأرُبةٌ إلا قضاها، ولا حالةٌ إلا ابتلاها، ولا غمّةٌ إلا جلاها، ولا آيةُ شكر إلا تلاها؛ إلى أن قمع بحدّ سيفه كلَّ مُجتري، وقال للسحابة كما قيل: اْمطِري[٦]؛ رأى أن المواردَ الدنيويّة لا بدّ لها من مصادر، وأن أوائلَ الأمور تَستدعِي الأواخر، وأن للزهادة في الدنيا وإن عظُم قدرُها الشأنَ الكبير، وأن الانقطاعَ إلى الله تعالى مَنهلُ

(١) الطغام: أرذال الناس وأوغادهم.
(٢) الخرصان: جمع خرص بكسر الخاء وضمّها وهو سنان الرمح.
(٣) اللُّهام: الجيش الكثير، لأنّه يلتهم كلّ شيء.
(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق كما تقتضيها اللغة والسجع، وقد استنسبنا زيادة هذا اللفظ اعتمادًا على بعض رسائل القاضي الفاضل التي وردت في هذا السفر ص ٢٠ السطر السابع ط. دار الكتب إذ قال: والليالي التي طابت فكأنّما خلقت جميعها أسحارًا. . .
(٥) الرّجل: الجيش والجند.
(٦) يشير بهذه العبارة إلى قول بعض الخلفاء، ويعزى إلى هارون الرشيد الذي رأى سحابة تسير في الأفق ملأى بالمطر فقال: امطري حيث شئت فإن ما تنبتينه سيجيء إلينا. . . يريد أنّ مملكته واسعة الأطراف. . .

صفو لا يَقبل شوائبَ[١] التكدير؛ وقويَ عزمُه في الرّحلة عن مَقرّ ملكه إلى أعزّ حصونه المنيعة، بل إلى أجلّ معاقله الشامخة الرفيعة؛ قاصدًا بها الانفراد، عالمًا بأن الله يطلع على خفيّات الفؤاد؛ فرحل ركابُه العالي ونظامُ المملكة من حُسن الهيئة قائم على ساق، وقلوب كفّال الممالك الشريفة متّفقةٌ على الاتفاق؛ واثقًا بأن للمُلك من أولياء بيته الشريف كلَّ وليِّ عهدٍ لا تُخفَر لديه الذمم، وكلَّ سلطانِ أُفُقٍ[٢] تَضؤل دون عزمه الهمم؛ يَحمِي بيضةَ خدره من كلِّ متطاولٍ إليها، ويقصِّر أسبابَ الحرص من كلِّ شانٍّ[٣] عليها؛ وٱختار الانفراد، وتَيقَّن أنّا لا نعدل عمّا أراد؛ ونصَبَ عُمُدَ خيامه الشريفة على سفح روضِ الكَرَك[٤] النَّضِر، وحَلَّ منه رأسَ شاهقةٍ نبتُها خَضِر؛ ورغب في الزهادة وشعارِها، وٱستوت عنده الدنيا في حالتَيْ إقبالها وإدبارِها؛ فاقتَضَى ٱعتناؤنا الشريفُ أن نبلّغه من مآربه الشريفة أقصى المرام، وأن نساعده في كلّ أمر يعرف منه الموافقة منّا على الدوام؛ وأن ننظِم الأمرَ في سلك الإرادة على مُرادِه، وأن نبادر إلى راحة سرّه الشريف وفؤادِه؛ ولسوف نعامل مقامَه العاليَ بكلّ ٱحترامٍ يصل إليه تفصيلًا وإجمالًا، ونراعي معه أدبَ أسلافه الكرام حالًا فحالًا، وإنّا لا نخليه من تجهيز مثالٍ يتضمّن من محاسنه سِيَرًا وأمثالًا، ولولا عرفُ السلطنة ونظامُ المملكة يقتضيان ذلك ما جهّزنا إلى بابه الشريف مثالًا، فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ بكذا وكذا.

هذا ما ٱتفق إيرادُه في هذا الفصل من رسائل الكتّاب، وكتّاب العصر ـ أعزّهم الله تعالى ـ كثير، وكلامُهم مشهور، ومدوَّنٌ بأيدي الناس ومحفوظٌ في صدورهم، ولَم نشترِطْ أن نورد لجميعهم فنلتزم الشرط، ولو فعلنا ذلك لطال الكتابُ وخرج عن شرطه، وإنما خصصنا هؤلاء بالذكر لتعلُّقِنا بهم، وٱتصال سببنا[٥] في الوداد بسببِهم.

(١) الشوائب: مفردها الشّائب، والمراد هنا ما يخالطه من التكدير.
(٢) المراد بالأفق: هنا: الناحية من الأرض.
(٣) الشانّ: اسم فاعل من شنّ الغارة على القوم: إذا صبّها عليهم من كلّ وجه.
(٤) الكرك: حصن منيع جدًا في طرف الشام «تقدم ذكره».
(٥) السّبب: الحبل والقرابة.

ذكر شيء من الأبيات الداخلة في هذا الباب[(١)]

فمن ذلك قول بعض الشعراء: [من مجزوء الكامل المرفّل]

إنــي لِعُــظْــمِ تــشــوُّقــي وشـديـدِ وجـدي واكـتـئـابـي[(٢)]
أصـبـحـتُ أحـسِـد مـن يـفـو ز بـقـربـكـم حـتـى كـتـابـي

وقال آخر: [من البسيط]

وما تأخُّرُ كُتْبي عنك من مللٍ طُوبى لوُدّك يأبن السادة النُّجبِ[(٣)]
لكن حسدتُ كتابي أن يراك وما أراك فاخترتُ إمساكي عن الكتُبِ

وقال آخر: [من الكامل]

عفتُ الرسائل طامعًا أن نلتقي فأبَى الزمانُ يُتِيح لي ما أطلبُ
وتأخّرت كُتْبي فقلتُ أعاتبٌ في ذاك أنت عليّ أم متعتِّبُ[(٤)]
فإذا وجدتك في الضمير ممثَّلًا أبدًا تناجيني إلى مَن أكتبُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

الـكُـتْـبُ تُـكـتـب لـلبـعيـ ـد وأنت من قلبي قريبُ
فـإذا وجـدتـك فـي الـفـؤا دِ فـمَـن أكـاتِـبُ أو أجـيـبُ

وقال آخر: [من البسيط]

لو أنّ كُتْبِي بقدر الشوق واصلةٌ كانت إليك مع الأنفاس تتّصِلُ
لكنّني والذي يبقيك لي أبدًا على جميل اْعتقادي فيك أتّكِلُ

وقال آخر: [من الطويل]

وفي الكُتْب نجوى من يَعِزّ لقاؤه وتقريبُ من لم يدنُ منه مَزارُ[(٥)]
فلِمْ تُخلِني منها وتعلمُ أنّها لـعـيـنـي وقـلـبـي قُـرّةٌ وقَـرارُ

---

(١) المراد بالباب هنا: باب الرسائل الإخوانية.
(٢) الاكتئاب: تغيّر النفس وانكسارها من شدّة الهمّ والحزن.
(٣) طوبى: من الطيب، وهي الغبطة والسعادة، كأنّ أصلها طيبي بضم الطاء فقلبوا الياء واوًا للضمّة قبلها...
(٤) التعتّب: التجنّي، يقال: تعتّب عليه وتجنّى كلاهما بمعنى واحد.
(٥) النّجوى: إسرار الحديث.

وقال آخر: [من الطويل]

سألتك عوِّذني بكُتْبك إنّ لي شياطينَ شوقٍ لا تفارِق مَضْجَعِي[١]

إذا ٱستَرقتْ أسرارَ فكري تمرُّدًا بعثتُ إليها في الدجى شُهْبَ أدمعي

وقال آخر: [من الطويل]

أتَبخَل بالقرطاس والخطّ عن أخٍ وكفّاك أَندَى بالعطايا من المزنِ[٢]

لَعمري لقد قوّى جفاؤك ظِنّتي وأَوهن تأميلي وما كان ذا وَهْنِ

وقال آخر: [من المتقارب]

أظنّ القراطيسَ في مصركُم تَخوَّنها ريبُ دهرٍ خؤون[٣]

فلو أنّها صفحاتُ الخدو د يُكتَب فيها بماء الجفون

لما أعوَزتْك ولكن جفَوت فألقَيتَ شأني خلالَ الشؤون

وقال المتنبيّ في جواب كتاب وَرَدَ عليه: [من المتقارب]

بكُتْب الأنام كتابٌ ورد فَدَتْ يدَ كاتِبه كلُّ يد[٤]

يعبِّر عما له عندنا ويذكر من شوقه ما نَجِد

وقال أبو الفتح البُسْتيّ[٥]: [من البسيط]

لمّا أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وبرٍّ غيرِ محدودِ

حَكَتْ معانيه في أثناء أسطره آثارَك البِيضَ في أحواليَ السودِ

وقال آخر: [من الخفيف]

طلع الفجر من كتابك عندي فمتى باللقاء يبدو الصباحُ

---

(١) عوّذني: أي اجعل كتبك عوذة ورُقية لي أتقي بها مسّ الشياطين.

(٢) القرطاس: الصحيفة، والمزن: المطر. (٣) ريبُ الدّهر: صروفه وأحداثه.

(٤) كتابٌ: بالرّفع على الابتداء أي كتابٌ ورد مفديٌّ بكتب...

(٥) أبو الفتح البستي: هو علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز الكاتب الشاعر، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. (وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦).

وقال آخر: [من الطويل]

ولمّا أتاني بعد هجرٍ كتابُكم وفيه شفاءُ الواله الدنفِ المُضْنى[١]
سُرِرتُ به حتى توهّمتُ أنه كتابي وقد أُعطِيتُه بيدي اليمنَى[٢]

وقال آخر: [من الكامل]

نفسي الفداءُ لغائبٍ عن ناظري ومحلُّه في القلب دون حجابِه
لولا تمتُّع مقلتي بلقائه لوهبتُها لمبشِّري بكتابِه

وقال آخر: : [من مجزوء الكامل]

ورد الكتابُ مبشِّرًا نفسي بأوقات السرور
وفضَضتُه فوجدتُه ليلًا على صَفَحات نور[٣]
مِثلَ السوالِف والخدو د البيضِ زينَتْ بالشعور
أنزلتُه منّي بمـ ـنزلة القلوبُ من الصدور

وقال آخر في كتاب عدِم فلم يصل إليه: [من المجتث]

نُبّئتُ أن كتابًا أرسلتَه مع رسولِ
ملأتَه منك طيبًا فضاع قبل الوصولِ

ومما يتصل بهذا الباب ويلتحق به، ويحتاج الكاتبُ إلى معرفته والإطلاعِ عليه الحجّةُ البالغةُ والأجوبةُ الدامغة[٤].

فمن ذلك في التنزيل قوله عزّ وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: الآيتان ٧٨، ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: الآيات ٣٦ - ٤٠].

---

(١) الواله: المتحيّر من شدّة الحبّ، والدّنف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.
(٢) يشير بهذا البيت إلى الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقّة: الآية ١٩].
(٣) فضّ خاتم الكتاب: فكّه وفتحه.
(٤) الدامغة: يقال: دمغ فلانًا: أي غلبه وعلاه، ودمغ الحقّ الباطل: إذا محاه.

وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: الآية ٨١].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: الآية ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ٢٣].

وقوله تعالى في الدّلالة على إثبات نبوّة رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٨، ٦٩]، فإنه ﷺ كان يُعرَف في قريش بالصادقِ الأمين.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٦].

ولمّا بُعِثَ رسولُ الله ﷺ قال: «يا معشر قريش لو قلتُ لكم إنّ خيلًا تَطلُع عليكم من هذا الجبل كنتم تصدّقوني؟ قالوا: نعم؛ قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذابٍ شديد» فلمّا أقرّوا بصدقه خاطبهم بالإنذار، ودعاهم إلى الإسلام. فهذه حججٌ من الكتاب والسنّة لا جواب عنها.

ولمّا انتهى إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يومَ السَّقيفة أنّ الأنصارَ قالت: منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ قال عليّ: فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسولَ الله ﷺ أوصى بأن يُحْسَن إلى مُحسِنهم، ويُتجاوَزَ عن مُسِيئهم؛ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ قال: لو كانت الإمارةُ فيهم لم تكن الوصيّةُ بهم.

ولمّا قال الحُبابُ بنُ المنذر في يوم السَّقيفة أيضًا: أنا جُذَيْلُها[١] المُحكَّك وعُذَيْقُها[٢] المُرجَّب[٣]، إن شئتم كررناها جَذَعة[٤]، منّا أميرٌ ومنكم أمير، فإن عمل المهاجريّ شيئًا في الأنصاريِّ ردَّه عليه الأنصاريّ، وإن عمل الأنصاري شيئًا في المهاجريِّ ردّه عليه المهاجريّ؛ أراد عمر الكلام، فقال أبو بكر رضي الله عنه: على رِسْلِك[٥]، نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلامًا وأوسطُهم دارًا، وأكرمُ الناس حسبًا، وأحسنُهم وجوهًا، وأكثر الناس ولادةً[٦] في العرب، وأمسُّهم رحمًا بالرسول ﷺ، أسلمنا قَبلَكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، وأنتم إخواننا في الدِّين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارُنا[٧] على العدوّ، آويتم وواسَيتم، فجزاكم الله خيرًا، نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تَدِين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش. قالوا: قد رضِينا وسلّمنا.

قال بعض اليهود لعليٍّ رضي الله عنه: ما دفنتم نبيَّكم حتى ٱختلفتم؛ فقال: إنما ٱختلفنا عليه[٨] لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلُكم من البحر حتى قلتم لنبيِّكم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨].

وقال حاطِب بن أبي بَلْتَعة[٩]: لما بعثني النبيُّ ﷺ إلى المقَوقِس مَلكِ الإسكندريّة بكتابه، أتيتُه وأبلغته الرسالة، فضحك ثم قال: كتب إليّ صاحبك يسألني أن أَتبِعَه على دينه، فما يمنعه إن كان نبيًا أن يدعوَ الله فيسلِّط عليّ البحرَ فيغرقَني فيكتفيَ مُؤنتي[١٠]، ويأخذَ مُلكي؟ قلتُ: ما مَنعَ عيسى عليه السلام إذ أخذتْه اليهودُ فربطوه في حبل، وحلقوا وسطَ رأسه، وجعلوا عليه إكليلًا من شوك، وحَمَلوا خشبتَه

---

(١) الجذيل: تصغير جذل بكسر الجيم، وعنى به هنا الأصل من الشجرة تحتكّ به الإبل فتشتفي به، أي قد جربتني الأمور، ولي رأي وعلم يشتفى بهما...

(٢) العذيق: تصغير تعظيم للعذق بالفتح وهو النخلة.

(٣) المرجّب: المعظّم، والترجيب: هو أن تدعم النخلة من جانب ليمنعها ذلك من السقوط.

(٤) الجذعة: جاء في اللسان مادة «جزع» إذا أطفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جذعة أي أوّل ما يبتدأ بها.

(٥) على رسلك: على مهلك أي اتئد.

(٦) يريد بهذه العبارة أنهم أكثر عددًا وأغزر نسلًا.

(٧) في الأصل «في» والتصويب عن (عيون الأخبار ٢/ ٢٣٤).

(٨) عليه: أي على الأولوية به ومن أحقّ بخلافته، قرابته أم غيرهم، لا فيه أي لا في صدق رسالته.

(٩) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابيٌّ شهد الوقائع كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشدّ الرّماة في الصحابة، بعثه النبيّ ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية مات في المدينة سنة ٣٠ هـ وكان أحد الفرسان الشعراء. (الأعلام ٢/ ١٥٩).

(١٠) المؤنة: الكفاية من القوت.

التي صلبوه عليها على عاتقه[١]، ثم أخرجوه وهو يبكي حتى نصبوه على الخشبة ثم طعنوه حيًّا بحربة حتى مات ـ على زعمِكم ـ فما مَنَعه أن يدعوَ الله فينجيَه ويهلكَهم، ويكتفي مُؤْنتهم، ويَظهَرَ هو وأصحابه عليهم؟ وما مَنَعَ يحيىٰ بن زكريّا حين سألت ٱمرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أن يقتله فقتله وبعث برأسه إليها حتى وُضِع بين يديها أن يسأل الله أن يحميَه ويهلكَهم؟ فأَقبَل على جلسائه وقال: والله إنه لحكيم، وما تخرج الحِكَم إلّا مِن عند الحكماء.

وخطب معاويةُ بنُ أبي سفيان ذات يوم وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: الآية ٢١] فما نلام نحن؛ فقال إليه الأحنفُ بنُ قيس[٢] فقال له: يا معاوية، إنا والله ما نلومك على ما في خزائن الله، وإنّما نلومك على ما آثَرَك الله [به][٣] علينا[٤] من خزائنه فأَغلقتَ بابَك دونَه.

وقال معاويةُ لرجل من اليمن: ما كان أحمقَ قومَك حين مَلّكوا عليهم امرأة! قال: قومُك أشدُّ حماقةً إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] أفلا قالوا: اهدِنا له.

وقيل: مرّت ٱمرأةٌ من العرب بمجلسٍ من مجالس بني نُمير، فرماها جماعةٌ منهم بأبصارهم، فوقفت ثم قالت: يا بني نُمير، لا أمرَ ٱلله تعالى أطعتم، ولا قولَ الشاعر سمعتم، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النّور: الآية ٣٠].

وقال الشاعر: [من الوافر]

فغُضَّ الطرفَ إنَّك من نُميرٍ   فلا كعبًا بَلغتَ ولا كلابا[٥]

فما ٱجتمع منهم بعد ذلك ٱثنان في مجلس.

---

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٢) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المنقري التميمي، أبو بحر، سيّد تميم وأحد العظماء الدّهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم ولد في البصرة وأدرك النبيَّ ﷺ ولم يره مات سنة ٧٢ هـ . (الأعلام ١/٢٧٦).

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها. (٤) في الأصل ـ عليك، وهو تحريف صحّحناه.

(٥) البيت لجرير بن عطيّة الخطفي من قصيدة يهجو بها الراعي النميري وقومه. (انظر الديوان ص ٦١، دار الكتب العلمية).

وقيل: استعمَل عُتبةُ بنُ أبي سفيان[١] رجلًا من أهله على الطائف، فظَلَم رجلًا من أَزْدِ شَنُوءة، فأتى الأزديُّ عُتبةَ فقال: [من البسيط]

أمرتَ مَن كان مظلومًا ليأتيَكم   فقد أتاكم غريبُ الدار مظلومُ

ثم ذَكر ظلامتَه، فقال عُتبة: إنّي أرى أعرابيًا جافيًا، والله ما أحسَبك تَدرِي كم تصلّي في اليوم والليلة؛ فقال: إن أنبأتُك ذلك تجعلُ لي عليك مسألة؟ قال: نعم؛ فقال الأعرابيّ: [من الرجز]

إنّ الصلاةَ أربعٌ وأربعُ   ثم ثلاثٌ بعدهنّ أربعُ

* ثم صلاةُ الفجر لا تُضيَّعُ *

قال: صدقتَ فاْسألْ؛ فقال: كم فَقارُ ظهرِك؟ فقال: لا أدري؛ قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟ فأمر بردّ ظلامتِه[٢] عليه.

وقال الحجّاج بن يوسف ليحيىٰ بن سعيد بن العاصي[٣]: بلغني أنّك تشبِه إبليس في قبح وجهِك؛ قال: وما ينكِر الأميرُ مِن أن يكون سيّدُ الإنس يشبه سيّدَ الجنّ؟.

وقال لسعيد بن جُبير[٤]: اختر لنفسك أيَّ قِتْلة شئت؛ قال: اختر أنت فإنّ القصاص أمامَك.

وحكَى أن حُويطِب[٥] بنَ عبد العُزّى بلغ عشرين ومائةَ سنة، ستين في الجاهليّة وستين في الإسلام، فلما ولي مروانُ بن الحكم المدينةَ دخل عليه حُويطِب، فقال له مروان: لقد تأخّر إسلامُك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث[٦]؛

---

(١) هو عتبة بن أبي سفيان، أمير مصر، وليها من قبل أخيه معاوية، توفي في الإسكندرية سنة ٤٤ هـ، وهو من الخطباء المعدودين. (الأعلام ٤/ ٢٠٠).
(٢) الظّلامة: ما يطلبه المظلوم من إنصافٍ في حقٍّ من حقوقه.
(٣) هو سعيد بن العاصي الأموي القرشيّ، صحابيّ من الأمراء الفاتحين، رُبّي في حجر عمر بن الخطاب، وولّاه عثمان الكوفة، وكان سخيًا فصيحًا مات سنة ٥٩ هـ. (الأعلام ٣/ ٩٦).
(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي، أبو عبد الله، تابعي، حبشيّ الأصل، كان أعلم التابعين على الإطلاق، قتله الحجّاج سنة ٩٥ هـ. (الأعلام ٣/ ٩٣).
(٥) هو حويطب بن عبد العزّى بن أبي قيس بن عبد ودّ، ويكنّى أبا محمد، أسلم يوم فتح مكّة وتوفي سنة ٥٤ هـ. (الطبقات ٥/ ٣٣٥).
(٦) الأحداث: أي من هم أصغر منك سنًا، وفي سنّ الحداثة والصّبا.

فقال: والله لقد[١] هممتُ بالإسلام غيرَ مرّة كلُّ ذلك يَعُوقني أبوك عنه وينهاني، ويقول: أتَدَع دين آبائك [للدينِ مُحدَث][٢]؟! أما أخبرك عثمانُ ما كان قد لَقِيَ من أبيك حين أسلم.

وقيل: لمّا ظفِر الحجّاج بأبن الأشعث[٣] وأصحابه أَمَرَ بضرب أعناقهم، حتى أَتى على رجلٍ من تميم، فقال التميميّ: أيها الأمير، والله لئن أسأنا في الذنب ما أحسنتَ في العقوبة؛ فقال الحجاج: وكيف ذاك؟ قال: لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: الآية ٤] فوالله ما مَننتَ ولا فاديت[٤]؛ فقال الحجّاج: أفٍّ[٥] لهذه الجِيَف، أما كان منهم من يُحسِن مِثلَ هذا؟ وأَمَر بإطلاق من بقيَ وعفا عنهم.

وحُكيَ أن الرشيد سأل موسى بنَ جعفرٍ فقال: لِم قلتم إنّا ذرّيّةُ رسول الله ﷺ، وجوَّزتم للناس أن ينسِبُوكم إليه ويقولوا: يا [بني][٦] نبيِّ ٱلله وأنتم بنو عليّ، وإنما يُنسَب الرجلُ إلى أبيه دون جدّه؛ فقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٨٤، ٨٥] وليس لعيسى أب، وإنما لحق بذرّيّة الأنبياء مِن قِبَلِ أمِّه؛ وكذلك أُلحِقنا بذرّيّة الرسول ﷺ مِن قِبَلِ أُمّنا فاطمةَ ـ عليها السلام ـ وأزيدك يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٦١] ولَم يدْعُ ﷺ في مباهلة[٧] النصارى غيرَ فاطمة والحسن والحسين، وهما الأبناء[٨].

---

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل، وقد أثبتناها عن (العقد الفريد ٢/١١٧، المطبعة الشرقية، مصر).

(٢) ما بين قوسين زيادة عن (العقد الفريد ٢/١١٧).

(٣) ابن الأشعث: هو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أبو القاسم، قائد، من أصحاب مصعب بن الزبير. قتل سنة ٦٧ هـ. (الأعلام ٦/٣٩).

(٤) فاديت: أي أطلقت لقاء الفدية.

(٥) أفّ: اسم فعل يدلُّ على التكرُه والحزن والتضجُر.

(٦) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها.

(٧) المباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منّا.

(٨) وهما الأبناء: أي وهما المقصودان بلفظ الأبناء في الآية الكريمة.

قيل: لما وُلّيَ يحيى بنُ أكثمَ[١] قضاءَ البَصرة ٱستصغر الناسُ سنَّه، فقال له رجل: كم سنُّ القاضي ـ أعزّه الله ـ؟ فقال: سنُّ عتّابِ بن أَسِيد[٢] حين ولّاه رسولُ الله ﷺ قضاءَ مكّة. فجعل جوابَه ٱحتجاجًا.

قال يزيد بن عروة: لمّا مات كُثيِّرٌ[٣] لَم تتخلّف بالمدينة ٱمرأةٌ ولا رجلٌ عن جِنازته، وغَلَب النساءُ عليها، وجعلن يبكِينه ويذكُرن عَزّةَ في ندبهنّ له؛ فقال أبو جعفر محمدُ بن عليّ الباقر: أفرِجوا لي عن جِنازة كُثَيّر لأرفعها، فجعلنا ندفع النساء عنها ومحمدُ بنُ عليّ يقول: تَنحّين يا صُوَيحبات يوسف[٤]؛ فانتَدَبتْ له ٱمرأةٌ منهن فقالت: يا بن رسول الله، لقد صدقتَ، إنّا لصُوَيحباته، ولقد كنّا له خيرًا منكم له؛ فقال أبو جعفر [لبعض مواليه][٥]: احتفِظْ بها حتى تجيئني بها إذا ٱنصرفتُ؛ قال: فلما ٱنصرف أُتِيَ بها وكأنّها شَرَرَةُ النار؛ فقال لها محمد بنُ عليّ: إيهِ[٦]، أنتِ القائلة: إنّكنّ ليوسفَ خيرٌ منّا؟ قالت: نعم، تُؤمّنني غضبَكم يا بنَ رسول الله؟ فقال: أنتِ آمنةٌ من غضبي فأنبئيني؛ فقالت: نحن دعوناه إلى اللّذّات من المطعم والمشرب والتمتّع والتنعّم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجبّ[٧] وبعتموه بأبخس[٨] الأثمان، وحبستموه في السجن؛ فأيُّنا كان عليه أَحنى، وبه أرأف؟ فقال محمد: لله درُّكِ! لَن تُغالَب ٱمرأةٌ إلّا غَلَبتْ؛ ثم قال لها: ألك بعلٌ؟ فقالت: لي من الرجال من أنا بعلُه؛ فقال أبو جعفر: ما أصدقكِ! مثلُك من تَملِك الرجلَ ولا يملِكها؛ فلمّا ٱنصرفتْ قال رجل من القوم: هذه فلانة بنت معقب[٩].

---

(١) هو يحيىٰ بن أكثم التميمي الأسيدي المروزي، أبو محمد، قاضٍ رفيع القدر، عالي الشهرة يتصل نسبه بأكتم بن صيفي حكيم العرب ولد بمرو واتصل بالمأمون فقرّبه مات في الرّبذة سنة ٢٤٢ هـ. (الأعلام ٨/ ١٣٨).

(٢) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص، أسلم يوم فتح مكة، استعمله الرسول ﷺ على مكة يوم خرج إلى حنين فصلّى بالنّاس، وقبض الرسول ﷺ وعتاب عامله عليها. (الطبقات ٥/ ٣٣٠).

(٣) كُثَيِّر: هو كُثَيِّر بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة، من خزاعة، أبو صخر، شاعر متيّم مشهور، من أهل المدينة، وصاحبته عَزّة التي عرف بها له ديوان شعر، مات سنة ١٠٥ هـ. (الأعلام ٥/ ٢١٩).

(٤) يشير بهذه العبارة إلى ما ذكره القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السّلام عن مكر النّساء «الآية ٣٠ ـ ٣١».

(٥) ما بين قوسين زيادة عن (الأغاني ٨/ ٤٣، ط، بولاق).

(٦) إيه: كلمة استزادة واستنطاق.

(٧) الجبّ: البئر.

(٨) أبخس الأثمان: أنقصها وأقلّها.

(٩) كذا في الأصل بلا تعيين لاسمها، وذكر أبو الفرج أنّها زينب. (الأغاني ٨/ ٤٣).

وقال المأمون ليحيىٰ بن أكثم: من الذي يقول: [من المنسرح]

قاضٍ يَرَى الحدَّ في الزّناءِ ولا يَرَى على من يلوط من باسِ[١]

فقال: يا أمير المؤمنين، هو الذي يقول:

شاهِدُنا يَرتشي وحاكِمُنا يلوط والراسُ شرُّ ما راسِ[٢]

لا أحسَبُ الجورَ ينقضي وعلى الأمّة والٍ من آل عبّاسِ[٣]

قال ومن هو؟ قال: أحمد بن أبي نُعيم[٤]؛ فأمَر بنفيه إلى السِّند[٥].

وحُكِي أنّ أهل الكوفة تظلّموا إلى المأمون من عاملٍ ولّاه عليهم؛ فقال: ما علمتُ في عَددِ عمّالي أعدَلَ ولا أقوَمَ بأمر الرعيّة ولا أعودَ بالرفق عليهم منه؛ فقام رجل من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، ما أحدٌ أولى بالعدل والإنصاف منك، فإذا كان الأمر على هذه الصفة فينبغي أن تعدِل في ولايته بين أهل البُلدان، وتُسوِّي بنا أهلَ الأمصار، حتى يَلحَقَ أهلَ كلِّ بلد مِن عدلِه وإنصافِه مِثلُ الذي لحقنا، فإذا فعل أميرُ المؤمنين ذلك فلا يخصُّنا منه أكثر من ثلاثِ سنين؛ فضحك المأمون وعزَلَ العاملَ عنهم.

ولنصِل هذا الفصل بذكر هفوات الأمجاد[٦] وكبوات الجِياد ـ وقد رأيتُ بعضَ أهل الأدب ممن يستحِقّ الأدب تَعرّض في هذا الفصل إلى ذكر قصص الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ كآدمَ ويوسفَ وداودَ وسليمانَ فكرهتُ ذلك منه، ونزّهتُ كتابي عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران: الآية ١٥٥] فكانت هذه هفوةً من المسلمين غفرها الله وعفا عنها.

---

(١) الحدّ: العقاب في تجاوز الحدود التي فرضها الله، واللّواط عمل قوم لوط وهو إتيان الرّجال دون النساء شهوةً.

(٢) في (وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٦) «أميرُنا يرتشي».

(٣) الجور: الظلم.

(٤) في الأصل أحمد بن نعيم والتصويب عن (وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٦، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ١٢٥، مطبعة المعارف).

(٥) السّند: بلاد بين الهند وكرمان وسجستان، فتحت أيّام الحجّاج. (معجم البلدان ٣/ ٢٦٧).

(٦) الهفوات: من زلات الإنسان، والكبوات من زلّات الخيل.

وقال الأحنف بن قيس: الشريفُ من عُدّتْ سَقطاتُه[١].

وقال النابغة: [من الطويل]

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ[٢]

وقالوا: كلُّ صارمٍ ينبو، وكلُّ جوادٍ يكبو.

وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيّدًا يضرب به المثل، وقد عُدّت له سقطات فمن ذلك أنه نظر إلى خيلٍ لبني مازن فقال: هذه خيل ما أدركَتْ بالثار، ولا نَقَصت الأوتار[٣]؛ فقال له سعيد بن القاسم المازنيّ: أمّا يومَ قتلَتْ أباك فقد أدركتْ بثارها؛ فقال الأحنف: لشيءٍ ما قيل: «دَع الكلام حذرَ الجواب» ـ وكانت بنو مازن قتلت [أبا][٤] الأحنف في الجاهليّة.

ومنها أنه لمّا خرج مع مُصعَب بنِ الزبير أرسَل إليه مائةَ ألف درهم، ولم يرسِل إلى زَبْراء جاريتِه بشيء، فجاءت حتى وقفت بين يدي الأحنف، ثم أرسلَت عينيها[٥]؛ فقال لها: ما يُبكيك؟ فقالت: ما لي لا أبكي عليك إذ لم تبك على نفسك، أَقعدْتَها وتذر مَرْوَ الرُّوذَ[٦] تَجمَع بين غارَين[٧] من ٱلمسلمين؛ فقال: نصحتنِي وٱلله في ديني إذ لم أتنبّه لذلك؛ ثم أَمَر بفُسطاطه[٨] فقُوّض، فبلغ ذلك مُصعبًا فقال: ويْحكم، مَن دهاني في الأحنف؟ فقيل: زَبْراء، فبعث إليها بثلاثين ألف درهم، فجاءت حتى أرخت عينيها بين يديه؛ فقال: ما لك يا زَبْراء؟ قالت: عجبتُ لأحوالك في أهل البَصرة، تزُفّهم كما تُزَفّ العروس، حتى إذا ضربتَ بهم في نحور أعدائهم أردتَ أن تَفُتّ في أعضادهم؛ قال: صدقتِ والله، يا غلام دَع الفساطيط؛ فٱضطرب العسكر بمجيء زَبْراء مَرّتين.

---

(١) السقطات: الزلّات، أو الوقوع في الخطأ.

(٢) لا تلمّه على شعث: أي لا تحتمله على ما فيه من زلل فتلمه وتصلحه وتجمّع ما تشعّث من أمره «اللسان مادة شعث». (انظر الديوان: ص ١٨، دار صادر).

(٣) الأوتار: جمع وتر بكسر الواو، وهو الزحل أي الثأر.

(٤) الكلمة زيادة يقتضي السّياق إثباتها.

(٥) أرسلت عينيها: أي بكت.

(٦) مرو الروذ: مدينة بخراسان بين بلخ ومرو، افتتحها الأحنف بن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهي على نهر عظيم، والرّوذ بالفارسية: النّهر. (معجم البلدان ٥/ ١١٢).

(٧) بين غارين: بين جيشين، والغار: الجيش الكثير، والجيشان هنا هما: جيش الخوارج، وجيش المهلّب بن أبي صفرة.

(٨) الفسطاط: بيتٌ يتخذ من الشعر.

ومن سقطاته التي عُدّت عليه أن عمرو بن الأهتم[١] دسّ إليه رجلًا ليسفّهه، فقال له: يا أبا بحر، من كان أبوك في قومه؟ قال: كان من أوسطِهم، لم يسدهم ولم يتخلّف عنهم؛ فرجع إليه ثانية، ففطن الأحنف إلى أنه مِن قِبَل عمرو، فقال: ما كان مال أبيك؟ قال: كانت له صِرْمة[٢] يَمنَح منها ويَقرِي[٣]، ولم يكن أهتَم[٤] سَلّاحًا[٥].

وقيل: إن ٱلحسن[٦] سئل عن قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٤]، فقال: إنْ كان لَسريًا، وإنْ كان لَكريمًا؛ فقيل له: من هو؟ قال: المسيح؛ فقال له حُمَيد[٧] بن عبد الرحمٰن: أَعِدْ نظرًا، إنما السريُّ: الجَدول؛ فأنعَمَ[٨] له، وقال: يا حُمَيد، غَلَبنا عليك الأمراء.

ومات ولدٌ طفلٌ لسليمان[٩] بن عليّ، فأتاه الناس بالبَصرة يعزّونه وفيهم شَبِيبُ بنُ شَيبَة[١٠] وبكرُ بنُ حبيب السَّهمِيّ[١١]؛ فقال شبيب: أليس يقال: إنّ الطفل لا يزال محبنظئًا بباب الجنّة حتى يدخُل أبواه؟ فجاء بظاء معجمة؛ فقال له بكرُ بنُ حبيب: محبنطِئًا[١٢]، بطاء مهملة؛ فقال شَبِيب: إلّا أنّ مَن بين لابتَيها[١٣] يَعلم أنّ القول كما أقول؛ فقال بكر: وخطأٌ ثانٍ، ما للبَصرة لابَتان، أذهبتَ إليه بالمدينة؟. (مَن بين لابتَيها: أي حَرّتَيها).

---

(١) الأهتم: لَقَب لُقّب به أبوه، لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوس فهتم فاه «تقدّم تعريفه».
(٢) الصّرمة: القطعة من الإبل نحو الثلاثين. (٣) يقري: يطعم الأضياف.
(٤) الأهتم: الذي كسرت أسنانه أو أنفه. (٥) السلاّح: من سلح أي تغوّط.
(٦) الحسن: هو الحسن بن يسار البصري، من سادات التابعين، جمع كلّ فنٍّ من علم وزهد وورع وعبادة، قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري مات بالبصرة سنة ١١٠ هـ. (وفيات الأعيان ١/ ١٨٠).
(٧) هو حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف، كان ثقة عالمًا كثير الحديث توفي بالمدينة سنة ٩٥هـ. (الطبقات ٥/ ١١٤).
(٨) أنعم له: أي قال نعم.
(٩) هو سليمان بن علي بن عباس، أمير عبّاسي من الأجواد الممدوحين ولاه ابن أخيه السّفاح إمارة البصرة مات سنة ١٤٢ هـ. (الأعلام ٣/ ١٣٠).
(١٠) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري، أبو معمّر، أديب الملوك وجليس الفقراء، من أهل البصرة، كان يقال له الخطيب، وكان شريفًا من الدّهاة مات نحو سنة ١٧٠ هـ. (الأعلام ٣/ ١٥٦).
(١١) لم يرد هذا الاسم في رواية (العقد الفريد ١/ ٢٩٦، ط، بولاق).
(١٢) المحبنطىء: المتغضّب المستبطىء للشيء.
(١٣) اللّابة: الأرض الصعبة ذات الحجارة النّخرة السّوداء.

قيل: جلس محمدُ بنُ عبد الملك[١] يومًا للمظالم، وحضر في جملة الناس رجلٌ زيُّه زيُّ الكُتّاب، فجلس بإزاء محمد، ومحمد ينقُد الأمور وهو لا يتكلّم، ومحمدٌ يتأمّله؛ فلما خفّ المجلسُ قال له: ما حاجتك؟ قال: جئتُك ـ أصلحك الله ـ متظلّمًا؛ قال: ممّن؟ قال: منك، ضيعةٌ لي في يدِ وكيلِك يَحمِل إليك غلّتَها، ويَحُول بيني وبينها؛ قال: فما تريد؟ قال: تكتب بتسليمها إليّ؛ قال: هذا يُحتاج فيه إلى شهودٍ وبيّنة[٢] وأشياءَ كثيرة؛ فقال له الرجل: الشهودُ هم البيّنة، وأشياء كثيرة عِيٌّ منك؛ فخجل محمدٌ وهاب الرجلَ، وكتب له بما أراد.

ووُصِف ذو الرُّمّةِ[٣] لعبد الملك بن مروان بالذكاء وحسنِ الشعر، فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه أنشده قصيدةً ٱفتتحها بقوله: «ما بال عينِك منها الماءُ ينسكبُ» وكانت عينا عبد ٱلملك تَدْمَعان دائمًا، فظَنّ أنه عَرّض[٤] به، فغضب وقال: ما لك ولهذا السؤال يٱبن ٱللَّخناء[٥]؟ وقطع إنشادَه، وأمر بإخراجه.

ودخل أبو النجم[٦] على هشام بن عبد ٱلملك وأنشده أُرجوزتَه التي أوّلُها: «الحمد لله الوهوبِ ٱلمُجزِلِ» حتى ٱنتهى إلى قوله يصف الشمسَ عند الغروب: «وهي على الأُفق كعين الأحوَلِ»، وٱستَدرَك سقطةَ لسانِه، وقطع إنشادَه، وعَلِم أنها زلّة، لأن هشامًا كان أحوَل، فقال له هشام كَمِّلْ إنشادَك ويلك وأَتْمم البيت، وأمر بوجء[٧] عنقه وإخراجه من الرُّصافة[٨].

---

(١) هو محمّد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزّيات، وكان من أهل الأدب والفضل، عالمًا بالنحو واللغة، كاتبًا شاعرًا مات سنة ٢٣٣ هـ. (انظر الأعلام ٦/٢٤٨).

(٢) البيّنة: الحجّة الواضحة.

(٣) ذو الرُّمّة: هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس صاحب ميّ أحد الشعراء العشاق. مات سنة ١١٧ هـ. (تقدّم تعريفه).

(٤) عرّض به: قال فيه قولًا يعيبه.

(٥) اللّخناء: التي انتنت أرفاغها، والرّفغ كل موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن، وابن اللخناء: يقال في السّبّ.

(٦) أبو النّجم: هو المفضل، وقيل الفضل بن قدامة بن الحارث بن عبدة العجلي، وهو من رجّاز الإسلام الفحول توفي في آخر دولة بني أمية. (انظر الأغاني ٩/ ٧٧).

(٧) الوجء: اللّكز.

(٨) الرّصافة: يريد رصافة هشام بن عبد الملك وهي في غربي الرّقة، بناها هشام لمّا وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف. (معجم البلدان ٣/ ٤٧).

قال المدائنيّ[١]: كان رجل من وَلَد عبدِ الرحمـٰن بن سَمُرةَ[٢] أراد الوثوب[٣] بالشام في زمن المهديّ، فأُخِذ وحُمِل إليه، فلمّا مَثَل بين يديه ٱعتذر، فرأى منه المهديّ نُبلًا وفضلًا، فعفا عنه وخلطه بجلسائه؛ ثم قال له يومًا: أنشِدْني شيئًا من شعر زهير[٤]، فأَنشَده قصيدتَه التي أوّلُها: «لِمَن ٱلديارُ بقُنّة الحِجْرِ»[٥] حتى أتى على آخرها؛ فقال المهديّ: مضى من يقول مِثلَ هذا؛ فقال السَّمُريّ: وذهب والله من يقال فيه مِثلُه؛ فٱستشاط[٦] المهديُّ غضبًا، وأَمَر أن يُجَرّ برِجله، وألّا يُؤذَنَ له بعدها.

ولنختم ما ذكرناه من أمر كتابة الإنشاء بشيء من الحِكَم.

ذكر شيء من الحكم

قال رسول الله ﷺ: «الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لكلِّ جوادٍ كبوة، ولكلِّ حكيمٍ هفوة؛ ولكلِّ نفسٍ مَلّة[٧]، فاطلبوا لها طرائفَ ٱلحكمة.

ومن الحديث النبويّ ـ صلواتُ الله تعالى وسلامةُ على قائله ـ ممّا يدخل في هذا الفصل قولُه ﷺ: «كرمُ الرجل دِينُه، ومروءتُه عقلُه، وحسَبُه عملُه». «خيرُ الأمور أوسطُها». «كلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له». «زُرْ غِبًّا[٨] تَزْدَدْ حبًّا». «الوُحدةُ خيرٌ من قرين[٩] السوء». «البركةُ في الحركة». «صِلوا أرحامَكم ولو بالسلام». «من كَثَّر سوادَ قوم فهو منهم». «ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى». «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض[١٠]، إنّما الغِنى غِنى النفس».

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، أبو الحسن، مؤرّخ إخباري راوية للشعر ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن توفي سنة ٢٢٥ هـ. (الأعلام ٤/ ٣٢٣).

(٢) هو عبد الرحمـٰن بن سمرة بن حبيب القرشي، صحابي، من القادة الولاة أسلم يوم الفتح مات بالبصرة سنة ٥٠ هـ. (الأعلام ٣/ ٣٠٧).

(٣) الوثوب: الاستيلاء.

(٤) يريد زهير بن أبي سُلمى.

(٥) قنة الحجر: جبل ليس بالشامخ بحذاء الحجر، والحجر: قرية بحذائها قرية يقال لها الرّحضية للأنصار وبني سليم من نجد. (معجم البلدان ٤/ ٤٠٩). وتمام البيت:

لـمـن الـدّيـار بـقـنّـة الـحـجـر ... أقـويـن من حـجـجٍ ومـن شـهـر

(الديوان ص ٢٧، دار صادر).

(٦) استشاط: التهب.

(٧) الملّة: من الملل.

(٨) زر غبًّا: أي يومًا بعد يوم.

(٩) القرين: الصاحب.

(١٠) العرض: الزّائل الذي لا يدوم من مالٍ وغيره.

وقال أبو بكر الصِّدّيقُ ـ رضي الله عنه ـ: صنائعُ المعروف تَقِي مَصارعَ السوء.

وقال عليّ بن أبي طالب: اِستغنِ عمّن شئتَ فأنت نظيرُه[١]، واْحتجْ إلى من شئتَ فأنتَ أسيرُه، وأَفْضِل على من شئتَ فأنت أميرُه.

قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وإذا ما الرجاء أُسْقِطَ بين النـ ـاس فالناسُ كلُّهم أَكْفاءُ

وقال لقمان[٢] لابنه: ثلاثةٌ لا يُعرَفون إلّا في ثلاثة مواضعَ: لا يُعرَف الحليم إلّا وقت الغضب، ولا الشجاعُ إلا في اْلحرب إذا لاقى الأقران، ولا أخوك إلا عند حاجتك.

وقال عمر بن اْلخطّاب رضي الله تعالى عنه: أَحَبُّكم إلينا قَبل أن نختبرَكم أحسَنُكم صمتًا، فإذا تَكلّم فأَبْيَنُكم منطقًا، فإذا اْختبرناكم فأَحْسَنُكم فعلًا.

وفي رواية: أَحَبُّكم إلينا أَحْسَنُكم اْسمًا، فإذا رأيناكم فأَجْملُكم مَنظَرًا، فإذا اْختبرناكم فأَحْسَنُكم مَخبرًا.

وخطب عليّ رضي الله عنه يومًا فقال في خطبته: وأَعْجَبُ ما في الإنسان قلبُه، له أمدادٌ[٣] من اْلحكمة، وأضدادٌ من خلافها، فإذا سَنَح له الرجاءُ هاج به الطمع، وإن هاج به الطمعُ أَهلَكه اْلحرص، وإن مَلَكه اليأسُ قتله الأسف، وإن عَرَض له الغضبُ اْشتدّ به الغيظ، وإن أُسعِد بالرضا نَسيَ اْلتحفُّظ، وإن ناله الخوفُ شغله اْلحزن، وإن أصابته مصيبةٌ قصمه اْلجزع، وإن أفاد مالًا أطغاه الغِنى، وإن عضّته فاقةٌ شغله البلاء، وإن جَهَده الجوعُ أقعده الضعف، فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرّ، وكلُّ إفراطٍ له مفسِد.

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ: فَرَضَ الله تعالى الإيمانَ تطهيرًا من الشِّرك، والصَّلاةَ تنزيهًا عن الكِبر[٤]، والزكاةَ سببًا للرزق، والصيامَ اْبتلاء لإخلاص اْلخلق، واْلحجَّ تقويةً للبَدَن، والجهادَ عزًّا للإسلام، والأمرَ بالمعروف مصلحةً للعوام[٥]،

---

(١) المشهور في رواية الحديث: تكُن نظيره: المثيل.

(٢) هو لقمان الحكيم الذي ورد ذكرهُ في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣].

(٣) الأمداد: الأعوان، واحد «مَدَد». (٤) الكبر: العظمة والتجبر.

(٥) العوام: جمع عامة «كدواب ودابّة».

والنهيَ عن المنكر رَدْعًا للسفهاء، وصِلةَ الرحم منماةً للعَدد، والقِصاصَ حَقْنًا للدماء، وإقامةَ الحدود إعظامًا للمَحارم، وتَرْكَ شربِ الخمر تحصينًا للعقل، ومجانَبَةَ السرقة إيجادًا للعفّة، وتَرْكَ الزنى تصحيحًا للنَّسب، وتَرْكَ اللواط تكثيرًا للنسل، والشهاداتِ أستظهارًا[١] على المجاحَدات[٢]، وتَرْكَ الكذبِ تشريفًا للصدق، والسلامَ أمانًا من المخاوف، والإمامةَ نظامًا للأمّة، والطاعةَ تعظيمًا للإمامة.

وقال فَرفُوريوس[٣]: لو تَميزت الأشياء بأشكالها لكان الكذبُ مع ٱلجبن، والصدقُ مع الشجاعة، والراحةُ مع اليأس، والتعبُ مع الطمع، والحرمانُ مع الحرص، والعزُّ مع القناعة، والأمنُ مع العفاف، والسلامةُ مع الوُحدة.

وقال آخر: الشكرُ محتاجٌ إلى القبول، والحسبُ محتاجٌ إلى الأدب، والسرورُ محتاج إلى الأمن، والقرابةُ محتاجة إلى المودّة، والمعرفةُ محتاجة إلى التجارِب، والشرفُ محتاج إلى التواضع، والنَّجدةُ[٤] محتاجة إلى ٱلجِدّ.

وقال حكيم يونانيّ: السعاداتُ كلُّها في سبعة أشياء: حُسنُ الصورة، وصحّةُ ٱلجسم، وطولُ العمر، وكثرةُ العِلم، وسَعَةُ ذات اليد، وطِيبُ الذكر، والتمكّنُ من الصديق والعدوّ.

وقال بعض الأدباء ـ وقد سئل عن العيش ـ فقال: في الغِنى فإني رأيتُ الفقير لا يلتذّ بعيش أبدًا؛ فقال له السائل: زِدْني، قال: في الصحّة، فإني رأيت المريض لا يلتذّ بعيشٍ أبدًا؛ فقال له: زِدْني، قال: في الأمن، فإني رأيت الخائف لا يلتذّ بعيشٍ أبدًا؛ قال: زِدْني؛ قال: لا أجد مَزيدًا. وهذا الكلام مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«من أصبح آمنًا في سِرّبِهِ[٥]، مُعافًى في بَدَنه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها».

وقال فيلسوف: كثيرٌ من الأمور لا تَصلُح إلّا بقُرَنائها[٦]: لا ينفع العِلمُ بغير ورع[٧]، ولا الحفظُ بغير عقل، ولا ٱلجمالُ بغير حلاوة، ولا

---

(١) الاستظهار: الإستقواء والاستعانة.
(٢) المجاحدات: المنكرات.
(٣) هو فرفوريوس الصوري، مِن أهل مدينة صور على الساحل الشامي، وكان بعد جالينوس، وله النباهة في علم الفلسفة والتقدّم في تفسير كتب أرسطو. (إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٥٦، ط بيسك).
(٤) النّجدة: الشجاعة وسرعة الإغاثة.
(٥) السرب بكسر السين: النفس.
(٦) القرناء: مفردها «القرين» وهو الصاحب.
(٧) الورع: التحرّج عن المحارم والتقوى.

ٱلحسبُ بغير أدب، ولا السرورُ بغير أمن، ولا الغِنى بغير كفاية، ولا الاجتهادُ بغير توفيق.

وقالوا: المنظرُ يحتاج إلى القبول، والحسبُ إلى الأدب، والسرورُ إلى الأمن، والقُربى إلى ٱلمودّة، والمعرفةُ إلى التجارِب، والشرفُ إلى التواضع، والنجدةُ إلى ٱلجِدّ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يَغلِب المقدار على التقدير، حتى تكون الآفةُ[1] في التدبير.

أَخَذَه ٱبنُ الروميّ فقال: [من الكامل]

غَلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطةَ مُورِدٍ　　عَجَزتْ مَوارِدُه عن الإصدارِ[2]
والناس يلحون الطبيبَ وإنّما　　غَلَطُ الطبيبِ إصابَةُ ٱلمقدارِ[3]

وقال: إذا ٱنقضت ٱلمدّة، كان ٱلهلاك في العُدّة.

وقال القدماء: لا خيرَ في القول إلّا مع الفعل، ولا في المَنظَرِ إلّا مع المَخبَر، ولا في المال إلّا مع ٱلجود، ولا في الصديق إلّا مع الوفاء، ولا في الفقهِ إلّا مع الورع، ولا في الصدقةِ إلّا مع حسن النيّة، ولا في ٱلحياةِ إلّا مع الصحّة، ولا في السرورِ إلّا مع الأمن.

قال بعض بني تميم: حضرتُ مجلسَ الأحنف بنِ قيس وعنده قوم مجتمعون، فحمِد ٱلله وأثنى عليه، ثم قال: إن الكرمَ، مَنْعُ الحُرَم؛ ما أَقرَبَ النِّقمة من أهل البغي! لا خيرَ في لذّة تُعقِب ندمًا؛ لن يَهلِكَ مَن قَصَد، ولن يفتقرَ مَن زَهَد؛ ربّ هزل قد عاد جِدًّا؛ من أَمِن الزمانَ خانَه، ومن تَعظَّم عليه أهانه؛ دَعوا ٱلمزاح فإنه يؤرِّث[4] الضغائن؛ وخيرُ القول ما صدّقه الفعل؛ احتملوا مَن أَدَلَّ[5] عليكم، وٱقبلوا عذرَ من ٱعتذر إليكم؛ أطع أخاك وإن عصاك، وصِلْه وإن جفاك؛ أَنصِفْ مِن نفسِك قبل أن يُنتصَف منك؛ وإيّاكم ومشاورةَ النساء؛ وٱعلم أنّ كفر النعمة لؤم، وصحبة

(١) الآفة: كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو غيرها.
(٢) في الأصل: «مجانيه» بدل «موارده» وهو تحريف والتصويب عن (وفيات الأعيان ١/ ٥٠٠)، والموارد: ما يرده الإنسان للاستقاء أي موارد الماء، والإصدار الرجوع عن المصادر بعد الإرتواء.
(٣) يلحون: يلومون ويخاصمون.
(٤) يورّث: أرّث النار تأريثًا: إذا أوقدها.
(٥) أدلّ عليه: إذا وثق بمحبته فأفرط عليه.

ٱلجاهل شؤم؛ ومِن الكرم، الوفاء بالذمم؛ ما أقبحَ القطيعةَ بعد الصِّلة؛ والجفاء بعد اللُّطْف، والعداوةَ بعد الوُدّ! لا تكونَنّ على الإساءة أَقوَى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أَسرَعَ منك إلى البذل؛ وٱعلم أنّ لك من دنياك، ما أصلحتَ به مَثواك، فأَنفِق في حقٍّ ولا تكونَنّ خازنًا لغيرك؛ وإذا كان الغدرُ موجودًا في الناس فالثقةُ بكلّ أحد عجْز؛ اعرِف ٱلحقَّ لمن عرَفه لك؛ وٱعلم أنّ قطيعةَ الجاهل، تعدل صِلةَ العاقل. قال: فما رأيتُ كلامًا أبلغَ منه، فقمتُ وقد حفظتُه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن كلام عليٍّ رضي الله عنه: من أَبْصَر عيبَ نفسه شُغِل عن عيب غيره؛ ومن سَلّ سيف البغي قُتِل به؛ ومن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها؛ ومن هَتَك حجابَ أخيه ٱنهتكتْ عوراتُ بيتِه؛ ومن نسَي خطيئته ٱستَعظَم خطيئةَ غيره، ومن تَكبّر على الناس ذَلّ؛ ومن سَفُه على الناس شُتِم؛ ومن خالط العلماءَ وُقِّر، ومن خالط الأنذالَ حُقِّر؛ ومن أكثر من شيءٍ عُرِف به؛ والسعيدُ من وُعِظ بغيره؛ وليس مع قطيعة الرحم تُقى، ولا مع الفجور غِنى؛ رأسُ العلم الرفق، وآفتُه الخُرْق[1]؛ كثرةُ الزيارة تورث ٱلملالة.

وقال موسى بنُ جعفر: ما تَسابّ ٱثنان إلّا ٱنحطّ الأعلى إلى مرتبة الأسفل.

وقال آخر: ما تَسابّ ٱثنان إلا غَلَب ألأمُهما.

وقال ٱلحسن بن عليّ بن موسى الرِّضا: اعلم أن للحِباء[2] مقدارًا فإن زاد عليه فهو سَرَف[3]، وللحزم مقدارًا فإن زاد عليه فهو جبن، وللاقتصاد مقدارًا فإن زاد عليه فهو بخل.

قال مهديُّ بن أبان: قلتُ لوَلّادةَ العَبْديّةِ[4] وكانت من أعقل النساء ـ: إنّي أريد ٱلحج فأوصيني، قالت: أُوجِزُ فأبلغ، أم أطيلُ فأُحْكِم؟ فقلت: ما شئتِ؛ فقالت: جُدْ تَسُدْ، وٱصبر تفُز؛ قلت: أيضًا؛ قالت: لا يُبعِد غضبُك حلمَك، ولا هواك عِلمَك؛ وقِ دينَك بدنياك، وقِ عِرْضَك بعَرَضِك[5]؛ وتَفَضَّلْ تُخدَم، وٱحلمُ تُقدَّم؛ قلت: فبمن

(١) الخرق: الأحمق.
(٢) الحباء بكسر الحاء: العطاء.
(٣) السرف: التبذير.
(٤) ولادة العبدية: لعلّها ولّادة بنت المستكفي، شاعرة أندلسية اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدون، وكانا يهويانها وهي تحبّ الأول وتكره الثاني ماتت سنة ٤٨٤ هـ. (الأعلام ١١٨/٨).
(٥) العرض: الشيء الزّائل.

أستعين؟ قالت: بالله؛ قلت: من الناس؛ قالت: الجَلْد[١] النشيط، والصالح الأمين؛ قلت: فمن أستشير؟ قالت: المجرِّبَ الكَيِّس[٢]، أو الأديبَ الأريب؛ قلت: فمن استصحب؟ قالت: الصديقَ المسلِّم، أو المؤاخِي المتكرِّم؛ ثم قالت: يأبناه، إنك تَفِد إلى مَلِك الملوك فٱنظر كيف يكون مقامُك بين يديه.

وقال حكيم: مَن الذي بلغ جسيمًا فلَم يَبطَر[٣]، وٱتّبع ٱلهوى فلَم يَعطَب[٤]؛ وجاوَر النساء فلَم يَفتتن، وطَلب إلى اللئام فلَم يُهَنْ، وواصَل الأشرارَ فلَم يندم، وصَحِب السلطانَ فدامت سلامتُه.

وقال: الاعتبارُ يفيدك الرشاد، وكفاك أدبًا لنفسك ما كرهتَ من غيرك.

وكان يقال: عليكم بالأدب فإنه صاحبٌ في السَّفر، ومُؤنسٌ في الوُحدة، وجمالٌ في ٱلمَحْفِل، وسببٌ إلى طلب ٱلحاجة.

وقال بعضهم: إحذر كلَّ ٱلحذر من أن يخدَعَك الشيطان فيمثِّلَ لك التوانيَ[٥] في صورة التوكّل، ويُورثَك الهُوَينَى[٦] بالإحالة على القَدَر، فإن الله تعالى أمر بالتوكّل عند ٱنقطاع الحيَل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النّساء: الآية ٧١]، ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥].

وقال آخر: لا تجاهد ٱلطلبَ جهادَ الغالب، ولا تتّكل على القدر ٱتّكالَ المستسلِم، فإنّ ٱبتغاءَ الفضل من السُّنّة[٧]، والإجمال[٨] في الطلب من العفّة، وليست ٱلعفّةُ بدافعة رزقًا، ولا ٱلحرصُ بجالب فضلًا.

وقالوا: عشرُ خصالٍ في عشر أصناف أقبحُ منها في غيرهم: الضيقُ في ٱلملوك، والغدرُ في الأشراف، والكذبُ في القضاة، والخديعةُ في العلماء، والغضبُ في الأبرار، والحرصُ في الأغنياء، والسَّفَهُ في الشيوخ، والمرضُ في الأطبّاء، والزَّهوُ في الفقراء، والفجورُ في القُرّاء[٩].

وقالوا: ثمانيةٌ إذا أهينوا فلا يلوموا إلّا أنفسَهم: الآتي طعامًا لم يُدْعَ إليه، والمتأمِّرُ على ربّ ٱلبيت في بيته، وطالبُ ٱلمعروف من غير أهله، وراجِ

---

(١) الجلد: القوي الصابر على المكروه.
(٢) الكيّس: العاقل الفطين.
(٣) يبطر: يكفر بالنعمة.
(٤) يعطب: يفسد وينكسر.
(٥) التواني: التقصير.
(٦) الهوينى: الخفض والدّعة.
(٧) السنّة: الشريعة والطريقة المحمّديّة.
(٨) الإجمال: الاعتدال والتأنّي.
(٩) المراد بالقرّاء: أي حفظة القرآن والتالون له.

مِنَن[1] الفضلِ من ٱللئام، والداخلُ بين ٱثنين لَم يُدخِلاه، والمستخفُّ بالسلطان، والجالسُ مجلسًا ليس له بأهل، والمقبِلُ بحديثه على مَن لا يسمعه.

ومن الأبيات المناسبة لهذا الفصل قولُ الأضبَط بن قُرَيع[2]: [من المنسرح]

لِكلّ ضِيقٍ من ٱلهموم سَعَة ... والمُسْيُ والصبح لا بقاءَ مَعَه
فصِلْ حبالَ البعيد إن وصل الـ ... ـحبلَ وأقص القريبَ إن قطعَه[3]
وخذ من الدهر ما أتاك به ... من قَرَّ عينًا بعيشِه نفَعَه
لا تَحقِرنّ الفقيرَ علَّك أن ... تَركَع يومًا والدهرُ قد رفَعَه[4]
قد يَجمع ٱلمالَ غيرُ آكِله ... ويأكل المالَ غيرُ مَن جَمَعَه

وقال أُحَيحَة[5]: [من الوافر]

فما يدري الفقيرُ متى غِناه ... ولا يدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[6]
ولا تدري إذا أزمَعتَ أمرًا ... بأيّ الأرض يأتيك ٱلمَقِيلُ[7]

وقال الصَّلَتان العبديّ[8]: [من المتقارب]

أشاب الصّغيرَ وأفنَى الكبيـ ... ـرَ كَرُّ الغداة ومَرُّ العَشِي[9]
إذا ليلةٌ هَرّمتْ يومَها ... أتَى بعد ذلك يومٌ فَتِي[10]

---

(١) المنن: مفردها «المنّة» وهي الإحسان والإنعام.
(٢) هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعرٌ جاهليّ قديم أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأوّلين فقال: «بكلّ وادٍ بنو سعد» يعني قومه. (الأعلام ١/ ٣٣٤).
(٣) أقص القريب: أي ابتعد عنه واهجره. (٤) تركع يومًا: أي تفتقر بعد غنى أو تنحط.
(٥) أحيحة: هو أحيحة بن الجلاح، كان سيّد الأوس في الجاهلية وكانت سلمى أمّ عبد المطلب بن هاشم تحته، وهي كانت لا تنكح الرّجال إلّا وأمرها بيدها فتركته، فتزوّجها هاشم فولدت له عبد المطلب، وكان أحيحة كثير المال شحيحًا عليه، ويبيع بيع الرّبا، وكان له تسع وتسعون بئرًا مات نحو سنة ١٣٠ ق هـ. (الأعلام ١/ ٢٧٧).
(٦) يعيل: يفتقر.
(٧) أزمعت: عزمت وصممت، والمقيل: الرّقود، ولعلّه يريد الموت.
(٨) الصّلتان العبدي: هو قثم بن خبيئة من عبد القيس واجتمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجرير، ففضّل شعر جرير وقوم الفرزدق مات نحو سنة ٨٠هـ. (الأعلام ٥/ ١٩٠).
(٩) كرُّ الغداة: تواليها. (١٠) يومٌ فتي: أي يوم جديد بعد يوم منصرم.

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لا تنقضي
تموت مع ٱلمرء حاجاتُه وتَبقَى له حاجةٌ ما بَقِي

وقال المتنبّي: [من البسيط]

ذكرُ الفتى عُمرُه الثاني وحاجتُه ما قاته وفضولُ العيش أَشغالُ

وقد جُمِعَ من شعر أبي الطيّب في ذلك ما وافق كلام أَرِسْطوطاليسَ في الحكمة؛ فمن ذلك قول أَرِسْطوطاليس: إذا كانت الشهوةُ فوق القدرة كان هلاكُ ٱلجسم دون بلوغ الشهوة.

قال المتنبّي: [من الخفيف]

وإذا كانت النفوس كبارًا تَعِبتْ في مُرادها الأجسامُ

وقال أَرِسْطوطاليس: قد يفسد العضو لصلاح أعضاء، كالكيّ والفصد[١] اللّذين يُفسِدان الأعضاءَ لصلاحِ غيرِها. نقله المتنبّي إلى شعره فقال: [من البسيط]

لعلّ عَتْبَك محمودٌ عواقبُه فربّما صحّت الأجسادُ بالعِللِ[٢]

وقال أَرِسْطوطاليس: الظلم من طبع النفوس، وإنما يصدّها عن ذلك إحدى علّتين: إمّا علّة دينيّة خوف مَعاد[٣]، أو علّة سياسيّة خوف سيف.

قال المتنبّي: [من الكامل]

والظلمُ من شِيَم النفوس فإن تَجِدْ ذا عفّةٍ فلعلّةٍ لا يَظلِمُ

هذا ما ٱتفق إيرادُه في هذا الباب من أمر كتابة الإنشاء، وكلام الصحابة وٱلخلفاء، وذوي الفصاحة من الأمراء، وبلاغاتِ ٱلخطباء والفصحاء، ورسائلِ الفضلاء والبلغاء، وفِقَرِ الكتّاب والأدباء، وحِكَمِ أوائل ٱلحكماء؛ وهو ممّا يُضطرّ الكاتبُ إليه، ويَعتمِد في الاطلاع على ما خفي من أمر هذه الصناعة عليه؛ وهي إشاراتٌ إلى مجموعِها، ورشفاتٌ من يَنبوعِها؛ وبابٌ يتوصّل منه إلى رحابِها، وسلّمٌ يرتقي عليه إلى هضابِها، ومَسِيلٌ عذبٌ يتّصل بعبابِها[٤]؛ فقد وَضَح لك أيّها الطالبُ السبيل، وظهر لك أيّها الراغبُ قيام الدليل؛ وفيما أوردناه كفايةٌ لمن تَمسّك بهذه الصناعة

(١) الفصد: إخراجُ مقدارٍ من دم الوريد بقصد العلاج.
(٢) العِلل: الأمراض، والعلّة: السّبب. (٣) المعاد: الحياة الآخرة، والبعث بعد الموت.
(٤) العباب: السّيل.

ورغب فيها، وغُنيةٌ لمن تأمَّل مقاصدها وتدبَّر معانيها؛ فلنذكر كتابةَ الديوان والتصرّف.

ذكر كتابة الديوان وقلم التصرف وما يتصل بذلك

قد ذكرنا في أوّل هذا الباب في السفر السابع من هذا الكتاب ٱشتقاقَ الكتابة، ولم سُمّيتْ بذلك، وذكرنا أيضًا أصلَها وشرفَها وفوائدَها، فلا حاجة إلى إعادته في هذا ٱلموضع، فلنذكر الآن ما يتعلّق بقلم الديوان والتصرّف وٱلحساب؛ وإن كنا قدّمنا ذكرَ كتّابِ الإنشاء لِما هم بصدده من الصدارة والوجاهة، والنبالة والنباهة؛ والفصاحةِ والصباحة، والنزاهةِ والسماحة؛ والأمانةِ والديانة، والسيادة والصيانة؛ ولِما تصدَّوا له مِن كتمِ أسرار الدُّوَل، وتردَّوا به من محاسِن الأواخرِ ومَآثِرِ الأُوَل، وٱلتَحفوا به من مَطارف الفضائل والمكارم، وتحلّوا به من صفات الأفاضل والأكارم؛ إلى غير ذلك من مناقبهم الجمّة[١]، وأياديهم ٱلتي وَضَحتْ غررًا في ليالي ٱلخطوب المدلهمّة[٢]؛ فكتّابُ ٱلحساب أكثرُ تحقيقًا، وأقربُ إلى ضبط الأموال طريقًا، وأدلُّ برهانًا، وأوضحُ بيانًا، قال ٱلله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ١٢] وذهب بعض ٱلمفسرين لكتاب الله تعالى في قوله تعالى إخبارًا عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: الآية ٥٥] أي كاتبٌ حاسب.

وروى البخاريّ عن أبي حُمَيد الساعديّ[٣] قال: «استعمل رسولُ الله ﷺ رجلًا من الأَسْد[٤] على صدقات بني سَليم يُدعَى ٱبنَ اللُّتْبية[٥] فلمّا جاء حاسَبَه» فقد صحّ أنّ رسول الله ﷺ حاسَبَ؛ وبكتّاب ٱلحساب تُحفَظ الأموال وتُضبَط الغلال؛ وتُحَدُّ قوانينُ البلاد؛ وتُميَّز الطوارفُ من التِّلاد؛ لَم يفخَر كُتّاب الإنشاء بمَنقَبة إلا فَخَروا بمناقب، ولا سَمَوا إلى مرتبة إلّا وقد رَقُوا إلى مراتب؛ ولا تَميَّزوا برسالة إلّا ولهؤلاء

---

(١) الجمّة: الكثيرة.
(٢) المدلهمة: الشديدة السواد.
(٣) أبو حميد الساعدي: قيل عبد الرحمٰن، وقيل منذر، له صحبة، محدّث بقي إلى حدود سنة ٦٠ هـ. (الكاشف ٣/ ٢٨٩).
(٤) الأَسْد: بالسّين وهو أفصح، ويقال: الأزْد بالزاي، وهو أبو حيّ من اليمن، ومن أولاده الأنصار كلّهم.
(٥) ابن اللُّتبية: هو عبد الله، واللّتبية أمّه، نسبة إلى بني لُتب، وهم حيّ من الأزد. (انظر صحيح البخاري ١/ ٣٨٢. ط، ليدن).

فيها القِدْحُ[١] المعَلَّى، ولا نُسِبوا إلى نباهة إلّا ومحلُّهم فيها المحلُّ الأرفعُ ومقامُهم ٱلمقامُ الأعلى؛ ولا ٱتصفوا بكتمان سرٍّ إلّا ٱتصف هؤلاء بمِثلِه، ولا شُهِروا ببذل برٍّ إلا وهؤلاء هم أعيان أهلِه؛ ثم ٱختصّ كُتّابُ التصرف بأمورٍ مُنِع أولئك منها، وأُطلِقتْ أقلامُهم في أقلام[٢] حُبِستْ أقلامُ أولئك عنها؛ وٱرتقَوا إلى قُلَل مراتبَ كَبَتْ جِيادُهم[٣] عن إدراك غايتِها، وتَسنّموا ذرا مناصبَ لا تمتدّ الآمالُ إلى أكثرَ من نهايتِها؛ ولسنا نقيمهم في محلّ المناظرة، ولا نوقفهم في موقف المكاثرة والمفاخرة؛ بل لكلٍّ طائفة فضلٌ لا ينكَر، وفضائلُ هي أشهرُ من أن تملى وتسطَّر؛ ولمّا ٱنتهيتُ في كتابي هذا إلى باب الكتابة، أردت أن أضرب عن ذكر كتابة التصرّف صفحًا، ولا أُعيرها من النظر لمحًا، وأقتصر على كتابة الإنشاء جريًا على عادة من صنّف، وقاعدةِ من ألّف؛ فسألني بعض إخواني أن أضع في ذلك ملخَّصًا يَعلم منه المباشِرُ كيف المباشَرة، ويستضيء به فيما يسترفعُه[٤] أو يرفعه[٥] من ضريبةٍ ومُوافرة؛ فأوردتُ هذه النُّبذة إزالةً لسؤالِه، وتحقيقًا لآمالِه؛ وذكرتُ من صناعة الكتابة ما هو بالنسبة إلى مجموعها قطرةٌ من بحرِها، وشَذْرةٌ[٦] من عقود درّها؛ ممّا لا بدّ للمبتدي من الإحاطة بعِلمِه، والوقوفِ عند رسمه؛ وحين وضعتُ ما وضعتُ من هذه الصناعة لم أقِفْ قبل ذلك على كتاب في فنّها مصنَّف، ولا ٱنتهيتُ إلى فصل مترجَم[٧] بها أو مؤلَّف؛ ولا لمحتُ في ذلك إشارة، ولا سمعتُ من لخّص فيها عبارة؛ ولا من تفوّه فيها ببنت شفةٍ ولسان، ولا من صرَّف ببنانِ بلاغتِه في ميادينها ٱلعِنان؛ حتى أقتدي بمثالِه، وأنسُجَ على منوالِه؛ وأسلك طريقه في الإجادة، وأحذوَ حذوَه في الإفادة؛ بل وجدُتها مقفَلةَ ٱلباب، مسبَلَةَ[٨] الحجَاب؛ قد ٱكتفَى كلُّ كاتب فيها بعلمِهِ، وٱقتصر على حسب فهمِه؛ فراجعتُ فيها الفكرة، وعطفتُ بالكرّة بعد الفرّة[٩]؛ ثم قرعتُ بابها ففُتِح بعد غَلْقِه[١٠]، ورفعتُ حجابَها ففُتِق بعد رَتْقِه؛ وٱمتَطيتُ صهوتَها فلانت بعد جماحِها[١١]، وٱرتقيتُ ذُروتها فظهر للفكرة طريقُ نجاحِها؛ فشرعتُ عند ذلك في تأليف ما وضعتُه،

---

(١) القدح: السّهم في القمار، والمعلّى: السابع من أسهم القمار.
(٢) الأقلام: المراد بها هنا أنواع كتابة الديوان كما هو المصطلح عليه عند كتّاب الدواوين.
(٣) كبت الجياد: انكبّت على وجوهها وقصّرت.
(٤) يسترفعه: أي يطلب من غيره أن يرفعه إليه. (٥) يرفعه: أي يرفعه هو إلى غيره.
(٦) الشذرة: اللؤلؤة الصغيرة. (٧) المترجم بفتح الجيم: المسمّى.
(٨) المسبلة: التي أرخت الحجاب وأسبلته. (٩) الكرّة بعد الفرّة: أي الإقبال بعد الإحجام.
(١٠) الغلق: مصدر غلقت الباب، وهي لغة قليلة.
(١١) الجماح: الشرود والنّفور.

وترصيفِ[١] ما صنفتُه؛ وبدأتُ بٱشتقاق تسمية الديوان، ولِم سُمِّيَ ديوانًا، ثم ذكرت ما تفرّع من كتابة الديوان من أنواع الكتابات، وأوّلَ ديوان وُضِع في الإسلام، وسببَ وضعِه، ثم ذكرت ما يحتاج إليه كلُّ مباشر من كيفيّة المباشَرة وأوضاعها، وما ٱستقرّتْ عليه ٱلقواعد العرفيّة[٢]، والقوانينُ الاصطلاحيّة[٣]، وما يرفعه كلُّ مباشر ويسترفعه[٤]، والأوضاع ٱلحسابية، على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه، وترجع فيما أَشكَل من أمورها إليها.

ذكر ٱشتقاق تسمية الديوان
ولِمَ سُمِّي ديوانًا ومن سمّاه بذلك

قد ٱختُلِف في تسمية الديوان ديوانًا على وجهين: أحدهما أنّ كسرى[٥] ٱطّلع ذات يوم على كتّاب ديوانه، فرآهم يحسبُون مع أنفسهم، فقال: دِيوانه: أي مجانين؛ فسُمِّيَ موضعُهم بهذا الاسم، ثم حُذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفًا للاسم، فقيل: ديوان. والثاني أن الديوان بالفارسيّة ٱسمٌ للشياطين، فسُمِّيَ الكتّابُ بٱسمهم لحِذقهم بالأمور، ووقوفِهم على الجليّ[٦] والخفيّ، وجمعِهم لما شذّ وتَفرّق، وٱطلاعِهم على ما قُرب وبُعد، ثم سُمِّيَ مكانُ جلوسهم بٱسمهم، فقيل: ديوان. هذا ما قيل في تسميته على ما حكاه ٱلماورديُّ في الأحكام السلطانيّة؛ والله أعلم.

ذكر ما تَفرّع عن كتابة الديوان من أنواع الكتابات

هذه الكتابة تنقسم إلى أقسام ووظائفَ: أصولٍ وفروع، وهي: مباشَرةُ الجيوش[٧]، ومباشَرةُ الخِزانة، وبيت المال، وأهراءِ[٨] الغلال، ومباشَرةُ البيوت،

---

(١) الترصيف: التجميع والتنضيد.
(٢) العرفيّة: من العرف: يريد القواعد التي تعارف عليها الناس في عاداتهم وتقاليدهم وتصرّفاتهم.
(٣) الاصطلاحية: ما اصطلح عليه الجماعة واتفقوا.
(٤) يسترفعه: أي يطلب من غيره أن يرفعه إليه.
(٥) كسرى: هو كسرى أنوشروان، أشهر ملوك الفرس وأحسنهم سيرة وأخبارًا، وفي أيّامه ولد رسول الله ﷺ، وقال: ولدت في زمن الملك العادل. (انظر إعجام الأعلام: ٦٨، دار الكتب العلمية).
(٦) الجليّ: الواضح.
(٧) مباشرة الجيوش: أي الكتابة المتعلّقة بالجيش.
(٨) الأهراء: جمع «هُرِيّ» وهو بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان.

ومباشَرةُ الهِلاليّ[١]، ومباشَرةُ الجوَالِي[٢]، ومباشَرةُ ٱلخراجيّ، ومباشَرةُ الأقصاب[٣] وٱلمعاصِر ومطابخِ السكّر؛ ويحتاج مباشرُ كلِّ وظيفة من هذه الوظائف إلى معرفة قواعدَ يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى؛ ولنبدأ بذكر مباشرة ٱلجيوش.

ذكر مباشرة ديوان ٱلجيش وسبب وضع الدواوين وأول من وضعها في الإسلام

وديوانُ ٱلجيش هو أوّلُ ديوان وُضِع في الإسلام[٤]، وضعه عمرُ بنُ ٱلخطّاب ـ رضي الله عنه ـ في خلافته؛ وقيل: بل وُضِع في عهد النبيّ ﷺ، ويدلّ على ذلك أن البخاريَّ ـ رحمه الله ـ تَرجَم على هذا بقوله: باب كتابة الإمام الناسَ، قال: حدَّثنا محمدُ بن يوسف، قال: حدَّثنا سفيانُ عن الأعمش عن أبي وائلٍ عن حُذَيفةَ: قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تَلفَّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفًا وخَمسمائة رجل» وقد روى البخاريُّ أيضًا بسنده عن ٱبن عبّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي ٱكتُتبتُ[٥] في غزوة كذا وكذا، وٱمرأتي حاجّة؛ قال: ارجع فٱحجُج مع ٱمرأتك».

وٱختلف الناس في سبب وضعه في أيّام عمر، قال قوم: سببُه أنّ أبا هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قَدِم بمال من البحرين، فقال له عمر رضي الله عنه: ماذا جئتَ به؟ قال خَمسمائة ألفِ درهم، فٱستكثَرَه عمرُ وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر: أطَيّبٌ[٦] هو؟ فقال: لا أدري؛ فصَعِد عمرُ رضي الله عنه ٱلمنبَر، فحمِد ٱلله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كِلنا لكم كيلًا، وإن شئتم عَددنا [لكم عدًّا][٧]؛ فقام إليه رجل

(١) الهلالي: عبارة عمّا تستأدى أجوره مشاجرة، كأجر الأملاك المسقَّفة والحوانيت والحمّامات وغيرها.

(٢) الجوالي: جمع جالية وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذّمة.

(٣) الأقصاب: مفردها القصب، وقد يكون المراد هنا القصبة التي تعني المدينة والحصن، أو منبت القصب ومراكز تصنيعه واستخراج السّكر منه.

(٤) في (صبح الأعشى ١/ ١٢٥، دار الكتب العلمية) أن ديوان الإنشاء هو أوّل ديوان وضع في الإسلام، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصّحابة ويكاتبونه، وكتب إلى من قرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام... وهذه المكتوبات متعلّقها ديوان الإنشاء.

(٥) اكتُتبت: أي سُجّلت في عداد الجيش.

(٦) الطيّب: الحلال، وهو ضد الخبيث.

(٧) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٤ ـ ط، المنيا.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيتُ الأعاجم يدوِّنون ديوانًا لهم، فدوِّن أنت [لنا][(١)] ديوانًا.

وقال آخرون: بل سببُه أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ بعث بعثًا وعنده الهُرْمُزانُ[(٢)]، فقال لعمر: هذا بعثٌ قد أعطيتَ أهلَه الأموال، فإن تخلّفَ رجلٌ منهم وأَخلّ بمكانه فمن أين يَعلَم صاحبُك[(٣)]؟ فأَثبِتْ لهم ديوانًا؛ فسأله عن الديوان حتى فسّره له.

ورَوَى عابد بن يحيىٰ عن [الحارث][(٤)] بن نُفَيل أن عمر رضي الله عنه استشار ٱلمسلمين في تدوين الدواوين، فقال عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: تَقسِم في كلّ سنة ما ٱجتمع إليك من ٱلمال ولا تُمسِك[(٥)] منه شيئًا؛ وقال عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: أَرى مالًا كثيرًا يسَع الناسَ، وإن لم يُحصوا حتى يُعرَفَ من أَخَذَ ممن لم يأخذْ خشِيتُ أن ينتشر الأمر؛ فقال خالد بنُ الوليد: قد كنتُ بالشأم فرأيتُ ملوكها دَوّنوا ديوانًا، وجَنّدوا جنودًا، [فدَوِّن ديوانًا، وجَنِّد جنودًا][(٦)] فأَخَذ بقوله، ودعا عَقيلَ بنَ أبي طالب ومَخْرَمَةَ بنَ نوفل وجُبَيرَ بنَ مطعم ـ وكانوا من كتّاب قريش ـ فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدءوا ببني هاشم فكتبوهم، ثم أتبعوهم قومَ أبي بكر، ثم عمرَ وقومَه، وكتبوا القبائل ووضعوها على ٱلخلافة[(٧)]، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فلمّا نظر فيه قال: لا، [ما][(٨)] وَدِدتُ أنّه كان هكذا، ولكن ٱبدءوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه ٱلله؛ فشكره العباس رضي الله عنه على ذلك؛ وكان ذلك في ٱلمحرّم سنة عشرين من ٱلهجرة، وقيل في

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية...

(٢) الهرمزان: بضمّ أوله وسكون ثانية وضمّ ثالثه: وهو الكبير من ملوك العجم. والمرزبان: هو الرئيس من الفرس... (انظر صبح الأعشى ١٣/ ١١٣).

(٣) يريد بقوله: صاحبك: أي أمير الجيش.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية للماوردي، ولعلّه يقصد الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي، وهو صحابي ولّاه النبي ﷺ بعض أعمال مكّة، وأقرّه أبو بكر وعمر وعثمان مات في البصرة نحو سنة ٣٥ هـ. (الأعلام ٢/ ١٥٨).

(٥) تمسك: تخزُن.

(٦) ما بين قوسين تكملة عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٥.

(٧) لعلّه يريد بقوله: ووضعوها على الخلافة: أنهم جعلوا ترتيب القبائل في الديوان على حسب قربهم في النسب من القبيلة التي فيها الخلافة.

(٨) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية.

سنة خمس عشرة، ـ والله أعلم ـ؛ فلما ٱستقرّ ترتيب الناس في الدواوين على قَدر النسب ٱلمتصلِ برسول الله ﷺ فَضّل بينهم في العطاء على قدر السابقة في الإسلام. وسنذكر إن شاء ٱلله في خلافة عمر رضي الله عنه ما فرضه من العطاء لكلّ طائفة على ما ستقف عليه ـ إن شاء ٱلله تعالى ـ في موضعه من فنّ ٱلتاريخ؛ وهو في السفر السابع عشر من كتابنا هذا؛ فهذا كان سببَ وضعِ ديوانِ ٱلجيش.

وأما دواوين الأموال ـ فإنها كانت بعد ظهور الإسلام بالشأم والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فكان ديوان الشأم بالروميّة لأنه كان من ممالك الروم؛ وكان ديوان ٱلعراق بالفارسيّة لأنه كان من ممالك الفُرس؛ فلم يزل أمرهما جاريًا على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان، فنقل ديوان الشأم إلى العربيّة في سنة إحدى وثمانين من الهجرة؛ وكان سبب نقلِه ـ على ما حكاه المدائنيّ[١] ـ أن بعض كتّاب ٱلروم في ديوانه أراد ماءً لدواته، فبال في الدواة، فبلغه ذلك فأدّبه، وأمر سليمانَ بنَ سعد أن ينقل الديوانَ إلى العربيّة، فسأله أن يُعِينه بخراج الأُرْدنّ[٢] سنةً، ففعل وولّاه الأُرْدُن، وكان خراجُه مائةَ ألف وثمانين ألف دينار، فلم تنقِض السنةُ حتى فرغ من الديوان ونَقَلَه، وأَتَى به عبدَ الملك فدعى سرجونَ[٣] كاتبَه فعرضه عليه فغمّه وخرج كئيبًا، فلقِيَه قوم من كتّاب الروم، فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه ٱلصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان العراق ـ فكان سبب نقلِه إلى العربيّة أنّ كاتب الحجّاج بنِ يوسف كان زاذان فَرُّوخ[٤]، وكان معه صالح بنُ عبد الرحمٰن يكتب بين يديه بالعربيّة والفارسيّة، فأوصله زاذان فَرُّوخ إلى الحجاج، فخفّ على قلبِه، فقال صالحٌ لزاذان فرّوخ إنّ ٱلحجاج قد قرّبني ولا آمن أن يقدّمني عليك؛ فقال: لا تظنَّ ذلك فهو إليّ أحوَجُ منّي إليه، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري؛ فقال له صالح: والله لو شئتُ أن أحوّل ٱلحساب إلى العربيّة لفعلت؛ فقال: فحوِّلْ منه ورقة أو سطرًا حتى أرى، ففَعَل؛ ثم قُتِل زاذان فَرُّوخ في حرب عبد الرحمٰن بن الأشعث، فٱستَخْلَف ٱلحجّاج

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، أبو الحسن، مؤرّخ إخباري راوية للشعر توفي سنة ٢٢٥ هـ. (تقدّم ذكره).

(٢) الأردن: بضمّ الهمزة وتشديد النون: كورة واسعة، منها الغور وطبريّة وعكا وصور وما بين ذلك. . .

(٣) في الأصل «سرحون» والتصويب عن (الطبري ٢/٨٣٧، ط، ليدن).

(٤) في الأصل «زاذا بقروخ» والتصويب عن (مقدّمة ابن خلدون، ص ١١٩، ط، بولاق).

صالحًا مكانَه، فذَكَر له ما جرى بينه وبين زاذان فَرُّوخ فأمره أن ينقله، فأجابه إلى ذلك وأجّلَه فيه أجلًا[١] حتى نقله إلى العربيّة، فلمّا عرف مَرْدانشاه بن زاذان فَرُّوخ ذلك بذَل له مائةَ ألف درهم ليُظهِر للحجّاج العجزَ عنه، فلم يفعل؛ فقال له: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل ٱلفارسيّة.

وكان عبدُ الحميد بنُ يحيىٰ كاتبُ مروان يقول: لله دَرُّ صالح ما أعظم مِنّته[٢] على الكتّاب!

هذا ما حُكِي في ٱبتداءِ نقلِ الدواوين، فلنرجع إلى الجيش وما يحتاج إليه مباشرُه.

ذكر ما يحتاج إليه كاتب الجيش
على ما استقر في زماننا هذا من المصطلح

يحتاج كاتب الجيش إلى أن يرصّعَ[٣] أسماءَ أرباب الإقطاعات والنقودِ والمَكِيلات من الأمراء على ٱختلاف طبقتهم، والمماليك السلطانيّة، وأجنادِ الْحَلْقة[٤]، وأمراءِ التُّركمان والعربان؛ ويَضَعَ لذلك جريدة مُقفّاةً على حروف المُعجم يُثبِت فيها أسماءهم، ويذكر الاسمَ وٱبتداءَ إمرته أو جنديّته في أي سنة كانت من السنين الهلاليّة لاستقبال ما يكتب من مُغَلّ السنة الخراجيّة، وعمن ٱنتقل إليه الإقطاع؛ ويَرمُز قُبالَة كلّ ٱسم إلى عِبْرة[٥] إقطاعه رمزًا لا تصريحًا، ويشير في جنديّ الْحَلْقة إلى مقدَّمه، ويعيِّن في ٱسم التُّركمانيّ أو البدويّ ما قدّمه إلى الإصطبلات السلطانيّة والمُناخات من الخيل والجمال، وفي عربان مصر ٱلمقرَّرَ عليهم في مقابلة الإقطاعات من التَّقادم[٦]، وإقامةِ خيل البريد في المراكز، وغيرِ ذلك من نقلِ الغلال، وما هو مقرَّرٌ عليهم في ٱبتداء أمرهم عند خروج الإقطاعات بأسمائهم، وغير ذلك على جاري العادة، فإن ٱنتقل أحدٌ منهم من إقطاع إلى غيره في ذلك العمل بعينه وَضَع تحت إقطاعه الأوّل ما صورتُه: ثم ٱنتَقل إلى غيره بمقتضَى منشورٍ تاريخُه كذا عن فلان ٱلمنتقِل إلى غيره، أو

---

(١) الأجل: المدّة. (٢) المنّة: الإحسان والانعام.

(٣) يرصّع: من الترصيع: وهو التنظيم، ورصّع العقد: نظمه وضمّ بعضه إلى بعض.

(٤) أجناد الحلقة: يريد الجند الذين يحملون السّلاح.

(٥) العبرة: الظاهر أن المراد بها ما يقدّر على الإقطاعات أخذًا من سياق الكلام، وسمّيت بذلك لأنهم كانوا يعبرون المتحصّلة من البلد أي يقومونها بدنانير حبشية.

(٦) التقادم: الهدايا، وهو جمع تقدمة.

المتوفَّى، أو المفارِقِ، أو غير ذلك؛ فإن كان على سياقته في إقطاعه الأوّل قال: على سياقته؛ وضَبَط تاريخَ الأوّل، وإن كان لاستقبال مُغَلٍّ[١] أو شيءٍ من مُغَلٍّ ميَّزَه، وٱحتاج إلى محاسبة ربّ الإقطاع على إقطاعه الأوّل؛ والمحاسَباتُ غالبًا إنما تقع بعد وفاة الأمير أو الجنديّ، أو ٱنفصالِه بوجه من وجوه الانفصالات، وأما ما دام في الخدمة فهي يتلو بعضُها بعضًا؛ وصورة المحاسبة أن يُقيم تاريخَ منشوره إلى تاريخ ٱنفصاله أو نقلته، ويَعقِدَ على ذلك جملةً، ويوجبَ له عن نظير خدمته استحقاقًا، وينظر إلى ما قبضه من المغلات فيجمعها، فإن كان قبضه نظير خدمته فلا شيء له ولا عليه، وإن زاد قبضُه على مدّة خدمته ٱستعاد منه ما زاد بنسبته، وإن كانت خدمتُه أكثرَ من قبضه أَفرَج له عن نظير ما فَضَل له؛ ومن العادة في غالب الأوقات أن يُسقط من ٱستحقاق أرباب الإقطاعات في كل سنة أحد عشر يومًا وربع يوم، وهي التفاوتُ بين ٱلسنة الشمسيّة والقمريّة، ويُبرِزَ له ما بقيَ ويُعطيَه المِثل من نسبة البارز، وقد سومح بذلك في بعض الأوقات دون بعض؛ وهذه ٱلجريدة تسمّى ٱلجريدةَ ٱلجيشيّة.

ويَحتاج إلى بسطِ جريدة[٢] إقطاع صورتها: أنه يرصّع الأعمال كلَّ عمل وبلاده وضياعه وكفوره[٣] وقراه وجزائره وجروفه[٤] وجهات الهلاليّ والجوَالي، وغير ذلك من معالمه وحدوده والجهات المستظهر بها والبذول[٥]، وسائرِ ما هو متعلّق بذلك المكان؛ ويَذكُر عِبرةَ البلد الجيشيّة، وما ٱستقرّ عليه حال متحصِّلها أخيرًا، وإن كان بالشأم ذَكَر العِبرةَ ٱلجيشيّة ومتحصِّلَ البلد لثلاث سنين: مقبلة ومتوسّطةٍ ومجدبة، ثم يشطب[٦] قبالةَ كلِّ جهة أسماءَ مُقطَعِيها، وما هو باسم كلِّ واحد منهم، ليَتحرّر له بذلك هل ٱستَوعب الإقطاعُ جملةَ النواحي والجهات، ويتميّز له ما بقيَ من المحلولات؛ وإن ٱنتقل ربُّ إقطاع من إقطاع إلى غيره بادَرَ بشطبه لوقته في موضعه لئلا يدخُل عليه الوَهَمُ[٧] والاختلاف.

---

(١) المغلّ: الذي يعطي غلّة كالضياع والإقطاعات.

(٢) الجريدة: هي كشوف تتضمّن تنظيم الأعمال وجداول دخلها وخرجها إلى غير ذلك من الحسابات. . .

(٣) الكفور: مفردها الكفر، وهي القرية الصغيرة.

(٤) الجروف: الأموال الكثيرة من النقود والمواشي.

(٥) البذول: لعلّها من بذل أي المدفوعات التي تدفع في سبيل الإصلاحات والتحصيلات.

(٦) يشطب: يظهر أن الشطب هنا بمعنى التقييد والنقل من المستندات إلى الدفاتر.

(٧) الوهم: الغلط.

ويحتاج إلى أن يتعاهد مباشري ٱلمعاملات والبرور[١] بطلب الكشوف الجيشيّة في كل ثلاث سنين ويشطبها على ما عنده لتتحرّر عنده العِبَر، ويتميَّز له ما تعَيَّن من الزيادة والنقص.

ويحتاج أيضًا إلى بسط جريدةٍ ثالثةٍ بأسماء أرباب النقود والمَكِيلات خاصّة، لأنه يحتاج أن يفرِج لكلِّ منهم في كلِّ سنة عن نقده ومَكِيله بمقتضى ما شَهِد به منشورُه، وعادةُ قبضِه وجِهتِه، أو ممّا تعيّن بقلم الاستيفاء إن كان، فإذا أَفرج لكلٍّ منهم شطب[٢] تاريخَ إفراجه قُبالة ٱسمه لتنضبط له بذلك تواريخُ قبوضهم ويَأمَنَ من التَّكرار والغلط؛ وهذه ٱلجريدة ٱلجيشيّة، فإنها يبسطها منها.

ويحتاج في أجناد الحَلْقة السلطانيّة إلى أن يُضيف كل جماعة منهم إلى مقدّمٍ مشهور من أعيانهم ممن هو متميِّز الإقطاع، ويقيمَ عليهم نقيبًا يَعرِف مساكنَهم ومظانَّهم[٣]، فإذا طُلِبوا جَمَعهم، أو طُلِب أحدٌ منهم أحضَرَه، ويُسمَّى هذا المقدَّمُ: مقدَّمَ ٱلحَلْقة؛ ويضيف كلَّ جماعة من أمراء الطَّبْلخاناه[٤] وأمراءِ العَشَرات، ومقدَّمِي ٱلحَلْقَة، ومضافِيهم إلى مقدَّم كبير من أمراء ٱلمائة، ويسمَّى هذا الأميرُ: مقدَّمَ الألف؛ ويحتاج إلى أن يضع لهاتين ٱلطائفتين[٥] جريدةَ عِدّة، يضع فيها ٱسمَ مقدَّم الألف وعِدّتَه من غير تفصيل لأسمائهم وقبالة اسمه عبرة إقطاعه، ما هو لخاصّه، وما هو لأصحابه، ثم أمراء الطبلخاناه كل أمير وعدّته، وعِبْرة إقطاعه، على ما تَقدَّم في مقدَّم الألف ويرتِّبهم في التقديم والتأخير على مراتبهم؛ ثم أمراء العَشَرات كذلك؛ ثم يذكر مقدَّمِي ٱلحَلْقة فيعيِّن ٱسمَ ٱلمقدَّم ونسبتَه وأتباعِه إن كان له أتباع، وعِبْرَةَ إقطاعه، ثم يذكر مضافِيه[٦] من ٱلحَلْقة على هذا ٱلحكم، ويرتِّبهم بحسب مراتبهم، يبدأ في كلّ تَقدِمةٍ بٱسم المقدَّم، ويختمُ باسم النقيب، ليسهل عليه طلبُ كلِّ جنديٍّ من مقدَّمه، ويطلبه مقدَّمه مِن نقيبه؛ وإن ٱنتقل أميرٌ أو جنديٌّ من مقدَّم ألف أو مقدَّم حَلْقة وٱنضاف إلى مقدَّم آخَرَ نقَلَه لوقته لئلّا يضطربَ[٧] عليه حالهُم، ويلتبسَ أمرُهم؛ وكذلك أيضًا يَفعل في ٱلمماليك السلطانيّة من إضافة كلِّ جماعة منهم إلى مقدَّم من أعيانهم، ويميِّز أربابَ

(١) البرور: لعلها من البرّ، ويريد بها الحبوب أو الغلّة.
(٢) الشطب: التقييد.
(٣) المظانّ: المصادر والمراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.
(٤) الطّبلخاناه: أي بيت الطب، وخاناه: لفظ فارسي معناه البيت إلّا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم في ذلك.
(٥) المراد بالطائفتين: الأمراء وأخيار الحلقة.
(٦) مضافيه: أي الذين أضيفوا إلى المقدّم.
(٧) يضطرب: يختل، أو يختلف.

الوظائف منهم: من السلاحداريّة[١] والحَرْبداريّة والرُّمحداريّة والجُمَقْداريّة[٢] والزَّرَدَكاشيّة[٣] والبُنْدقداريّة[٤] ومن السُّقاة[٥] والجَمَداريّة[٦] والخِزَنداريّة[٧] والحُرّاس والبَشْمَقداريّة[٨] وغيرِهم؛ ويضيف كلَّ جماعة من كلِّ طائفة منهم إلى متعيِّن من جملتهم، ويجمع عِدّة كلِّ طائفة ويقدِّم عليهم أمثلَهم؛ وأمّا المماليك الكتابيّة[٩] أربابُ الجامكيّات[١٠] فيَنسِبُ كلَّ جماعة منهم إلى طبقةٍ مُقدَّمُها من الطواشيّة، ويَنسِبُ المماليكَ البُرْجيّة[١١] إلى مساكنهم ومقدَّمِهم، والبحريَّة[١٢] إلى مراكزهم ومقدَّمِهم، والأُوشاقيّةَ ٱلذين إقامتُهم بالإسطبل إلى المقدَّم عليهم من الطواشيّة[١٣]، ويرجِع سائرَ المماليك السلطانيّة إلى مقدَّمهم الكبير، ولا يكون في الغالب إلّا من الطواشيّة الأمراء.

ويحتاج أيضًا إلى أوراقٍ أخر تتضمّن أسماءَ أمراء الميمنة وأمراء الميسرة، والجالس - وهو المقدَّم - أمامَ قلبِ ٱلجيش، وهذه الأوراق تكون جُمليّة يُستغنَى فيها بذكر مقدَّمِي الألوف دون مضافِيهم.

ويتلو هذه الأوراقَ أوراقٌ أخرُ - تتضمّن أسماءَ الأمراء الذين جرت عادتهم بصحبة ركاب السلطان في الصَّيد والركوبِ للمُتنزَّهات وفي الميادين للّعب بالكرة، وفي غير ذلك؛ هذا ما يحتاج إليه في الأمراء والمماليك السلطانيّةِ ورجالِ ٱلحَلْقة.

---

(١) السلاحدارية: أي ممسك السلاح، ودار لفظة فارسية معناها: ممسك.

(٢) الجمقدارية: نسبة إلى الجمقدار، وهو الذي يكون دائمًا حامل الدبوس.

(٣) الزدكاشية: هم لابسو الدروع، وكش باللغة الفارسية معناه لابس.

(٤) البندق: الذي يرمى به، والبندقارية هم الذين يحملون هذا البندق خلف السلطان أو الأمير.

(٥) السقاة: جمع ساق، وهو لقب على الذي يتولى مدّ السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط ونحو ذلك.

(٦) الجمدار: الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وجاما لفظة فارسية معناها الثوب، ودار معناها ممسك كما أسلفنا.

(٧) الخزندار: لقب على الذي يتحدث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرها.

(٨) البشمقدار: الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير، والبشمق معناها باللغة التركية النعل.

(٩) الكتابية: أي الذين يشتغلون بالكتابة.

(١٠) الجامكيات: الرواتب والأجور.

(١١) سميت هذه الطائفة بهذا الاسم نسبة إلى الأبراج التي كانوا يسكنونها في القلعة، ومنهم كانت دولة المماليك الثانية التي حكمت الديار المصرية.

(١٢) البحرية: هم طائفة المماليك البحرية يبيتون بالقلعة حول دهاليز السلطان كالحرس وأوّل من رتبهم وسمّاهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. (انظر صبح الأعشى ٤/ ١٦).

(١٣) الطواشيّة: هم الأستاذون المعروفون بالخدام، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة. (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١).

وأما أجناد الأمراء فإنّ مباشرَ ٱلجيش يَسترفِع من دواوينهم أوراقًا بعِدّة أجناد كلِّ أمير منهم، يُصْدِرُها كاتبُ عِدّة الأمير على عِدّة نُسخ بحسب المباشِرين للجيش، ويقول في صدرها ما مثاله: عَرضٌ رَفَعَه ٱلمملوكُ فلان الفلانيُّ على ما ٱستقرّ عليه ٱلحال إلى آخر كذا، والعِدّةِ خاصّته، وكذا كذا طواشيّا؛ ويشرح أسماء ٱلجند، وما أُقطِع بٱسم كلٍّ منهم من إقطاع ونقد ومكيل، مبتدئًا برأس المدرّج ومن يليه في ٱلجند، ثم مماليكِ الأمير وألزامِه، ويختمهم بالنقيب، ثم يعيِّن في آخر المدرّج ما بقي لخاصّ الأمير من النواحي وٱلجهات، وما عليه منه لأصحابه من نقد ومكيل إن كان؛ ويَلزَمه عملُ مَسِير على نواحي الإقاع يَشطُب[١] كلَّ جهة بأسماء من أقطِعتْ لهم، وما بَقِيَ منها للخاصّ إن كان؛ فإن كان منشور الأمير قد عُيِّن فيه ما هو لخاصّه وما هو لأصحابه فليس له أن يَقتطِع من المعيَّن لجنده ما يضيفه لخاصّه، ولا يُمنَع أن يقطع من خاصّه زيادةً لأصحابه؛ وهذه القاعدة لاحقة بقواعد الفقه، فإنّ له التصرّفَ في ماله دون مال غيره، وله أن يميِّز بعضهم على بعض بحسب أحوالهم ومراتبهم؛ فإذا رُفِعتْ إليه هذه الأوراقُ عَرَضَ جندَ كلِّ أمير في مجلس وليّ الأمر بمشهد من الأمراء وغيرِهم، فمن أجاز وليُّ الأمر عَرْضَه حَلَّاه[٢] قُبالَة ٱسمه، ويعيِّن في حُلاه سِنَّه ولونَه وقامتَه، ثم يذكُر حِلية وجهه، ويصف ما يتميّز به عن غيره من أثرٍ في وجهه أو غيرِ ذلك؛ ومَن ردّه وليُّ الأمر من العَرْض طولب الأمير بإقامة غيره، فإذا أقامه وعَرَضَه وأجاز وليّ الأمر عرضَه حَلّاه عند ذلك، وعيَّن تاريخ عَرْضِه إن كان عَرَضَه بعد يوم العَرْض الشامل؛ ويَرْقُم المباشر بقلمه على رأس أوراق العَرْض تاريخَ عَرْض ٱلجند؛ وتَستحِقّ هؤلاء ٱلجندُ الإقطاعاتِ والنقودَ والهلاليَّ من تاريخ عرضِهم وتدوينِهم في الديوان، والأمير من تاريخ منشوره؛ فإن مات جنديٌّ منهم أو فارق الخدمة أقام الأميرُ عوضَه، وعَرَضَه على وليّ الأمر، وأثبت ٱسمه بالديوان؛ وإن قطعه[٣] الأمير فلا يخلو قطعُه: إمّا أن يكون لسبب كالعجز ونحوه فله ذلك، وإما أن يكون بغير سبب فلا يخلو: إما أن يكون قَطْعُه له في قرب زمن إدراك المُغَلّ فلوليّ الأمر منعُه من ذلك، أو في غير وقت المُغَلّ، فإن عَرَضَ من هو أكْفَىٰ منه وأقدرُ على ٱلجنديّة أُجيزَ، وإن عَرَض من هو دونه مُنِع أميرُه من ذلك، وأُزِم بٱستمرار الكافي أو إقامة من يماثله في الكفاية والقدرة؛ وإذا عرض الأمير أصحابه في السنة الثانية جَدَّد كاتبُه أوراقًا بالعرض نظير

---

(١) يشطب: أي يقيّد.

(٢) حلّاه: أي وصفه، والحلية الهيئة والصّفة.

(٣) قطعه الأمير: أي ملّكه أرضًا.

الأولى، وشطب كاتبُ الجيش حُلَى ٱلجند من ٱلعَرْض الأوّل، ثم يقابلها بالصورة الجديدة في وقت العَرْض الثاني، فإن وافقتْ وطابقتْ أجازه، وإن ٱختلفت ٱلحُلَى وتباينت ردَّه وطالع ولي الأمر به ليقع الإنكارُ على من تجاسر على فعل ذلك لما فيه من التلبيس[١]؛ فهذه هي القواعد التي ٱستقرّت في زماننا والله أعلم.

ويحتاج الكاتب إلى تحرير شواهده وحفظِها، فإن كان بين يدي السلطان ورَسَم له بإقطاع أمير أو جنديّ كتب مثالًا بالإقطاع، وكَتب السلطانُ أو نائبُه بقلمه أعلى المثال ما مثالُه: يُكتَب؛ وعَيَّن ناظرُ ٱلجيش بقلمه تحت خطّ السلطان أو نائبِه ما مثالُه: رُسم أن يُكتَب بٱسم فلان لاستقبال مُغَلّ سنةِ كذا، ولاستقبال كذا من مُغَلّ سنةِ كذا؛ وخَلَّد[٢] الكاتب هذا الشاهدَ عنده، وكتب مثالًا ثانيًا مربَّعًا بما مثالُه؛ رُسِم بالأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ المَلكيّ الفلانيّ ـ ويدعو للسلطان ـ أن يُقطَع ويقرَّر بٱسم فلان الفلانيّ ـ ويَنعتَه بما يستحقّ ـ ما رُسِم له به الآن من الإقطاعِ والنقدِ والمَكيلِ إن كان فيه نقدٌ أو مَكيلٌ في السنة، خارجًا عن الجَوالِي[٣] والمواريث الحَشْريّة[٤] والرِّزَقِ[٥] الإحباسيَّة[٦]، إن كان الإقطاع بالديار المصريّة؛ وإن كان بالشام قال: خارجًا عن ٱلمِلْك والوقف، ثم يقول: خُبْز فلان الفلانيّ، إن كان عن أحد؛ وإن كان من ٱلخاصّ أو مستجَدًّا أو مستظهَرًا به عَيَّنه، ويَذكُر خاصّتَه وعِدّتَه وأتباعَه، أو بمفرده، ثم يعيِّن جهاتِ إقطاعه، ويُثبِت هذا المثال الثانيَ في الديوان، وتَشمَله علامةُ السلطان ونائبِه، ثم يُخلَّد بديوان الإنشاء، وهو شاهِدُ الموقِّع، ويُكتَب منشورُه بمقتضى ذلك ٱلمثال، وتَشمَله علامةُ السلطان وخطُّ نائبه ووزيره بالامتثال، ويُثبَت بديوان ٱلجيش ثُم بالدواوين؛ وإن كان الكاتب في جهة خارجة عن باب الملك من الممالك الشاميّة وأَمَره النائب بإقطاع أحد كتب مثالًا بالإقطاع، وكتب النائبُ بأعلاه: يُكتَب، ثم يَكتَب، ثم يَكتُب عليه الناظر نحوَ ما تقدّم، وهو شاهِدُ الكاتب، ثم يكتب المثال الثاني في ورقة مربَّعة بما مثالُه: رُسِم بالأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ

---

(١) التلبيس: الاشتباه والاختلاط. (٢) خلّد: أبقى.

(٣) الجوالي: جمع جالية وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذّمّة.

(٤) المواريث الحشرية: هي مال من يموت وليس له من وارث خاص بقرابة أو غيرها، أو الباقي بعض الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا غاصب له.

(٥) الرّزق: جمع رزقة بكسر الرّاء: وهي الجراية، يقال: كم رزقتك في الشهر: أي جرايتك.

(٦) الإحباسية: من الإحباس وهو مصدر أحبست المال: إذا وقفته.

المَلكيّ الفلانيّ أن يُقطَعَ ويُقرَّرَ بآسم فلان ما رُسِم له به الآن من الاقطاع، ويُعيِّن خُبْز من كان وسببَ حَلِّه عنه، إما بوفاة، أو بمفارقة، أو بآنتقال إلى غيره، أو غَيره ذلك من الأسباب الموجبة لإخراج الإقطاع عنه، ويَكتُب نائب السلطنة عليه بالتَّرجمة، ويترجِم عليه الناظر بقلمه تحت خطّ النائب بما مثالُه: المملوك فلان يقبِّل الأرض ويُنهِي أن هذا مثالٌ كريمٌ بآسم فلان ٱلمرسومِ إثباته في جملة الأمراء والمماليكِ السلطانيّة، أو البحريّة، أو رجالِ ٱلحَلْقة ٱلمنصورة، أو رجالِ التُّركمانِ، أو العربان، أو الجبليّة بالمملكة الفلانيّة، أو بالجهة الفلانيّة بما رُسِم له به الآن من الإقطاع عن فلان، والعِدّة خاصّته، وكذا كذا طواشيًا، أو بحسب ما يكون لاستقبال ما عُيِّن فيه على ما شُرِح باطِنَه، والأمرُ في ذلك معذوق[1] بإمضائه أو بما يؤمَر به من الأبواب. ثم يُثبَت بديوان ٱلجيش، ويُجهَّز إلى باب السلطان، فإذا وصل إلى الباب كَتب عليه الناظر ومن معه من الرِّفاق بالمقابَلة، وقوبل به، ثم تَشمَله علامةُ السلطان أو نائبِه بالكتابة، ويخلِّده كاتب الجيش بالباب عنده، ويكتب مثالاً من جهته على ما تقدم، فإذا خرج المنشور الشريف ووصل إلى تلك المملكة شَمل خطُّ نائبها بالامتثال، وكتب عليه ناظر ٱلجيش ورُفقتُه بالثبوت تحت خط ناظر ٱلجيش بالباب ورِفاقِه، ثم يُثبَت بالدواوين، ويفرج لربِّ الإقطاع على حُكمه، ويُثبَت إفراجُه، ويُسلَّم إليه إقطاعُه؛ فهذه شواهد المناشير والأمثلة.

وأما غيرها من شواهد الكشوف فعلى حسب الوقائع؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ويحتاج إلى ضبط أسماء من تَوجُّه بدُستور[2] إلى جهة من ٱلجهات، ويراعِي ٱنقضاءَ مدّة الدُّستور، ثم يكشِف عنه، ويطالِب مقدَّمَه به، وكذلك من تَوجَّه إلى ٱلحجاز وغيره، وكذلك من تَخلَّف عن العَوْد مع ٱلجيش المجرَّد في ٱلمهمّات، فيراعِي ذلك حَسَب الطاقة والإمكان، وإن تعذّرت عليه معرفة من تأخَّر بعينه يَستعلِم أخبارهم مجملَة من مقدَّمِيهم ونقبائهم.

ويحتاج إلى أنه مهما ٱنحلّ من الإقطاعات، أو تَعيَّنَ مِن تَفاوُت المُدَد عمّن دَرج[3] وفارق[4] وانتقل[5]، أو ما تَعيَّنَ في خلال المُدَد بين منفصل ومتّصل يحرِّر

(١) المعذوق: أي المنوط والمرتبط كما يناط العذق وهو القنو بالنخلة.
(٢) الدستور: المراد به الإذن، وإطلاقه على هذا المعنى إطلاقًا عاميّ.
(٣) درج: أي مات.
(٤) المراد بالمفارقة، مفارقة الخدمة.
(٥) أي الانتقال من إقطاع إلى إقطاع آخر.

ذلك، ويَكتُب به حَوطةً[١] جيشيّة يضمنها ٱسمَ ربّ الإقطاع ٱلمتّصل ونواحيَ إقطاعِه ونقدَه ومَكِيلَه إن كان، ويعيِّن ٱستقبالَ ٱلحَوْطة، ويميِّز ما ٱستحقّه الديوان من المُغَلّ، وتُصدَر إلى ديوان التصرّف بعد شمولها بالعلامة وثبوتها، ويطالِب المستوفِيَ[٢] بكتابة رُجْعة بوصول ذلك إليه ليَبْرأ من عُهدته، ويُلزِمَ المثبِتون التعريفَ بذلك وإضافةَ ما يَتحصّل منه، فإن أخّر كاتب الجيش إصدارَ ٱلحَوطات إلى ديوان التصرّف حتى يفوت الزمن الذي يمكن فيه تحصيلُ ما فيها، كان تحت دَرَكه[٣] وتَبِعتِه؛ والله أعلم.

ويحتاج مباشر ٱلجيش إلى مراجعة جرائده: الجيشيّةِ والإقطاعيّةِ وأوراقِ العِدّة في كل وقت من غير ٱحتياج إلى كشف، لتكون على خاطره أسماءُ ٱلجند ونواحي إقطاعهم، فإنه بصدد أن يُسأَل عن شيء من ذلك بين يدَيْ مَلِك أو نائب، فإن أَخّرَ ٱلجواب بالجملة إلى أن يَكشف عنه ربّما يُنسَب إلى عجز فيتعيّن أن يكون على خاطره من جلّيات الأحوال ما يجيب به في المجلس على الفور، ولا يَتأتّى له ذلك إلا بمراجعة حسابه ومداومة النظر فيه، والناظرُ إلى ذلك أحوجُ من غيره من ٱلمباشرين، لأنه ٱلمسؤول والمخاطَب في غالب الأوقات؛ والله أعلم بالصواب.

ويحتاج أيضًا إلى معرفة ٱلحِلَى[٤] وٱختلافِها على ما نذكره في فصل الوراقة[٥]، ولا بدّ له من معرفة الأوضاع التي ٱصطلح عليها كُتّاب ٱلجيوش في كتابة الحِلَى من الاختصار؛ فهذه أمورٌ كليّةٌ لا بدّ لمباشر ٱلجيش من معرفتها وإتقانها.

ويتجنّب مباشر ٱلجيش أن يرقُم بقلمه عِدّةَ جيش تصريحًا، لما يتعيّن من إخفاءِ عِدّتِه وذِكرِ تكثيره، فإنه إن وَضع ذلك بقلمه لا يأمن من الاطّلاع عليه فيَشِيع ويَذِيع، وقد يتّصل بالعدوّ والمعانِد والمُناوِيء[٦] فيترتّب عليه من الفساد ما يترتّب وهذا بابٌ

(١) الحوطة: اسم من الاحتياط، وهو الأخذ بالحزم والثقة، والحوط: الحفظ؛ ويظهر أن المراد هنا ما يسميه كتاب الدواوين في زماننا بالحافظة.

(٢) المستوفي: هو الذي يضبط الديوان، وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك.

(٣) الدرك بالتحريك أي التبعة.

(٤) الحلى: جمع حلية، وهي الصفة أو الهيئة.

(٥) الوراقة: حرفة من يورق ويكتب؛ وقد يراد هنا القواعد التي اصطلح عليها الكتاب فيما يكتبونه من الأوراق.

(٦) المناويء: المعادي.

يجب على كاتب الجيش الاحتفال به[١]، والاحترازُ من الوقوع فيه، وكتمانُه عن سائر الناس؛ وإن دعته الضرورة إلى تسطير ذلك خشيةَ[٢] أن يسأله وليُّ الأمر عن شيء منه، فليكن وضعه لذلك رمزًا خفيًا يصطلح عليه مع نفسه لا يعرفه إلا هو، أو من له دُرْبةٌ[٣] بمباشَرة ٱلجيش.

ويتجنّب أن يكشف عِبْرةَ[٤] إقطاع أو متحصَّلَه، أو يذكرَ ذلك لأحد إلا بمرسوم وليّ الأمر، ثم يذكره باللفظ دون ٱلخط، ووجوهُ الاحتراز كثيرة، وهي بحَسَب الوقائع، فيتعيّن على مباشر ٱلجيش ملاحظةُ ذلك والاحترازُ من الوقوع فيما يُنتَقد عليه، أو يصلُ سببُ ضررٍ منه إليه.

هذا ما أمكن إيراده مما يحتاج مباشر ٱلجيش إلى ٱعتماده؛ والله أعلم.

وأما مباشرة الخزانة ـ فالعُمدة فيها على العدالة والأمانة، لأن خزائن الملوك في هذا العصر لسَعتها، وكثرةِ حواصلها، وعظمِ ذخائرها لا تنضبط بسِياقة[٥]، فإنه لو طولب كاتبُ ٱلخِزانة بعمل سِياقة لحواصلها عن سنةٍ ٱحتاج إلى أن ينتصب لكتابتها سنةً كاملةً لا يشتغل فيها بغيرها، فإذا تحرّرت سِياقة السنة في آخر السنة الثانية وكشفها مباشر الأصل وحرّرها في مدّة أخرى من السنة الثالثة فاتت المصلحة المستقبَلة، وتَعطّل على المباشر ما بعد تلك السنة، لاشتغاله بنظر تلك السِّياقة، فإذا تقرَّرَ عجزُ الكاتب عن عمل السِّياقة بهذه المقدِّمة فقد تعيَّن أنّ العمدة في مباشرتها على الأمانة والعدالة؛ ومع ذلك فيحتاج كاتبها إلى أمور:

منها ضبطُ ما يصل إليه من حمول الأموال والأصناف، ويقابِل ما يصل منها على رسائِله، ويحرّره بالوزن والذَّرع والعَدَد والأحمال على ٱختلاف أجناسه وأنواعه وأوصافه، ويميّزُ ما يصل إليه من الأقاليم والثغور والأعمال والممالك، وما يصل من ٱلهدايا والتَّقادِم[٦] على اختلافها، فيضيف كلَّ نوع إلى نوعه، وصنفٍ إلى صنفه؛ وكذلك يحرِّر ما يبتاعه من الأصناف التي تدعو الضرورة إليها وجرت العادة بٱبتياعها.

---

(١) الاحتفال به: أي الاهتمام.

(٢) الخشية: الخوف. (٣) الدّربة: الخبرة والعادة.

(٤) العبرة: يراد بها ما يقدّر من الاقطاعات.

(٥) السّياقة: تسجيل المعلومات بالترتيب والتتابع.

(٦) التقادم: جمع تقدمة وهي الهدية.

ومنها معرفة عوائد[١] أرباب الصِّلات والإنعام، ومصاريفِ أرباب المناصب عند ولاياتهم، وما جرت عليه عوائدهم[٢] من الإنعام[٣] في خلال مباشراتهم بالأسباب الموجِبة لذلك وغيرِ الأسباب، وعوائد أرباب التَّقادِم والصنّاع وغيرِهم.

ومنها ضبطُ ما يصل إلى ٱلخِزانة من تَقادِمِ ٱلملوك والنوّاب، ويقابل ما يصل منها في الوقت الحاضر على ما تَقدَّم، ويحرِّر زيادتَه من نقصِه، ويكون ذلك على خاطره، فإن سأله وليُّ الأمر عنه أجابه، وإلّا فلا يبدؤه؛ ويَضبِط عاداتِ مُهاداةِ الملوك وما جُهِّز إلى كلٍّ منهم في السنين الخالية[٤]، وما كان قد وصل من هداياهم، وما جرت عليه عاداتُ رسلِهم وقُصّادِهم من التشاريف[٥] والإنعام.

ومنها ضبطُ ما جرت به العادة من كُسا أرباب العوائد[٦] المقرَّرة في كلِّ سنة على ٱختلاف طبقاتهم من أرباب الرتب والمناصب والمماليك السلطانيّة وغيرِهم، وتواريخِ صرف الكسوة إليهم.

ومنها تجهيزُ ما جرت ٱلعادة بأن يُجهَّز في خزائن الصحبة عند ٱستقلال ركاب السلطان من مَقرّ مُلكه، إما إلى الصيد والنزهة، وإما لكشف ممالكه عند ٱنتقاله من مملكة إلى أخرى، أو في حروبه عند ملاقاة الأعداء، فيجهِّزُ ما جرت به العادة في ذلك، ولا يزيد عليه إلا بمرسوم وليّ الأمر، ولا يَستكثر من ٱستصحاب صنف من الأصناف عند تَوجُّهه إلى مَعدِن ذلك الصنف ومَظِنّته، ولا إلى الخِزانة منه بحَمْلِه[٧]، بل يستصحِب منه ما يكون معه ذخيرة واحتياطًا، إذ لو طلب المَلِكُ ذلك الصنفَ في مَسِيره قَبْل وصوله إلى معدن ذلك الصنف كان معه منه ما يَسُدّ به الضرورة، ولا يَعتذِر بأنه ما ٱستصحبه معه بحُكم تَوجُّهه إلى مَعدِنه، وأنه فعل ذلك للمصلحة الظاهرة، فإن ٱلملوك لا تحتمل مثل ذلك، ولا تصبر على أن يُفقَد من ذخائرها ما تطلبه؛ ويَستكثِر من ٱستصحاب الصنف المعدوم في ذلك الوجه الذي يتوجّه إليه، ويحمل منه ما يعلم أنه يكفيه في مَسِيره وعَودِه؛ والله أعلم.

---

(١) العوائد: المراد بها الصلات مفردها عائدة. (٢) العوائد: مفردها «العادة».

(٣) الإنعام: العطية والهبة. (٤) السنين الخالية: الماضية.

(٥) التشاريف: التكريم، يقال تشرّف بكذا إذا عدّه شرفًا.

(٦) العوائد: الصلات.

(٧) أي أنه لا يستكثر من حمل ذلك الصنف إلى الخزانة بل يحمل منه إليها ما تدعو الحاجة إلى حمله.

ومنها ضبطُ ما يتسلّمه الصُّنّاع من مُزركش وخيّاط وفَرّاء ونَجّاد[١] وسَرّاج وخَرْدَفُوشِي[٢] وغيرهم بالوزن والذَّرع والعَدد، ويُحرِزه عند ٱستعادته من صانعه.

ومنها تحريرُ ما يصل إليه من الأقمشة من دار الأعمال وما جرت به العادة أن يُحمَل منها في كلّ مُدّة ليطالِبَ به إن تأخّر عن وقته؛ وإن قلّ صنف من الأصناف عنده يبادِر بمطالَعة وزير ٱلمملكة أو مدبِّرها بذلك ليَخلُصَ من عُهدته، وعلى وزير المملكة ومدبِّرها طلبُ ذلك الصنف من مظانّه وحَملُه إلى الخِزانة.

وأما ملبوس الملكِ المختصُّ بنفسه وعادتُه في التفصيل والحبس[٣] والطُّولِ والسَّعة فهو أمر متعلّق برأس نَوبة ٱلجَمَدارِيّة[٤]، وهو المقدَّمُ عليهم، فعليه أن يَحضُر إلى الخزانة ويختار من الأقمشة ما يعلم أنه ملائم لخاطر السلطان وموافقٌ لغرضه، فيفصِّل منه ما يراه على ما يراه من أنواع التفصيل، وعلى معلِّم الخيّاطين الدَّرَكُ في طوله وسعتِهِ وهِندامِه؛ ولا يَستغنِي ٱلمباشرُ عن معرفة ذلك، ولا يستغني أيضًا عن معرفة قِيمَ الأشياء على اختلافها وعادةِ التفصيل والتَّرفِئةِ[٥] والجَنْدرةِ[٦] والحَشْوِ ليشارِكَ ربَّ كل صنعة في صناعته بنظره ولسانه، ولا يكون في ذلك مقلِّدًا جملة، بل يشاركهم فيما هم فيه، وعليهم الدَّرَكُ دونه فيما لعلّه يعرض في ذلك من خللٍ إن وقع، لأن هذه الصناعاتِ زائدةٌ على وظيفته ولازمةٌ لأولئك؛ فأيُّما رجل ٱجتمعت فيه هذه الأوصافُ تَعيَّن على وليّ الأمر ندبُه لمباشرة ٱلخِزانة؛ وقرَّر له كفايتَه، وألزمه إن ٱمتنع.

وأما مباشر بيت المال ـ فعُمدتُه على ضبط ما يدخُل إليه وما يخرُج منه، ويحتاج في ضبط ما يصل إليه من الأموال إلى أن يُقيم لكلِّ عمل من الأعمال وجهةٍ من الجهات أوراقًا مترجمَةً بٱسم العمل أو ٱلجهة، ووجوهِ أموالها، فإذا وصل إليه المال وضع الرسالةَ الواصلةَ قريبةً من ذلك العمل[٧]، ثم شطَبها[٨] بما يصحّ عنده من

---

(١) النجّاد: بتشديد الجيم وهو من يعالج الفرش والوسائد ويخيطها.
(٢) الخردفوشي: كلمة يقولها أهل الحرمين لصانعي السّروج ونحوها.
(٣) الحبس: لعلّه يريد الضيّق من الثياب.
(٤) الجمداريّة: مفردها الجمدار: وهو الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه.
(٥) الترفئة: مصدر رفأ الثياب: أي أصلح خروقها.
(٦) الجندرة: من جندرت الثوب إذا أعدت وشيه بعد ذهابه.
(٧) أي من أوراق ذلك العمل.
(٨) الشطبّ: بمعنى النقل من المستندات إلى الدفاتر.

ٱلواصل إليه، وذلك بعد وضعِه في تعليق المياوَمة، فإن صحّ الواصلُ صحبةَ الرسالة كَتَب لمباشر ذلك العمل رُجْعةً بصحّته، وإن نقص ضَمَّن رُجْعتَه: من جملة كذا؛ وٱستثنى بالعجز والردّ، وبرز بما صحّ، وأعاد الردّ على مباشر ذلك العمل وأثبَت في بيت المال ما صحّ فيه، فإن كان العجز عن ٱختلاف الصِّنَج[١] عَيَّنه في رُجْعته ولا شيء على مباشر العمل، وإن كان مع ٱتفاقها فلا يعتدّ لمباشر العمل أو ٱلجهة إلا بما صحّ في بيت المال.

ويحتاج كاتب بيت المال إذا عمل جامعةً لسنةٍ إلى أن يضمّ كلَّ مال وصل إليه إلى ما هو مِثلُه، من الخراج والجَوالي والأخماس وغيرِ ذلك بحَسَب ما يصل إليه، ويفصِّل جملةَ كلِّ مالٍ بنواحيه التي وصل منها، ويَستشهِد فيه برسائل ٱلحمول، ويضيف إلى جملة ما ٱنعقد عليه صدرُ ٱلجامعة من الأموال ما ٱنساق عنده من الحاصل إلى آخر السنة التي قبلها، ويُفذلِك[٢] بعد ذلِك ويعرف ما لعلّه صرَفَه من نقدٍ بنقدٍ في تواريخه، ويستقرّ بالجملة بعد ذلك؛ ثم يشرع في الخصم[٣]، فيبدأ منه بما حمله إلى المقام على يد من حمل على يده وتَسلُّمه، من الخزَنْداريّة[٤] والجَمَداريّة[٥] وغيرهِم إن كان، ثم يذكر ما نقله إلى الخِزانة ويستشهد فيه برُجْعاته، وما نقله إلى ٱلحوائج خاناه والبيوتِ والعمائر وغيرِها بمقتضَى ٱستدعاءاتِ هذه الجهات ووُصولاتِ مباشريها، وفي أرباب الجامكيّات[٦] والرواتبِ والصِّلاتِ بمقتضَى الاستئمارات والتواقيعِ السلطانيّة؛ فإذا تكامل الحَملُ والمصروفُ عقد عليهما جملةً وساق ما بقيَ إلى ٱلحاصل؛ والله أعلم.

وطريقُ مباشر بيت المال في ضبط المصروف أن يبسط جَريدةً على ما يصل إليه من الاستدعاءات والوُصولات من الجهات، وأسماءِ أرباب الاستحقاقات والجامِكيّات والرواتب والصِّلات، وما هو مقرَّر لكلّ منهم في كلّ شهر بمقتضَى تواقيعهم أو ما شَهِدتْ به الاستئمارات القديمةُ المخلَّدة في بيت المال، ويشطب

(١) الصَّنج: جمع صنجة، وهو ما يوزن به «المصباح مادة صنج».
(٢) الفذلكة: خلاصة ما فصّل أولاً من حساب وغيره.
(٣) الخصم: الحطيطة وهي ما يحطّ من جملة الحساب فينقص منه.
(٤) الخزندارية: مفردها الخزندار: وهو لقبٌ على الذي يتحدّث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما، وهو مركّب من لفظين «خزانة» عربي و «دار» فارسي بمعنى ممسك. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٥).
(٥) الجمدارية: مفردها الجمدار وهو الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير.
(٦) الجامكيات: الرواتب والأجور.

قُبالةَ كل ٱسم ما صرفه له على مقتضى عادته إما نقدًا من بيت ٱلمال، أو حَوالة تُفرَّع على جهة تكون مقرَّرة له في توقيعه، ويوصل إلى تلك الجهة ما فرّعه عليها، وكذلك إذا أحال ربُّ ٱستحقاق غيرِ ثمن مَبيع أو غيرِه على جهةٍ عادتُها تَحمِل إلى بيت المال سَوَّغ ذلك المال في بيت المال، وأوصله إلى تلك ٱلجهة، والتسويغُ[١] في بيت المال هو نظير المجرى؛ وإذا وصل إليه ٱستدعاءٌ من جهة من الجهات أو وُصولٌ وَضَعه في جريدته، وخصمه بما يُقبضه لربّه، ويُشهِد عليه بما يقبضه، ويُورد جميعَ ذلك في تعليق المياوَمة.

وأما مباشر أهراء[٢] الغلال ـ فمبنيٌّ أمرُه أيضًا على ضبط ما يصل إليه، وما يُصرَف من حاصله؛ ويحتاج في مبدأ مباشرته إلى تحرير ما ٱنساق من حواصل الغلال بأصنافها، وإن أمكنه تمييزُ ذلك بيّنه، ويكون أتقَن لعمله؛ ثم يبسط جريدة يرصِّع[٣] فيها أسماء نواحي ٱلخاصّ السلطانيّ التي تصل الغلال منها إلى الأَهراء فإذا جاءته رسالة من جهة من تلك الجهات وضعها تحت ٱسم الجهة وعَبَر[٤] ما وَصل قرينَها، فإن صحّ صحّتَها كتب لتلك الجهة رُجْعةً بالصحّة، وإن نقص فلا يخلو: إما أن يكون المَركَب أو الظهر[٥] الذي حَمل ذلك الصنف قد سُفِّر[٦] من ديوان الأصل، أو سَفَّره مباشر العمل مِن جهته، فإن كان قد سُفّر من ديوان التسفيرات طالب مباشرُ الأهراء مقدَّمَ رجال المَركَب والأمينِ المسفَّرَ عليه بالعجز، وألزمهما بحمَله، فإن كان قد سُفِّر من الأعمال كان دَرَكُ ذلك على مَن سفّره، ومباشرُ الأهراء بالخيار بين أن يطالِب محضِرَ الغلّة بالعجز، أو يرجعَ على مباشِر العمل به، ويكون مباشرُ العمل هو ٱلمطالبَ لمَن سفَّرَه، والأولى طلبُ محضِرِ الغلّة، فإنه إذا أطلقه ورجع إلى المباشر الذي سفّره فقد يعود إلى العمل وقد لا يعود، فإن لم يَعُد كان مباشرُ الأهراء قد أَضرّ بمباشر العمل، لأنه ألزمه الغُرْم[٧] مع قدرته وتمكُّنِه من ٱسترجاعه ممن عدا عليه، ويكون هو أيضًا ممن شارك في التفريط؛ وإن وصلتْ إليه الغلّة متغيّرةً تغيّرًا ظهر له منها أنها خُلِطت بغيرها، إما بوصول عينِ تلك الغلّة إليه، أو بقرينة الحال التي يعلم

(١) التسويغ: التجويز، يقال: سوّغه له: أي جوّزه، والمراد به هنا الإذن في تناول الاستحقاق من جهة معينة تيسيرًا وتسهيلًا على الأخذ.
(٢) الأهراء: بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان.
(٣) يرصّع: ينظّم ويضمّ الأشياء بعضها إلى بعض.
(٤) عبَر: يقال عبرت الشيء إذا نظرت كم هو كيلًا أو وزنًا.
(٥) الظهر: يريد الدّابة التي تحمل الأثقال.
(٦) سُفِر: أي كتب.
(٧) الغرم: ما ينوب الإنسان من ضرر في ماله بغير جناية منه أو خيانة.

منها أن تلك الغلة لا يوجد مثلُها من فلّاح، ولا يُعتدّ بها من خراج السلطنة لظهور غَلَثها[١]، أو وصلت إليه الغلّة مبلولةً بللًا ظاهرًا لتزيد عند الكيل وتتميَّز[٢] نظيرَ ما أُخِذ منها، فله أن يعمل لذلك معدّلًا، وهو أن يَكِيل منها جزءًا معلومًا ويغربله حتى يصير مِثلَ العين التي عنده، أو بتجفيف ذلك حتى يعود إلى حالته الأولى، ويحرِّر العجزَ على هذا الحكم، ويطالِب به مُحضِرَ الغلّة؛ وينبغي له أن يبدأ بصرف ما وصل إليه من الغلالة المبلولة ولا يخلطها بغيرها، فإنها بعد بللها لا تحمل طولَ البقاء؛ هذا ما يعتمده في القبض.

وأما في المصروف، فإن كان لِصاحب جراية[٣] أو صِلةٍ أو إنعام أو تَقا[٤] لفلّاح صرف ذلك من عرض حاصلِه، ويراعِي في صرف التَّقاوي أن تكون مِن أَطيَب الغلال وأَفضَلِها، لأنه يجتني ثمرة ذلك عند استيفاء الخراج؛ وإن كان ما يصرفه مما ينقله إلى الطواحين برسم المَخابز، أو للإسطبلات والمُناخات برسم العليق غربَلَه[٥]، وحرَّر نقْصَه، وأورده في جامعته من الفَذْلَكة[٦] واستقرارِ الجملة؛ ومباشرةُ الأهراء مناسِبةٌ في أوضاعها لمباشَرة بيت المال.

ذكر مباشرة البيوت السلطانية

وهي الحوائج خاناه[٧]، والشراب خاناه، والطشت خاناه، والفِراش خاناه والسلاح خاناه؛ وأمر البيوت معذوق[٨] بأستاذ الدار.

فيحتاج مباشر الحوائج خاناه إلى أمور: منها ما يُحتاج إليه من راتب السِّماط[٩] العام والطارىء ـ وهو الطعامُ الثاني الذي يُمَدّ بعد قيام السلطان من المجلس العامّ، ويأكله خواصّ المَلك ومن يَحضُره بين يدي السلطان، وهو أخصُّ من السِّماط الأوّل ـ وطارىءِ الطارىءِ وهو الطعام الثالثُ الذي يُمَدّ بعد رفع الطارىء، ومنه يأكل المَلك وخواصّه، وقد يأكل السلطان من الطارىء الذي قبله؛ فيحرّر ما يُحتاج إليه من لحوم

(١) الغلث: اسم لما تخلط به الحنطة، يقال: غلثت الحنطة بالشعير.
(٢) تتميّز: أي ترتفع، وهو من الميزة أي الرفعة.
(٣) الجراية: الوكالة أو الجاري من الرواتب.
(٤) التقا: جمعها التقاوي: وهي ما يعزل من الحبوب للبذار، وهي عاميّة.
(٥) غربله: نقّاه بالغربال من الشّوائب. (٦) الفذلكة: حاصل الحساب.
(٧) خاناه: لفظة فارسية معناها البيت.
(٨) المعذوق: أي المنوط والمرتبط، كما يناط العذق وهو القنو بالنخلة.
(٩) السِّماط: ما يمدّ ليوضع عليه الطعام في المآدب.

وتوابلَ وخَضْراواتٍ وأَبازيرَ[١] وتَحالٍ وقلوبٍ[٢] وطِيبٍ وبَخور وأحطاب وغير ذلك؛ ولذلك عندهم معدَّلٌ قد عرفوه فلا يتجاوزه، فإنه إن صرف زيادةً عنه بغير سبب ظاهر خرج عنه[٣] وكان تحت دَرَكِه.

ومنها معرفة مقاديرِ الأسمطة في أوقات المهمّات والأعياد ليجريَ الأمر فيها على العادة، ولا يتجاوزها إلا بمرسوم.

ومنها تَعاهُد أشياء الحوائج خاناه، فيَستدعِي ما يراه قد قلّ عنده منها قَبْلَ نفاده بوقت يمكن فيه تحصيلُه، فإن أَخَّر طلبَ ذلك إلى أن يَنفَد، أو طلبه في وقت ولم يَبقَ عنده منه ما يكفيه إلى أن يأتيَه ذلك الصنف من بلد آخر كان المباشر تحت دَرَك إهماله، ومتى طَلَبَ ذلك في وقته وطالع وليَّ الأمر به فقد خَلَص من عُهْدته.

ويحتاج إلى بسط أسماء مَن يُعامِل[٤] بالحوائج خاناه من قصّاب وحَيَوانيٍّ وطيوريٍّ وغيرهم، ويَحصُر لكلٍّ منهم ما أحضره في كلّ يوم، فإذا ٱجتمع له من ذلك ما يقتضي محاسبتَه جَرَّد له محاسبةً ضَمَّ فيها كلَّ صنف إلى صنفه وثَمَّنه، إما بتعريف ٱلحِسْبة، أو بعادة ٱستقرّت له، وأحاله بمبلَغ ما وجب له على بيت المال، أو ٱستَدعى من بيت المال ما يُنفِق منه وأَشهَد عليه بقبض ذلك.

ويحتاج أيضًا إلى بسط أسماء أرباب الرواتب السلطانيّة وأرباب الصِّلات[٥]، وما لكلٍّ منهم في كلّ يوم، وخصْمِه بقبوضهم مياومة أو مشاهرة، صنفًا أو حَوالة؛ ويراعِي حالَ مَن مَرِض من المماليك السلطانيّة ونُقِل من ٱللَّحم إلى المَزَاوِير[٦] أو المَساليق[٧] فيَقطع مُرتَّبَه من اللحم في مدّة مرضه، ونظيرَ ذلك من التوابل[٨] في مدّة مرضه.

---

(١) الأبازير: جمع أبزار وهو جمع بزر.
(٢) القلوب: يريد هنا لبّ اللوز والبندق والفستق وغيرها ممّا يؤكل قلبه.
(٣) خرج عنه: أي خرج عن المعدّل.
(٤) من يعامل: أي من يعاملهم، وهم الذين يشتري منهم الأصناف المطلوبة للحوائج خاناه.
(٥) الصّلات: العطايا.
(٦) المزاوير: لعلّه يريد جمع مِزْوَره، وهي مرقة يطعمها المريض، وهي مولدّة.
(٧) المساليق: جمع مسلوق، وهو من سلقت البقل أو اللّحم إذا غليته بالنار.
(٨) التوابل: مفردها (التابل) وهي الأفاويه.

ويحتاج إلى معرفة عادات الرُسُل الوارِدين، والأضيافِ المتردِّدِين، ومرتَّبِ الصدقة في شهر رمضان، وعاداتِ الأضَاحِي[١] والصِّلات في عيد النحر، فيجري الأمرَ على حكم العادة؛ ويَضْبِط جميعَ ما يَصله إليه من ديوان المتجَر ومطابِخ السكَر وغيرِها، ويكتب لهم بما يحملونه إليه من الأصناف؛ ويَضْبِط أيضًا ما ٱستَقرّ في كلّ ليلة من الوَقود من شَمَع وزيت، ويَصرِف على ما ٱستقرّ عنده، وإذا سَلَّمَ شَمَعَ ٱلوَقود إلى الطَّشتداريّة وَزَنه عليهم، وعَبَره[٢] عند إعادته في بُكرة النهار ليتميّز له النقص؛ ويَضْبِط غيرَ ذلك مما يصل إليه وينزل عنده من عادات مَن قَنِع[٣] وتَبتَّل، وغير ذلك من جميع ما يَرِد وما يُرتَّب ويزاد ويُقطَع.

وأما الشراب خاناه ـ وهي بيت يشتمل على أنواع المشروب من المياه على اختلافها، والسكَرِ والأشربة والدِّرياقات[٤] والسَّفوفات[٥] والمعاجين والأقراصِ والأقسِما[٦] والفُقّاعِ[٧] والبلحِ والأبقالِ والحَلْويّات والجُوارِشات[٨] والفواكه، وما يَجرِي هذا المَجرَى؛ وأمر هذا البيت الخاص معذوق[٩] بأمير مجلس، والعامّ بأستاذ الدار؛ فيحتاج مباشر هذه الوظيفة إلى ضبط ما يصل إليه من جميع هذه الأصناف، وما يستعمله من ذلك في عَقد الأشربة والحَلْويّات، وما يَعقِده للمشروب وما يَصرِفه من ذلك، ومعرفةِ عادات الأسمِطة والطَّواريء والرواتبِ المقرَّرة في كلّ يوم، فيُجرِي الأمرَ فيها على العادة المستقِرّة، وما يستدعيه السلطان على حَسَب الاتفاق، وما يصرف للمرضى من المماليك السلطانيّة من أنواع الأشربةِ والمعاجينِ وغيرِها بمقتضَى أوراق الأطبّاء؛ هذا ما يَعتمِد عليه مباشرُها والله أعلم.

---

(١) الأضاحي: مفردها الأضحية وهي ما يذبح في عيد الأضحى.
(٢) عبره: نظر كم وزنه.
(٣) المراد هنا: الرواتب التي جعلت للزّهاد والمنقطعين إلى العبادة من أجل الطعام والشراب.
(٤) الدّرياقات والترياقات: ما يستعمل من الأدوية لدفع السم، فارسي معرّب.
(٥) السّفوفات: ما يسفّ من دواء أو نحوه.
(٦) الأقسما: شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون، ويطرح في ذلك يسير من السّذاب، وهو شراب جيّد للهضم، وقيل: هو نقيع الزّبيب.
(٧) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير، وسمّي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزّبد.
(٨) الجوارشات: أنواع من الحلواء تصنع من دقيق وعسل أو سكر.
(٩) معذوق: منوط ومرتبط.

وأما الطَّشْت[١] خاناه - فهي بيت تكون فيه آلةُ الغسل والوضوء، وقماشُ[٢] السلطان البياضُ[٣] الذي لا بدّ له من الغسل، وآلةُ الحمّام، وآلاتُ الوَقود؛ فيكون في هذا البيت من الآلات: الطُّشوتُ والأباريقُ والسخّاناتُ والطاساتُ والكراسيُّ والستائرُ واللَّبابيدُ[٤] المختصّةُ بالحمّامات والسَّجّادات والنُّمْرُقاتُ[٥] والمَناشفُ وفُوَطُ ٱلخدمة ومقاعدُ ٱلجلوس من الجَوخ والبُسُط، وغير ذلك، والمباخرُ وأنواعُ البَخُورات والطِّيب والغوالي[٦] وماءُ الورد والمُمسَّكُ، وغيرُ ذلك من الأصناف التي تلائم هذا البيت؛ ويُستدعَى ما يُحتاج إليه برَسْم هذا البيت من الحوائج خاناه والخِزانة؛ والله أعلم.

وأما الفِراش خاناه - فيكون فيها أنواعُ الفُرُش والخِيام والخَرْكاهات[٧] والتُّخوت وقُصور الخشب التي تُنصَب في الدهاليز، وحمّامات الخشب التي تُنقَل على الظَّهر في الأسفار، وما يتعلّق بذلك من اللَّبابيدِ وشلائتِ[٨] النوم وغيرِ ذلك؛ وهو بيتٌ متّسِعٌ فيه حواصلُ كثيرةٌ لها قِيَمٌ جليلةٌ تحتاج إلى ضبط ومعرفة، فإن مباشر هذا البيت يحتاج إلى معرفة ما يحتاج إلى ٱستصحابه في أسفار السلطان لخاصّتِه ولمماليكِه على ٱختلاف طبقاتهم ووظائفهم، وما يُنصَب برسم آدُر[٩] السلطان ومَن يتبعها من الخُدّام وما يُنصَب برسم البيوت السلطانيّة الخزائنِ فما دونها، وما يُنصَب لأرباب الوظائف من المباشِرين الذين يكونون في صحبة الرِّكاب السلطانيّ، ومِن غير المباشِرين حتى الكِلابِ السلطانيّة والكلابزيّةِ[١٠] والجواري؛ ويميّز بين خِيام الصيد والنُّزَهِ والأسفارِ والحروب، وغيرِ ذلك من الحركات التي يحتاج فيها إلى ٱستصحاب ٱلخيام ولكلّ حركة منها ما جرت به العادة من خيام الْمُقام والسَّفر؛ ويَعرِض ما يسلّمه للفَرّاشِين عليهم، ويَضبِط صفاتِه عند السَّفَر، ويستعيده منهم عند العَود بعَرْضٍ ثانٍ، وكذلك ما

(١) الطشت: لغة في الطّست.
(٢) القماش: الثياب، وإطلاقها بهذا المعنى عاميّ.
(٣) البياض: أي ذو البياض.
(٤) اللبابيد: المراد بها اللّبود، وهي البُسط من الصوف الملبّد.
(٥) النمرقات: الوسائد.
(٦) الغوالي: جمع غالية وهي ضربٌ من الطيب، وهي أخلاط تغلى على النار مع بعضها...
(٧) الخركاهات: جمع خركاه، وأصله بالفارسية «خرجاه» ومعناها القبّة.
(٨) الشلائت: لفظ يستعمله العامة ويريدون به الفرش المحشوّة.
(٩) آدُر: جمع دار.
(١٠) الكلابزيّة: هم الذين يكلّفون بخدمة الكلاب السلطانية والقيام عليها.

يسلِّمه لأرباب الوظائف؛ ويَضبِط أيضًا ما يتسلّمه الصُّنّاعُ الذين يفصِّلون ٱلخامَ الجديدَ وغيرَه من آلات الفِراش خاناه: من قُماشٍ بياضٍ ومصبوغٍ وغَزْلٍ وجلودٍ ومُشمَّعاتٍ وشعرٍ وأخشاب، وغيرِ ذلك، ويَعرِف عوائدَهم[١] في الأَجْر، ويحاسبهم على ما يستحقّونه من الأجر بحسب أعمالهم فيُحِيلهم بمَبلَغِه.

وأما السلاح خاناه ـ فهي من أعظم البيوت وأهمِّها، وأمرُها راجعٌ إلى أميرِ سلاح؛ وعلى المباشِر لها حفظُ ما يدخُل إليها، وضبطُ ما يخرُج منها مما يتسلّمه السلاح داريّة والزَّرَدَكَشيّة[٢] والحَرْب داريّة والرُّمْح داريّة من أنواع السلاح وأصنافِه إذا ركب السلطان أو جلس في المجلس العامّ، وٱستعادتُه منهم، وإعادتُه لهم، والاعتدادُ لهم بما أَنعَم به السلطان وذهَّبه مما كان بأيديهم؛ ويوصِلُ ما يَصِل إلى السلاح خاناه من خزائن السلاح وغيرِها، وما يَصِل إليه من سيوف الأمراء الذين يُرسَم[٣] بٱعتقالهم، وما يُحمَل إليه من سلاح من تُوُفِّيَ من الأمراء على جاري العادة. ويميِّز ذلك من غيره وعليه أن ينبِّه أميرَ سلاح على ما عنده من العُدَد التي يُخشى عليها التلف بتطاول المدّة ليَأمُر بكشفها وإصلاحها: من مسحٍ ودهانٍ وصَقْلٍ[٤] وجِلاءٍ وشَحْذٍ[٥] وتثقيفٍ[٦] وخَرْزٍ، وغير ذلك.

وجميعُ ما قدّمنا ذكرَه من البيوت ليس بشيء من صناعة الكتابة العلميّة، بل العمليّةِ خاصّة، فإن علوم الكتابة إنما تظهر في نُظم الحُسبانات، ولا نُظُم فيما قدّمناه؛ والعمدةُ في صناعة الكتابة على مباشَرة الهلاليّ والخراجيّ على ما يأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ذكر جهات أموال الهلاليّ ووجوهها[٧] وما يحتاج إليه مباشرها

الهلاليُّ عبارةٌ عمّا تُستأدَى أجورُه مشاهرةً، كأجر الأملاك المسقَّفة من الآدُرِ[٨] والحوانيتِ والحمّاماتِ والأفرانِ وأَرْحِيَةِ[٩] الطواحين الدّائرةِ

(١) عوائدهم: أي عاداتهم جمع «عادة».
(٢) الزردكشيّة: هم لابسو الدّروع، وكش باللغة الفارسية معناه لابس.
(٣) يرسم باعتقالهم: أي يصدر قرار بذلك. (٤) الصقل: الجلي.
(٥) الشحذ: السَّن.
(٦) التثقيف: التقويم والتهذيب، وهو أن يسوّى المعوج من الرّماح وما شابهها.
(٧) وجوهها: المراد هنا طرق الكتاب واصطلاحاتهم في كتابة هذه الأموال.
(٨) الآدر: جمع «دار».
(٩) الأرحية: جمع رحى، وهي أحجار الطّواحين.

بِالعوامل[١]، والراكبةِ على المياه المستمرّةِ ٱلجَرَيان، لا الطواحينِ التي تدور بالمياه الشَّتْويّة في بعض نواحي الشام، فإنها تَجرِي مَجرى الخراجيّ، وسنذكر ذلك إن شاء الله في موضعه؛ ومما نورد في أبواب الهلاليّ عدادُ الأغنام والمواشي، ومن الهوائيّ[٢] الجهاتُ الهلاليّةُ المضمونة والمحلولة؛ والذي يَعتمِد عليه مباشرُه أن يَتخيّر لكلّ جهةٍ من يستأجرها بقيمتها، وما لعلّه يتعيّن من ٱلحَيْطة[٣]، ويُلزِم المستأجِرَ بكتابة إجارةٍ شرعيّةٍ لمدّةٍ معلومةٍ بأجرة معيّنة؛ ويخلّدُها في ديوانه؛ وإن كانت الجهة هوائيّةً أَلزَم ضامنَها بكتابة حُجّة[٤] بمبلغ الضَّمان، وطالَبه بمن يكفُله من الضُّمّان الأَمْلِئاءِ[٥] القادِرين بالمال في الذمّة، فإن تَعذَّر فبِالوَجه[٦]؛ فإذا خُلِّدت[٧] ٱلحجّةُ عنده كَتب له من ديوانه تقريرًا عيَّن له فيه استقبالَ مدّةِ ضَمانه، ومبلَغَ الضمان وأقساطَه مبسوطةً[٨] أو منجَّمة[٩]، ويذكر فيه ما يَستأديه من رسوم تلك ٱلجهة على ما تشهد به الضرائبُ المخلَّدةُ في الدِّيوان، وسُلِّمَ إليه؛ فإذا تكاملت عنده إجاراتُ الأملاك وحُجَجُ الضُّمان بسط على ذلك جريدةً يَشرَح فيها الجهةِ، وٱسمَ مستأجِرها أو ضامِنها، وٱستقبالَ مدة إيجارِه[١٠] أو ضمانِه، ومبلَغَ الأُجرة أو الضَّمان في السنة والشهر واليوم؛ وإنما ذكرنا اليوم لما يتَحصّل من أقساط أيّام سُلوخِ الشهورِ[١١] الناقصة، ولِمَا كانت العادةُ جاريةً به من ٱستخراج قسطِ يومِ التعديل من سائر ضُمّان ٱلجهات الهوائيّة، وهو قسطُ يوم واحدٍ في سَلخ ثلاثِ سنين يُؤخَذ من الضُّمّان خالصًا للديوان زيادةً على الأقساط، وهذا يُستأدَى في بعض أقاليم الشأم؛ وإنما أوردناه خشيةَ الإخلال به؛ ويكون بَسْطُه لذلك في يَمْنة القائمة إلى الشطر المكسور المعتاد الذي يتخلّله خيط ٱلجريدة؛ فإن ٱتّفق في جهةٍ زيادةٌ في أثناء السنة قرّرها في تعليق المُياوَمة، ووضعها في الجريدة بما صورته: ثم ٱستقَرّت بٱسم فلانٍ لاستقبال التاريخ الفلانيّ بكذا وكذا، العِبْرَةُ[١٢] كذا، والزيادةُ كذا؛ ويحاسِب المستأجِرَ أو الضامنَ[١٣] المنفصلَ عمّا ٱستحِقّ عليه إلى حين

---

(١) العوامل: البقر.
(٢) المراد بالهوائي: ما ليس له سقف.
(٣) الحيطة: أي الاحتياط والحذر.
(٤) الحجّة: الصك.
(٥) الأملئاء: جمع مليء، وهو الثقة الغني.
(٦) الوجه: هنا الجاه.
(٧) خلّدت: سجّلت.
(٨) المبسوطة: المدفوعة مرّة واحدة.
(٩) المنجمة: هي التي قدّر عطاؤها في أوقات معلومة متتابعة.
(١٠) إيجارها: من الإيجار وهو مصدر أجر، يقال: أجرت زيدًا الدار إذا أكريتها.
(١١) سلوخ الشّهور: يقال: سلخ الشهر إذا مضى، وهنا يريد الأيام التي مضت عن موعد الاستحقاق المعيّن.
(١٢) العبرة: المراد بها ما يقدّر على الإقطاعات.
(١٣) الضامن: الملتزم.

ٱنفصاله، ويُلزِمه بالقيام به، وذلك بعد أن يَعرِضَ على الضامن ٱلمستقرّ ما زاد عليه؛ فإن ٱختار قبولَ الزيادة على نفسه قَبل ذلك منه، وكان ذلك له، فإن زِيدت عليه في الوقت زيادةٌ ثانيةٌ لم يكن له الاستمرارُ في الجهة إلا بزيادةٍ على تلك الزيادة الثانية؛ وإذا انقضت مدّة مستأجِرٍ أو ضامنٍ وأراد الخروج من تلك الجهة، فإن كان قد غَلّق[١] ما عليه من الأجرة أو الضَّمان لم يكن للمباشِر إلزامُه بالاستمرارِ بها، وإن انطرد[٢] عليه باقٍ كثيرًا كان أو قليلًا لزمه ٱستئنافُ عَقدٍ جديدٍ نظيرِ العَقد الأوّل؛ هذا ٱصطلاحهُم في الديوان، ولهم ٱصطلاحات أيضًا نحن نذكر ما تيسّر منها، إذ لا تمكن الإحاطةُ بجميعها لاختلاف أحوال المباشَرات، ولو ٱستقصينا ذلك لطال فمن ٱصطلاحاتهم أن المباشِر يسلِّم للمستأجِر الطاحونَ عند أذان المغرب من اليوم الذي حصل فيه الإيجارُ أو الزيادةُ لاستقبال اليوم الثاني، ويسلِّم الحمّامَ من وقت التسبيح[٣]، ويسلِّم بقيّةَ ٱلجهات لاستقبال غُرّة النهار[٤]؛ وإذا دخل ضامنُ نيلةٍ قُوِّم للمنفصل ما له بالخَوابِي[٥] من مياه الأصباغ المختلفةِ بالقيمة العادلة، ولا يُمَكَّن مِن أخْذِ ذلك من المصبغة لما فيه من الإضرار بهما، أما ضررُ ٱلمنفصل فلفساد المياه، وأما ضررُ ٱلمتصل فلأنه يَتعطّل مدّةً إلى أن تَختمِر له مياهٌ غيرُها، ولا يُمَكَّن ضامنُ المصبغة المنفصل مِن أخذِ خابية وإن كانت ملكَه، بل القيمة عنها؛ هذا ٱصطلاحهم؛ وليَحترز[٦] مباشرُ ٱلجهات الهلاليّة من قبول زيادةٍ بسطًا في جهة منجَّمةٍ قد مضت أقساطُها الخفيفةُ وبقيَت الأقساطُ الكبار، لِما يحصُل في ذلك من التّفاوت والنقصِ على الدّيوان مع وجود الزيادة الظاهرة، مثال ذلك أن تكون جهةٌ مضمونةً في كلّ سنة بأربعة آلاف درهم منجّمة، قسطُ ستة شهور ألفُ درهم، وقسطُ الستة شهور الثانيةِ ثلاثةُ آلاف، فٱنقضت الستّةُ الأُوَل، وحَصَلتْ زيادةٌ في الجهة في أوّل الستّةِ الثانيةِ مَبْلغ خَمسِمائة درهم في السنة على أن تكون قسطين، فيصير بمقتضى البسط قسطُ الستّةِ شهور الثانيةِ ألفين ومائتين وخمسين درهمًا، وهي على الضامن المنفصل بثلاثة

(١) غلّق ما عليه: سدّد ودفع ما عليه.
(٢) انطرد: في المصباح وغيره من المعاجم: أنّه لا يقال انطرد إلّا في لغة رديئة، وهي هنا بمعنى بقي عليه حسابٌ لم يستطع تسديده.
(٣) وقت التسبيح: لعلّه يريد قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: الآية ١٧].
(٤) غرّة النهار: أوّله.
(٥) الخوابي: مفردها الخابية، وهي وعاء يحفظ فيه الماء وغيره من السّوائل.
(٦) يحترز: يتوقّى.

آلاف، فتكون هذه الزيادة على هذا ٱلحُكم نقصًا؛ فيراعى ٱلمباشرُ ذلك، فإنه متى وقع فيه خرج عليه وكان مخرجًا لازمًا؛ ومهما ٱستخرجه المباشرُ من مستأجِرٍ أو ضامنٍ أو أجراه بوُصولٍ[(١)] لربِّ ٱستحقاقٍ أو ثمنِ صنف، أو غيرِ ذلك من وجوه المصارف أَورَدَه في تعليق المياوَمة، وصورةُ وضعِهِ لذلك أن يرصّع[(٢)] المُحضَر أو المُجرَى عن يَمنة القائمة، ويخصمَ عن يَسْرتها قُبالةَ المُجرَى، فيقول في يَمْنتها: من جهة فلان كذا، وفي مقابَلتِهِ: ينصرف في كذا؛ ثم يَشطُب[(٣)] المُحضَرَ والمُجرَى من تلك الجهة في يَسْرة قائمةِ ٱلجريدةِ التي بَسَطَها قُبالَة كلّ ٱسم ٱستَخرج منه أو أَجرَى عليه، يَفعل ذلك في مدّة السنة، ويَرمِزُ على تعليقه إشارةَ ٱلخدمة على الجريدة، وصورتُه [له][(٤)]؛ وكذلك إذا كتب وُصولًا رَمَزَ عليه إشارةَ الكتابة، وصورتُه له؛ فإذا ٱنقضت السَّنة عَمِلَ محاسَبةَ كلِّ جهةٍ بما ٱستخرجه من مستأجرها أو ضامِنها وأجراه عليه، وعقَدَ على ذلك جملةً، فإن كان المستخرَجِ والمُجرَى نظيرَ الأجرة أو الضَّمان فقد تغلّقت[(٥)] تلك ٱلجهة عن تلك السنة، وإن زاد المستخرَجُ على الأجرة أَوْرَدَه في حسابه مضافًا، ويسمّيه: زائدَ مستخرَجٍ، على ما يأتي بيانُه في كيفيّة الأوضاع الحسابيّة، وٱعتَدَّ له[(٦)] بذلك في السنة المستقبلَة؛ وإن تَعيّن للضامنِ أو المستأجِرِ ٱعتدادٌ بما يجب الاعتدادُ به كَبِطالة الحمّامات من ٱنقطاع المياه عنها أو وقوفها فيها، وإصلاحِ القدور، وعُطْلِ العمائر، وبَطالةِ الطواحين لانقطاعِ المياه وٱنكسارِ الأحجار أو السهامِ أو العُددِ، أو حصولِ جائحةٍ[(٧)] أرضيّةٍ أو سمائيّةٍ كٱنقطاع الأجلاب[(٨)] عن الجهات الهوائيّة بسبب مداوَمَةِ الأمطار، أو سقوطِ الثلوج، أو طُروقِ عدوٍّ[(٩)] للبلاد، أو حادثةٍ عُطِّلت تلك الجهةُ بسببها ٱعتَدّ له بقسط تلك المدّة محسوبًا «هذا إذا شرط ذلك في تقريره»[(١٠)] على ما يأتي شرح ذلك؛ هذا ما يعتمِد عليه المباشرُ للجهات الهلاليّة في أصولها.

---

(١) الوصول: هو المعروف الآن بين الناس في معاملاتهم بالإيصال.
(٢) يرصّع المحضَر: ينظمه. (٣) يشطب: يقيّد وينقل.
(٤) ما بين قوسين تكملة يقتضي السّياق إثباتها. (٥) تغلّقت: سدّدت واستكملت.
(٦) اعتدّ له: يقال: اعتددت بالشيء أي أدخلته في العدّ والحساب.
(٧) الجائحة: الآفة والكارثة. (٨) الأجلاب: جمع جَلَب، وهو المجلوب.
(٩) طروق عدو: مداهمته للبلاد وغزوه لها.
(١٠) وردت هذه الجملة في الأصل قبل الجملة السابقة أي قبل قوله: «إذا اعتدّ» والسّياق يقتضي تأخيرها كما أثبتنا.

وأما مضافاتُها فلا فرق بينها وبين سائرِ الأموال، وسيَرِد الكلام إن شاء الله على ذلك مفصَّلًا؛ وقد اصطَلَح بعضُ مباشِري الجهات على إيراد أَحكارِ البيوت[١] والحوانيت، ورَيع[٢] البساتين التي تُستخرَج أجورُها مشاهرةً، ومَصايدِ السمك، ومَعاصِر الشَّيْرَج[٣] والزيت في مال الهلاليّ؛ ومنهم من يوردها في أبواب الخراجيّ، وهو الأليق، وإنما نَبَّهْنا عليه لبيان الاختلاف فيه، ولا أرى في إيراد رَيْع البساتين في مال الهلاليّ وجهًا، بل يتعيَّن ألّا يَرِدَ إلا في أبواب الخراجيّ؛ وإن قال قائل منهم: قد يكون في أرض البستان مَسكَنٌ يستحقّ أجرة، قلنا: إن أمكن إفرادُ ذلك المَسكَن بأجرةٍ معيَّنَةٍ تُقَيَّدُ أموالُه في أموال الهلاليّ دون البستان، وإن تعذَّر إفرادُه وأُوجِرا بعقدٍ واحد فالمَسكَن هنا فرعُ البستان، والفرعُ يتبع الأصلَ ولا ينعكس.

هذا ما لخّصناه من حال مالِ الهلاليّ[٤]، فلنذكر الجَوالي[٥].

ذكر الجزية الواجبة على أهل الذمّة وما ورد فيها من الأحكام الشرعية وأوّلِ مَن ضربَها[٦] وقرّرها على الرؤوس وما اصطلح عليه كتَّابُ التصرّف في زماننا من استخراجِها وموضعِ إيرادها في الحساب ونسبتِها في الإقطاعات الجيشيّة وما يلزم مباشرَها من الأعمال وما يحتاج إليه والله أعلم

أما الأحكام الشرعيّة فالأصل في وجوبها قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٩] وقد ورد في هذه الآية تأويلاتٌ ذكرَها أقضى القضاة أبو الحسن عليُّ بنُ محمد بنِ حَبيب الماورديّ - رحمه الله - في الأحكام السلطانيّة، نحن نذكرها على ما أورَده، قال: أما قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فأهلُ الكتاب [وإن][٧] كانوا معترِفين بأن

(١) أحكار البيوت: مفردها الحكر، وهو العقار المحبوس.
(٢) الرّيع: الغلّة، أو الجزء الذي يؤدّيه المستأجر إلى المالك.
(٣) الشّيرج: السّمسم.
(٤) الهلالي: عبارة عمّا تستأدى أجوره مشاهرة في بداية كلّ شهر...
(٥) الجوالي: جمع جالية، وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذمّة.
(٦) ضرب: قرّر وضرب الأحكام: فرضها.
(٧) هذه الكلمة لم ترد في الأصل وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٦،=

الله سبحانه واحد، فيَحتمِل [نفيُ][1] هذا الإيمانِ بالله تأويلين، أحدهما: لا يؤمنون بكتاب الله سبحانه وهو القرآن، والثاني: لا يؤمنون برسوله محمد ﷺ، لأن تصديقَ الرُّسُل إيمانٌ بالمرسِل؛ وقولُه: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] يَحتمِل تأويلين، أحدهما: لا يخافون وعيدَ اليوم الآخرِ وإن كانوا معترفين بالثواب والعقاب، والثاني: لا يصدِّقون بما وصفه الله تعالى من أنواع العذاب؛ وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] يَحتمِل تأويلين، أحدهما: ما أَمَرَ الله بنَسْخِه[2] من شرائِعِهم، والثاني: ما أَحَلّه لهم وحَرَّمَه عليهم؛ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: ما في التوراة والإنجيل من اتّباع الرسول ـ وهو قول الكلبي[3]، والثاني: الدخولُ في دين الإسلام ـ وهو قول الجمهور ـ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: من أَتْباع الذين أوتوا الكتابَ، والثاني: مِن الذين ملّتُهم الكتابُ، لأنهم في اتْباعِه كإيتائه؛ وقولُه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: حتى يدفعوا ٱلجزية، والثاني حتى يَضمَنوها، لأنه بضمانها يجب الكفُّ عنهم؛ وفي الجزية تأويلان، أحدهما: أنها من الأسماء الْمُجْمَلة التي لا يُعرَف منها ما أُريد بها إلا أن يَرِدَ بيان، والثاني: أنها من الأسماء العامّة التي يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خصصه دليل؛ واْسمُها مشتقٌّ من ٱلجزاء، وهو إما جزاءٌ على كفرِهم، أو جزاءٌ على أمانِنا لهم؛ وفي قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] [تأويلان، أحدهما: عن غِنًى وقُدرة، والثاني: أن يَعتقِدوا أن لنا في أخذها منهم يدًا وقُدرةً عليهم؛ وفي قوله][4]: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] تأويلان، أحدهما: أَذِلّاءُ مساكينُ، والثاني: أن تُجْرَى عليهم أحكامُ الإسلام. وقال غيرُه: الصَّغار أن يُضرَب على فَكِّ الذمّيِّ برءوس الأنامل عند قيامه بالجزية ضربًا لطيفًا غيرَ مؤلم. وقال الماورديّ: فيجب على وليِّ الأمر أن يضرِبَ ٱلجزيةَ على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب ليقرّوا بها في دار الإسلام؛ ويَلتزِم لهم ببذلها حقّين: أحدهما الكفُّ عنهم، والثاني: ٱلحمايةُ لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنِين،

= ط. ألمانيا.

(١) هذه الكلمة لم ترد في الأصل وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية إذ بها يستقيم الكلام.

(٢) النّسخ: إزالة الحكم.

(٣) الكلبي: هو محمد بن السّائب الكلبي، أبو النضر، نسابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيّام العرب من أهل الكوفة مات سنة ١٤٦ هـ. (الأعلام ٦/١٣٣).

(٤) ما بين قوسين تكملة عن (الأحكام السلطانية ص ٢٤٧).

وبالحماية محروسِين؛ روى نافعٌ[١] عن ٱبن عمر رضي الله عنهم قال: آخرُ ما تكلّم به النبيُّ ﷺ: «احفظوني في ذِمّتي»[٢] قال الماوردي: ولا تؤخَذ من مُرتدٍّ[٣] ولا دَهْريٍّ[٤] ولا عابِد وَثَن، وأخَذَها أبو حنيفة من عَبَدة الأوثان من العجم، ولَم يأخذْها منهم إذا كانوا عربًا؛ وأهلُ الكتاب هم اليهود والنصارى، وكتابُهم التوارةُ والإنجيل، وتَجري ٱلمجوسُ مَجراهم في أخذ الجزية منهم؛ وتؤخَذ من الصابئِين[٥] والسامِرَة[٦] إذا وافقوا اليهودَ والنصارى في أصل معتقَدِهم وإن خالفوهم في فروعه، ولا تؤخَذ منهم إن خالفوا اليهودَ والنصارى في أصل معتقَدِهم؛ ومن جُهِلتْ حالُه أُخِذتْ جزيتُه، ولا تؤكَل ذبيحتُه.

والجزية تجب على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على صبيٍّ ولا ٱمرةٍ ولا مجنونٍ ولا عبدٍ، لأنهم أَتْباعٌ وذَراريّ؛ ولو تَفرّدت ٱمرأةٌ منهم [عن][٧] أن تكون تبعًا لزوجٍ أو نسيبٍ لَم تؤخَذْ منها ٱلجزية، لأنها تبعٌ لرجال قومها وإن كانوا أجانب منها؛ ولو تَفرّدت ٱمرأةٌ في دار الحرب فبَذَلت ٱلجزيةَ للمُقام في دار الإسلام لم يلزمها ما بذلتْه، وكان ذلك منها كالهِبَةِ لا يؤخَذ منها إن ٱمتنعتْ؛ ولا تؤخذ الجزية من خنثى[٨] مُشكِل، فإن زال إشكالُه وبان رجلًا أُخِذتْ منه في مستقبَل أمرِه وماضيه.

واختلف الفقهاء في قدر ٱلجزية، فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثةَ أصناف: أغنياءُ يؤخَذ منهم ثمانية وأربعون درهمًا، وأَوساطٌ يؤخَذ منهم أربعة وعشرون درهمًا وضَرْبٌ يؤخذ منه ٱثنا عشر درهمًا، [فجَعَلَها مقدَّرة الأقلّ والأكثر][٩] ومَنَع من ٱجتهاد الولاة فيها.

---

(١) هو نافع بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، من رجال الحديث الثقات روى عن عبد الله بن عمر. (الكاشف ٣/ ١٧٣).

(٢) أراد في أهل ذمتي.

(٣) المرتدّ: الذي كفر بعد إسلامه.

(٤) الدهريّ: الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة، ويقول ببقاء الدّهر.

(٥) الصابئون: قوم يشبه دينهم دين النّصارى إلّا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب، يزعمون أنّهم على دين نوح. (تاج العروس).

(٦) السّامرة: قوم من اليهود يخالفونهم - أي اليهود - في بعض أحكامهم كإنكارهم نبوة من جاء بعد موسى عليهم السلام وقولهم: «لا مساس» وزعمهم أنّ نابلس هي بيت المقدس، وإليهم نسب السّامري الذي عبد العجل. (تاج العروس).

(٧) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسّياق يقتضيها، وفي الأحكام السلطانية «على».

(٨) الخنثى: الفرد تتكوّن فيه أمشاج الذّكر وأمشاج الأنثى.

(٩) ما بين قوسين لم يرد في الأصل والتكملة عن الأحكام السلطانية.

وقال مالك: لا يقدَّر أقلُّها ولا أكثرُها، وهي موكولةٌ إلى ٱجتهاد الإمام في الطرفين.

وذهب الشافعيّ إلى أنها مقدَّرةُ الأقل بدينارٍ لا يجوز الاقتصار على أقلَّ منه، وعنده أنها غيرُ مقدَّرةِ الأكثر، يُرجَع فيه إلى ٱجتهاد الولاة، ويجتهد رأيَه في التسوية بين جميعهم، أو التفضيلِ بحسب أحوالهم، فإذا ٱجتهد رأيَه في عقد الجزية معهم على مُراضاة أُولي الأمر منهم صارت لازمة لجميعهم ولأعقابهم[١] قرنًا بعد قرن، ولا يجوز لوالٍ بعده أن يغيّره[٢] إلى زيادة عليه أو نقصانٍ منه.

ويُشترَط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحَقٌّ ومستحَبٌّ، أما المستحَقّ فستة أشياءَ: أحدها: ألّا يذكُروا كتابَ الله تعالى بطعنٍ[٣] فيه ولا تحريفٍ له، والثاني: ألّا يذكُروا رسول الله ﷺ بتكذيبٍ له ولا ازدراءٍ[٤] به، والثالث: ألّا يذكُروا دينَ الإسلام بذمٍّ له ولا قدحٍ فيه، والرابع: ألّا يُصِيبوا مسلمةً بزنًى ولا بٱسم نكاح، والخامس: ألّا يفتِنوا[٥] مسلمًا عن دينه ولا يتعرّضوا لماله ولا دمِه، والسادس: ألّا يُعِينوا أهلَ الحرب ولا يؤْوُوا أغنياءَهم؛ فهذه الستةُ حقوقٌ ملتَزمةٌ بغير شرط، وإنما تُشترَط إشعارًا لهم، وتأكيدًا لتغليظ العهد عليهم، فيكون ٱنتهاكُها بعد الشرط نقضًا لعهدهم.

وأما المستَحَبّ فستة أشياءَ: أحدها: تغيير هيآتهم بلُبس الغِيار[٦] وشدِّ الزُّنّار[٧]، والثاني: ألّا يَعْلُوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوِين لهم، والثالث: ألّا يُسمِعوهم أصواتَ نواقيسهم[٨]، ولا تلاوةَ كتبهم، ولا قولَهم في عُزَير والمسيح، والرابع: ألّا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم، والخامس: أن يُخْفوا دفنَ موتاهم ولا يَجهَروا بندبٍ[٩] عليهم ولا نياحة، والسادس:

---

(١) الأعقاب: مفردها العاقبة وهي الذّريّة والنسل.

(٢) أن يغيّره: أي أن يغيّر عقد الجزية.

(٣) الطعن: الذمّ والإعابة.

(٤) الازدراء: التحقير.

(٥) فتنه عن دينه: صرفه.

(٦) الغيار: علامة أهل الذمّة كالزنّار، وقيل: الغيار أن يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونه لونها، وتكون الخياطة على الكتف دون الذّيل.

(٧) الزّنّار: ما يلبسه الذمّي يشدّه على وسطه.

(٨) النواقيس: واحده الناقوس، وهو مضراب النصارى الذي يضربون به إيذانًا بحلول وقت الصلاة...

(٩) الندب: بكاء الميت وتعديد محاسنه.

أن يُمنَعوا من ركوب الخَيل عِتاقًا وهُجْنًا[١]، ولا يُمنَعوا من ركوب البغال والحمير؛ قال: فهذه الستة المستحَبّة لا تَلزم بعقد الذِّمّة حتى تُشترَطَ فتصيرَ بالشرط ملتَزمة، ولا يكون ارتكابُها بعد الشرط نقضًا للعهد، لكن يؤخَذون بها إجبارًا، ويؤدَّبون عليها زجرًا، ولا يؤدَّبون إن لم يُشترَط ذلك عليهم، ويُحتاط[٢] به.

[وتجب الجزية عليهم][٣] في كل سنة مرّةً واحدةً بعد ٱنقضائها بالشهور الهلاليّة، ومن مات منهم في أثناء السنة أُخِذ من تَرِكتِهِ بقدر ما مضى منها، ومن أسلم كان ما لَزِم من جزيته دَينًا في ذمّته يؤخَذ منه؛ وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته؛ ومَن بَلَغ من صغارِهم، أو أفاق من مجانينِهم ٱستُقبِل به حولٌ [ثم أخِذ][٤] بالجزية ويُؤخَذ الفقيرُ بها إذا أيْسَر، ويُنتَظر بها إذا أعْسَر؛ ولا تسقط عن شيخٍ ولا زَمِنٍ، وقيل: تسقط عنهما وعن الفقير؛ ولِأهل العهد إذا دخلوا دارَ الإسلام الأمانُ على نفوسهم وأموالهم، ولهم أن يقيموا فيها أربعةَ أشهر بغير جزية، ولا يقيموا سنةً إلا بجزية، وفيما بين الزمانَين خِلاف؛ ويَلزَم الكفُّ عنهم كأهل الذمّة، ولا يَلزمَ الدفعُ عنهم؛ وإذا أَمَّن بالغٌ عاقلٌ من المسلمين حربيًّا لَزِمَ أمانُه كافّةَ المسلمين، والمرأةُ في بذل الأمان كالرجل، والعبدُ فيه كالحرّ؛ وقال أبو حنيفة: لا يصحّ أمانُ العبد إلا أن يكون مأذونًا له في القتال؛ وإذا تَظاهَر أهلُ الذمّة والعهدِ[٥] بقتال المسلمين كانوا حربًا لوقتِهم، يُقتَل مُقاتِلُهم، ويُعتَبَرُ حالُ مَن عدا المُقاتِلة منهم بالرضا بفعلِهم والإنكارِ له؛ وإذا ٱمتنع أهلُ الذمّة من أداء الجزية كان نقضًا لعهدِهم؛ وقال أبو حنيفة: لا يَنتقِض به عهدُهم إلّا أن يلحَقوا بدار الحرب، وتُؤخَذ منهم جَبْرًا كالدُّيون؛ وإذا نَقَض أهلُ الذمّة عهدَهم لم يُستَبَح بذلك قتلُهم، ولا غَنْمُ أموالهم[٦]، ولا سَبْيُ ذراريِّهم ما لَم يقاتِلوا، ووجب إخراجُهم من بلاد المسلمين آمنِين حتى يَلحَقوا مَأمَنَهم من أدنى بلاد الشِّرك، فإن لم يَخرُجوا طوعًا أُخرِجوا كَرْهًا؛ فهذه هي الأحكام الشرعيّة في أمر الجزية.

---

(١) العتاق من الخيل: الكريمة الأصل، والهجان: ما تلده برذونة من حصان عربي.
(٢) يحتاط به: المراد أنه ينبغي للإمام أن يحتاط باشتراط ذلك عليهم ليعاملهم بمقتضاه.
(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها، وعبارة الأحكام السلطانية ص ٢٥١ «ولا تجب الجزية عليهم في السّنة إلّا مرّة واحدة».
(٤) التكملة عن الأحكام السلطانية ص ٢٥٢.
(٥) أهل العهد: من كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاق.
(٦) غُنْمُ أموالهم: الفوز بها.

وأوّلُ ما ضُربت ٱلجزية وجُعِلتْ على الرؤوس في خلافة[١] عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وكانت قبل ذلك تُحمَل قطائعَ[٢]؛ وٱختُلِف: هل ٱستأداها سَلفًا أو عند ٱنقضاء الحَوْل.

وأما ما اصطلح عليه كُتّاب التصرّف في زماننا هذا من ٱستخراجها وموضع إيرادها في حُسباناتهم، فهُم يستخرجونها سَلفًا وتعجيلًا في غُرّة[٣] السنة، وفي بعض الأقاليم تُستَخرَج قبل دخول السنة بشهر أو شهرين؛ وتُورَد في الحُسبانات قلمًا مستقِلًا بذاته، بعد الهلاليّ وقبل الخراجيّ، وسببُ تأخيرها عن الهلاليّ أنها تُستأدَى مُسانَهةً[٤]، وسببُ تَقدُّمها على الخراجيِّ ما ورد من وجوبها مشاهَرةً على الأشهر من أقوال الفقهاء؛ وقد تقدَّم ذكرُ الحُكم فيمن أسلم أو مات في أثناء الحَوْل، وأنه لا يَلزَمه منها إلا بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته، فلذلك وردتْ بين الهلاليّ والخراجيّ.

وأما نسبتُها في الإقطاعات الجيشيّة عند خروج إقطاعٍ ودخولِ آخر فإنها تَجري مَجرى المال الهلاليّ، لأنها تُستخرَج على حكم شهور السنة الهلاليّة دون الشمسيّة؛ فإن تَعجَّلها مُقطَعٌ في غُرّة السنة على العادة وخرج الإقطاعُ عنه في أثنائها بوفاةٍ أو نقلة إلى غيره استَحقّ منها نظيرَ ما مضى من شهور السنة إلى حين ٱنتقاله، لا على حُكم ما ٱستَحَقّ من المُغَلّ ويَستحِقّ ٱلمتّصلُ من ٱستقبال تاريخ منشوره كعادة النقود؛ وإن تَخلَّل بين المنفصل والمتّصل مدّةٌ كان قسطُها للديوان، يَرِد في جملة ٱلمحلولات من الإقطعات.

وأما ما يَلزَم مباشِرَ الجوالي وما يَحتاج إلى عمله، فالذي يلزمه أن يبسُط جريدةً على أسماء الذمّة[٥] بمقتضَى الضريبة المرفوعةِ إليه، أو الكشفِ الذي كشَفَه إن كان العملُ[٦] مفتوحًا[٧] أو مستجدًا، يبدأ فيها بذكر أسماء اليهود، ويثنّي بالسامِرة[٨] لأنّهم

(١) في كتب الفقه أن الجزية كانت على الرؤوس في عهد النبي ﷺ، فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ ﷺ أمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب من كلّ حالم دينارًا ولم يفضل، (انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٧٢، المطبعة السلفية).

(٢) القطائع: مفردها القطيعة وهي الضريبة، أو ما يقطع من الشيء.

(٣) غرَّة السّنة: أولها.

(٤) المسانهة: أي المعاملة بالسنة.

(٥) أي أسماء هل الذمة.

(٦) المراد بالعمل: البلد.

(٧) مفتوحًا، أي مما فتحه المسلمون من دار الحرب.

(٨) السامرة: قوم من اليهود يخالفون غيرهم من اليهود في بعض أحكامهم، منهم السامري عابد العجل.

شَعْبٌ منهم، ويثلّث بالنصارى، وإن كان في عمله طائفةٌ من الصابئة والمجوس ذَكَرهم بعد النصارى؛ وفي بعض بلاد الشأم تؤخذ الجزية من طائفة تُعرف بالشّمسيّة، يوحّدون الله تعالى وينكِرون نبوّةَ النبيّ ﷺ، ومنهم من يقول بنبوّة عيسى عليه السلام وأن لا نبيَّ بعده؛ ويكون بَسْطُ الكاتب لهذه الجريدة على التقفية[١] إذا كانت الأسماء كثيرة، ليسهل عليه بذلك الكشفُ والشطب، وإذا ٱستَخرَج جاليةً أوْرَدها في تعليق المياوَمة؛ وكَتبَ له بها وُصولًا[٢]، وشَطَبَها عن ٱسم من ٱستُخرِجتْ منه في جريدته، ويَرمُز في تعليقه إشارةَ الكتابة والخدمة على ما تَقدَّم بيانه في الهلاليّ.

ويَحتاج مباشر الجوالي في كلّ سنة إلى إلزام رئيس اليهود ورئيسِ السامِرة وقِسّيسِ النصارى أو أُسْقُفِّهم[٣] بكتابة أوراق يسمّونها: الرِّقاعَ بمَن عند كلّ منهم من الرواتب[٤]، وما لعلّه ٱستَجَدّ من الطّواريء[٥] والنّوابت[٦]، ويعيّن في آخر الرِّقاع من ٱهتدى بالإسلام، ومَن هلك بالموت، ومَن تَسَحّب[٧] من العمل، وإلى أيٍّ جهة توجّه، ويَجعل تلك الرِّقاعَ شاهدًا عنده بعد الإشهاد فيها على الصادرةِ عنه بأنه لم يُخلَّ بشيء من الأسماء، ويُلزِمه بكَتْبِ مَشاريحَ[٨] بمن ضَمَّن رِقاعَه أنه ٱهتدى أو هلك أو تَسحَّب كلّ اسم بمشروح، ويخلِّد المشاريخَ عنده ويشطُبُها[٩] على جريدته؛ والكتّاب في إيراد من ٱهتَدَى ونَزَح وهَلَك مختلفون: فمنهم من يُوصِل العِدّةَ المستقِرّةَ عنده عن يَمْنة العمل[١٠]، ويَستثنِي بالتعديَةِ عمّن ٱهتَدَى وهَلَكَ وتَسَحّب، كلّ ٱسم بمقتضَى مشروحه المشهودِ فيه، ويبرز بما تَحرَّر بعد ذلك؛ ومنهم من يُوصِل الجميعَ على ما ٱستقرّتْ عليه الحالُ إلى آخر السنة الماضية، ويَستخرِج ممّن ٱستخرج منه، ويَعتدّ بما[١١] يجب على ٱلمهتدى والهالكِ والمتسحِّبِ محسوبًا في باب المحسوب

(١) على التقفية: أي حسب القافية. (٢) الوصول: أي الايصال.
(٣) الأسقف: فوق القسيس ودون المطران.
(٤) الرواتب: المراد بها المقيمين، وهو من رتب رتبًا إذا أقام بالبلد.
(٥) الطوارىء: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه.
(٦) النوابت: جمع نابتة، أي النشء الصغار، والمراد بهم هنا من دون البلوغ.
(٧) تسحّب: أي نزح من بلد إلى بلد آخر، يظهر أنها عامية.
(٨) المشاريح، المراد بها الشروحات.
(٩) يشطبها: أي ينقلها من المستندات إلى الدفاتر.
(١٠) المراد بالعمل هنا: ما يسميه الكاتب بالقائمة.
(١١) يقال: اعتددت بالشيء: أي أدخلته في العدّ والحساب.

قَبْل فَذْلكة الواصل في الرّقاع ـ على ما نبيّنه إن شاء الله في الأوضاع الحسابيّة ـ ويكون ما على النازحين موقوفًا إلى أن يتحرَّى أمرهم؛ فإن عاد أحدٌ منهم إلى ذلك الإقليم ولم يكن قد قام بالجزية في بلد آخر ٱستُخرِجتْ منه، ووَرَدتْ في باب المضاف في حساب السنة، وإن كان قد قام بالجزية في بلد آخرَ وأَحضَر وُصولَ مباشِر تلك الجهة بما ٱعتَدّ له به عن تلك السنة، نَقَل مَبلغَ الوُصول على تلك الجهة التي حَضَر وُصولُها قربت أو بعدت، وٱستَشهَد في حسابه بمقتضى الوُصول؛ وكلتا الطريقتين سائغةٌ[1] عند الكُتّاب؛

وأما النَّوابت[2] والطَّوارىء فإنها تَرِد في باب المضاف باتفاق الكُتّاب في أوّل سنة، وتستقِرّ أَصْلًا في السنة التي تليها وما بعدها؛ ويحتاج المباشر إلى تفقُّد أحوال النوابت في كلّ مدّة لاِحتمال بلوغ صبيٍّ في أثناء ٱلحَوْل[3]، واختبار ذلك بأمور شرعيّة واصطلاحيّة: أما الشرعية فبإنبات[4] الشَّعر الخَشِنِ، أو بكمال خمسَ عشرةَ سنة؛ وأما الاصطلاحيّة فبانفراق رأسِ الأنف، وغَلَظ الصوت، وبظهور شيء على حَلمَة الثَّدْي من باطنه كالتُّرمُسة[5]، وبأن يُدارَ خَيطٌ على عنق الصبيّ مرّتين تحريرًا، ثم يوضَع طرفُ الخيط بين أسنانه وتُدخَل أُنْشوطةٌ[6] في رأسه، فإن دخلت دلّ ذلك على بلوغه، وإلا فلا؛ وٱصطَلَح بعضُ مباشِري الجوالي في بعض الأقاليم على إلزام عُرَفاء الذمّة[7] بالمطالَعةِ بكل صبيٍّ يُولَد لوقتِه، وبمن هلك منهم، ويرصِّع أسماءهم في جريدة مفرَدةٍ بهم، فمن بلغ عمره ثلاثَ عشرةَ سنةً استَخرَج منه ٱلجزيةَ سواء ظهرت أماراتُ بلوغه أم لا، ويلازم المباشرُ الكشفَ والتنقيبَ عمّن لعلّه أُخفِيَ من الرواتب، أو ٱستجدّ من الطَّوارىء والنَّوابت ولم يُرِد الدفع، فمن ظهر له أمرُه ٱستَخرَج الجاليةَ منه لاستقبال وجوبها عليه، ويقابل من أخفاه بالإهانة والنكال؛ والمباشَرةُ تُظهِر ما لا تحيط به الكُتُب؛ هذا ما يتعلّق بالجوالي، فلنذكر الخراجيّ ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(١) السائغة: الجائزة.
(٢) النوابت: جمع نابتة أي النشء الصغار.
(٣) الحول: السنة.
(٤) يقال: أنبت الغلام، إذا نبت شعر عانته، وهو معتبر لبلوغ صبيان أهل الذمة لأنه لا يمكن الوقوف على سنهم لاتهام أقوالهم.
(٥) الترمسة: ثمرة الترمس، وهو حبّ مضلع محزز.
(٦) الأنشوطة: ربطة دون العقدة، إذا شدّت من أحد طرفيها انحلت.
(٧) المراد بالذمّة: أهل الذمة.

ذكر جهات الخراجيّ وأنواعه وما يحتاج إليه مباشره

والخراجيُّ عبارةٌ عما يُستأدَى مسانَهةً مما هو مقرَّرٌ على الأراضي المُرصَدة للزراعة والنخلِ والبساتينِ والكرومِ والطواحينِ السنويّةِ التي تدور أحجارُها بمياه السيول في ٱلجهات الشاميّة، وما يُستأدَى من خدم الفلّاحين، ويسمَّى ذلك بمصر: الضِّيافة، وبالشأم: رَسْمَ الأعياد والخميس، وهو أغنامٌ ودَجاجٌ وكَشْكٌ وبَيض ـ على ما ٱستقرّ على كلِّ جهة ـ وهو إنما يكون على النواحي الإقطاعيّة غالبًا، وأما في نواحي الخاصّ فلا يُستأدَى، لِما هو مقرر على الأراضي بمصر من الحقوق التي تُستخرَج دراهمَ، وبالشأم من التَّضْييف[١] المقرَّر عليهم في أيّام الفَتْح[٢] عن مدّة ثلاثة أيّام؛ ومن أبواب الخراجيّ ما يُستأدَى بالشأم في خدمة رؤساء الضِّيَاع في مقابَلة ما لهم من المُطلَقِ والوُلاةِ والوكلاءِ والنُّقباءِ والصَّيارِفةِ والكيّالين والضَّوئيّة[٣] في مقابلَة ما يستأدونه من الرسوم، وذلك يَرِد في أبواب المضاف؛ والخراجيُّ تختلف أحكامه وقواعده بمصر والشام؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أما الديار المصريّة وأوضاعها وقوانينها وما جرت عليه قواعدها على ما ٱستَقَرّ في زماننا هذا وتَداوَله الكُتّاب، فقانون الديار المصريّة مبنيٌّ على ما يَشمَله الرِّيُّ من أراضيها ويعلوه النيل؛ وقد ذكرنا في باب الأنهار في الفن الأوّل من كتابنا هذا نِيلَ مصر، ومَبدأَه، والاختلافَ فيه، وما يَمُرُّ عليه من البلاد، وكيفيّةَ الانتفاعِ به مِن حفْرِ التُّرَع[٤]، وضبْطِ ٱلجُسور، وتصريفِ المياه عن الأراضي بعد رَيِّها؛ ونِيلُ مصر هو من أعاجيب الدنيا، وقد رُوِيَ عن ذي القرنين أنه كتب كتابًا عمّا شاهده من عجائب الوجود فذَكَر فيه كلَّ عجيبة، ثم قال في آخره: وذلك ليس بعَجَب، ولكن العَجَب نِيلُ مصر، ولولا ما جعل الله تعالى فيه من حِكمة هذه الزيادةِ في زمن الصيف على التدريج حتى يَتكامَل رِيُّ البلاد، وهبوطِ الماء عنها عند بَدْءِ وقتِ الزراعة لفسد أمرُ هذا الإقليم، وتَعذَّرتْ سكناه، إذ ليس به أمطارٌ كافية ولا عيونٌ سارحةٌ[٥] تعمّ

---

(١) التضييف: من الضيافة.

(٢) المراد بهذا القول صلح عمر رضي الله عنه لنصارى الشام على ضيافة من يمرُّ بهم من المسلمين ثلاثة أيّام ممّا يأكلون من غير أن يكلّفوا ذبح شاةٍ ولا دجاجة، وتبييت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السّواد دون المدن. (الأحكام السلطانية، ١٣٨، ط، مصر).

(٣) الضّوئيّة: نسبة إلى الضوء، والمراد بهم الذين يحملون المصابيح ويمشون بها ليلًا.

(٤) الترع: مفردها: الترعة، وهي القناة الواسعة للسقي أو الملاحة.

(٥) السارحة: الجارية.

أراضيَه، وليس ذلك إلا في بعض إقليم الفيّوم[١]؛ فسبحان من بيده الخلقُ والأمرُ القادرِ على كلّ شيء، والمدبّرِ لكلّ شيء، سبحانه وتعالى لا إله إلّا هو.

والذي يحتاج إليه مباشرُ الخراج بمصر ويَعتمِد عليه في مباشَرته أنه إذا شَمِل الرِّيُّ أرضَ الجهة التي يباشرها أن يبدأ بإلزام خوَلَة[٢] البلاد برَفع قوانين الرِّيِّ، وصورتُها أن يكتب في صدر القانون ما مثالُه: قانونٌ رَفَعَه كلُّ واحدٍ من فلان وفلان الخَوَلَةِ والمشايِخ بالناحية الفلانيّة، بما شَمِله الرِّيُّ وعلاه النِّيلُ المبارك من أراضي الناحية لسنة كذا وكذا ٱلخراجيّة، وهو من الفُدُن[٣]؛ ويذكُرون جملةَ قانون البلد، ويُفَصِّلونه بالرِّيّ والشَّراقِي، فالرِّيُّ: ما شَمِله النيل. والشراقِي: ما لم يشمله؛ ولِلرِّيِّ تفصيل: منه ما هو نَقاء[٤]، ومنه ما هو مزروعٌ، وخِرْسٌ[٥]، وغالب، ومستبحِر؛ ويُفصَّل بقبائله[٦]، ويُشرَح في كل قَبالة هذا التفصيل؛ والنقاء: هو الطينُ السوادُ[٧] الذي يَصلُح للزراعة ويَنبُت فيه إذا لم يُزرَع ٱلكلأُ الصالحُ للرَّعْي، ويسمَّى نباتُه بصعيد مصر: الكُتَّيْح، وهو نباتٌ تَستغنِي به ٱلخيلُ والدوابُّ والماشيةُ عن البِرسيم[٨]. وأما المزروع: فهو ما عادتُه أن يُزرَع في كلّ سنة. وأما الخِرْس: فهو الأرض التي تَنبُت فيها الحَلْفاء[٩]، فلا تُزرَع إلا بعد قلعها منها وتنظيفِها، وقَطِيعتُه[١٠] دون قطيعة النَّقاء. وأما الغالب: فهو ما غَلَبَتْ على أرضه الحَلْفاء وتكاثفتْ فلا تُقلَع إلّا بكُلْفة، وقَطِيعتُه دون قطيعة ٱلخِرس، وقلّما يُزرَع، وأكثرُ ما يكون ٱلخِرْس والغالبُ ببلاد الصعيد الأعلى لسعتها، وكثرةِ أرضها، وتعطيلِها من

---

(١) الفيّوم: ولاية بمصر بينها وبين الفسطاط أربعة أيام وهي في منخفض الأرض كالدّارة، ويقال: إنّ النيل أعلى منها، وأن يوسف الصديق عليه السلام حفر نهرًا عظيمًا إليها في سنوات الجدب. (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٨٦).

(٢) خولة البلاد: مفرده خولى وهو الذي يقيس الأرض بقصب المساحة.

(٣) الفُدُن: جمع فدّان قيل: الفدان: نبطي معرّب، وهو مقدار معلوم من الأرض. . .

(٤) النقاء: الأرض النقية ممّا يعوق الزارعين عن زراعتها.

(٥) الخرس: الأرض التي تنبت فيها الحلفاء، ولا تزرع إلّا بعد قلعها منها وتنظيفها.

(٦) القبائل: جمع قبالة بفتح القاف، وهي الأرض التي يقبلها أصحابها أي يضمنونها بمبلغ من المال يؤدّونه عنها في كلّ سنة.

(٧) السّواد: أي ذوا السّواد، وهذه التسمية لا تزال مستعملة بين العامة حتى اليوم.

(٨) البرسيم: عشب حولي يزرع في مصر، ويستعمل في العلف رطبًا ويابسًا.

(٩) الحلفاء: نبت من الأغلاث، وقلّما تنبت الحلفاء إلّا قريبًا من ماء أو بطن واد، وتأكل منها الإبل والغنم أكلًا قليلًا، وهي أحبّ شجرة إلى البقر.

(١٠) القطيعة: الضريبة.

الزراعة سنةً بعد أخرى. وأما المستبحِر: فهو أراضي الخلجان المشتَغِلة التي تستمِرّ المياه فيها إلى أن يَفُوت زمنُ الزراعة، فمنها ما يُبوَّر، ومنها ما يُزرَع مَقاثىء[1]، وقَطِيعتُه متوسّطة، وتكون غالبًا بالدراهم دون الغلّة. وعندهم أيضًا الترطيب[2]: وهو الذي تَخلّلت المياه باطنَ أرضه شبه النَّزّ[3] ولم تَعلُها، ولا تَصلُح لغير المقاثىء؛ فإذا رُفِع إلى المباشر قانونُ الرّي أشهدَ فيه على رافعِيه بأن الأمر على ما تَضَمَّنه؛ ثم ينظُر المباشرُ إلى سنة يكون نيلها نظيرَ نيل تلك السنة، ويبرز الكشوف، ويُحضِّر[4] البلد على الفلّاحين القَراريّة نظيرَ ما حضَّروه في السنة الموافق نِيلُها لنِيل تلك السنة الحاضرة، ويُشهِد على كلِّ مزارِع بما يُسجِّله من أراضي كلِّ قَبالة[5] وقَطيعتِها المستقرّة، ويعيِّن منها ما هو بحقوق وما هو بغير حقوق، والحقوقُ: دراهمُ يَقُوم بها المزارع عن كلِّ فدّان غير الغلّة، وتكون من أربعة دراهمَ إلى درهمين، والغلّةُ بحَسَب قَطيعة الأرض وعادتِها، وأكثرُ ما عُرِف من الخراج عن كلِّ فدّان ـ وهو أربعُمائة قصَبة بالقصَبة[6] الحاكميّة، والقصَبةُ ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش ـ ثلاثة أرادبّ[7]، وهذه الأرض جزيرةٌ بالأَقْصُر من أعمال قوص، وأقلّ ما علمناه من القطيعة عن كل فدان سدسُ إردبّ، وهي في الأراضي التي غَلَبت عليها الأخراسُ وقلّ الانتفاع بها، فهي تُسَجَّل بهذه القطيعة عليها، وتنصلح في المستقبل؛ وأما الأراضي التي تُسَجَّل بالدراهم فأكثرُ ما علمناه بأراضي الجِيزيّة[8] قُبالَة فُسطاط[9] مصر عن كلِّ فدّان مائتان وخمسون درهمًا، وهو كثير في أراضيها وسُجِّل في بعض السنين ثلاثةُ أفدنة بألف درهم، ولَم تستقِرَّ هذه القَطيعة، وهذه الأراضي تُزرَع غالبًا كَتّانًا؛ فإذا تكامل تحضير البلدِ على

---

(١) المقاثىء: أنواع القثاء.

(٢) الترطيب: المراد بها الأرض الرّطبة.

(٣) النّزّ: ما يتحلّب من الأرض من ماء.

(٤) يحضّر: من التحضير وهو التسجيل، وهو من المحضر بمعنى السّجل.

(٥) القبالة: الأرض التي يقبلها أصحابها أي يضمنونها بمبلغ من المال يؤدّونه عنها في كلّ سنة.

(٦) القصبة الحاكمية: كأنها حرّرت في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي فنسبت إليه وطولها ستة أذرع بالهاشمي، وخمسة أذرع بالنجاري، وثمانية أذرع بذراع اليد. (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥١٢، دار الكتب العلمية).

(٧) الأرادب: مفردها «الإردب»: وهو مكيال يسع أربع وعشرين صاعًا أو ست ويبات.

(٨) الجيزية: نسبة إلى الجيزة وهي بليدة في غرب الفسطاط، ولها كورة واسعة، وهي من أفضل كور مصر. (معجم البلدان ٢/ ٢٠٠).

(٩) الفسطاط: مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص في موضع فسطاطه وهو بيت يتخذ من شعر. (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٦٢).

المزارعين القَراريّة والطَّواريء نظم المباشرُ أوراقًا بجملة ما ٱشتمل عليه التحضيرُ مفصَّلةً بالأسماء والقبائلِ والجزائر والجُروف، وتَكتُب عليها الشهودُ الذين حُضَّرَ البلد بحضورهم، ثم يَصْرِف لكلِّ مزارع ما جرت العادة به من التَّقاوِي[١] بحَسَب ما يُسَجِّله، ويكون ما يَصرِفه من التقاوي من أَطْيَب الغلال وأَفْضَلِها وأَنْصَعها، ثم يَبسُط جريدةً على أوراق السجّلات يَشرَح فيها ٱسمَ كلّ فلّاح وما يُسَجّله من الفُدُن، ويفصِّل ذلك بقبائله وجهاتِه وقطائِعِه؛ فإذا نبت الزرعُ وٱستوى على سُوقه نَدَب[٢] عند ذلك من يباشر مساحة الأراضي: من شادٍّ وعُدولٍ ذوِي خِبْرة بعلم المساحة، وكاتبٍ عارفٍ خبيرٍ أمين، وقصّابين: وهم الذين يقيسون الأراضيَ بالأحكام الحاكميّة المحرَّرة؛ فيمسحون الأراضيَ المزروعةَ بأسماء أربابها وقبائِلِها، ويعيِّنون أصنافَ المزروعات بها، ويكون مباشرو المساحة قد بسطوا أيضًا سِجلّات التحضير، فإذا تكاملت المساحة نظم مباشروها أوراقًا يسمّونها: المكلّفة، يترجَم صدرُها بما مثاله مكلّفةُ تأريج[٣] فُنداقِ مساحةِ الأراضي بالناحية الفلانيّة لمُغَل سنةِ كذا وكذا الخراجيّة. والتأريجُ: هو الأوراق التي يبسُطها مباشرُ المساحة بما في السِّجلّات ويختِمها بما انتهت إليه المساحة. والفُنْداق: هو عبارة عن التعليق، وهو الذي تُكتَب فيه المساحاتُ حالَ قياسها. فإذا انتهت ترجمةُ صدرِ المكلّفة عَقَد جملةَ فُدُنها[٤] في صدرها وفصَّلها بأصناف المزروعات وأسماء المزارِعين، فإن طابقت المساحةُ السِّجلّات من غير زيادة ولا نقص قال: وذلك بمقتضَى السِّجلّات، وإن تميزتْ قال: ما تضمّنته السِّجلّات كذا، زائدُ ٱلمساحة كذا، وإن نَقصتْ ذَكرَ ما صحّ بمقتَضى مساحته، وكَمَّلَه بالقلم تَتِمّة؛ وإن نَقَص مزارعٌ عن سجلّه في قَبالةٍ وزاد على سِجلّه في قَبالةٍ أخرى كَمَّلَ عليه[٥] ما نقص بمقتضَى سِجلّه، وأورد ما زاد في القَبالة الأخرى زيادة، ولا يَنقُل الزائدَ إلى الناقص، ويُلزِمه المباشرُ بالقيام بخراج ما نقص من تلك القبالة وما زاد في الأخرى؛ هذا مصطلَحُهم، وليس هو منافيًا للشرع، إلا أنّني أرى في هذا النقص تفصيلًا هو

(١) التّقاوي: ما يعزل من الحبوب للزرع، وهي عاميّة.

(٢) ندب: وجّه وكلّف.

(٣) التأريج: من أرّج والأوارجة: من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه، ويقال: هذا كتاب التأريج.

(٤) الفُدُن: جمع فدّان.

(٥) كمّل عليه: أي كتب ذلك عليه كاملًا، وإن لم يكن كاملًا عند المساحة.

طريقُ العدل والحقّ، وهو إن كان النقص مع وجود أرض بائرة[١] بتلك القَبالة لَزمه القيامُ بخراج النقص، لأنه عطّلها مع قدرته على الانتفاع بها وزراعتِها؛ ويسلّم إليه من الأراضي البائرة التي شَملها الرّيُّ بتلك القَبالة نظيرَ ما نَقَص عنده لينتفع بما لعلّه نبت في تلك الأرض من الكَلإ؛ وإن كان النقص مع تغليق[٢] أرضِ تلك القَبالةِ بالزراعة فلا شيء عليه لأنه لم يتسلّم ما بسِجلّه، ويعتدّ له بما لعلّه زاد على تسجيل غيره بتلك القَبالة، فإنه يعلم بالضرورة القطعيّة أن الذي زُرع بها أكثَرُ مما بسجلّه أُخِذ من جملة سجلّ غيره؛ وإن صحّت تلك القَبَالة في جميع[٣] المزارعين بمقتضى سجلّاتهم بغير زيادة، ونَقَص عند واحد بعينه جميعِ ما ٱشتملت عليه المساحة بها، فإن وافق جملةَ قانونها تَعيَّن أن الخلل إنما جاء من قِبل المباشر، لأنه سَجَّل في قَبالة أكثرَ من قانونها، فلا يُلزَم المزارعُ بالنقص؛ هذا هو العدل والإنصاف، فمن خرج عنه فقد ظلم وحاف[٤]؛ فإذا تَكمَّلتْ تكملة المساحة وضع المباشرُ زائدَ مساحةِ كلِّ ٱسم تحت ٱسمِه، وضمّه إلى سجلّه، ورَفَع[٥] الجملَة بالعَين والغلّة، وأضاف [إلى][٦] كلِّ ٱسم ما لعلّه قد تَسلَّمه من تَقاوٍ وقُروض، وما عليه من عُشرٍ ووفرٍ ورسوم، وما لعلّه ٱنساق من الباقي إلى آخر السنة الماضية إن كان؛ وهم يُضِيفون عُشْرَ التقاوي، وهو حرام لا شُبْهَةَ في أخذِه، وهو الرِّبا بعينه، فإنه يُقرض الرجلَ عشرة فيأخذها أحدَ عشَر؛ ويُضِيفون أيضًا في بعض البلاد عُشرَ العُشر فيَقبِضُ كلَّ مائة إردبٍّ مائةَ إردبٍّ وأحدَ عشرَ إردبًّا؛ وإنما ٱشتدّت هذه المظالم وأُحدِثت من قِبَل أرباب البذور الذين يَقترِفون المظالم ولا يجدون من يردعهم ويُردّهم عنها فتستمرّ، وهي من السنن السيئة التي عليهم وزرُها ووزرُ مَن عَملَ بها إلى يوم القيامة.

ثم يَعقِد المباشر على جميع ذلك جملةً ويشطُبها بما يستخرجه منه ويحصّله، والذي تنعقد عليه الجملة هو ما تَعيَّن عليه للديوان أَنجَب زرعُه أو لم يُنْجِب؛ ومهما ٱستخرجه منه وحصّله وأحال به كَتَب به وُصولًا؛ فإذا غَلّق كلُّ ٱسمٍ ما عليه أجاز عليه

---

(١) البائرة: الأرض التي لم تعمر، أو التي تركت سنة لتزرع من قابل.

(٢) التغليق: التكميل والتتميم.

(٣) في جميع: أي في مساحات جميع.

(٤) حاف عليه: ظلمه وجار.

(٥) يقال: رفع الحاسب حسابه: إذا عدّده ثم أجمله، ويقال لجملته وفذلكته: مرفوع، وهذا اصطلاح للحساب والكتاب مشهور في كتبهم ورسائلهم.

(٦) ما بين قوسين تكملة يقتضي السّياق إثباتها.

إشارةَ التغليق، وإن بقِيَ عليه شيء ممّا تَعيَّن عليه طَرَدَه للباقي؛ هذا حكم الأرض التي تُسجَّل بالغلّة.

وأما ما يُسجَّل بالنقد فإنه تَتَساوَى عليه ثلاثةُ أقساط أو قسطان: قسطٌ من ثمن البِرسيم الأخضر عند إدراكه وبيعه لربيع الخيل، وقسطٌ من الكَتّان عند قلعه إن كان، وقسطٌ عند إدراك المُغَلّ والمَقاثىء، ومنهم من يسجِّل بالنقد الحاضر جملةً واحدةً في وقت السجلّ؛ هذا حكم خراج الزراعة.

وأما الخراج الراتب، فهو لا يكون إلا بالنقد عَينًا[١] أو فضّة؛ وهو خراج السواقي والبساتين والنَّخيل؛ وذلك أن أربابه يقاطعون[٢] الديوانَ على فُدُن معيَّنةٍ بمبلغ معيَّنٍ عن كلّ فدان في كلّ سنة يقومون به في أوقات معلومة، رَوِيَت الأرضُ أو شَرَّقَتْ[٣]؛ وهم يَحفِرون في تلك الأراضي آبارًا بقدر ما يعلمون أن المياه التي تطلع منها تُروِي تلك الأراضيَ، ويركِّبون على أفواه الآبار السواقِيَ المتّخذة من أخشاب السنط[٤] وما ناسبه، ٱلمشهورةَ بالخرير[٥] التي تُعِين على رفع الماء ويسمّونها بديار مصر: المَحال[٦]، وبحماةَ: النواعير، إلا أن النواعير تَدُور بالماء، وهذه تدور بالأبقار؛ ويزرعون عليها بتلك الأراضي ما أحبّوه وٱختاروه من أصناف المزروعات والغُروس لا يطالَبون عليها بغير الخراج المقرَّر، إلا أن يَنْصِبوا[٧] القصبَ فلا يُقتصَر منهم عند ذلك على الخراج، بل للديوان على الأقصاب مقرَّرٌ يستأديه عن كلّ فدّان؛ ويُستأدَى خراجُ الراتب على أقساط في زمن الثمار والأعناب والفواكه وعند ضَرْبِ الوَسْمة[٨] ـ وهي النِّيل الذي يُصبَغ به اللونُ الأزرق ـ وخراج الراتب يستأدَى ممن هو

---

(١) العين: ما ضرب من الدنانير. (٢) يقاطعون: من القطيعة، وهي الضريبة.

(٣) شَرّقت: مصدره التشريف ولعلّه يريد قطّعت أو فلحت أو هي بتخفيف الراء: امتلأت وامتنعت أن يجري الماء فيها. . .

(٤) السنط: شجر من الفصيلة القرنية ثمره القرظ، يعيش في الأقاليم الحارة ويكثر بمصر، واحدته سنطة.

(٥) الخرير: صوت الماء.

(٦) المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يُستقى بها سمّيت بذلك لأنها تدور فتنتقل من حالة إلى حالة.

(٧) نصب القصب: هي أنّهم إذا هيأوا الأرض لزرعه يلقونه فيها قطعتين، قطعة مثناة، وقطعة مفردة، بعد أن تجعل الأرض أحواضًا وتفرز لها جداول يصل الماء منها إلى الأحواض، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاث أنابيب كوامل وبعض أنبوبة من أعلى القطعة، وبعض أخرى من أسفلها. (خطط المقريزي ١/١٠٢، ط، بولاق).

(٨) ضَرْب الوسمة: هو أن يضربوا شجرها بعد جفافه لينحتّ عنه الورق ويسقط.

عليه، زَرَع أرضَه أو عَطّلها، وهو لا يبطل بوفاة ٱلْمُقاطَع[(١)] على الأرض، بل ينتقل على ورثته، ويطالَبون به أبدًا ما تعاقبوا وتناسلوا، ولا يوضع عنهم إلا إن ٱبتلع البحرُ الأرض المُقاطَع عليها بعد أن يعملوا بذلك مشاريحَ تُثبِت عند حاكم البلد أن البحر ٱبتَلَع تلك الأراضيَ بكمالها أو بعضها، ولا يَنهض مباشرُ الناحية أو ناظرُ العمل بوضعه مع وجود المَحضَر[(٢)] الثابت، بل يحضر المقاطع على الأرض أو من انتَقَلت إليه بالإرث أو الابتياع إلى باب السلطان، ويرفع قصّةً إلى الوزير بصورة الحال، ويوَقِّع عليها بقلمه أن يُوضَع عنه من خراج الراتِبِ بقدر ما ٱبتلعه البحرُ بمقتضى المَحضَر، ويستمرّ حكمُ ما بقيَ، ويكتب على ظهر قصّته: توقيعٌ شريفٌ سلطانيّ؛ ويُثبَت بدواوين الباب السلطانيّ، ثم يُثبَت بديوان العمل ٱلجامع، ثم ينزل في ديوان البلد التي بها تلك الأرض، ويُوضَع عند ذلك من الضريبة الديوانية؛ هذا حُكمُ الخراج بالديار المصريّة وقاعدتُه والعادة فيه.

وأما جهات الخراجيّ بالشام وكيفيّتها وما يعتمد عليه مباشروها ـ فإن قانون البلاد الشاميّة مبنيّ على نزول الغيث، ووقوع الأمطار في إبّانها[(٣)] وأوقاتِ الاحتياج إليها، فمن ذلك المطرُ المسمّى: الوَسميّ[(٤)]، وهو الذي يقع في فصل الخريف، وعند وقوع هذا المطر يُخَدُّ[(٥)] شَقُّ الأراضي المكروبةِ[(٦)] بالسِّكك[(٧)]، ثم يُبذَر الحبّ فيها، ويعاد شقُّ الأرض عليه ليَخفَى عن الطير خشيةَ ٱلتقاطه، فإذا نزل عليه المطر الثاني بعد ذلك نَبَت وبَرَز إلى وجه الأرض، وهو عند ذلك يسمَّى: الأَحْوَى[(٨)]، ثم لا تزال الأمطار تسقيه والأنواءُ[(٩)] تغذيه حتى يصير غُثاء[(١٠)]، ثم يقع عليه بعد ذلك المطر المُسمَّى بالمطر الفاطم، وهو غالبًا يكون في شهر نَيسانَ، ثم يعقد فيه الحبُّ بعد ذلك، وينتهي على عادة الزرع؛ هذا حكمُ ما يُزرع على الوَسميّ.

---

(١) المقاطع: هو الذي جعلت عليه قطيعة أي ضريبة.
(٢) المحضر: خطّ يكتب في واقعة خطوط الشهور في آخره بصحة ما تضمّنه صدره، وهو اصطلاح حادث.
(٣) إبّانها: أوانها.
(٤) الوسميّ: مطر الربيع الأول، ولعلّه يريد أوّل مطر يسقط بعد انتهاء فصل الصيف. . .
(٥) يخدّ: يشقّ.
(٦) المكروبة: المحروثة وكرب الأرض: قلبها وهيّأها للزرع.
(٧) السّكك: مفردها سكّة وهي حديدة المحراث.
(٨) الأحوى من النبات: ما يضرب إلى السّواد من شدّة خضرته، وهو أنعم ما يكون منه.
(٩) الأنواء: الأمطار.
(١٠) الغثاء: ما يحمله السيل من رغوة ومن فتاة الأشياء التي على وجه الأرض.

ومن أراضي الشأم [نواحٍ][١] يُغِبّها[٢] الوَسميُّ فيَزرَع سُكّانُها الحبَّ عَفِيرًا[٣]، ومعنى ذلك أنهم يزرعون في الأرض الحبَّ قَبل إبّان الزرع ويَنتظِرون وقوعَ الأمطار عليه؛ ومن غريب ما اتّفق في بعض السنين أنهم أودَعوا الحبَّ الأرضَ على عادتهم فلم تَسقط عليه الأمطارُ في تلك السنة، فاستمرّ في الأرض إلى العام القابل[٤]، وأيس أهلُ البلاد منه، وزرعوا في السنة الثانية شطرَ الأراضي التي كانت كِرابًا غيرَ مزروعة ـ فإن عادتهم بسائر بلاد الشأم أن كلَّ فلّاح يَقسِم الأراضيَ التي بيدِه شطرين، فيزرع شطرًا، ويُرِيح شطرًا، ويتعاهده بالحرث لتَقْرَع[٥] الشمسُ باطنَ الأرض، ثم يزرعه في القابل ويُرِيح الشطرَ الذي كان به الزرع؛ هذا دأبهم، خلافًا لأراضي الديار المصريّة، فإنها تُزرَع في كلّ سنة ـ فلما وقعت الأمطار نَبَت الشطران معًا، وأَقبَلت الزراعاتُ في تلك السنة، فتَضاعَف المُغَلّ، وهذا غريبٌ نادر الوقوع.

ومن أراضي الشأم ما يسقَى بالمياه السارحة[٦] من الأنهار والعيون، وتكون مقاسمةُ أرضه أوفرَ من مقاسمة ما يسقَى بالأمطار، وقيمةُ الأملاك بها أرفع وأَغلَى من تلك، ويكون غالبًا في الأراضي المسْتَفِلة[٧]؛ والله تعالى أعلم.

والذي يعتمِده مباشر الخراج ببلاد الشأم أنه يبدأ بإلزام رؤساء البلاد بتغليق أراضيها بالزراعة والكِراب[٨]؛ ومصطلَحهم في ذلك أن يقولوا: أحمرَ وأخضَر، يَعنُون بالأحمر: الكِراب، وبالأخضر: الزرع شَتويًّا أو صيفيًّا، ويَعنُون بالشَّتويّ: القمحَ والشعيرَ والشُّوفانَ[٩] والفولَ والحِمَّصَ والعدسَ والكِرْسِنّة[١٠] والجُلبّان[١١]

(١) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها. (٢) يغبّها: أي يتأخّر عنها.
(٣) زرع العفير: أي بذر الحبوب في الأرض قبل سقيها.
(٤) القابل: المقبل والقادم.
(٥) قرعت الشمس باطن الأرض: أصابته بحرارتها ونورها.
(٦) السّارحة: الجارية.
(٧) المراد بالمستفلة: أي ما اطمأنّ من السّهل وسفُل.
(٨) الكراب: الحرث.
(٩) الشّوفان: نبات من الفصيلة النجيلية، وسيقانه تعلو من قدمين إلى ثلاثة، وهو أنواع كثيرة، أشهرها الشوفان المستنبت وهو أهم علف للخيل، وتعلفه أيضًا الماشية والطيور، ويصنع الفقراء خبزًا من دقيقه، لكنه رديء، وهو ضرب من الشعير ينجرد من قشره. . .
(١٠) الكرسنّة: شجرة صغيرة لها ثمر في غلف. وتستخدم علفًا للدّواب.
(١١) الجلبان: هو من القطانيّ بتشديد الياء أي الحبوب التي تطبخ. (انظر مفردات ابن البيطار ١/ ٦٤).

والبشْتِيلية[(١)] وهي التي تسمَّى بمصر: البِسِلَّى، وبالساحل الطرابلُسي: الحالبة؛ ويعنون بالصيفيّ: الذُرَةَ والدُّخْنَ[(٢)] والسِّمسِمَ والأَرُزَّ والحبَّةَ السوداءَ والكُسْبَرَةَ والمقَاثىء[(٣)] والوَسِمة[(٤)] والقِرْطِمَ[(٥)] والقطنَ والقُنَّب[(٦)]؛ ويَكتُب عليهم بذلك مشاريح أنهم لا يبوِّرون شيئًا من الأراضي ومن بَوَّر شيئًا منها كان عليه القيامُ برَيْع الغامر[(٧)] من نسبة العامر؛ فإذا زُرعت الأراضي وبدا صلاحُ الزرع، وأخذ الفول في العقد خرج الوكلاء على الزراعة إلى النواحي يحفظون الزراعة من التَّطرُّق إلى شيء منها، ويلازمونها إلى أن تُحصَد وتُنقَل إلى البيادر[(٨)]؛ فعند ذلك يخرج الأمر بحفظ ما يصِل إلى البيادر، ويأخذون في الدِّراس[(٩)]؛ فإذا تكامَل وطابت البيادر ولم يَبقَ إلا التّذريَةُ أَخرَج مذرّيًا - ووظيفة المذرِّي أنه يلزمهم بتخليص الغلال من الأقصال[(١٠)] وتنظيفِها؛ فإذا فعلوا ذلك وخَلَصت الغلال من الأتبان[(١١)] والأقصار وصارت بيادرَ صافيةً خرج والي العمل ومباشروه إلى تلك الجهة، وتقدّموا[(١٢)] بتوزيع بيادرها على ضريبةِ الناحية وعادتها في المقاسَمة، مناصَفةً - وذلك في أراضي السَّقْي -، ومثالَثةً ومرابَعةً - وهو في غالب البلاد -، ومخامسَةً ومسادَسةً - وذلك في المزارع والنواحي الخالية من السكّان التي يزرعها المُسْتَكْرَوْن[(١٣)] -، ومسابَعةً ومثامَنةً - وذلك في النواحي المجاورةِ لسواحل البحر والمتاخِمةِ لأطراف بلاد العدوّ؛ فإذا فرغ توزيعها أخذ المباشرون ما يخصّ الديوانَ من التوازيع، ثم يُحزَر[(١٤)] ما لعلّه تأخَّر من الغلال في عَرَصات[(١٥)] البيادر

---

(١) البستيلية: أو البسلي، بقل زراعي حولي من القرنيات الفراشية ضروبه كثيرة، وتطبخ قرونه وبزوره.

(٢) الدُّخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم، ينبت بريًا ومزروعًا.

(٣) المقاثيء: المراد به القثاء نفسه.

(٤) الوسمة: ورق النيل الذي يصبغ به.

(٥) القرطم: حبّ العصفر.

(٦) القنّب: ضرب من الكتان، وهو الغليظ الذي تتخذ منها الحبال وما أشبهها.

(٧) المراد بالغامر: الذي لا نبات فيه.

(٨) البيادر: المواضع التي يداس فيها الفول والحنطة ونحوها.

(٩) الدِّراس: الدوس على الحبوب بخشبة مستطيلة يبلغ طولها مترين وعرضها نصف طولها تسمى «المورج» يجرها ثور أو نحوه، يدور بها فوق الحب ويقف الدارس عليها.

(١٠) الأقصال: مفردها القصيل، وهو ما اقتطع من الزرع أخضر لعلف الدواب.

(١١) الأتبان: مفردها: التبن، وهي ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه، تعلفه الماشية.

(١٢) يقال: تقدم إليه بالشيء، أي أمره به.

(١٣) المُستكرَون: من استكرى أي استأجر.

(١٤) يحزر: أي يقدّر بالظنّ والحدس.

(١٥) العرصات: مفردها العرصة، وهي البقعة الواسعة.

والأقصالِ[١] وأعقاب التبّانات والعفائر[٢]، ويؤخَذ منه ما يخصّ الديوانَ من نسبة المقاسَمة، ويكمّل على الفلّاح على حُكم ضريبة ذلك العمل؛ وفي بعض النواحي يكون من المواسطة، فتُفرَد لها توزيعة بمفردها، ثم يؤخَذ من حاصل الفلّاح بعد الرسوم عشرُ ما بقي له؛ وهذا غيرُ مطّرِد[٣] في جميع البلاد، فإنّ في جهات الأوقاف والبِرّ وما يناسبها لا يؤخَذ العشرُ إلا من النصاب الشرعيّ؛ وفي نواحي الخواصّ والإقطاعات يؤخَذ ممّا بقيَ للفلّاح من كلّ عشرة أجزاءٍ جزءًا ممّا قلّ أو كَثُر بحسابه؛ وفي بعض الأقاليم لا يُؤخَذ العشر من المزارعين الذِّمّيّة؛ وأما النواحي الإقطاعيّةُ والأملاكُ التي أعشارُها ديوانيّةٌ فمنها ما عليه ضريبةٌ مقرَّرةٌ تؤخذ في كلّ سنةٍ زاد المُغَلّ أو نَقَص، ومنها ما يُندَب له من يقف على النواحي ويَحزُرُ ما بها من الغلال ويقدِّر العشرَ عنها، ويكون هذا الحَزْرُ والزرعُ قائمٌ أو حصيدٌ قبل دِراسه، ثم يستعاد بعد ذلك من الفلّاحين ما لعلّه عليهم من التقاوِي[٤] والقُروض، وتكون بمفردها مرصَدةً لتَقاوِي ٱلسنة الآتية؛ ثم يُعتبَر ما يَتحصّل من الغلال على ٱختلاف أصنافها بالكيل المتعامَلِ به في ذلك الإقليم، وتُعمَل بذلك مخازيمُ[٥] على العادة مفصّلة بالأسماء وأصلِ المقاسَمة والرسوم والعشرِ وما لعلّه ٱستعيد من التقاوِي والقُروض؛ وعند تكامُل قَسْم نواحي كلّ عملٍ يُنْظَم على المخازيم عَمَلٌ[٦] بالمتحصِّل على ما نشرحه إن شاء الله تعالى في الأوضاع الحسابيّة؛ هذا ما يعتمده في الغلال.

وأما الخرّوبُ والزيتونُ والقطنُ والسُّمّاقُ[٧] والفستقُ والجوز واللّوز والأَرُزّ فإنّ الوكلاء تستمرّ على حفظ ذلك إلى أن يصير في بيادره، ويُقسَم على حُكم الضريبة ويحصّل ويُورَد على المتحصل.

وفي بعض الأعمال الشاميّة نواحٍ مفصولةٌ ومضمَّنةٌ على أربابها بشيء معلوم يؤخَذ منهم عند إدراك المُغَلّ من غيرِ توكيل ولا مقاسمة، وهي نظيرُ المتأجَرات

(١) الأقصال: مفردها القصلة، وهي الطائفة المتقطعة من الزرع.
(٢) العفائر: لعلّها من العفر، وهو وجه الأرض.
(٣) المطّرد: الذي يجرى مجرىً واحدًا منسّقًا.
(٤) التقاوي: من الحبوب ما يُعزل لأجل البذر.
(٥) المخازيم: مفردها المخزومة: وهي نوع من الدفاتر يخرق.
(٦) المراد بالعمل: نوعٌ من القوائم يعمله كتاب الدواوين.
(٧) السُّمّاق: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقيد فيها حبّ صغار.

بالديار المصريّة؛ ولفظُ الفصل[١] بالشأم كلّه كلمة فَرَنجيّة، وآستمرّ آستعمالها في البلاد الساحليّة التي آرتجِعت من أيدي الفَرَنْج جريًا على عادتهم.

وأما خراج العين[٢] فهو مقرَّر على البساتين والشجريّات والكروم والمقاثىء ويُستخرَج على حكم الضريبة عند إدراك كلّ صنف.

ومن أبواب الخراجيّ الخِدَمُ التي تقدّم ذكرُها، ومقرَّرُ القصب[٣] والبرود[٤] والبُسطِ، وعُشْرُ العَرَق[٥]، وغيرُ ذلك مما يطول شرحه، إلّا أن جميعَ ما يُستخرَج من الأراضي منسوبٌ إلى الخراج.

ومن أبواب الخراجيّ الأحكارُ على ما فيها من الاختلاف؛ ومهما آستخرجه المباشر وحصّله من ذلك يَعتمِد في إيراده نحوَ ما شرحناه في الهلاليّ: من إيراده في تعليق المياوَمة، وشَطْبِه على الجريدة المبسوطة على أبوابه؛ هذا حكم الهلاليّ والجوالي والخراجيّ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما ما يشترك فيه الهلاليُّ والخراجيُّ ويختلف باختلاف أحواله فجهاتٌ، وهي المراعي والمصايدُ والأحكار[٦].

أما المراعي ـ فالذي يَرِد منها في أبواب الهلاليّ ما آستقرّ حُكمه بجهة، وتَقرَّر في كل سنة، وصار ضريبةً مقرَّرة؛ فمن المباشرين من يَقبضه على شهور السنة، ويستخرجه أقساطًا، ويورده في جملة أبواب الهلاليّ؛ والذي يَرِد منه في أبواب الخراجيّ هو ما يُستخرَج من أرباب المواشي في كلّ سنة عند هبوط نيل مصر ونباتِ الكلإ، في مقابلة ما رعته مواشيهم من نبات الأرض، وهو يزيد وينقُص بحسب كثرة المواشي وقلّتها؛ وعادتُهم فيه أن يُندَب لمباشَرة ذلك مشدٌّ[٧] وشَهود وكاتب، ويعدّوا الأغنام وغيرَها، ويَستخرِجوا من أربابها عن كلّ رأسٍ شيئًا معلومًا بحسب ضريبة تلك

(١) الفصل: لعلّ أصل هذه الكلمة في اللغة الفرنسية «Vassal» ومعناه التابع الذي أعطاه متبوعه إقطاعًا نظير واجبات يؤدّيها، ولعل أهل الشام اشتقوا منه الفسل وأرادوا به المعنى المصدري: أي التبعية، ثم حرّفته ألسنتهم إلى «الفصل».

(٢) العين: في الأصل ما ضرب من الدّنانير.

(٣) القصب: ثياب رقاق ناعمة من كتان.

(٤) البرود: مفردها البُرد وهو ثوب مخطط يلتحف به.

(٥) العرق: دبس التمر أي عسله.

(٦) الأحكار: مفردها الحكر، وهي العقار المحبوس.

(٧) المشدّ: المتولّي.

ٱلجهة وعادتِها؛ وهو على هذا الوجه لا ينبغِي إيراده إلا في أبواب الخراجيّ؛ ومن الكتّاب من يُورِده في أبواب الهلاليّ، وهو غلط.

وأما المصايد[١] ـ فمنها أيضًا ما يورَد في أبواب الهلاليّ كالنواحي التي تصاد بها الأسماك على الدوام، مِثل ثغر دِمْياطَ والبُرُلُّس[٢] وجنادل[٣] ثغر أُسوانَ وأشباهِ ذلك بالديار المصريّة، وبالشأم مثل نهر العاصي[٤] وبُحَيرةِ طَبَرِيَّة، وغيرِهما من الأنهار والبِرَك؛ ومنها ما يَرِد في أبواب الخراجيّ، وهو ما يصاد من الأسماك عند هبوطِ نيلِ مصر ورجوعِ الماء من المزارع إلى بحر النيل؛ والعادة في ذلك إذا انتهت زيادة النيل وشرع الماء في مبادىء النقص سَكَروا[٥] أفواهَ التُّرَع، وسَدّوا أبوابَ القناطر التي عليها حتى يرجع الماء (ويتكاثف ممّا يلي المزارع) ثم ينصبون الشِّباكَ، ويصرفون المياه، فيأتِي السمكُ وقد ٱندفع مع الماء الجاري، فيجِد الشباك تَحُول بينه وبين الانحدار مع الماء، فيجتمع فيها، ثم يُخرَج منها إلى البَرّ، فيوضع على نخاخ[٦] ويملَّح ويودَع في الأمطار، وأكثرُ ما يكون ذلك في طول الإصبَع ونحوه؛ وله أسماء: منها البُلْطيُّ[٧] والرَّايُ والبُنِّيُّ وغيرُ ذلك، وما يؤكَل منه طريًّا بعد قَلْيه يسمّونه الإبسارية؛ ومنها ما يكون بقدر الفِتْر[٨]، ويسمّى الشال[٩]، وهو يُملَّح أيضًا؛ فهذا الذي يتعيّن إيرادُه في أقلام الخراجيّ، ومنهم من يورده في الهلاليّ، ومن الكُتّاب من يورد المصايدَ والمراعيَ قلمًا مستقلًّا بعد الجوالي وقبل الخراجيّ.

وأما الأحكار ـ فقد تقدّم الكلامُ عليها عند ذكرنا للهلاليّ.

---

(١) المصايد: أماكن الصيد، وأوّل من قرّر مالًا في مصر على المصايد أحمد بن محمد بن مدبّر لما ولي خراجها، وقد احتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب في الديوان: خراج مضارب الأوتاد ومغارس الشباك. (خطط المقريزي ٢/ ٨١ ـ ٩٥).

(٢) البُرُلّس: بلدة بسواحل مصر من جهة الإسكندرية. (شرح القاموس).

(٣) الجنادل: موضع فوق أسوان بثلاثة أميال في أقصى صعيد مصر قرب بلاد النوبة. (معجم البلدان ٢/ ١٦٦).

(٤) نهر العاصي: هو اسم لنهر حماة وحمص، ويعرف بالميماس، مخرجه من بحيرة قدس، ومصبه في البحر قرب أنطاكية.

(٥) سكروا: أي سدّوا.

(٦) النخاخ: جمع نخّ: وهو بساط طويل، وقد شاع في مصر إطلاقه على الحصير الذي يتخذ من البردى ونحوه.

(٧) البلطيّ: إنه من أطيب الأسماك، ويشهبون به المترعرع في الشباب والنعمة.

(٨) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

(٩) ما تقدّم من الأسماء فهي أسماءٌ لأنواع من الأسماك.

وهذه الاختلافات بين الكُتّاب هي بحسب آرائهم وعاداتِ النواحي وما استقرّت عليه قواعدها؛ وإنما أوردنا ذلك على سبيل التنبيه عليه، وذكرِ مصطلَح الكُتّاب فيه.

وأما أقصاب السكّر ومعاصرها ـ فهي تختلف بحسب الأماكنِ والبقاعِ والنواحي والديارِ المصريّة والشأم، وتختلف أيضًا في الديار المصريّة بحسب الأعمالِ والنواحي والأراضي؛ وقاعدتُها الكليّةُ التي لا تكاد تختلف في الديار المصريّة أن تُختارَ لها الأراضي الجيّدةُ الدَّمِثةُ[١] التي شمِلها الرِّيُّ وعلاها النيل، ويُقلَع ما بها من الْحَلْفاء[٢] وتُنظَّف؛ ثم تُبْرَش بالمقلقِلات ـ وهي محاريثُ كبار ـ ستةَ وجوه، وتجرَّف[٣] حتى تُمَهَّدَ، ثم تُبْرَش ستةَ وجوهٍ أخرى وتجرَّف ـ ومعنى البَرْش الحرث ـ؛ فإذا صَلَحتْ وطابتْ ونَعُمتْ وصارت ترابًا ناعمًا وتساوت بالتجريف تُشَقّ عند ذلك بالمقلقِلات، ويُرمَى القصبُ فيها قطعتين: [قطعةً][٤] مثنّاةً، وقطعةً مفردة؛ وذلك بعد أن تُجعلَ أحواضًا وتُفرزَ لها جداولُ يصل الماء منها إلى تلك الأحواض، ويكون طول كلِّ قطعة منها ثلاثةَ أنابيبَ كواملَ وبعضَ أُنبوبة من أعلى القطعة وبعضَ أخرى من أسفلها؛ ويُختار برسم النَّصْب من الأقصاب ما قصرتْ أنابيبُها، وكثُرت عيونُها؛ فإذا تكامل النَّصْبُ أعيد الترابُ عليه؛ وصورة النصب أن تكون القطعة ملقاةً لا قائمة؛ ثم يُسقَى من حال نصبه في أوّل فصل الربيع في كلّ أسبوع مرّة؛ فإذا نبت القصب وصار أوراقًا ظاهرةً على وجه الأرض نبتتْ معه الحَلْفاءُ والبقلةُ[٥] الحَمْقاء، فعند ذلك تُعْزَق أرضُه ـ ومعنى العَزْق أن تُنْكَش الأرضُ وينظَّف ما نبت مع القصب ـ ويُتعاهد[٦] بذلك مرّةً بعد أخرى إلى أن يَغْزُر القصب ويقوَى ويَتكاثف، فلا يتمكّن العُزّاقُ من الأرض، فيقال فيه عند ذلك: طَرَدَ القصبُ عُزّاقَه، وذلك عند بروز الأُنْبُوب منه؛ ومجموعُ ما يُسقَى بالقادوس[٧] ثمانيةٌ وعشرون ماءً.

---

(١) الدمثة: السهلة اللينة.
(٢) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.
(٣) تجرّف: تسوّى تربتها.
(٤) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والزيادة عن (خطط المقريزي ١/١٠٢).
(٥) البقلة الحمقاء: هي المعروفة في مصر بالرجلة، وإنّما سمّيت بذلك لأنها تنبت على مجاري المياه، يمنع عنها الماء فيقتلعها ثم تعود فتنبت أيضًا.
(٦) في كتب اللغة «يُتعهّد» أفصح من أن «يتعاهد، لأنّ التعاهد يكون بين اثنين.
(٧) القادوس: وعاء خزفي كالجرّة، تنتظم منه ومن أمثاله سلسلة تديرها الناعورة فتغرف الماء من البئر إلى المزرعة. . .

والعادةُ أن الذي يُنصَب من الأقصاب على كلّ محالٍ[١] بَحْرانيٌّ ـ أي مجاور للبحر ـ إذا كان مُزاحَ العِلّة بالأبقار[٢] الجياد مع قُرْبِ أرْشِيَة[٣] الآبار ثمانيةُ أفدنة؛ ويحتاج إلى ثمانية أرؤسٍ بقرًا؛ فإذا كانت الآبارُ بعيدةً عن مَجرَى النيل لا يَقُوم المَحال بأكثرَ من ستة أفدنة إلى أربعة أفدنة؛ فإذا طلع النيلُ وارتفع سُقِيَ القصب عند ذلك ماءَ الراحة؛ وصفةُ ذلك أنه يُقْطَع عليه من جانب جسرٍ يكون قد أدير عليه ليقيَه من الغرق عند ارتفاع الماء بالزيادة، فيَدخُل الماء من تلك الثُّلْمة التي فُرِضتْ من ٱلجسر، ويعلو على وجه أرضه نحوًا من شبر، فتُسَدّ عند ذلك، ويُمنَع الماء من الوصول إليه، ويُترَك ذلك الماءُ عليه مقدارَ ساعتين أو ثلاثٍ إلى أن يَسخُن، ثم يُصرَف عنه من جانبٍ آخرَ إلى أن يَنضُب، ثم يجدَّد عليه الماءُ مرّةً أخرى؛ يُتعاهد بذلك مرارًا في أيّام متفرّقة بقدر معلوم، ثم يفطَم بعد ذلك؛ هذا هو القصب الذي يوفَّى حقّه في حرثِهِ ونَصْبِه وسَقْيِه وعَزْقِه[٤] وغيرِ ذلك؛ فما نَقَص من ذلك كان المباشرُ قد أَخَلَّ به إلا النصبَ على الرِّيّ وسقَى ماء الراحة فإنه أمرٌ ربّانيٌّ لا قدرة للمباشر على ٱستجلابه.

ولا غُنْيَةَ للقصب عن القَطْران[٥] قبل أن يحلوَ، فإنه يمنع السوسَ من الوصول إليه؛ وصفةُ ذلك أنهم يجعلون القَطْران في قادوسٍ[٦] مبخوشٍ[٧] من أسفله، ويُسَدّ ذلك البُخْشُ بشيء من الحَلْفاء، ويُعلَّق القادوسُ على جَدْوَل الماء، ويُمزَج القَطْران بالماء فيَقطُر من خلال ذلك البُخْش المسدود، ويمتزج قَطْرُه بالماء الذي يصل إلى القصب، ويحصل به المقصود.

وإن خشِيَ المباشر على القصب من فساد الفأر أدار حوله حيطانًا رقيقة مقلوبةَ الرأس إلى خارج أرض القصب تُسمَّى حيطانَ الفأر، وتُصنَع من الطين المخلوط بالتبن

---

(١) المراد بالمحال: آلة الريّ التي تسمى الساقية، والمحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يستقى بها.
(٢) بالأبقار: أي يدار بالأبقار.
(٣) الأرشية: مفردها الرّشاء: وهو الحبل، أو حبل الدّلو.
(٤) العزق: شقّ الأرض.
(٥) القطران: عصارة شجر الصنوبر والأرز ونحوهما، تطبخ وتستعمل في بعض الحاجات، أو هو هنا: سائل لزج أسود إلى سمرة يستخرج من الخشب والفحم بالتقطير.
(٦) القادوس: وعاء خزفي كالجرّة. (تقدّم ذكره).
(٧) مبخوش: مثقوب.

فتمنع الفأرَ من الوصول إلى القصب، فإنه إذا تَسلّق في الحائط وانتهى إلى آخرها منعتْه تلك الحافَةُ المقلوبةُ وأصابت رأسه فيسقُط إلى الأرض.

هذا ما يلزم المبَاشرَ الاحتفالُ به واعتمادُه في أمر القصب.

فإذا كان في أوّل كيهك[١] من شهور القبط كُسِرت الأقصابُ وقُشِرتْ، ونُقِلتْ إلى المعاصر؛ وإذا كان في أوان نصب القصب من السنة الثانية حُرقتْ آثار الأقصاب وسُقِيتْ وعُزِقتْ كما تقدّم، فتُنبِت أرضُها القصبَ؛ ويسمُّونه بمصر: الخِلْفَة، ويسمّون الأوّل: الرأس؛ وقنود[٢] الخلفة في الغالب أجوَدُ من قنود الرأس.

ذكر كيفية الاعتصار والطبخ وتقدير المتحصّل

الذي جرت عليه العادة بالديار المصرية أن الأقصاب إذا نُقِلت من المَكْسِر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير وُضِعت في مكان برسمِها يسمَّى دارَ القصب، بها وَتَراتٌ[٣] وحطبٌ ورجالٌ مُرْصَدون لإصلاح القصب بالسكاكين الكبار التي مقدارُ حديدِها ثلثا ذراع، في عَرْض سدس ذراع في سَمْك إبهام، فينظّفون عيدانَ القصب، ويقطعون من أعلاه ما ليس فيه حلاوة، ويسمّونه اللّكلوك[٤]، وينظّفون أسفلَ العود ممّا لعلّه به من عروق وطين؛ ويسمَّى هذا الإصلاحُ التطهيرَ؛ ثم يُنقَل من تلك الوَتَرات إلى وَتَرات أُخَر مؤبَّدةٍ[٥] بأعلى حائطِ عريضٍ مرتفع عن الأرض، أحدُ جانبي الحائط مما يلي دار القصب، والوجهُ الآخرُ إلى بيتٍ آخر يسمَّى بيتَ النُّوب[٦]؛ وعلى ذلك الحائط رجالٌ جالسون في مقاعدَ أُعدّتْ لهم، وبأيديهم السكاكين التي ينظِّف بها القصب، والوَتَراتُ المؤبَّدةُ أمامَهم، فيَجمَع الرجل منهم عدّةَ عيدان من القصب، ويضعها على الوَتَرة، ويَقطّعها قِطعًا صغارًا فتسقط في بيت النُّوَب؛ ثم تُنقَل من بيت النُّوَب إلى الحَجَر في أفرادٍ[٧] تسمَّى العِيارات متساويةِ المقادير؛ فيوضع ذلك القصبُ المقطَّع تحت الحَجَر؛ ويَدَوَّرُ

---

(١) كيهك: الشهر الرابع من الشهور القبطية.
(٢) القنود: جمع قند، وهو عسل القصب إذا جمد «وهو معرب كند».
(٣) الوترات: مفردها الوترة وهي ما يوتّر بالأعمدة من البيت.
(٤) اللّكلوك: من ألفاظ العامة، ويسمّى أيضًا «الزعزوع».
(٥) المؤبّدة: المحبوسة أو المنوطة المربوطة.
(٦) النوب: مفردها النوبة وهو المكان الذي يغسل فيه القصب قبل عصره.
(٧) الأفراد: أوعية تتخذ من خوص.

الحَجَرَ عليه الأبقارُ الجِياد فيعصِرُه؛ ويَنزل ما يخرج منه من الماء في أبخاشٍ في القاعدة التي تحت الحَجَر إلى مكانٍ ضَنْكٍ[١] مُعَدٍّ له؛ فإذا انتهى ذلك القصب من العَصْر تحت الحَجَر نُقِل إلى مكانٍ آخر، ثم يجعل في قفاف[٢] مُتّخذةٍ من الحَلْفاء مشبَّكة الأسافِل والجوانب، ويُلقى تحت دولاب التَّخْت[٣]، ويَدُور الدولاب عليه بالأعواد حتى يأخذ حدَّه، ويخرج ما بقي فيه من الماء؛ ويجتمع ما تحصّل من ماء القصب من الحَجَر والتَّخْت في مكان واحد؛ ثم يُنقَل ذلك الماء فيصفَّى من مُنْخُلٍ موضوعٍ في قفص مُعَدٍّ له، وينزل ما يخرج إلى مكانٍ متصلٍ يسمّونه بالبَهْوَ[٤]، له عِيارٌ معلومٌ محرَّر؛ فإذا امتلأ من ذلك الماء المصفَّى نُقِل إلى المطبخ، وصفِّيَ تصفية ثانية في قِدْرٍ كبيرةٍ يسمّونها الخابيةُ يُصَبّ فيها بعد التصفية جميعُ ما كان في البَهْو، وهو ستون مَطَرًا[٥] من ماء القصب ضريبةُ كلِّ مَطَر نصفُ قنطار باللّيثيّ على التحرير ـ والرطل اللّيثيّ مائتا درهم ـ فيكون ما في الخابية ثلاثةَ آلاف رطل وهو ما كان في البَهْو؛ ثم يوقَد عليها من خارج المعصرة إلى أن يغلَى الماء غليانًا كثيرًا، وينقُص نقصًا معلومًا، فعند ذلك يبطل الوقيد[٦] عنها؛ فإذا سكن غليانُها نُقِل ما فيها من الماء المسلوق في يقاطِينَ[٧] كبار، في كلّ قرعة[٨] منها خشبةٌ منجورةٌ طويلةٌ كالساعد نافذةٌ في جانبي القرعة، ويُصَبّ في أكسية[٩] من الصوف تحتها دِنَانٌ[١٠] كبار فيصفَّى الماء منها تصفية ثالثة، ويستقرّ في تلك الدِّنان؛ ثم يُنقَل من الدنَانِ في دُسوت[١١] إلى القُدور، فيُطبَخ فيها إلى أن يأخذ حدَّه من الطبخ؛ ويحتاج كلُّ حَجرٍ إلى خابية وثماني قدور لطبخ ما يُعتصَر تحت الحَجَر والتَّخْت؛ ثم يُنقَل بعد طبخه

---

(١) ضنك: يريد به ضيّق.

(٢) القفاف: مفردها القفّة، وهو الزبيل أو المقطف الكبير.

(٣) التخت: يظهر أنه لفظ اصطلاحي معروف عند أصحاب المعاصر، وهو وعاء تصان فيه الثياب. (فارسي معرّب).

(٤) البهو: حوض مبني ينزل فيه ما يصفى من العصير.

(٥) المطر: وعاء معروف عند أهل مصر.

(٦) الوقيد: مصدر كالوقود بضمّ الواو. (اللسان مادة وقد).

(٧) اليقاطين: ما لا ساق له من النبات، وغلب على القرع.

(٨) القرعة: ثمرة القرع، وهو جنس نباتات من الفصيلة القرعية فيه أنواع تزرع لثمارها، وأصناف تزرع للزينة...

(٩) أكسية: مفردها «كساء».

(١٠) الدّنان: مفردها الدنّ: وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

(١١) الدسوت: القدور المتخذة من النّحاس.

في دُسوت من النُّحاس، لكلِّ دَسْتٍ منها قبضتان من الخشب مسمورتان في أعلاه يقبض الرجل عليهما ليقياه حرارةَ الدَّسْت؛ ويُصَبُّ ذلك المطبوخ - ويسمَّى إذ ذاك المَحْلب - في أباليج[١] من الفَخّار ضيّقةِ الأسافل، متسعَةِ الأعالي، مبخوش في أسفل كلّ أُبلوجة منها ثلاثةُ أبخاش مسدودةٌ بقَشّ القصب، وهذه الأباليجُ موضوعةٌ في مكان يسمَّى بيتَ الصبّ، فيه مصاطبُ[٢] مبنيّةٌ مستطيلة تشبه المذاود[٣]، ويُجعل تحت كلّ أُبلوجة من تلك الأباليج قادوس يقطُر فيه ما يتخلّص من رقيق ذلك المَحْلب - وهو العسل القَطْر - ثم يَخْدُمها الرجال بالكرانيب[٤] مرّة بعد أخرى حتى تمتلىء تلك الأباليج، وهي تختلف، فمنها ما يسع أكثرَ من قنطار[٥]، وأقلَّ منه؛ فإذا امتلأتْ وتكاملتْ خدمتها وأخذت في الجفاف نُقِلت من بيت الصبّ إلى بيت الدفن[٦]؛ فتعلَّق فيه على قواديسَ يَقْطُر فيها ما بقِيَ من أعسالها.

وأما أوساخ الأقصاب التي تنظَّف منها في دار القصب فإنها تُعتَصَر على انفرادها، وتُطبَخ بمفردها، وتسمَّى الخابية، وهي أردأ من عسل القصب.

ولِما يتحصّل من الاعتصار أسماءٌ وعِبَر[٧]: منها الضريبة، ومنها الوضعة، ومنها اليد؛ فالضريبة عبارة عن ثماني أيادٍ؛ واليدُ ملءُ خابية؛ والخابيةُ ثلاثة آلاف رطل من عصير القصب بالرطل اللَّيثيّ كما تقدّم؛ فتكون الضريبة أربعةً وعشرين ألف رطل من الماء، يَجمُد منها مع جَودة القصبِ وصلاحُه من القَنْد[٨] خمسةٌ وعشرون قنطارًا إلى خمسةَ عشرَ قنطارًا، ومن الأعسال اثنا عشر قنطارًا إلى ثمانية قناطيرَ؛ ونهايةُ ما يتحصّل من الفدان القصب ثلاثُ ضرائب: منها قَنْدٌ وقَطْرٌ ضريبتان ونصف وعسلُ خابيةٍ نصفُ ضريبةٍ مقدارها أربعة وعشرون قنطارًا بالمصريّ؛ ومن الأقصاب ما يفسد فلا يَجمُد طبيخُ مائه ولا يصير قَنْدًا، فيُطبَخ عسلًا، ويسمّونه المُرْسَل.

---

(١) الأباليج: المفهوم من السّياق أنها أنواع من الأواني الفخاريّة التي تحفظ بها السّوائل.

(٢) المصاطب: مفردها المصطبة، وهي بناء غير مرتفع يجلس عليه.

(٣) المذاود: معالف الدّواب.

(٤) الكرانيب: المغارف، واحد، كرنيب، والكرنبة: المغرفة.

(٥) القنطار: وزن يبلغ مئة رطل.

(٦) بيت الدّفن: لعلّ الوجه في التسمية هنا: أنّ الأباليج تستر فيه وتوارى مدّة حتى يقطر منها ما بقي من أعسالها.

(٧) العبرة: المراد بها المقادير.

(٨) القند: عسل القصب إذا جمد.

وهذا الذي ذكرناه من الوَضْع[١] والمتحصّل والتسميةِ اْصطلاحُ بلاد قوصَ من الصعيد الأعلى بالديار المصريّة، وهو وإن اْختلف في غيرها من البلاد فلا يبعد من هذا الترتيب.

وأما أقصاب الشأم ـ فهي تختلف أوضاعها بحَسَب البقاع والنواحي والأعمال، فمنها ما هو بالسواحل الطَّرابُلُسيّة والبَيْروتيّة والعكّارية؛ ولهم اْصطلاحٌ في نصب الأقصاب واْعتصارها: فمنها ما يُعتصَر بحجارة الماء، ومنها ما يُعتصَر بالأبقار، ومنها ما يُعتصَر بالسِّهام[٢]؛ وليس ذكرُها وبسطُ القول فيها من المهمّات التي تقتضي الانصباب[٣] إليها؛ والذي قدّمنا ذكرَه أيضًا من أمر أقصاب مصر هو على الحقيقة فلاحةٌ ودَوْلَبة[٤]، وليس هو كتابة، وهو للمباشر زيادةٌ على صناعته، على أنه لا يَستغنِي عن معرفته والاطلاع عليه.

وعمدةُ المباشر في الاعتصار ضبطُ ما يتحصّل، وحراستُه من السارق والخائن والمفرّط[٥]؛ ويلزم مباشرَ الاعتصار أن يَنظِم في كلّ يوم وليلة مخزومةً[٦] بما اْعتُصر وبما تَحصّل؛ فإذا انتهى الاعتصار نَظَمَ عملًا[٧] شاملًا لجميعه على ما نشرحه في الأوضاع الحسابيّة.

والقَنْد إذا جَفَّ وأخذ حدَّه من البياض نُقِل إلى مطابخ السكّر، فيُحَلّ بالماء وشيء من اللبن الحليب، ويُطبَخ فيصير منه السّكر البياضُ[٨] والقُطارة؛ ويَتحصّل من كلّ قنطار من القَنْد ربُعه وسدسُه سكّرًا، وثلثُه وربعُه قُطارة؛ ومنه ما يُكرَّر ثانيًا فيصير في غاية البياض والنقاء، وقُطارتُه تقارب قَطرَ النبات؛ ومنه أيضًا ما يُطبَخ نباتًا.

وهذه أمور جمليّة يُستدَلّ منها على المقاصد، والمباشَرةُ تشمَل ما لا يمكن إيرادُه في كتاب، وتُظهِر ما لا يكاد ينحصر بخطاب، فلنذكر الأوضاع الحسابيّة.

---

(١) الوضع: المراد بالوضع هنا المصطلح. (٢) السّهام: الأعواد من الخشب.
(٣) الانصباب: لعله يريد الاهتمام أو الانصراف.
(٤) الدّولبة: العمل بالدّولاب. (٥) المفرّط: المسرف والمبذر والمتهاون.
(٦) المخزومة: نوعٌ من الدفاتر يخرق.
(٧) العمل: نوع من القوائم يعمله كتّاب الدواوين.
(٨) البياض: أي ذو البياض، فوجه الوصف به ظاهر.

ذكر أوضاع ٱلحساب وما يسلكه ٱلمباشر ويعتمده فيها

أوّل ما يحتاج إليه كلُّ مباشر أن يضع له تعليقًا ليوميّته، يذكُر فيه تاريخَ اليوم والشهر من السنة الهلاليّة، ويذكُر فيه جميعَ ما يتجدّد ويقع في ذلك اليوم في ديوانه: من مُحْضَرٍ ومستخرَجٍ ومُجرَى ومُبتاعٍ[١] ومُباعٍ ومَبِيعٍ ومصروف، وما يتجدّد من زيادات في الأُجَر والضمانات، وعطلٍ، وتقريرِ أجائر[٢]، وترتيبِ أرباب[٣] استحقاقات على جهات، وتنزيلٍ[٤] من يستخدمه، وصرْف من يصرفه من أرباب الخِدَم، وغير ذلك بحيث لا يُخِلّ بشيء مما وقع له في مباشَرته قلّ أو جلّ؛ وهذا التعليق هو أصل المباشَرة، فمَن ضَبَطَ اليومَ ٱنضبط ما بعده؛ وكلُّ المباشرين في وضعه سواء، يضع الشاهدُ[٥] فيه ما يضعه العامل[٦]، فإذا كان في آخر النهار قوبل على مجموعه بين المباشِرين، ويُساق ما يُحتاج إلى سياقته من العين[٧] والغلّة والأصناف.

ثم يكتب العاملُ مخزومةً يورِد فيها المستخرَجَ والمُحضَرَ والمُجرَى والمصروف، ويرفعها على عدّة نُسَخٍ بحَسَب المسترفِعين؛ وإن شاحّه[٨] المسترفِعُ لَزِمه أن يوردها فيما أورده في مياوَمته من سائر المتجدِّدات والأحوال، فيصير بها المسترفِعُ الغائبُ كالمباشر الحاضر، وتَشمَل المخزومةُ خَطَّ مَن هو مباشرٌ: مِن ناظرِ مباشَرةٍ فمَن دونَه؛ وقد قدّمنا ذكرَ بسطِ الجرائد على الأموال والغلال، وكيفيّة خِدمتها في الأصول؛ ونظيرُ ذلك أن يبسُط أسماءَ أرباب الاستحقاقات وأربابِ المصاريف تِلوَ أصول الأموال ومضافاتِها، ويضعَ لكلِّ ٱسم ما يستحقّه مشاهرةً[٩] ومسانهةً[١٠] عينًا وغلّة، أو ثمنَ صنفٍ أو غيرَ ذلك؛ ثم يشطب قُبالَة كلّ ٱسم ما قبضه مفصَّلًا بتواريخه من جهة قبضه، لتَسهُل عليه بذلك محاسبةُ كلِّ نَفَرٍ[١١] عند الاحتياج إلى محاسبته كما

---

(١) المبتاع: المشترى بفتح الرّاء.
(٢) أجائر: جمع أُجُر، فهي جمع الجمع.
(٣) الأرباب: القيّمون.
(٤) التنزيل: كلمة شاع استعمالها بين العامة في مصر وهي بمعنى التولية والتنصيب.
(٥) الشاهد: هو الذي يشهد بمتعلّقات الديوان نفيًا أو إثباتًا. (صبح الأعشى ٥/٤٣٧).
(٦) العامل: هو الذي ينظم الحسابات ويكتبها. (صبح الأعشى ٥/٤٣٨).
(٧) العين: المال، وما يضرب من الدّنانير.
(٨) شاحَه: ناقشه، ومنه قولهم: «لا مشاحّة في الاصطلاح» أي لا مناقشة ولا منازعة ولا خصومة.
(٩) المشاهرة: أي المعاملة بالشهر.
(١٠) المسانهة: أي المعاملة بالسنة.
(١١) النفر: الجماعة من الرّجال من ثلاثة إلى عشرة، وإطلاق النفر على الواحد كما هو المراد هنا إطلاق شائع بين عامّة مصر.

شرحناه في الأصول؛ ولا بدّ لكلّ مباشر من جريدة على هذه الصفة تشتمل على الأصل والخصم؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر ما ينتج عن التعليق من الحسبانات بعد المخازيم[(١)]

وهي الخِتَمُ والتَّوالي والأعمالُ والسياقاتُ التي تلك كلّها شواهد الارتفاع:

فأما الخِتَم ـ فتختصّ بجهات العَين من سائر الأموال؛ وكيفيّتها أنه إذا مضت على المباشر مدّةٌ لا تتجاوز أحد عشر شهرًا فما دون الشهر إلى عشرة أيام ـ وما دون الشهر لا يقع إلا عند ٱنفصال كاتب في أثناء الشهر أو ٱقتراح مقترِح ـ نَظَمَ حسابًا سَمّاه الكُتّاب في مصالحهم: الخَتْمة، يَشرح في صدرها ما مثالُه بعد البسملة: خَتْمة بمبلغ المستخرَج والمُجرَى من أموال الجهات، أو المعاملةِ الفلانيّة لاستقبال كذا، وإلى آخر كذا؛ ويَذكُر أسماءَ المباشرين فيقول: بولايةِ فلان، ونظرِ فلان، ومشارَفةِ فلان، وكتابةِ فلان؛ ويَعقِد في صدرها جملةً على ما ٱستخرجه في تلك المدّة وأجراه من أصول الأموال، يفصِّل ذلك بسنيه، ويشرحه بجهاتِهِ وأسماء أربابه وتواريخِ مُحضَره ومُجراه، إلى نهاية ذلك؛ ثم يقول: وأضيف إلى ذلك ما وجبت إضافته؛ يَبدأ بالحاصل المساق إلى آخر المدّة التي قبلها، ثم يذكُر ما لعلّه ٱستخرجه من الجهات التي تَرِد في باب المضاف، وما ورد من أثمان المبيعات والمصالحات والخدم، وما لعلّه ٱقترضه، وما لعلّه حصّل من المواريث الحَشْريّة[(٢)] والمجتذبات والتأديبات، وما لعله ٱعتَدّ به لمعامَلةٍ أخرى ونُقِل عليه[(٣)]، إلى غير ذلك من أبواب المضاف على اختلافها. مما يطول شرحه لو ٱستُقصِي؛ ثم يفذلِك[(٤)] على الأصل والإضافة؛ وإن صرف نقدًا بنقدٍ ذَكَره بعد الفذلَكة[(٥)]، وٱستَقرّ بالجملة بعده وإلّا فالفذلَكة بمفردها؛ ثم يخصم تلك ٱلجملةَ بما لعلّه حَمَله أو نَقَله على معاملة أخرى أو صَرَفَه، ويذكُر ٱلحملَ بتواريخه ورسائلِه، وٱسم من حُمِل على يده، والمنقولَ كذلك والمصروف بأسماء أربابه وتواريخِه، ثم يسوق إلى التحصيل إن انطرد[(٦)] له حاصل وإلّا فيقول في آخرها: ولم يَبقَ حاصلٌ فنذكرَه.

---

(١) المخازيم: مفردها المخزومة وهي نوع من الدّفاتر يخرّق.

(٢) المواريث الحشريّة: أي أموال من يموت وليس له وارث خاصّ.

(٣) نقل عليه: أي نقل محسوبًا عليه.

(٤) يفذلك: يقال فذلك الحساب: إذا أنهاه وأجمله.

(٥) الفذلكة: جملة الحساب.

(٦) انطرد: في المصباح وغيره لا يقال انطرد إلّا في لغة رديئة وهي هنا بقي عليه حساب لم=

وقد ٱقتُرِح في بعض الممالك الشاميّة في بعض السنين على المباشرين أن يضمِّنوا خِتَمهم ما يوردونه في الأصل من جهات الأصول ـ كلِّ جهة من المستخرَج والمُجرَى ـ الأصلَ مختومًا والخصمَ مفصَّلًا بجهاته؛ مثال ذلك أن يقول في الأصل: الجهةُ الفلانيّة في التاريخ الفلانيّ كذا وكذا درهمًا؛ ويذكُرَ تحت ذلك التاريخ خصمَ تلك الجملة؛ وفي الخصم إذا ذَكَرَ ٱسمَ ربّ ٱستحقاق وما وَصَل إليه في كل تاريخ يقول: التاريخ الفلانيّ؛ ويعيِّن جهاتِه؛ ويشطب المسترفِعُ الأصلَ على الخصم؛ وفي هذا تضييق كثير على المباشر، ولَم يستقِرّ ذلك، وعادت الأوضاعُ على ما بيّنّاه؛ هذا مصطلَحُهم في الخَتم؛ والله أعلم.

وأما التوالي ـ فهي إذا أُطلِقتْ أُريدَ بها تَوالي الغلال؛ وكيفيتها أنه إذا مضت مدّة على ما قدّمناه في شرح الخِتَم نظَم كاتب ٱلجهة حسابًا للغلّة ٱسمه التالي يَشرح في صدره بعد البسملة: تالٍ بما انساق حاصلًا من الغلال بالجهة الفلانيّة إلى آخر المدّة الفلانيّة، مضافًا مخصومًا إلى آخر كذا؛ ويذكُر أسماء المباشرين على ما تقدّم، ثم يوصل في صدره ما ٱنساق إلى آخر ٱلمدّة التي قبلها من الغلال على ٱختلافها، ويفسرُ[1] الغلالَ بسنيها، ويضيف إليه ما لعلّه ٱنضاف من متحصِّلٍ ومبتاعٍ وقرضٍ وغيرِ ذلك؛ ثم يفذلِك عليه، ويذكُر بعد الفذلكة ما لعله وقع من تبديل صنفٍ بصنفٍ لوجود ذلك الصنف وعدمِ غيرِهِ، إما فيما قَبَضه أو فيما صَرَفَه، وما لعلّه أُبيع وثُمِّن، وما لعلّه يُنقل من كيل إلَى كيل؛ ويستقِرّ بالجملة بعد ذلك على ثمن ما أُبِيعَ وما ٱستقرّ من الغلال بعد التبديل والتنقيل، ويَستخرِج ثمنَ البيع بمقتضَى خَتْمة تلك المدّة، وهي شاهده؛ ويخصمُ بالمحمول والمنقول والمصروف على ٱختلافه؛ ويفصِّل ذلك بتواريخه على ما شرحناه في ٱلخَتْمة، ويسوق الحاصلَ من الغلّة إن كان؛ هذا مصطلَحُهم في توالي الغلال.

ولهم أيضًا توالٍ يسمّونها توالي[2] الارتفاع ـ تشتمل على العين والغلّة والأصناف، ولا تُعمَل إلّا عند اقتراحها؛ وصورتها أن يُوصِل في صدر تالي الارتفاع ما ٱنساق آخر الارتفاع الذي قَبله من الحاصل والباقي عينًا وغلّة؛ ويفصّله بسنيه؛ ثم يضيف إليه ما ٱستُحِقّ في تلك السنة أصلًا مضافًا، ويخصم بالخصم السائغِ المقبول، ويطرده بعد ذلك إلى حاصلٍ وباق.

= يستطع تسديده.

(١) يفسّر: أي يوضح ويبين.

(٢) التوالي: التتابع.

ولهم أيضًا توالي الاعتصار ـ وصورتها أن يُوصِل ما انساق حاصلًا آخِرَ [المدّة][١] على الاعتصار أو تاليَه، ويضيفَ ما لعلّه تحصّل من قَطْرٍ وغيرِه، ويفذلِكَ عليه، ويكرِّر منه ويبيع، ويستقرّ بالجملة، ويخصم، ويسوق إلى الخاصل.

وأما الأعمال ـ وهي تختلف ـ فمنها أعمال متحصِّل الغلال والتقاوي، وأعمالُ الاعتصار، وأعمالُ المَبيع، وأعمالُ المبتاع، وأعمالُ الجَوالِي، وأعمالُ الخدم والتأديبات والجنايات.

فأما أعمال الغلال والتقاوي ـ فكيفيّتها أن يَشرح في صدر العمل بعد البسملة ما مثالُه: عَمَلٌ بما تحصّل من الغلال بالناحية الفلانيّة لمُغَلّ سنة كذا وكذا ٱلخراجيّة، المدرِكِ في شهور سنة كذا وكذا الهلالية، مضافًا إلى ذلك ما وجبت إضافته، ويُوصِل في صدره ما تحصّل من الغلال على ٱختلافها وأكيالها مفصَّلًا بأسماء الفلّاحين؛ ويضيف إليه ما لعلّه ٱستعاده من التقاوِي والقروض أو حصّله من رسوم أو غير ذلك؛ ويفذلِك عليه؛ فمن الكُتّاب من يسوقه بجملته حاصلًا، ويخصم بمقتضى التالي؛ ومنهم من يخصم بما حَمَلَه وصرَفَه في مدّة تحصيله للمُغَلّ، ويسوق ما بقي إلى ٱلحاصل، ويَستغنِي بذلك عن تالٍ لتلك ٱلمدّة.

وأما عمل الاعتصار ـ فصورته أن يترجم في صدره بعد البسملة بما مثالُه: عَمَلٌ بما تحصّل من ٱعتصار الأقصاب بالجهة الفلانيّة لاعتصار أقصابِ سنةٍ كذا وكذا الخراجيّة؛ ويقول في يَمْنة[٢] العمل: عن كذا وكذا فدانًا أو مَنظَرةً[٣] إن كان بالأغوار، أو قسمًا إن كان بالسواحل؛ ويفصِّل الفُدُن بما فيها رأسًا[٤] وما فيها خِلْفةً إن كان بمصر، ومقنطَرًا[٥] أو قائمًا[٦] إن كان بالشأم، ويبرز عن يَسرته بكميّة ما تَحصَّل فيقول: من أصناف الحُلو كذا وكذا قنطارًا، ويفصِّل ذلك بالقَنْد والأعسال على ٱختلافها: من المرسَلِ والقَطْر والحُرّ والأسطروس والمردودة؛ والمرسَلُ هو من

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق لتوضح المعنى.

(٢) اليمنة: يقال: أخذ يمنةً ويمنًا ويسرةً ويسرًا أي ناحية يمين ويسار. (اللسان، مادة يمن).

(٣) المنظرة: في الأصل: المرقبة أي الموضع المشرف الذي يكون فيه الرقيب. والمراد هنا مقدار من الأرض يمكن للحارس الذي يجلس في المنظرة أن يراه ويحرس ما فيه من المزروعات.

(٤) الرأس والخلفة: تقدّم الكلام على الرأس والخلفة عند الكلام على أقصاب السكر، فالرأس: أوّل نبات للقصب، والخلفة: ما ينبت بعد قطعه.

(٥) المقنطر: الملقى على جانبه أو قطره، لفظ عاميّ».

(٦) القائم: المراد به القصب الذي ينبت تاليًا للقصب الأوّل، وهو الخلفة، وسمّي قائمًا لأنه ينبت من الجذور القائمة في الأرض بعد قطع القصب الأول.

القصب الذي لا يجمُد ولا يصير قَنْدًا. والقَطْرُ هو ما يتحصّل من قَطْر أباليج القَنْد. والحُرُّ هو ما يتحصّل من أطراف الأقصاب، وهذه الأطراف يسمّونها بالشأم: العيكون[١]، ولا يعتصرونها ألبتّة، بل تُرْصَد للنُّصْب، فإنّهم يستغنون بها عن العيدان، ومنهم من يسمّى الحرُّ المردودة. وأما الأسطروش[٢]: فهو ما يُعمل من جُرادة[٣] وجوه الأباليج حالَ الطبخ، وما يتأخر على البَواريّ[٤] عند خلعه بالشأم. وأما الخابية[٥] فهي ما يتحصّل من الأوساخ والرَّيْم[٦]. والمرسَلُ والحُرُّ والخابيةُ لا تُعرَف بالشأم ألبتّة، وإنما يعرفون القَطْرَ والأسطروش؛ ثم يذكُر بعد ذلك تفصيلَ المتحصِّل بجهاته إن كان بمصر ـ يفصِّل كلَّ ساقية وفُدُنها وما يُحصَل منها من الضرائب ـ وتفصيلَ الأقصاب الرأسِ والخِلفة، ويذكُر ٱسمَ الطبّاخ؛ ثم يبيع من عرض ذلك ويُثمِّن، ويستقِرُّ بالجملة، ويَحمِل ويَصرِف ويسوق إلى الحاصل.

وأما عمل المَبيع ـ فصورته أن يقول في صدره بعد البسملة: [عَمَلٌ][٧] بما بِيعَ من الغلال والأصناف بالجهة الفلانيّة لمدّة كذا وكذا؛ ويَعقِد على الثمن جملة، ثم يفصّلها بأصنافها، يذكر عن يَمْنة القائمة الصنفَ، وفي الوسط السعرَ إن كان سعرًا واحدًا، وإلّا فيقول مكانه: بأسعارٍ تُذكَر، وفي اليَسْرة الثمنَ، ثم يفصّله بأسماء مبتاعِيه؛ فإذا كمّل ذلك أضاف ما ٱنساق له آخرَ العمل الذي قَبله من أثمان ٱلمبيعات؛ ويفصِّل ذلك بأسماء من تأخّر عليه منها شيءٌ إن كان؛ ثم يفذلِك على الجملة، ويستخرِج من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويسوق إلى الباقي دون الحاصل.

وأما عمل المبتاع ـ فيقول في صدره: عَمَلٌ بالمبتاع بالجهة الفلانيّة من الأصناف التي تُذكَر لمدّة كذا وكذا؛ ويَعقِد على ثمن المبتاع جملة يجعلها عن يَمْنة نصف القائمة، ويبرز بالأصناف المبتاعة إن أمكن، وإلّا فيقول: ما يُذكَر؛ ويَشرِح ما ٱبتاعه صنفًا صنفًا بتواريخه، وأسماءِ من ٱبتاع منهم، وأسعارِه، ويضيفُ إلى جملة الثمن ما

---

(١) العيكون: لعلّها «العثكول» تشبيهًا لها بعثكول النخلة وهو قنوها. أو هي من الاصطلاحات العاميّة.

(٢) الأسطروش، والأسطروس: وهو من أنواع العسل.

(٣) الجرادة: ما قسر من الشيء.

(٤) البواري: الحصر المنسوجة من القصب.

(٥) الخابية: لم يذكر الخابية في أصناف العسل التي سردها فيما سبق ولعلّها المرادة بالمردودة السابق ذكرها ضمن أنواعه.

(٦) الرّيم: فضول الشيء وزوائده التي لا يعتنى بها لخسّتها.

(٧) هذه الكلمة لم ترد في الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

لعلّه تأخّر عليه من ثمن ما ٱبتاعه في العمل الذي قَبله، ويفصّله بأسماء أربابه؛ ويفذلِك على ذلك، ويخصم بما صرفه من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويسوق إلى متأخّرٍ أو فائضٍ[١] إن كان قد سلَفَ عليه [شيء][٢].

وأما عمل الجوالي ـ فيقول في صدره ما مثالُه بعد البسملة: عَمَلٌ بما وجب من مال الجوَالي بالمعامَلة الفلانيّة لسنة كذا وكذا الهلاليّة مخصومًا مساقًا إلى آخر المدّة؛ ويُوصِل ما كان قد ٱستقرّ من الأنفار[٣] على ما تقدّم؛ ويضيف النوابتَ[٤] والطوارىءَ[٥] بأسمائها ومِلِلِها، وما لعلّه ٱنساق باقيًا إن كان، وقلّما يكون، ويفذلِك على ذلك؛ ثم يذكر بعد الفذلكة من ٱهتدى بالإسلام، أو هلك بالموت، أو تَسحّب[٦] إلى عملٍ آخر على ما قدّمناه من الاختلاف في إيراد ذلك في هذا الموضع، والاستثناءِ به في الصدر بالتعدية[٧] أو إيرادِه في باب المحسوب؛ وكلُّ ذلك سائغ في الوضع؛ ثم يستقِرّ بالجملة بعد ذلك، ويستخرج بمقتضى الختَم، ويسوق ما لعلّه ٱنساق إلى الباقي؛ وإن عاد إليه متسحّبٌ أو نازحٌ[٨] وبيَدِه وُصولٌ[٩] من مباشِر عَمَلٍ آخَرَ اعتدّ له به، وأورَدَه في باب المحسوب، وفذلكه على الجملة.

وأما عمل الخدم والجنايات والتأديبات ـ فصورته أن يُوصِل في صدر العمل بعد الترجمة عليه ما تعيّن من أموال الخدم أو ما تَقرّر من الجنايات والتأديبات، يَذكُر فيه الأسماء والجرائم؛ ويضيف إلى ذلك ما لعلّه ٱنساق قبل تقرير هذا المال آخِرَ العمل الذي قبله؛ ويفذلك عليه؛ ويَستخرِج من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويَعتدّ بما لعلّه رُسِم بالمسامحة به مما كان قُرّر، ويسوق ما ينطرد بعد ذلك إلى الباقي؛ فهذه هي الأعمال.

---

(١) الفائض: الزّائد، وهو من قولهم: فاض الماء: إذا كثر حتى سال...
(٢) ما بين قوسين بياض في الأصل يسع كلمة، والسياق يقتضي إثباتها أو إثبات ما يفيد المعنى.
(٣) الأنفار: أي الأشخاص، وهي جمع لقولهم النفر الذي يطلقونه على الشخص الواحد إطلاقًا عاميًا.
(٤) النوابت: جع نابتة وهم النشء الصغار.
(٥) الطوارىء: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه.
(٦) تسحّب: أي هرب أخذًا من السّياق.
(٧) التعدية: يقال اعتددت بالشيء: أي أدخلته في العدّ والحساب.
(٨) النازح: الذي ابتعد عن الموطن وهجره. (٩) الوصول: الإيصال.

وأما السياقات ـ فهي مختلِفة: فمنها سِياقة الأَسْرَى والمعتقَلين، وسِياقة الكُراع(١)، وسِياقة العُلوفات، وسِياقات الأصناف والعُدَد.

فأما سِياقة الأَسْرَى والمعتقَلين ـ فصورتها أن يُوصِل في صدرها عِدّةَ من ٱنساق عنده إلى آخر المدّة التي قبلها، ويفصّلَها بالمعتقَلين وأسمائهم وجرائِمهم، والأَسْرَى ومِللِهِم وأجناسِهم؛ ويضيفَ إليها ما لعلّه تَجدَّد عنده من معتقَلٍ أو أسير، ويفذلِكَ عليها، ثم يذكُر من أُفرِج عنه: إما بمقتضى المراسيم «فيذكُر تواريخَها وأسماءَ من حضرتْ على يده، ومن تسلَّم المعتقَل» وإما بالهداية إلى دين الإسلام من الأَسْرَى «فيذكُر ٱسمَ ٱلمهتدي وجنسَه، ومن أيّ ٱلملل كان، وتاريخَ إسلامه والإفراج عنه، أو من فُودِيَ(٢) به، أو من تسحَّب، أو من هلك بالموت بعد ٱعتبار ما يجب ٱعتباره في الهالك؛ ويستقِرّ بالجملة بعد ذلك؛ وٱستقرار ٱلجملة هو ٱلحاصل.

وأما سِياقة الكُراع(٣) ـ فهي سياقةٌ تشتمل على الخيل والجمال والدوابِّ والأبقارِ والأغنام؛ وصورتها أن يوصِل الكاتبُ ما انساق عنده حاصلًا آخِرَ السياقة التي قبلها؛ ويضيفَ إلى ذلك ما لعلّه ٱبتاعه بتواريخه وأسماء من ٱبتيع منهم، وما لعلّه نُتِج، وما لعلّه ٱجتُذِب؛ ويفذلِك على ذلك؛ ثم يذكر بعد ذلك ما باعه من عرض الجملة وما نَفَقَ(٤) وتُنُبِّل(٥) وذُكِّيَ(٦)؛ ويستقِرّ بالجملة على ما ٱستقرّ من حيوانٍ وجلود وثَمَن، ويَصرِف ويَنقُل ما لعلّه صَرَفَه أو نَقَلَه، ويسوق إلى ٱلحاصل.

ويحتاج المباشر لذلك إلى ملاحظة أحوال الأغنام، ومعرفةِ أوقات نِتاجِها وما يكون منها توأمًا، واستقبالِ النّتاج لينضبط له نِتاجُ النّتاج.

وأما سياقة العُلوفات(٧) ـ [فصورتها](٨) أن يوصل في صدرها ما صرفه على الكُراع في المدّة التي نَظم لها السِّياقة، ثم يفصِّل ذلك كلَّ صنفٍ من الكُراع وعددَه في الزيادة والنقص، وما صرفه على ذلك النوع في كلّ مدّة، في اليوم كذا في المدّة كذا، والزيادة والنقص على حَسَب الاتفاق، ويراعِي في ذلك ما تضمّنته سياقةُ

---

(١) الكراع: يريد الدّواب.
(٢) فودي به: أي استنقذ بمالٍ أو غيره وخلّص مما كان فيه.
(٣) الكراع: اسم يجمع الخيل، وإطلاقه على الدّواب عامة إصطلاح استخدمه الكتاب.
(٤) نفق: مات.
(٥) تنبل بالبناء للمجهول: أي اختير.
(٦) ذُكّي: ذبح.
(٧) العلوفات: مفردها العلوفة، وهي طعام الحيوانات.
(٨) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها...

الكُراع؛ وإن صَرَف عُلوفةً لطارىءٍ لا يستقرّ عنده ميَّزه في التفصيل من المستقرّ فيقول: المستقرُّ كذا، والطارىءُ كذا إضافةً إلى هذه السياقة؛ ولا فذلكة، ويَتجنَب أن يصرف عُلوفةً عن أيّامِ نقصِ الشهور الهلاليّة، وهي ستةُ أيام في السنة فإن ذلك من المُخرَّج اللازم، وكذلكَ أيّامُ الربيع.

وأما سياقات الأصناف والزَّرَدخاناه[1] والعُدَدِ والآلاتِ والخزائنِ والبِيمارِستانات[2] ـ فإنه لا يمكن استيعابُها لمؤلّف كتاب، وقلّما عُمِلتْ فيما كَثُر، وإنما تعمل فيما قلّ من الأصناف؛ وصفتُها إذا أمكن عَملُها أن يوصِل ما عنده من الأصناف مفصَّلة، ويضيفَ إليها ما أبتاعه أو ما وَصَل إليه، ويفذلِكَ على ذلك ثم يذكر بين الفذلكة وٱستقرارِ الجملة ما يَرِد من الأبواب: من المنتقلِ والمستهلَكِ وغيرِ ذلك على كثرته؛ وإذا ٱستُقصِيَ ما يَرِد بين الفذلكة واستقرارِ الجملة زاد على مائة باب لا يعرفها إلا أفاضلُ الكُتّاب ومن له حِذقٌ[3] بهذه الصناعة، واختلفت مباشَراتُه وتكررتْ؛ فإذا ذَكَر ما وقع عنده ٱستقرّ حينئذ بالجملة على ما قام عليه ميزان عمله؛ ثم يخصم بما يَسُوغُ الخصمُ به، ويسوق إلى حاصله.

فهذه هي الخِتَمُ والتَّوالِي والأعمالُ والسياقات، وهي شواهد الارتفاع.

وأما الارتفاع ـ فهو العملُ ٱلجامعُ الشاملُ لكلّ عمل؛ وصورة وضعه أن يشرح الكاتب في صدره بعد البسملة ما مثالُه: عملٌ بما اشتمل عليه ٱرتفاعُ المعامَلة[4] الفلانيّة لمدّة سنة كاملة، أوّلُها المحرّمُ سنةَ كذا وكذا، وآخرُها سَلْخُ ذي الحجّة منها، ممّا ٱعتُمِد في إيراد ذلك الهلاليُّ والجَوالِي للسنة المذكورة، والخراجيُّ والأقصابُ لسنة كذا وكذا الخراجيّة، مضافًا إلى ذلك ما وجبت إضافته، مفذلكًا عليه، وما ٱستقرّت عليه الجملة، مخصومًا مساقًا إلى حاصل، وما ٱعتُدّ به محسوبًا إن كان، وما ٱشتملتْ عليه فذلكةُ الواصل، وما ٱنساق إلى الباقي والموقوف في المدّة؛ ويذكر أسماءَ المباشرين كما قدّمناه في الخَتْمة[5]؛ وإن ٱنفصل أحدٌ من المباشِرين في أثناء تلك السنة وباشرَ آخَرُ بعدَه قال: بمباشرة فلانٍ إلى آخر المدّة الفلانيّة وفلانٍ بعده إلى

---

(١) الزّردخاناه: أي بيت الزرد، وهي الدروع، وفي صبح الأعشى أن هذا اللفظ ربما يطلق على «السّلاح خانه» وهو بيت السّلاح. (انظر صبح الأعشى ٤/١١).

(٢) البيمارستانات: مفردها البيمارستان، لفظ فارسي معرّب، مؤلّف من كلمتين «بيمار» ومعناه المريض، و «ستان» ومعناه الموضع.

(٣) الحذق: المهارة. (٤) المعاملة: المراد بها الناحية والجهة.

(٥) الختمة: أخر النصّ حيث يوقّع على صحّته...

آخر المدّة؛ ويقول في صدره عن يَسْرة نصف القائمة: ما مبلغُه من الذهب كذا، ومن الدراهم كذا، ومن الغلات كذا، ومن الأقصاب كذا، ومن الأصناف كذا، ومن الكُراع كذا؛ يفصِّل ذلك بسنيه، ثم يأخذ في تفصيل كلِّ مال بجهاته، فيبدأ بمال الهلاليّ، يَذكُر كلَّ جهة، وٱسمَ مستأجِرها أو ضامنها، وٱستقبالَ عَقدِ إجارته أو تقريرِه، ويوجِب عليه في الشهر وفي السنة، إلى أن يستوعب أبوابَ الهلاليّ، ويشطب في مسوّدته التي ينظمها لنفسه قُبَالَة كلِّ جهةٍ ما ٱستخرجه بمقتضى خَتَمات المستخرَج ليقوم له ميزانُ كلّ جهة في الباقي والفائض؛ ولا يلزمه هذا العملُ في ٱلحساب المرفوع منه؛ فإذا ٱنتهت أبواب الهلاليّ ذكر الجَوالِي وٱعتَمَد فيها كذلك؛ ثم يذكر الخراجيّ، ويفصّله بأقلامه وجهاته مستقصًى واضحًا جليًّا، ويَعتمِد من الشطب قُبالةَ كلِّ جهةٍ ما تقدّم شرحُه؛ فإذا تحرّرتْ له جهاتُ الأصول قال: وأضيف إلى ذلك ما وجبت إضافته؛ ويعقِد على المضاف جملة، ويذكر أبوابه يبدأ فيها بالحاصل والباقي المُساقَيْن آخِرَ العمل الذي قَبْله، ويعقِد عليهما جملة، ثم يقول: الحاصلُ كذا، والباقي كذا؛ ويفصِّل ما أمكن تفصيلُه من الحاصل بسنيه ويفصِّل الباقيَ بجهاته وأسماءِ أربابِه وسنيه وأسماءِ مباشريه إن أمكن، ويشطب في مسوَّدته قُبالةَ كلِّ ٱسم ما لعلّه ٱستخرجه من عرض ما هو عليه كما تقدّم؛ ثم يذكر جهاتِ مضافِ السنة الحاضرة، يبدأ بما هو مستقرّ من الأموال التي تَرِد في جهات المضاف، ويشطب قُبالةَ كلّ ٱسم ما تقدّم بيانه؛ ثم يذكر بعد ذلك ما لعلّه وَصلَ إليه أو ٱعتَدّ به: من الأموال والغلال على ٱختلافها، وأثمانِ المبيعات والمواريثِ[1] الحَشْرِيّة والمجتذَباتِ والجناياتِ والتأديباتِ والقروضِ والأصنافِ المبتاعة، يستقصِي أبوابَ المضاف على حسب ما ورد عنده منها في طول السنة بمقتضى ما ورد في الشواهد التي ذكرناها بحيث لا يخلّ منها بشيء.

ومن أبواب المضاف ما يضاف بالقلم ـ ولا أصل له، بل يكمّله الكاتب على نفسه في حسابه لينطرد نظيرُه إلى الباقي، ويقومَ به الميزان، وهو نظير التقاوي[2] والقروض؛ وكُتّاب الشأم يفعلون ذلك دون كُتّاب الديار المصريّة، وهم على الصواب في إيراده، لأن الكاتب إذا أوردَ نظيرَ التقاوي والقروض ٱنطرد له إلى الباقي نظيرُ ذلك، وصحّ ميزان العمل، فإنه لا يمكن أن ينطرد إلى الباقي إلا بإضافة نظيره، فإذا

(١) المواريث: هي مال من يموت وليس له وارث خاص.

(٢) التقاوي: ما يعزل من الحبوب لأجل البذر.

انطرد إلى الباقي وجب إيراده في المضاف في السنة الثانية وما بعدها إلى أن يُستخرَج ويحصَّل؛ وكُتّاب مصر يقتصرون في ذلك على أعمال التقاوي والقروض؛ والتحريرُ ما يورد كُتّابُ الشأم في ذلك.

ومن وجوه المضاف الغريبةِ: ٱلمستعادُ نظيرَ المُعاد، مثال ذلك أن يكون المباشر أحال ربَّ ٱستحقاقٍ على ضامنِ جهةٍ بمبلغٍ بمقتضى وُصولِ أجراه وٱعتَدّ به لضامن تلك ٱلجهة، واعتَدَّ على ربّ الاستحقاق بمبلغه، وقَطَع الباقيَ والمتأخِّرَ بعده، وصدر حسابه بذلك، فأعِيدَ عليه وُصولُه في أثناء السنة الثانية فمِثلُ هذا تجب إضافتُه وإضافةُ نظيرِه، فيكون خصمُ إضافته الأولى المُعادَ على الضامن، وخصمُ الثانية الباقيَ المُساق، ويكمّل لربّ الاستحقاق نظير ذلك المبلغ في محاسبته ـ على ما يأتي بيانه في المحاسبات؛ فإذا ٱستوعب ما ورد عنده من أبواب المضاف فَذْلَك على ذلك فيقول: فَذْلك الأصل وما أُضيفَ إليه؛ ويَعقِد على الفذلكة جملةً، ومعناها أن يضمّ ما عَقَد عليه الجملةَ في صدر الارتفاع إلى ما عَقَد عليه جملةَ المصاريف، فتشتمل الفذلَكة على الجملتين، ويفصِّل ذلك عينًا وغلة وأصنافًا وكُراعًا على ما تَقدّم، ويفصِّل ما هو متميّز بسنيه؛ وما لم يتميّز كالحواصل من العين والكُراع وغيرِ ذلك يقول فيه: ما لم يتميّز بسنة؛ ويشرحه؛ ثم يذكر الأبواب التي تَرِد بين الفذلكة وٱستقرارِ الجملة على ٱختلافها بحَسَب ما وقع عنده منها، يبدأ بالصرف من نَقْدٍ إلى نَقْد، والمبدَّلِ من صنفٍ إلى صنف، والمنتقِلِ من سنة إلى سنة، ومن كيلٍ إلى كيل ومن وزنٍ إلى وزن، ومن عَدَدٍ إلى وزن، ومن وزنٍ إلى عَدَد، ومن صفةٍ إلى صفة وما وقع من مَبيع ومُثمَّنٍ ونافقٍ[1] ومستهلَك، وغير ذلك؛ وقد جَمعَ بعض فضلاء الكُتّاب جميعَ ذلك وٱختصره في لفظتين فقال: هو عبارة عن منقول ومعدوم؛ وإذا نظرت إلى حقيقة هاتين اللفظتين وجدت جميع هذه الأبواب وإن كثرت مندرجة فيها، كما أن جميع الكلام لا يتعدّى أن يكون ٱسمًا أو فعلًا أو حرفًا؛ فإذا ٱنتهت هذه الأبواب قال: واستقرّت الجملة بعد ذلك على. . . ويذكر ما ٱستقرّت عليه ٱلجملة بمقتضى قيام ميزانه، ويفصّله بسنيه، ثم يقول: ٱستُخرِج من ذلك وتحَصَّل. . . ويذكر المستخرَج بمقتضى الخِتَم، فيشرح ما ٱستقرّت عليه جملةُ الخَتْمة الأولى، وما ٱشتملتْ عليه فذلكتُها بعد وضع ٱلحاصل من الجهة الثانية وما بعدها لئلا يتكرّر عليه؛ ويحصِّل بمقتضى الأعمال والتَّوالِي

(١) النافق: ما يموت من الماشية.

والسِّياقات على هذا الحكم؛ ويفصِّل ٱلمستخرَجَ والمتحصّل بسنيه، ثم يخصم ما ٱستخرجه وحصّله، فيبدأ في الخصم بالحَمْل من الأموال، والحمولِ من الغلال والأصناف، والمُساقِ من الكُراع؛ ويتلوه ما لعلّه نَقَلَه على معاملة أخرى مفصَّلًا بأبوابه ومعقودِ ٱلجملة على كل باب فيها؛ فإذا تكامل له الخصم في العين والغلّة والمواشي والأصناف ساق ما تأخّر من جملة ما ٱستخرجه وحصّله إلى حاصل، ويفصّله بالعينِ والغلّةِ والصنفِ وغيرِه، فيكون ما حمله ونَقَلَه وصَرَفَه وساقه إلى الحاصل خَصْمَ ما ٱستخرجه وحصّله؛ ثم يذكر بعد سياقة الحاصل ما لعلّه ورد عنده من المحسوب على ٱختلافه: من عُطْلة، ويذكر أسبابها، وما لعلّه ثبت من الجوائح الأرضيّة والسمائية بمقتضى المحَاضر الشرعيّة إذا بَرَزت المراسيمُ بالحَمْل على حكمها؛ فيذكر كلَّ جهة وٱسمَ مستأجِرها أو ضامنها، وتاريخَ مَحضَر الجائحة، وتاريخَ ٱلمرسوم بحمل الأمر على حكمه، وجملةَ ٱلمبلغ المتروكِ بسبب ذلك، وما لعلّه سومح به من البواقي المُساقة، وغير ذلك ممّا هو داخل في باب المحسوب؛ وسائرُ المسامحات تَرِد بعد سياقة الحاصل، وتَرِد في أماكن نذكرها بعد إن شاء الله تعالى؛ فإذا ٱستوعب الكاتب جملة ما عنده من المحسوب في بابه قال بعد ذلك: فتلك جملةُ ٱلمستخرَج والمتحصّل والمحسوب؛ ويعقِد عليه جملة يفصّلها بسنيها وأقلامها؛ ويسمّون هذه الفذلكةَ فذلكةَ الواصل؛ وما بقيَ بعد ذلك مما ٱستقرّت عليه ٱلجملةُ بعد هذه الفذلكة تعيّنتْ سياقتُه إلى الباقي والموقوف، فيطرده باقيًا وموقوفًا، أو باقيًا بغير موقوف، معوقدَ ٱلجملة، مفصَّلًا بالسنينَ والجهات والأسماء والمباشرات، ويميِّز ما يُرجَى ٱستخلاصُه وتحصيلُه منه وما لا يرجَى؛ وما ٱنعقد عليه الباقي والموقوفُ وٱستملتْ عليه فذلكةُ الواصل هو خَصْمُ ما ٱستقرّت عليه جملة الارتفاع.

وأما الحواصل المعدومة المُساقة بالأقلام ـ ولا حقيقة لوجودها، وإنما يُورِدُها الكُتّابُ حفظًا لذكرها، كالحواصل ٱلمسروقة وٱلمنهوبة ـ فإنه إذا رُسِم بالمسامحة بها فقد اختلفت آراء الكُتّاب في إيرادها على وجوه كثيرة: منها ما يَسُوغ، ومنها ما لا يجوز فعله، ونحن نذكر أقوالَهم وطرقَهم في ذلك. ونوضح ما يجوز منها وما لا يجوز، ونذكر ما ينبغي أن يُسْلَك فيها: فمن الكُتّاب من يرى أن ينقُل هذا الحاصلَ بين الفذلكة واستقرارِ ٱلجملة من الحاصل إلى الباقي، ولا يورده في باب ٱلمستخرَج، ويطرده إلى الباقي، ويورده في باب المسموح بعد سياقته الحاصلَ؛ وهذا لا يجوز، وفي إيراده على هذا الوجه غلطٌ وسوءُ صناعة، لأن ٱلحاصل لا يجوز نقله إلى

الباقي، والباقي أيضًا، فلا بدّ أن يكون بٱسم إنسان أو أُناس، فإن ساقه باقيًا باسم مباشرِه فقد أتى بغير الواقع، وعَرّض المباشرَ إلى الغرامة، ولا يفيده، إذ مرسومُ المسامحة يتضمّن المسامحةَ بحاصل معدوم، وقد ٱنتقل هذا من تسمية الحاصل إلى الباقي.

ومن الكُتّاب من يرى ٱستثناءه من جملة ٱلمستخرَج، ثم يورده أيضًا في باب المسموح؛ وفي هذا أيضًا ما فيه مِن نقلِه من الحاصل إلى غيره تسميةً، فإنه لا عِبرة عند ذلك بتسميته ولا بنسبته إلى الباقي والموقوف؛ وإن نُقِلَ فلا يجوز، لأن الحواصل لا يجوز نقلُها إلى تسمية أخرى ألبتّة؛ فهذه الوجوه لا تجوز في صناعة الكتابة.

وأما الذي يجوز في هذا فوجوه[1]: منها أن يكمّله الكاتب في باب المستخرَج من ذلك، ويخصمَ إلى نهاية المصروف، ويقولَ قبل سياقه الحاصل: ما نُقِل رُسِم بالمسامحة به عن الحاصل المعدومِ المُساقِ بالقلم حفظًا لذكره، بمقتضى مرسوم تاريخُه كذا؛ ويشرح مقاصدَ المرسوم، وسببَ عدمِ الحاصل، وجملتَه؛ ويَكتفِي بذلك عن إيراده في باب المسموح؛ ويَعقِد جملةَ الخصم على الحَمل والمصروفِ والمسموحِ به.

ومنها أنه إذا ساق الحاصلَ بعد الحَمْل والمصروف يقول: من جملة كذا بعد مَأمَنه ما سومح به عن الحاصل المعدومِ والمُساقِ بالقلم؛ ويَشرح ما تقدّم، ويبرز بالحاصل بعد ذلك.

ومنها أن يستثنيَه عند ذكر المضاف، فيقول عند إضافة الحاصل ما صورتُه: الحاصلُ المُساقُ إلى آخر السنة الحاليّة من جملة كذا بعد مَأمَنه ما عُدِم في تاريخ كذا ووَرَد في سياقات الحاصل حفظًا لذكرِه، ورُسم بالمسامحة به بمقتضى مرسومِ شريفٍ تاريخُه كذا؛ ويعيِّن جملةَ المسموح به، وهي جملةُ المعدوم، ويبرز بما بقي، ويستثنيه أيضًا من المستخرَج عندما يَستشهِد بالخِتَم والتَّوالي والأعمال.

فهذه صورة نَظْم الارتفاع وشواهدِه التي قدّمناها قَبله؛ والارتفاعُ هو جُلُّ العمل، وقاعدةُ الكتابة، والجامعُ لسائر ما يَرِد في ٱلمعاملة.

---

(١) الوجوه: مفردها «الوجه» وهو: الجهة، أو القصد والنيّة في الاستعمال.

وإن انفصل الكاتب أثناء السنة لزمه أن ينظِم لما مضى من السنة في مباشرته حسابًا يسمّونه بالشأم الملخَّصَ، وبمصر التاليَ، وهو نظيرُ الارتفاع في نَظْمه، إلا أنه يكون لما دون السنة، والملخَّصُ عند المصريّين هو الارتفاع، ويَلزَم الكاتبَ المباشرَ بعده عملُ ملخَّصٍ أو تالٍ يتلوه لما بقيَ من المدّة، ثم يعمل جامعةً على الملخَّصَين أو التاليَين، وهما شاهداها؛ ويستغني الكاتبُ في إيراد ٱلمستخرَج والمتحصِّل والمصروفِ عن الاستشهاد بالخِتَم والتَّوالي والأعمال، ويَستشهِد بهذين الملخَّصين فيقول: ما تضمّنه ملخَّصُ مدّة كذا وكذا [كذا][1] وما تضمّنه ملخَّصُ مدّة كذا وكذا كذا؛ وقد تكون الملخصات أكثرَ من اثنين بحسب الاستبدال بالأعمال[2].

ومما يَلزَم الكاتبَ رفعُه المحاسَبات ـ وتختلف:

فمنها محاسبة أرباب النقود الجيشيّة والمَكيلات والجامِكِيّات[3] وٱلجرايات، وأربابِ الوظائِف والرواتبِ والصِّلات عما هو مستقرّ مشاهرةً أو مسانهة؛ وهذه المحاسبة تنظم من ٱلجريدة المبسوطة على أسمائهم، المشتملةِ على كميّة ٱستحقاقاتهم، المشطوبة بقُبوضهم؛ وصورةُ عملِها أن يقول الكاتب: محاسَبةٌ لأرباب النقد والمَكِيل والقرارات[4] والجامِكِيّات[3] والرواتبِ والصِّلات بالمعاملة الفلانيّة لاستقبال مدّة كذا، وإلى آخر كذا؛ ويَعقِد جملَة صدرها على ما يُستحَقّ لهم في تلك المدّة المعيَّنة من عينٍ وغلّة وأصناف، ويضيف إلى تلك الجملة ما تأخّر لهم إلى آخر المدّة التي قبلها، ويفذلك على ذلك، ويُقبِضهم ما صَرَفه لهم بمقتضى خِتَم المدّة وأعمالِها وتَواليها، ويعتدّ عليهم بما لعلّه ٱنساق فائضًا على مَنْ قَبضَ منهم زيادةً على ٱستحقاقه في المدّة التي قبلها، ثم يطرد ما انساق لهم إلى متأخّر، وما ٱنساق عليهم إلى فائض، ثم يفصِّل ذلك بالأسماء، فيضع الاسمَ ويذكره وٱستحقاقَه في الشهر وعن المدّة، ويضيف إليه ما لعلّه تأخّر له إن كان، ويفذلِك عليه، ويخصم بقبضه، ويسوق إلى متأخّرٍ إن بقِيَ له، أو فائضٍ إن زاد قبضُه على استحقاقه؛ ومن كان منهم قد تعجَّل قَبلَ تلك المدّة زيادةً على ٱستحقاقه استُحِقّ له ما وجب له في المدّة، واعتدّ

(١) ما بين قوسين لم يرد في الأصل والسّياق يقتضي إثباتها، تبعًا لما يلي من سياقٍ يؤيّد ذلك.

(٢) الظاهر أن الباء هنا «بالاستبدال» بمعنى في الظرفية أي بحسب استبدال العمال بعضهم ببعض في الأعمال.

(٣) القرارات: يريد بها الاستحقاقات.

(٤) الجامكيات: الرواتب والأجور، واحدها «جامكية».

عليه بما انساق فائضًا؛ وما لعلّه صرفه له في تلك المدّة يسوقه إلى متأخّر أو فائض، يفعل ذلك في جميع الأسماء.

وهذه المحاسبة إذا كان الكاتب مستمرَّ المباشرة عَمِلَها لسنة، وإن ٱنفصل قبل ٱستكمال السنة أو ٱقترحها مقترِحٌ عليه لزمه عملُها؛ والله أعلم.

ومنها محاسبات أرباب الأُجَر والاستعمالات[١]، ويعتمِد الكاتب فيها نظيرَ تلك، إلا أنه لا يُستحَقّ لكلّ نَفَرٍ إلّا بمقدار عملِه، ويضيف إليه ما لعلّه تأخّر له ويفذلِك عليه، ويخصمه بالقبض والاعتدادِ بالمُسْلَف إن كان؛ وهذه المحاسبة على منوال تلك، إلا أنها تُعمل بمفردها.

ومما يلزم الكاتبَ رفعُه ضريبةُ أصول الأموال ومضافاتِها عن كلّ سنة كاملة، يَذكرُ فيها كلَّ جهةٍ من جهات الهلاليّ، وٱسمَ مستأجِرِها أو ضامنِها، ومبلغَ إجارتها أو تقرير ضمانها مشاهرةً ومسانهة، واستقبالَ العقد، وتاريخَ الحجّة المكتَتَبةِ به، ويشطب قُبالتَها أسماءَ كُفلاءِ ضامنِ الجهة؛ ويذكرُ الجواليَ ويفصّلها بالأسماء والمِلل، ويفصِّل الخراجيَّ بجهاته وأقلامِه، والأحكارَ بأسماء أربابها؛ وإن كان بتلك المعاملة شيء من نواحي الخاصّ ذَكَرَ كلَّ ناحية، واسمَ رئيسها، وحدودَها وعدّةَ فُدُنِها الرومية[٢] والكادية[٣] والعاطلة، وأسماءَ من بها من الفلّاحين القَرارية[٤]، وما يُبذَرُه كلّ فدان من الشَّتْويّ والصيفيّ، ورَيْعه في الثلاث سنين المقبِلةِ[٥] والمتوسّطةِ والمجدبة، وشروطَ المقاسَمة، وما على كلِّ فدان من الحقوق والرسوم، وما بها من المطلَق، وما فيها من جهات العين وما عليها من الخِدم[٦] والضيافات، وغير ذلك من معالمها بحيث لا يخلّ بشيء من جميع أحوال القرية، بل يوضحها إيضاحًا شافيًا كافيًا حتى يَعلمَ الغائبُ عنها جليّةَ أمرها كالحاضر فيها.

---

(١) لعلّ صوابه «والعمالات» بضمّ العين كما يقتضيه عطفه على الأجر، والعُمالة: ما يأخذه العامل من الأجر على عمله.

(٢) الرومية: لم نجد لها معنًى يناسب السّياق، ولعلّه يريد الرّدميّة، أي الأرض التي فيها الرّدم، وهو تراب يكون من الطين الذي يأتي به النّيل عند فيضانه في كل سنة، وهو مخصّب للأرض ومصلح لزرعها واستعمال هذا اللفظ شائع بين العامة في مصر.

(٣) الكاديّة: الأرض التي يبطىء نباتها.

(٤) القرارية: أي المقيمون نسبة إلى القرار.

(٥) المراد بالسنة بالمقبلة: أي التي تقبل بالنبات أي تجيء به على أحسن وجه.

(٦) الخدم: هنا بمعنى الضّيافة.

فإذا تكامل ذكرُ جهات الأصل في هذه الضريبة ذَكَرَ جهاتِ المضاف الراتبة كالخِدَم وما يناسبها، وذَكَرَ في آخرها ما تتعيّن إضافتُه من المتوفّر من العين والغلّة على ٱختلاف ضرائبه؛ وهذه القواعد تكون في ضِياع الشأم.

ويلزمه رفعُ المؤامَرات - وتُسمّى ضرائبَ المستقرّ إطلاقُه - وهي تشتمل على أسماء من هو مرتَّبٌ على تلك المعاملة: من ربّ نقدٍ ومَكيلٍ ومقرَّرٍ وصدقة، يذكر ٱسمَ كلّ واحد وٱستحقاقَه مشاهرةً ومسانَهة، ويعقد على ذلك جملةً في صدر المؤامَرة مشاهرةً ومسانَهة؛ فإن كان في حصن ذكر في صدر الأوراق عدّةَ أرباب الاستحقاقات، ثم يفصّلهم بوظائفهم وأسمائهم من الخَرْجيّة[1] والأَقْجيّة[2] وغيرِهم.

ويلزمه رفعُ ضريبة ما يُستأَدى من ٱلحقوق، يذكر فيها ما يستأديه ضامنُ كلّ جهة من رسومها وحقوقها، وما لعلّه يُستأدَى بالدُّروب من الخَفْر[3]، وغير ذلك من سائر ما يُستأدَى من حقوق تلك المعاملة، وما لعلّه يُقتَطع من أرباب النقود والمَكِيلات وغيرِهم من الوفر والمقتطَع على ٱختلاف الضرائب، بحيث لا يخلّ بشيء منها، لتُعلَم بذلك أحوالُ تلك الجهة، فلا يمكن للضُّمّان أن يستأدوا زيادة على ذلك، لما فيه من تجديد الحوادث على الرعيّة.

ومما يلزمه رفعُه في كلّ سنة تقديرُ الارتفاع - وهو الارتفاع بعينه إلا أنه لا يضيف فيه حاصلًا ولا باقيًا، ولا يفصِّل فيه الجواليَ بالأسماء، بل يعقد الجملةَ في صدره على ما يُستحَقّ بتلك المعاملة من جهات الأصول والمضاف، ويخصم بالمرتَّب عليها عن سنة كاملة، ويسوقه إلى خالص أو فائض، ليَظهَر بذلك ميزانُ تلك الجهة.

هذا ما يَلزَم المباشرَ رفعُه مشاهرةً ومسانَهة.

ويلزمه في كل ثلاث سنين رفعُ الكشوف الجيشيّة، يذكر فيها أسماء النواحي العامرة[4] والغامرة[5]، والفُدُنَ الكادية والعاطلةَ وما تقدّم شرحه في الضريبة: مِن ذكرِ

---

(١) الخرجيّة: المستفاد من السياق هو أن المراد بهذه الكلمة الذين يقبضون استحقاقاتهم حنطة ولحمًا ونحو ذلك من المأكولات.

(٢) الأقجية: الذين يقبضون استحقاقاتهم نقودًا، وهو نسبة إلى الأقجة، لفظ تركي يراد به نوع من النقود. . .

(٣) الخفر: الحراسة.

(٤) العامرة: الأرض المعمورة.

(٥) الغامرة: الأرض الخراب.

البِذَار والرَّيعِ والشروطِ والمطلَقِ وغيرِه؛ ثم يذكر المتحصّل منها في ثلاث سنين لثلاث مُغَلّات، يعقد على ذلك جملة، ويفصّله بسنيه وأقلامه، ولا يخلّ بشيء مما بكلّ ناحية من الحقوق الديوانيّة والإقطاعيّة، ويعقد في صدر الكشف جملة على عدّة النواحي وعدّة الفُدُن، وجملة جهات العين والغلّة، مفصّلًا بالمعاملات؛ هذه هي الحسابات اللازمة.

وأما المقترَحات ـ فلا يمكن ضبطها، إلا أنه مهما اُقتُرِح مما يكون سائغَ الاقتراح مُمكَن العملِ لَزِمَ الكاتبَ عَمَلُه.

وحيث انتهينا إلى هذه الغاية فلنذكر أرباب الوظائف.

ذكر أرباب الوظائف وما يلزم كلًّا منهم مع حضور رفقته ومع غيبتهم وما يسترفعه كل مباشر عند مباشرته وما يلزمه عمله

أما المشدّ أو المتوليّ ـ فالذي يَحتاج إلى استرفاعه عند مباشرته ضرائبُ أصول الأموال والمرتَّبُ عليها ليَعلَم حالَ المعامَلة، وما بها من الخالص، أو عليها من الفائض؛ ويسترفع أوراقًا بالحاصلِ والباقي والفائِض والمتأخّر، ليَعلمَ أحوالَ الناس ومحاسباتهم، ويعلَم ممّن يَطلُب وإلى من يَصرِف.

والذي يلزمه عمارةُ البلاد، واُستجلابُ من نزح منها، وإقامةُ السطوة[1]، وإظهارِ المَهابة والحرمة، وتسهيلُ السُبل، وإقامةُ الخُفَراء عليها، وتشييدُ مَنار الشرع الشريف، والتسويةُ بين القويّ والضعيف.

ويلزمه استخراجُ الأموال من سائر جهاتِها ووجوهِها المستحَقّةِ[2] في مباشرته، والبواقي التي رُفِعتْ إليه بعد تحقيقها بحيث لا ينطرد إلى الباقي الدرهمْ الفرد؛ ومتى اُنساق في مباشرته شيءٌ لَزِمَه.

ويلزمه تقريرُ الجنايات والتأديبات على أرباب الجرائم لتنحسم بذلك مَوادُّ المفسدين.

(١) إقامة السّطوة: أي إحلال الأمان بين الناس وحفظ الأمن.

(٢) المستحقة: المراد بها هنا المطلوبة منها الحقوق، يقال: استحقّه: إذا طلب منه حقه. (اللسان، مادة حقق).

وأما الناظر على ذلك ـ فيحتاج عند مباشرته إلى ٱسترفاعِ ضرائبِ أصول الأموال ومضافاتِها، والمستأدَى من الحقوق، وضرائبَ بما ٱستقرّ إطلاقُه، وأوراق الحاصل والباقي، وأوراقِ الفائض والمتأخّر، وتقديرِ الارتفاع، والكشوفِ الجيشيّة، ويطالب بمخازيم المياوَمَة لاستقبال مباشَرته، والخِتَم والتَّوالِي عند مضيّ المدّة، والأعمالِ وسائرِ الحُسبانات المتقدّم ذكرُها في أوقاتها، وما لعلّه يقترحه مما يَسُوغ ٱقتراحُه ويمكن عملُه؛

والذي يلزمه الاجتهاد في عمارة نواحي ٱلخاصّ، وتمييز ٱلجهات ونموّها، والنظر في أحوال المعاملات، وإزاحةُ أعذارها، وتقرير قواعدها، وٱختبار من بها من المباشرين، والكشف عن أحوالهم، وكَتْبِ كلِّ واحد منهم بما يلزمه مباشرةً وعملًا، ويَتصفّح ما يَرِد عليه من الحُسبانات الصادرة عنهم؛ وينظرِ فيما يتجدّد من أحوال المعاملاتِ وما يطرأ من الحوادث على ٱختلافها مما لا يحصره ضبط، بل هو بحسَب ما يقع؛ وإنما جعلنا هذه الإشاراتِ أُنمُوذَجًا يُستدَلّ بها على ما بعدها؛

ويقيّد بخطّه الاستدعاءاتِ والإفراجاتِ والمراسيمَ والتواقيعَ وغيرَ ذلك مما جرت به العادة: من الكتابة بالمقابلةِ والثبوتِ والتَّمحِيَةِ والاعتماد وغيرِ ذلك.

وأما صاحب الديوان ـ فإنه يسترفع ما يسترفعه الناظر من المعالم خاصّة، وليس له أن يسترفع الارتفاعاتِ ولا شواهدَها؛ فإن ٱسترفعها لزمه من دَرَكها[١] ما يلزم المستوفِي[٢]؛ وهو يَكتُب على ما يكتب عليه الناظر[٣]، وله زيادةٌ على ذلك: وهي الترجمة على التذاكر والاستدعاءات، والكتابةُ على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند ٱستخدامهم، والكتابةُ على محرَّراتهم بالتخليد، والكتابةُ على تذاكر المخرَّج والمردود الصادرةِ عن مستوفِي العمل بأن يجيب المباشرون عنها بما يَسُوغ

(١) الدرك: التَّبعة.

(٢) المستوفي: هو الذي يضبط الديوان وينبّه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك. (صبح الأعشى، ٥/ ٤٣٧، ٤٣٨).

(٣) النّاظر: وهو من ينظر في الأموال وينفّذ تصرُّفاتها ويُرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمّله، فيُمضي ما يمضي، ويردّ ما يردّ. (صبح الأعشى، ٥/ ٤٣٧).

قبولُه، والكتابةُ بقبول الجواب عند عَوده إن كان سائغًا، والكتابةُ على الحساب الصادِرِ عن المباشِرين بتخليده في ديوان الاستيفاء بعد أن يتصفّحه وتَظهَرَ له سياقة أوضاعه؛ وكلُّ عمل لا يكون له صاحبُ ديوانٍ قام الناظر بهذه الوظيفة إلّا الكتابةَ بقبول الحساب.

وأما مقابِل الاستيفاء ـ وهو بمنزلة الشاهد في ديوان الأصول ـ فله أن يسترفع المعالِمَ لنفسه في كلّ سنة، ويسترفِعَ نتيجةَ الحُسبانات اللازمة التي تصدّر إلى الديوان العالي بالباب الشريف، ويضبِطَ مياومة المجلس، ويكتبَ على ما يكتب عليه المستوفِي، ويكتبَ على حُسبانات الواصلة من جهة المباشرين بتاريخ حضورها إلى الديوان قبل تخليدها[١] في ديوان الاستيفاء، ويَسُدَّ[٢] بقلمه تواريخَ التذاكر والمراسيم، ويتصفّحَ ما يصدر عن المستوفى من المخرَّج والمردود ويطالِب بحَمْل ما ثبت منه، ويطالِب أربابَ الخطوط والبُذول[٣] بما يُستحَقّ عليهم ويُنِيب[٤] شادَّ[٥] الدواوين عنه، ويكتُب في كلّ يوم بما يطالب به؛ وإذا لم يكن للديوان مقابل قام المستوفى بوظيفته.

وأما المستوفِي ـ فله أن يسترفعَ سائرَ الحُسبانات اللازمة، وما تدعو إليه حاجته من المقترَحات في المُدد الماضية والحاضرة ممّا يمكن عمله، فإذا صار الحساب إليه مشمولًا بخطّ صاحب الديوان بتخليده ومؤرَّخا حضورُه بخطّ المقابِل تصفَّحَه وٱستَوفَى تفاصيلَه على جُمَلِه أصلًا وخصمًا[٦]، وشَطَبَ ما يحتاج إلى شطبه ـ كلَّ عملٍ على شواهده ـ وخرَّج ورَدّ ما يتعيّن تخريجُه وردُّه، وكتب بذلك مطالَعةً تُعرَض على

(١) تخليدها: تسجيلها.
(٢) يسدّ: لعلّها بمعنى يؤكّد ويعاين.
(٣) أرباب الخطوط والبذول: لعلّ المراد بهم الذين يكتب لهم من السلطان ببذل شيء من الإقطاعات ونحوها.
(٤) ينيب: يقيمه مقامه.
(٥) شادّ الدواوين: هو شخص يكون رفيقًا للوزير متحدّثًا في استخلاص الأموال وما في معنى ذلك أو العادة أن يكون أمير عشرة. (انظر صبح الأعشى ٤/ ٢٣).
(٦) الخصم: «في علم الحساب» الحطيطة، وهي ما يحط من جملة الحساب فينقص منه.

المقابِل، فإذا وافقه عليها عُرِضت على صاحب الديوان وكَتَب بالإجابة عنها، ثم يطالِب المباشَر بالإجابة عمّا تجب الإجابة عنه، وإضافة ما تجب إضافتُه [إلى][1] حساب المدّة التالية لتلك المدّة، وحَمْلِ ما يجب حملُه؛ وتكون إضافتُه في الحساب منسوبةً إلى قلم مستدرَكِهِ؛ فإن أَخَّر استيفاءَ الحُسبانات وشطْبَها وتخريجَ ما يَلُوح فيها ومضت عليها مدّة يمكن فيها العملُ، كان ما يتعيّن فيها لازمًا له إذا عُنِّتَ[2]، وإلا فتلزمه إعادةُ ما تَناوَله من الجامِكِيّة[3] عن تلك المدّة، ويطالَب مَن صدر عنه الحسابُ بما يلزمه.

ويتعيّن على المستوفي أنه إذا رُفِع إليه حسابُ معاملة تأمّل[4] خطوطَ المباشرين على عاداتهم، [و][5]نظر فيه بعد ذلك، فإن تغيّرت عن العادة، فإن كان بزيادة تأكيد فلا بأس، وإن كان بإخلال مثلَ أن يكتُب الشاهدُ على الحساب بالمقابلة، وعادتُه أن يكتُب: «الأمرُ على ما شُرِح» يَلزمه الكشفُ عن موجِب ذلك.

ويَلزَم المستوفِي ضبطُ مياوَمة المَجلس، وكتابةُ الكشوف بخطّه والتذاكر ونُسَخِ المحرَّرات، وتعيينُ الجهات لأربابها بعد كتابة الناظر بتعيين الجهة، وعليه نَظْمُ جوامع التقدير بعد عمل موازينها وتحريرها وشطْبها على التقادير الصادرة عن المباشرين وجوامعِ الحواصل: من العَين[6] والغلالِ والكُراع[7] والأصناف المعدودة والموزونة والمذروعة[8] والسلاح خاناه والعُدَدِ والآلات وغيرِ ذلك، يَسُدّ على ما أمكن سدُّه جملة، وما لا يمكن نَثْرَه أقلامًا يستشهد فيها بما رُفِع إليه من جهة المباشرين؛ وكذلك يَعتمِد في جامعة البواقي، يَعقِد عليها جملة، ويفصّلها بمعاملاتِها وجهاتِها

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق.
(٢) عُنّت: بالبناء للمجهول: أي شدّد عليه وأريد به العنت وهو المشقة.
(٣) الجامكيّة: الرّاتب والأجر.
(٤) تأمّل خطوط المباشرين على عاداتهم: أي نظر فيها مطابقًا لها على عاداتهم في الكتابة حرصًا من التزوير.
(٥) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها، ونظر فيه: أي نظر في الحساب السابق ذكره.
(٦) العين: الأموال.
(٧) الكراع: الدّواب.
(٨) المذروعة أي المقيسة بالذراع.

وسنيها وأسماءِ مباشرِيها، وما يُرجَى منها وما لا يُرجَى بمقتضى أوراق المباشرين؛ وكذلك يَعتمِد في جامعة الفائض والمتأخّر وغيرِ ذلك من الجوامع.

وعليه عملُ ما يُطلَب من الأبواب من المقترَحات والمطاوَلات.

ويَلزمه عملُ المقايَسات وفوائدِ المتأخّر، وغير ذلك من لوازم قلمِ الاستيفاء؛ ويَلزَمه محاسباتُ أرباب النَّقْدِ والكيلِ المرتّبين على ما تَعيَّن بقلم الاستيفاء، فيحاسبهم على ٱستحقاقاتهم، ويَعتدّ عليهم بما ثبت مما عيّنه لهم بقلمه.

ويلزَمه التنبيهُ على خوالص المعامَلات وطلبها: حَمْلًا إلى بيت المال، أو حَوالةً على ما يعيّنه بقلمه.

ويلزمه تخريجِ تَفاوُت[1] المُدد[2] والمحلولات[3] وغيرِ ذلك.

ويلزمه التفريغُ[4] بما يصل إليه من الحَوْطات[5] الجيشيّة لِوقتِه على ما جرت به العادة.

ووظيفة الاستيفاء كبيرة، كثيرةُ الأعمال، لا تنحصر لوازمها في كتاب، وإنما هي بحسب الوقائع.

فإذا ٱنفصل المستوفى من المباشرة فليس له أن يأخذ ورقةً من حسابه الذي ٱسترفعه أو وضعه بقلمه، ويتلقّاه المباشرُ بعده.

وأما المُشارِف ـ فله أن يسترفع عند مباشرته مَعالمَ الجهة ليستعين بها على

(١) تفاوت المدد: أي ما توفر من الأموال عمّا فات من المدد.

(٢) المُدد: مفردها المدة، وهي مقدار من الزّمان يقع على القليل والكثير.

(٣) المحلولات: المراد بها الاقطاعات التي انحلت عن أصحابها ولم تقطع الآخرين.

(٤) لعلّ صوابه «التعريف».

(٥) الحوطات: مفردها الحوطة، وهي الاحتياط، ولعلّ المراد هنا الحوط، وهو ما تكمّل به الدّراهم إذا أنقصت في الفرائض أو نحوها. . .

المباشرة: من ضرائبَ وتقاديرَ[١] وحاصلٍ وباقٍ وفائضٍ ومتأخّرٍ وغيرِ ذلك؛ وهو مطلوب بتحقيق الحواصل، وله الخَتْمُ عليها؛ وهو مطلوب بنَظْم سائر الحُسبانات اللازمة والمقتَرحة إن تَسحّب[٢] العامل أو مات، ومع وجود العامل إن كان قد ٱلتَزَم عند مباشرته العملَ؛ وتلزمه المقابَلةُ مع العامل على الحساب الصادر عنهما، وسِياقةُ التعليق معه، والكتابةُ على الوُصولات والحُسبانات؛ وهو مطلوب بجميع ما يُطلَب به العاملُ من المخرَّج وغيرِه.

وأما الشاهد[٣] ـ فيلزمه ضبطُ تعليق المياوَمة، والكتابةُ على الوُصولات والحُسبانات؛ ومتى فُقِدَ العاملُ والمُشارِفُ لَزِمه رفعُ ٱلحساب اللازم دون المقترَحات؛ ولا بدّ له من جريدة مبسوطة على الأصل والخصم.

وأما العامل[٤] ـ فقد قدّمنا ذكرَ ما يحتاج إليه كلُّ مباشر مِن ضبطِ تعليق المياوَمة وبسْطِ الجريدة وخدمتِها في الأصل والخصم أوّلًا فأوّلًا، والتيقُّظِ لذلك وأنّ من أهمله فقد قصّر في مباشرته وأخَلّ بوظيفته؛ والعاملُ أَحْرَى بجميع ذلك ممن سواه من سائر المستخدَمين، لما هو مطلوب به من نَظْمِ الحُسبانات ومَوقِعِه مِن عملِ المقترَحات والأجوبةِ عن المخرج والمردود، وأنه هو الملتزِمُ لذلك دون غيره وأنه لا يَلزم من سواه شيءٌ من الأعمال مع وجوده.

وقد ذكرنا تلخيصَ قواعد هذه الكتابة والمباشِرين وأوضاعِهم ولوازمِهم والأوضاع الحسابيّة وغير ذلك من مَعالم المباشَرات، مجمَلًا غيرَ مفصَّل، وبعضًا من كلّ، وقليلًا من كثير، إذ لو ٱستقصينا ذلك لطال ولتَعَذَّر لاختلاف المباشَرات والوقائع والأوضاع والآراء؛ ولقد حصل الاجتماعُ لجماعة من مشايخ أهلِ هذه الصناعة ممّن ٱتّخذها حرفة من مبادىء عمره إلى أن طَعَنَ في سنّه[٥]، وما منهم إلا من يُخبِر أنه يَستجِدّ له في كلّ وقت من أحوال المباشَرات ما لم يسمع به قبل، ولا طرأ له[٦] فيما

(١) التقادير: يريد هنا تقادير الارتفاعات. (تقدّم الكلام عنه في هذا الباب).
(٢) تسحّب: هرب.
(٣) الشاهد: هو الذي يشهد بمتعلّقات الديوان نفيًا وإثباتًا. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٧).
(٤) العامل: هو الذي ينظم الحسابات ويكتبها. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٨).
(٥) طعن في سنه: تقدّم به العمر وشاخ.
(٦) طرأ له: في كتب اللغة «طرأ عليه، ولعلّه: طرأ بمعنى وقع فعدّاه بـ «اللّام» مكان «على».

سلف من عمره؛ فكيف يمكن حصرُ ما هو بهذه السبيل؟! وفيما نبّهنا عليه مَقْنَعٌ لطالب هذه الصناعة، والعمدةُ فيها على الدُّرْبة والمباشرة، وقد قيل:

ولا بدّ من شيخ يريك شخوصَها إلّا فَنَصُّ العلم عندك ضائعُ[1]

كمل الجزء الثامن من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري
ـ رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء التاسع وأوّله:
ذكر كتابة الحكم والشروط

(١) يريك شخوصها: طلوعها، وشخص النجم: طلع.



المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم**.

٢ - **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين.

٣ - **أساس البلاغة**، للزمخشري.

٤ - **الأغاني**، للأصفهاني، ط. بولاق.

٥ - **الأمالي**، لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية.

٦ - **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، للقفطي، ط. أوروبا.

٧ - **الأحكام السلطانية**، للماوردي، ط. المنيا، مصر.

٨ - **أعجام الأعلام**، لمحمود مصطفى، دار الكتب العلمية.

٩ - **تاج العروس**، للزبيدي.

١٠ - **تاريخ أبي الفداء**، للملك المؤيد. ط. القسطنطينية.

١١ - **تاريخ ابن الأثير**، الكامل، ط. ليدن.

١٢ - **تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، ط. أوروبا.

١٣ - **الخراج**، ليحيىٰ بن آدم القرشي، المطبعة السلفية.

١٤ - **ديوان السموأل**، دار صادر.

١٥ - **ديوان امرىء القيس**، دار الكتب العلمية.

١٦ - **ديوان جرير**، دار الكتب العلمية.

١٧ - **ديوان المتنبي**، دار الكتب العلمية.

١٨ - **ديوان الخنساء**، دار صادر.

١٩ - **ديوان لبيد بن ربيعة**، دار صادر.

٢٠ - **ديوان النابغة الذبياني**، دار صادر.

٢١ - **ديوان طرفة بن العبد**، دار صادر.

٢٢ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمة**، دار صادر.

٢٣ ـ **ديوان أبي تمام**، دار صعب.

٢٤ ـ **ديوان الحماسة**، لأبي تمام، شرح التبريزي، دار القلم.

٢٥ ـ **زهر الآداب**، للحصري القيرواني، ط. الرحمانية.

٢٦ ـ **شرح القصائد المشهورات «المعلقات»**، لأبي جعفر النّحاس، دار الكتب العلمية.

٢٧ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.

٢٨ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

٢٩ ـ **صحيح البخاري**، ط. ليدن.

٣٠ ـ **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، ط. ليدن.

٣١ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، المطبعة الشرقية.

٣٢ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزأبادي.

٣٣ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

٣٤ ـ **مقدّمة ابن خلدون**، ط. بولاق.

٣٦ ـ **المنهل الصافي**، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية.

٣٧ ـ **المواعظ والأخبار في ذكر الخطط والآثار**، خطط المقريزي، ط. بولاق.

٣٨ ـ **المصباح المنير**، للفيومي.

٣٩ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٤٠ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ط. بولاق.

٤١ ـ **يتيمة الدّهر**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات